ein

دكتور قاسم عبده قاسم

في تاريخ
الأيوبيين والمماليك



في تاريخ

الأيوبيين والمماليك

تأليف

دكتور قاسم عبده قاسم

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب- جامعة الزقازيق

طبعة عام

١٤٣١ / ٢٠١٠م



عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المريوطية – الهرم – ج.م.ع تليفون وفاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
5, Maryoutia St ., Elharam - A.R.E. Tel : 3871693
E-mail : dar_Ein@hotmail.com
book ein @ yahoo.com
web site/ WWW.Dar -Ein.com الموقع الالكتروني

إهـــداء

إلى شهداء انتفاضة الأقصى ...

... فلا نامت أعين الجبناء

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخـــل

الحروب الصليبية وآثارها السياسية على المنطقة العربية- النظام الإقطاعى فى العالم العربى- نموذج الملك / الأمير المحارب - البيت الزنكى والصراع الإسلامى الصليبى- الصراع حول مصر بين المسلمين والصليبيين- نهاية الدولة الفاطمية .

كانت الحملات العسكرية ذات المزاعم الدينية التى وجهتها أوربا الكاثوليكية ضد المنطقة العربية ، والتى اشتهرت فى الأدبيات الأوربية منذ القرن الثالث عشر باسم الحملات الصليبية، حدثًا تاريخيًا فريداً ؛ سواء من حيث مداه الزمنى أو من حيث مجاله الجغرافى . وإذا كان بعض المؤرخين يرون فى العدوان الفرنجى الصليبى على المنطقة العربية تعبيراً عن التطورات التى ألمت بأوربا فى القرن الحادى عشر، فإنها كانت خطراً لم يسبق للمنطقة العربية، والعالم الإسلامى بأسره ، أن واجه خطراً فى حجمه وفى عدوانيته واستمراريته منذ انتشر الإسلام فى ربوع الدنيا. ولم تكن الحملات الأوربية الكاثوليكية مجرد عدوان طارئ على العالم العربى ، وإنما كانت مشروعًا استيطانيًا توسعيًا أرسى السابقة التاريخية لحركة الاستعمار الأوربى فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، والحركة الصهيونية الإمبريالية فى القرن العشرين .

وقد تركت الحروب الفرنجية الصليبية تراثًا من الفكر السياسى والمطامع التوسعية والأنماط الثقافية فى الغرب الأوربى والأمريكى ما زلنا نعانى آثاره السلبية حتى هذه اللحظة. ومن ناحية أخرى ، كانت لهذه الحروب آثارها الوبيلة التى استنفدت الطاقات الإبداعية فى الحضارة العربية الإسلامية، ووضعت العرب والمسلمين فى مأزق تاريخى ففضلوا الحرب على كل ما عداها من وجوه النشاط الإنسانى. فإذا ما انتهت هذه الحروب الظالمة وجدت المنطقة العربية نفسها فريسة لنوع من الحكم العسكرى الذى فشل فى الاستجابة للضرورات والمطالب المدنية؛ اقتصاديًا واجتماعيًا وثقافيًا .

وعلى الرغم من أن الظواهر السلبية للحروب الفرنجية الصليبية استغرقت زمنًا طويلاً ،

نسبيًا ، حتى تتجلى واضحة على سطح الحياة فى المنطقة العربية، فإن بذرتها الأولى قد غُرست فى التربة العربية حينما حتم الظرف التاريخى حشد كل طاقات المنطقة العربية ومواردها لصد العدوان والقضاء على الوجود الصليبى فى المنطقة العربية. ومثل هذه الظواهر، التى تؤدى إلى الإخفاق الحضارى، والتدهور الاجتماعى الاقتصادى ، والتراجع الثقافى، تأخذ شكل تيار هادئ بطئ ينخر فى الأساس الحضارى للأمة حتى يجعلها غير قادرة على ممارسة دورها الحضارى فى خدمة البشرية .

ذلك أن نهاية الحرب الفرنجية الصليبية على الأرض العربية ، باسترداد عكا وطرد الشراذم الصليبية سنة ١٢٩٠م، كانت إيذانًا ببدء مرحلة من التدهور البطئ لدولة سلاطين المماليك التى تجلى إخفاقها واضحًا بعد مائة سنة فقط من هذا التاريخ ، ثم سقطت هى وأملاكها ثمرة ناضجة فى أيدى العثمانيين بعد حوالى مائة سنة أخرى. وهكذا انتقل محور الفعل ومركز الدفع فى الحضارة الإسلامية من المنطقة العربية ، إلى الدولة العثمانية بجناحيها الآسيوى والأوربى. وتحولت المنطقة العربية إلى منطقة تابعة بعد أن كانت مركز الحضارة العربية الإسلامية .

كانت دولة سلاطين المماليك ، التى جسدت نهايتها السياسية نهاية دور المنطقة العربية فى الحضارة الإسلامية، استمراراً لدولة سلاطين الأيوبيين . ويشكل تاريخ الأيوبيين والمماليك وحدة تاريخية واحدة ؛ سواء من حيث أسباب الظهور التاريخى أو من ناحية أسباب السقوط. فقد كانت الدولة الأيوبية ، التى حكمت مصر والشام والعراق، وفرضت نفوذاً مباشراً أو غير مباشر على اليمن والحجاز وبقية المنطقة العربية ، تجسيداً للاستجابة السياسية العسكرية التى فرضتها الحروب الأوربية الصليبية طوال القرن الثانى عشر الميلادى. ومن ناحية أخرى فإن هذه الدولة لم تظهر فجأة من غياهب المجهول، وإنما حلت محل الدولة الزنكية التى قامت بالدور التمهيدى الرائع فى التصدى للخطر الصليبى. بيد أن الفارق بين الدولة الزنكية والدولة الأيوبية يتمثل فى حقيقة أن عماد الدين زنكى وابنه وخليفته نور الدين محمود لم يتمكنا من توحيد العالم العربى في مواجهة شاملة ضد الفرنج المستوطنين فى فلسطين وبلاد الشام على نحو ما فعل صلاح الدين الأيوبى. ولكن الدولتين تتشابهان من حيث أن خلفاء نور الدين محمود فشلوا فى مواصلة دوره التاريخى، فخسروا دولتهم لصالح صلاح الدين الأيوبى، كما أن خلفاء صلاح الدين اكتفوا برد الفعل وتركوا زمام المبادرة لعدوهم، فخسروا دولتهم لصالح مماليكهم الذين استحقوا مكانتهم فى التاريخ حين جعلوا مشروعهم الأساسى الدفاع عن المسلمين ضد العدوان الصليبى المستمر والعدوان المغولى الطارئ . ومن ناحية أخرى ، تتشابه

دولة سلاطين المماليك مع دولة سلاطين الأيوبيين فى أن كلاً منهما اكتسبت شرعيتها من تحمل مسئولية الدفاع عن الأرض والمقدسات فى المنطقة العربية، كما أن كلاً منهما كانت دولة عسكرية الطابع، إقطاعية البناء ، طبقية التوجه ..

وربما يكون مناسبًا أن نعرض لذلك بشئ من التفصيل .

* * *

الحرب ظاهرة بشرية قديمة قدم الإنسانية نفسها ؛ وربما كانت الحرب من أهم أسباب التطور التكنولوجى فى تاريخ الإنسانية . إذ إن الحرب تتطلب أدوات وأسلحة يمكن بها قهر «العدو» أو الخصم . وفى البدايات الباكرة من تاريخ البشرية تطورت أسلحة الحرب وأدواتها من الحجر إلى البرونز فالحديد. كذلك تطورت أساليب القتال من التلاحم والاقتتال الفردى، إلى القتال الجماعى، ثم إلى القتل الجماعى بتطوير أسلحة الدمار الشامل فى الحقبة الحديثة والمعاصرة .

ومن ناحية أخرى، سعى الإنسان إلى تبرير الحرب فى مصطلحات إيديولوجية تجعل من القتل الجماعى أمراً مشروعًا. ولأن الحرب تولد أولاً فى أذهان البشر، فإن الخطاب الإيديولوجى الذى يبرر الحرب تطور عبر عصور التاريخ البشرى. فمن حق الغزو والفتح فى العصور القديمة ، إلى تبرير الحرب فى مصطلحات دينية، ثم تبريرها فى مصطلحات عنصرية تتحدث عن رسالة الرجل الأبيض وعن تمدين الشعوب المختلفة ، صاغتها أوربا فى عصر الاستعمار لتبرير عدوانها وهيمنتها وها هى مصطلحات أخرى مضللة لتبرير الحرب تطل علينا فى الحقبة المعاصرة تتحدث عن السلام والنظام العالمى الجديد.

والسمة المشتركة فى هذا كله تتمثل فى أن الحرب ما تزال هى النشاط البشرى الأوسع نطاقًا حتى الآن. وعلى الرغم من الحديث الكثير عن السلام ، والتفاهم بين الشعوب وحوار الحضارات ، والاعتماد المتبادل بين البشر ، فإن الإنسانية لم تستطع حتى هذه اللحظة أن تزرع فى أذهان البشر مكانًا للسلام يساوى مكانة الحرب فى هذه الأذهان . وعلى الرغم من كل التبريرات الدينية والإيديولوجية التى صيغت فى كل العصور لتجعل من الحرب أمراً مشروعًا، فإن الحرب تظل فى حقيقتها قتلاً جماعيًا. وربما تنحصر مشروعية الحرب فى الدفاع عن الوطن والمقدسات والحق وكرامة الإنسان .

ولم تكن «الحروب الصليبية» التى شنها الغرب الكاثوليكى على المنطقة العربية فيما بين نهاية القرن الحادى عشر ونهاية القرن الثالث عشر الميلاديين استثناءً فى ذلك . فقد جرى

تبريرها فى مصطلحات دينية، واتخذت لنفسها شعاراً دينيًا هو الصليب. ولكن أحداثها ومجرياتها برهنت على أن علاقة هذه الحرب بالديانة المسيحية ورمزها الصليب كانت علاقة تنافر وتباعد ولم تكن أبداً علاقة قربى وتواصل ، لقد اجتهدت البابوية ودعاتها فى تعبئة الرأى العام فى أوربا العصور الوسطى لهذه الحرب ، ولم يتردد البابوات والدعاة الكنسيون فى التلويح بإغراءات المكاسب الدنيوية لتعبئة الجماهير ضد المسلمين. وهكذا ولدت الحرب فى أذهان الناس فى الغرب قبل أن يرى أى منهم مسلمًا واحداً على الطبيعة.

ومن ناحية أخرى، تكفلت الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المتردية فى أوربا بضمان استجابة الناس للخطاب العسكرى / الدينى للبابوية . وباتت أوربا تتحرق شوقًا للخروج من جلدها الضيق إلى رحابة العالم للوثوب على الأرض العربية من ناحية، ولخطف جزء من ثمار التجارة العالمية فى شرق المتوسط من ناحية ثانية ، ومحاولة التوسع للسيطرة على طرق التجارة والأسواق العالمية من ناحية ثالثة. ولم يكن من قبيل المصادفة أن كل طبقة فى المجتمعات الأوربية آنذاك قد خرجت فى هذه الحرب تبحث عن «هدف» يختلف عن أهداف الطبقات الأخرى؛ فالطبقة الأرستقراطية خرجت تبحث عن ممتلكات جديدة تحقق طموحاتها السياسية والاقطاعية ، أو تُعوِّض خسارتها فى الأرض والنفوذ السياسى فى مواطنها. كما أن الفلاحين خرجوا بأمل التحرر من عبودية الأرض وقنية الإقطاع وامتلاك أرض يصبحون هم السادة فيها. أما المدن التجارية الإيطالية والبورجوازية الأوربية الناشئة فقد سعت إلى الاستحواذ على تجارة شرق المتوسط أولاً، ثم محاولة احتكار التجارة العالمية بعد ذلك. ولم تكن البابوية بعيدة عن هذه الأطماع الدنيوية على الرغم من خطابها الدينى؛ إذ إنها كانت تسعى إلى تحقيق سيطرتها وسيادتها على العالم المسيحى بأسره ، كما كانت تسعى فى الوقت نفسه إلى تأكيد سموها على السلطة الإمبراطورية المنافسة لها فى أوربا .

ثم دارت عجلة الحرب، ووصلت شراذم حملات العامة إلى الأرض العربية فى أعالى بلاد الشام، وهلك معظم أفرادها حين قضت عليهم جيوش المسلمين فى أول صدام مع الصليبيين . ثم جاءت الحملة الصليبية الرئيسية المكونة من جيوش الأمراء، وبعد تقلبات وأحداث عديدة نجحت فى الاستيلاء على مدينة بيت المقدس العربية ذات يوم حار قائظ من صيف سنة ١٠٩٩م لتتوج بذلك نجاحها العسكرى وتقيم الكيان الصليبى على الأرض العربية على مدى ما يقرب من قرنين من الزمان .

كانت الصدمة الناجمة عن النجاح الصليبى قاسية ومؤلمة. إذ إنها كشفت عن مدى التشرذم

والفرقة السياسية فى العالم العربى من ناحية ، كما كشفت عن ضعف حكام المنطقة وتخاذلهم من ناحيـة أخرى. لقد كان الصراع بين حكام المنطقـة أقـوى فى تأثيـراته السلبيـة من كل اعتبارات الحضارة المشتركة والدين والمصير الواحد. ومن ثم لم يكن عجبًا أن فشل هؤلاء الحكام فى كل محاولاتهم المتهافتة للوقوف فى وجه المد الصليبى أو تكوين جبهة متحدة ضده. بيد أن الناس ، أصحاب المصلحة الحقيقيـة، كان لهم رأى آخر وموقف مختلف . ذلك أن حكايات الفظائع التى ارتكبها هؤلاء القادمون من الغرب الأوربى البعيد ضد الناس فى فلسطين، وموجات المهاجرين الفارين من وجه المذابح الصليبية الشهيرة، قد راجت فى الأوساط الشعبية بالمنطقة العربية لتخلق رأيًا عامًا غاضبًا وضاغطًا على الحكام. وخرج الجهاد من بطون الكتب ليصير حقيقة يومية فى حياة الناس الذين راعهم تخاذل الحكام فى مواجهة الغطرسة الصليبية والعدوان .

حقيقة أن الجهاد لم يتوقف يومًا ضد الغزاة ، ولكن عدم التنسيق والفرقة والتنافس بين الحكام لم ينتج سوى الفشل والإخفاق . وعلى مدى ما يقرب من نصف قرن أخذ الصليبيون فى التوسع على حساب المسلمين فى الأرض العربية وامتدت حدود الكيان الصليبى من الرها وأنطاكية فى الشمال إلى حدود مصر فى الجنوب، كما استولوا على معظم الساحل فى بلاد الشام. ومن عباءة الفشل السياسى والعسكرى للحكام برزت الاستجابة السياسية للحروب الصليبيـة فى شكل نمط جديد من أنماط الحكم يتبلور حول الأمير / المحارب ، أو الملك المحارب، الذى يقود بلاده فى ساحة الجهاد ، ويخرج على رأس جيوشه للقتال ضد الفرنج الغزاة.

وتوارت ، خجلاً أو عجزاً ، نظم الحكم السياسية التقليدية. فقد عجزت الخلافة العباسية ، التى يجلس على قمتها خليفة عاجز ليس له من الخلافة سوى الإسم الفارغ ، عن أن تفعل شيئا لحماية الناس والمقدسات . أما الخلافة الفاطمية فكانت أشبه بالرجل المريض على ضفاف النيل يجتر ذكريات ماضيه الحافل ولكنه غير قادر على أن يفعل شيئًا ليغير حاضره التعس ومصيره الحتمى . وكان طبيعيًا أن تفشل كل المحاولات الفاطمية اليائسة من ناحية ، كما كان طبيعيًا أن تفشل كل محاولات التحالف أو التنسيق مع حكام الشمال. وأثبت محور القاهرة / دمشق عجزه الكامل عن التصدى للعدو.

ومن ناحية أخرى، فإن الكيانات السياسية القزمية فى بلاد الشام كانت أصغر من أن تفعل

شيئا إذا أرادت . فقد كانت كل مدينة كبيرة ، أو ميناء ، تقريبًا فى بلاد الشام كيانًا سياسيًا منفصلاً كما كانت موزعة بين الشيعة والسنة من جهة، وبين ولاءاتها وانحيازاتها القبلية والعرقية من جهة أخرى. وفى غمار هذه الفوضى السياسية، والاخفاق العسكرى برز محور الموصل / حلب مبشراً باستجابة سياسية/ عسكرية إيجابية للتحدى الصليبى.

بدأت هذه الاستجابة على استحياء فى بيت أتابكة الموصل الذين أسسوا أسرة حاكمة قوية نجحت فى الاستجابة للتحدى الذى طرحته الحملات الصليبية على المنطقة العربية . وحينما وطد عماد الدين زنكى مركزه السياسى والعسكرى ، تجسد فيه وفى دولته نموذج الدولة العسكرية التى يقودها أمراء مقاتلون فى الجهاد ضد الصليبيين، ثم ما لبث أن ضم حلب إلى ممتلكاته سنة ٥٢٢هـ / ١١٢٧م بحيث قام فى الشمال ، ما بين أعالى العراق وأعالى الشام، محور جديد وفعال للعمل السياسى / العسكرى ضد الفرنج الصليبيين هو محور الموصل/ حلب . ومن هذا الموقع الجديد بدأت جيوش المسلمين تقطع الصلة بين إمارة الرها فى الشمال وغيرها من الإمارات التى شادها الصليبيون على الأرض العربية. وفى سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٧م ضم عماد الدين زنكى حمص إلى ممتلكاته وفى السنة التالية استولى على ديار بكر، وصار فى موقف سياسى وعسكرى يمكنه من بدء حرب الاسترداد الإسلامية ضد الفرنج الصليبيين من ناحية، وتدشين نموذج الملك / المقاتل من ناحية أخرى .

فى سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م تمكنت قوات عماد الدين زنكى من الاستيلاء على إمارة الرها الصليبية بعد حصار دام ثمانية وعشرين يومًا فقط. وكانت الرها أول إمارة صليبية تقوم على أرض المشرق العربى الإسلامى. وكان نجاح المسلمين بقيادة عماد الدين زنكى كسبًا كبيراً على المستوى العسكرى إذ أعاد لمنطقة وادى الفرات كلها طابعها الإسلامى الخالص ، وضمن للمسلمين السيطرة على طرق المواصلات التى تربط شمال الشام والعراق والجزيرة ببعضها .

كانت دولة عماد الدين زنكى التى ارتكزت على محور الموصل/ حلب هى السابقة التاريخية أو التجربة الأولى فى صياغة الدولة العسكرية الموحدة تحت راية ملك- محارب يقود جيشه بنفسه فى ميدان القتال. كما كانت هى البذرة التى نمت منها شجرة الدولة الأيوبية ودولة سلاطين المماليك فى نهاية الأمر.

وقد سار نور الدين محمود، ابن عماد الدين زنكى وخليفته ، على نفس النهج الذى سار عليه أبوه، وعزز توجهات دولته العسكرية الساعية إلى توحيد الجبهة العربية الإسلامية فى مواجهة الصليبيين . ثم نجح نور الدين محمود فى ضم دمشق إلى ممتلكاته سنة ٥٤٩هـ /

١١٥٤م) مكرسًا بذلك نموذج الدولة العسكرية التى باتت حقيقة تاريخية واقعة فى ظل قيادة صلاح الدين الأيوبى كما سنرى فى فصول هذا الكتاب .

لقد قامت دولة صلاح الدين الأيوبى على أساس أن الحرب ضرورة من ضرورات الوضع السياسى فى المنطقة العربية آنذاك . وكان مبرر قيام هذه الدولة هو دورها التاريخى فى تصفية العدوان والوجود الصليبى. وكان هذا الدور التاريخى هو الذى أكسبها الشرعية فى عيون رعاياها .

ومثلما ظهرت الدولة الأيوبية من طيات الصراع ضد الصليبيين فإن سقوطها جاء نتيجة لإخفاق الأيوبيين الأواخر فى توحيد الجهود لمواجهة الكيان الصليبى. وبرزت قوة بديلة أثبتت أنها أكثر قدرة على القيام بالدور التاريخى الذى كان مبرراً لقيام دولة الأيوبيين من قبل . وكان المماليك هم الذين جسدوا هذه القوة الجديدة ؛ ولأنهم نجحوا فيما فشل فيه الأيوبيون ، فقد أخذت دولتهم دور الدولة الأيوبية وحلت محلها . ومن المهم أن نلاحظ أن سقوط الدولة الأيوبية ، وقيام دولة سلاطين المماليك لم يغيرا من اتجاه حركة التاريخ فى المنطقة العربية. فالحقيقة أن الدولة الأخيرة كانت امتداداً بنيويًا للدولة الأولى ؛ من حيث بنائها السياسى وطبيعتها العسكرية، ودعائمها الاقتصادية / الاجتماعية ، فضلاً عن أنها ورثت عنها دورها السياسى/ العسكرى فى مواجهة الصليبيين.

ومن ناحية أخرى، كان هذا الدور التاريخى للدولة العسكرية يتطلب إعادة صياغة البنية السياسية والاقتصادية / الاجتماعية فى المنطقة العربية على أساس أن الحرب ضرورة دائمة من ضرورات الحياة فى ذلك العصر. وهو ما يعنى ضرورة إقامة نظام قادر على تعبئة الجيوش وتمويل عملياتها العسكرية بالشكل الذى يجعلها دائمة الاستعداد للقتال . وهكذا تمت صياغة واستكمال النظام الإقطاعى العسكرى الذى بلغ قمة تطوره فى العصر الأيوبى، ثم فى عصر سلاطين المماليك.

كان الأتراك السلاجقة هم أول من استبدل العطاء النقدى للجنود الإقطاع ، وذلك فى عهد الوزير السلجوقى «نظام الملك». إذ أدخل تعديلات جوهرية على أشكال الإقطاع التى كانت سائدة قبلهم ؛ فجعلوا الخدمة العسكرية مقابل الإقطاع الذى يجعل صاحب الإقطاع يملك الموارد الاقتصادية التى تمكنه من تجهيز عدد من الفرسان والجنود يتناسب مع رتبته العسكرية من ناحية، وحجم إقطاعه من ناحية أخرى. وعلى الرغم من أن هذا النظام كان يتيح جمع عدد من الجيوش الصغيرة فى ميدان المعركة بكفاءة واضحة؛ فإن أسلوب القيادة فيه كان يمثل نقطة

ضعف قاتلة. إذ إن الجيوش المركبة التى يقودها الأمراء أصحاب الإقطاعات كانت أشبه بنوع من التحالف بين كبار الأمراء ، ولم تكن تخضع لقيادة موحدة آمرة على الجميع . وهو ما كان يصيب هذه الجيوش، أحيانًا، بالشلل فى مواجهة الصليبيين؛ ويتمثل أوضح دليل على صحة هذا القول فى فشل الجيش السلجوقى المركب الذى قاده كربوقا ضد الفرنج المحصورين فى أنطاكية سنة ١٠٩٨م. فعلى الرغم من ضعف الصليبيين وتدهور أحوالهم وانعدام الأغذية والمؤن لديهم فإن الخلافات بين كربوقا والأمراء أدت إلى تخليهم عنه فى ساحة المعركة مما أدى إلى انتصار الصليبيين على العكس من كل التوقعات .

وقد عمل عماد الدين زنكى، ونور الدين محمود من بعده ، على تطوير نظام الإقطاع العسكرى، وإصلاح العيوب الكامنة فيه. إذ إن عماد الدين زنكى اعتمد على قوته العسكرية الخاصة التى يوفرها أتباعه من الأمراء، ومن ناحية أخرى، ربط الإقطاع بالخدمة العسكرية والولاء الشخصى له بحيث يمسك بزمام القيادة فى يديه. وبفضل هذا التطور المهم نجح فى معاركه العسكرية، كما نجح فى توجيه ضربة قاصمة للفرنج الصليبيين حينما استولى على الرها سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م. وفى عصر نور الدين محمود صارت الإقطاعات وراثية ، كما تم تنظيم الجيش بحيث كانت هناك سجلات توضح عدد الرجال. وكمية العتاد التى كان ينبغى على كل صاحب إقطاع أن يقدمها وقت الحاجة . ويبدو أن صلاح الدين الأيوبى قد سار على نهج نور الدين محمود، إذ إنه أبقى على الاقطاعات العسكرية الوراثية ، كما كان يمنح رواتب نقدية وعينية للأجناد والفرسان الصغار الذين لايأخذون إقطاعًا .

وعلى أساس هذا النظام الإقطاعى العسكرى، تمكن الزنكيون، ومن بعدهم الأيوبيون فالمماليك ، من إنجاز دورهم التاريخى فى التصدى للصليبيين وهزيمتهم ثم القضاء عليهم.

فقد كانت معركة الرها سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م إحدى ثمار هذا التنظيم كما أسلفنا القول. وكان سقوطها ضربة عنيفة وصدمة موجعة للصليبيين . كما رأى الصليبيون أن الجبهة الشمالية صارت مصدر قلق وخطر عظيم . وذهب وفد من الفرنج الشرقيين إلى بلاط البابا، وتبعهم وفد من الأرمن يطلبون عون البابوية وملوك الغرب الأوربى لتجريد حملة صليبية جديدة تُعيد الاستيلاء على الرها. وفيما بين سنة ١١٤٥-١١٤٩م جرت أحداث الحملة التى قادها كل من كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا. وكانت الهزيمة الفادحة التى ألحقها المسلمون بهذه الحملة دليلاً على أن مرحلة جديدة من المواجهة قد بدأت . ونجا الملك الفرنسى من القتل أو الأسر بأعجوبة بعد أن مزقت قوات المسلمين جيشه . وانتهت الحملة

الصليبية الثانية نهاية أشبه بنهايات المسرحيات الكوميدية . فقد انشغل الملك الفرنسى بالعلاقة الغرامية التى شاعت أخبارها بين زوجته وبين أحد ضباطه . ولكن أهم نتائجها تمثلت فى الحملة الفاشلة التى قادها لويس السابع ضد دمشق مما أدى إلى أن طلب أهلها من نور الدين محمود ضم دمشق إلى ممتلكاته ودخلها بالفعل سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م .

هكذا، تم توحيد الجبهة الشمالية ضد الصليبيين وصارت مركز ضغط شديد على الصليبيين فاتجهت الأنظار إلى مصر التى كانت فى أخطر مراحل ضعفها بسبب تدهور أحوالها الاقتصادية بفعل الأزمات والكوارث الاقتصادية المتوالية وتمكن منها الضعف السياسى بسبب تنازع الوزراء على السلطة وغياب الخلفاء الفاطميين العاجزين عن الساحة السياسية. وتسابق المسلمون والصليبيون على ضم مصر بمواردها الاقتصادية والبشرية الكبيرة لحسم الصراع بين الجانبين .

وفى غمرة هذا الصراع ظهر صلاح الدين الأيوبى، ضابطًا فى جيش نور الدين محمود برفقة عمه أسد الدين شيركوه ، ثم وزيراً للخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين، ثم استقل بحكم مصر وألغى الخلافة الفاطمية وأعلن تبعية مصر الإسمية للخلافة العباسية السنيّة ، وبدأت مرحلة جديدة وحاسمة فى النضال ضد الصليبيين، وهى القصة التى نرويها فى الفصل الأول من هذا الكتاب .

الفصـــل الأول

الناصر صلاح الدين الأيوبى

المسـرح السـيـاسى فى المنطقـة العـربيـة- أحـوال الدولة القـاطمـيـة- الصـراع على مـصـر بين نور الدين مـحـمـود والصليبـيين- صـلاح الدين الأيوبى: النشـأة- التطور السياسى- وزارة صلاح الدين- نهاية الخلافة الفاطمـيـة- صلاح الدين حـاكـمًـا على مـصـر- العلاقـة مع نور الدين والصليبيين- صلاح الدين حاكمًا على المنطقة العربية.

كان المسرح السيـاسى فى المنطقـة العربيـة قـبل ظهـور صلاح الدين ينطق بكل مـتناقـضـات المنطقـة السـيـاسـيـة التى أفـرزت الهـزيمة التى نتـج عنهـا قـيـام الكيـان الصليـبى فى قلب هذه المنطقـة. إذ إن نجـاح الحـملة الصليـبـيـة الأولى سنة ١٠٩٩م أدى إلى بروز حـقـائق سـيـاسـيـة وعـسكرية مؤلمة بالنسبة للمسلمين؛ فـعلى مدى نصف قـرن تقريبًـا من الزمـان استطاع الفرنج الصليبيون مد حدودهم إلى البحر المتوسط غربًا، وحدود مصر جنوبًا، والرها وأنطاكية شمالاً، وخليج العقبة على البحر الأحمر شرقًا [١].

وليس مـعنى هذا أن المسلمين فى المنطقـة العـربيـة قـد رضـخـوا للأمـر الواقع، أو أنهم قـد توقفوا عن المقاومة؛ فذلك أبعد ما يكون عن الحقـيقـة التاريخـيـة. ففى الشـمـال كـان الأتراك السـلاجقـة يواصلون هجمـاتهم العنيفـة على الفرنج الصليبيين، وتمكنوا من أسر بوهيـموند حـاكم

١- تمكن الفرنج من أخذ عكا سنة ١١٠٤م، وطرابلس سنة ١١٠٩م، ثم صيدا سنة ١١١١م وبذلك ملكوا السـاحل الفلسطينى والشامى كله باستثناء صور وعسقلان، مما جعل موازين القوى تختل لصالحهم بشدة - أنظر:

ابن القلانسى، ذيل تاريخ دمشق، ص١٤٣، ص١٤٤، ص١٦٣؛ ابن الأثير، الكامل فى التـاريخ، ج٨، ص٢٣٥، ص٢٥٨، ص٢٥٩، ص٢٦٠، أنظر أيضا:

H . E. Mayer , The Grusades (transl . by Gillingham, Oxford 1972), pp. 74-75 .

أنطاكية الصليبى ، كما أسروا بلدوين كونت الرها وأسروا جوسلين ، وأنزلوا عدة هزائم ثقيلة بالفرنج الصليبيين. وفى الجنوب كان المصريون يشنون هجماتهم على الصليبيين من قاعدتهم فى عسقلان على امتداد سنوات ١١٠١م، ١١٠٢م، ١١٠٥م . بيد أن عدم قدرة حكام المنطقة على تجاوز ميراث الشك والمرارة وعدم الثقة فيما بينهم ، جعل هذه الأعمال قليلة الجدوى. وتوقف المصريون بعد سنة ١١٠٥ عن شن أية هجمات خطيرة بسبب تدهور الأوضاع السياسية داخل مصر نفسها .

فقد كانت مصر غير قادرة على التخلص من الآثار السلبية المدمرة للكارثة الاقتصادية التى حَلّت بها طوال خمسينيات ومنتصف ستينيات القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى، والتى عرفت باسم «الشدة المستنصرية» نسبة إلى الخليفة المستنصر بالله الفاطمى الذى حدثت المجاعة والوباء فى عصره (٤٢٧-٤٨٧هـ / ١٠٣٥-١٠٩٤م) [٢]. ومنذ اغتيال الوزير الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الدين الجمالى سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م[٣] دخلت البلاد دوامة لانهائية من العنف والمؤامرات والدماء ، ولم يجلس على العرش حاكم قوى يمكنه إدارة شئون البلاد . وأخذت الأحوال السياسية تنزلق بسرعة صوب التدهور . وقد أدى هذا إلى إنعاش آمال الأعداء الذين كانوا يتوقون إلى الاستيلاء على مصر بمواردها البشرية وثرواتها لتكون سنداً لهم فى حسم الصراع . وفى سنة ١١٥٠م بدأ الملك الصليبى بلدوين الثالث يستعد للهجوم على مصر . وفى سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣ تمكن الفرنج الصليبيون من الاستيلاء على عسقلان التى كانت آخر المعاقل المصرية فى فلسطين . وذكر المقريزى أن الاضطرابات السياسية الداخلية فى الدولة الفاطمية كانت السبب المباشر فى سقوط عسقلان فى أيدى الصليبيين، وقد كان من عادة الفاطميين أن يغيروا الحامية فى هذا الثغر الهام كل ستة أشهر، ولكن الفتنة أوقفت ذلك « ... وبطل مسير العساكر إلى عسقلان فُسُرَّ الفرنج ما جرى، وكانوا

٢- ذكر المقريزى ما نصه «... فما زالت أمور الدولة تضطرب ، وأحوالها تختل ، ورسومها تتغير من سنة خمسين إلى سنة سبع وخمسين ، فابتدأت الشدة منها تتزايد إلى سنتى ستين وإحدى وستين ، فتفاقم الأمر، وعظم الخطب ، واشتد البلاء والكرب وما برح المصاب يعظم إلى سنة ست وستين، وكان أشدها مدة سبع سنين من سنة تسع وخمسين إلى سنة أربع وستين، أخصبت كل شر، وهلك فيها معظم أهل الإقليم...».

المقريزى، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، (تحقيق الدكتور محمد حلمى محمد أحمد) طبعة وزارة الثقافة ، القاهرة ١٩٩٩م، ج٢ ، ص٢٩٦-٣٠٦ .

٣- المقريزى، المصدر نفسه ، ج٣، ص٦٠ .

محاصرين لعسقلان ... حتى أخذها الفرنج وتقووا بأخذها... » وهكذا تم إخضاع الساحل الفلسطينى كله لسيطرة الصليبيين بعد نصف قرن من نجاح الحملة الصليبية الأولى. ومن ناحية أخرى ، كان هذا النصر الصليبى تعويضا للهزائم الصليبية التى ألحقتها بهم قوات نور الدين محمود فى الجبهة الشمالية (٤).

وعندما مات بلدوين الثالث فى ١٠ فبراير سنة ١١٦٣م، كان واضحًا أن سياسته الخارجية التى كان محورها محاولة غزو مصر واحتلالها سوف تستمر . فقد واصل خليفته أماليك الأول (١١٦٣-١١٧٤م) الذى تعرفه المصادر العربية باسم «عمورى» ، محاولاته لغزو مصر. وكان المسرح السياسى فى المنطقة العربية حافزًا له على مواصلة محاولاته الدؤوبة فى هذا السبيل. ذلك أن اتحاد محور الموصل - حلب مع دمشق تحت حكم نور الدين محمود كان يشكل ضغطًا عسكريًا وسياسيًا هائلاً على الكيان الصليبى فى الشمال من ناحية ، كما أن سقوط مصر فى أيدى نور الدين محمود المفتوحتين كان يمثل خطرًا لايمكن أن يحتمله الصليبيون فى حال حدوثه . إذ أدرك عمورى أن امتداد حكم نور الدين محمود إلى مصر سيضع الكيان الصليبى بين شقى الرحى .

ولكن أماليك (عمورى) لم يكن وحده الذى يفكر فى هذه الاتجاه ؛ فلم يكن لرجل فى مثل ذكاء نور الدين محمود أن يتجاهل تأثير التطورات السياسية الداخلية فى مصر آنذاك على ماجريات الصراع الإسلامى/ الصليبى(٥). وهكذا كان المسرح السياسى فى المنطقة جاهزًا للسباق بين المسلمين بقيادة نور الدين محمود، والصليبيين بقيادة أماليك للاستيلاء على مصر .

٤- ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق، ص٣٢١- ص٣٢٢ ؛ المؤرخ المجهول، البستان الجامع لجمع تواريخ الزمان، ص١٣٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج٩ ، ص٤٢ ؛ المقريزى، اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص٢٠٤-٢٠٦ ؛ أنظر أيضا :

William of Tyre, A History of the Deeds done beyond the Sea, (transl . and annonated by Atwater Babcock and A.C. Krey , Colombia University Press, 1943) vol . II, pp. 220-234 .

٥- Marshal W. Baldwin, "The Latin States under Baldwin III and Amalric I, 1143 - 74", in Setton (ed.) A Hist of the Crusades, vol. I, pp. 536-38 .

ثم جاءت الفرصة تسعى إلى بلاط الجانبين ؛ الإسلامى والصليبيين ، ولم يتردد أى منهما فى الإمساك بهذه الفرصة، وكان للقوة العسكرية والمناورات السياسية وشرعية الدور الذى يلعبه كل منهما أن يحسم الأمر. فبعد أن مات الوزير الفاطمى الصالح بن رزيك سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦١م اندلع الصراع على كرسى الوزارة بين ابنه العادل وبين شاور حاكم الصعيد بمصرع العادل على يد شاور . ودخل شاور القاهرة ، ولما استقر فى الوزارة تلقب بأمير الجيوش [٦]. وقرر الفرنج اغتنام الفرصة قبل أن تضيع . ولما كان الصالح بن رزيك قد قرر لهم فى كل سنة ثلاثة وثلاثين ألف دينار سنويا ، جاءت رسلهم تطلب من شاور هذا المبلغ. ولم تلبث رياح السياسة المصرية المتقلبة آنذاك أن جاءت بما تشتهيه سفن كل من نور الدين محمود وأماليك ملك الصليبيين . فبعد أن أمضى شاور فى الوزارة تسعة أشهر ثار عليه ضرغام ، الذى كان حاجبًا للصالح بن رزيك. وقتل ابن شاور . وهرب شاور من القاهرة وهو يحث الخطى صوب بلاط نور الدين محمود، واستولى ضرغام على الوزارة تحت حكم الخليفة العاضد الفاطمى[٧].

على أية حال ، وجد الملك الصليبى فرصته فى الفوضى الضاربة لغزو مصر بحجة عدم دفع الإتاوة التى كان ابن رزيك قد التزم بها من قبل . وسار الفرنج عبر حدود مصر فخرج إليهم أخو ضرغام وحاربهم وقتل منهم عدداً ولكنهم هزموه وتقدموا إلى بلبيس ولم يتمكنوا من إحراز أى نجاح عسكرى ، وإنما قتل منهم بعض فرسانهم ، فعادوا إلى فلسطين ومعهم بعض الأسرى[٨] .

فى تلك الأثناء كان الوزير المخلوع شاور قد توجه إلى بلاد نور الدين محمود فى دمشق ، ووصلها فى شهر ذى الحجة ٥٥٨هـ / ١١٦١م، على حين أخذ ضرغام يفسح لنفسه طريق السلطة بقتل عدد كبير من الأمراء « ... فاختلت الدولة بقتل رجالها وذهاب فرسانها... »[٩].

٦- كانت مدة بنى رزيك فى الوزارة تسع سنين وشهراً وعدة أيام ؛ أنظر: المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص٢٥٨ / ٢٥٩ .

٧- المقريزى، اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص٢٦١ ، وقد ذكر ما نصه : « ... استولى ضرغام على الوزارة وتلقب بالملك المنصور، فى سابع عشرى رمضان، فشكر الناس سيرته فإنه كان فارس عصره ، كاتبًا ، جميل الصورة ، فكه المحاضرة، عاقلاً كريمًا ، لايضع كرمه إلا فى سمعة ترفعه ، أو مداراة تتبعه، إلا أنه كان أذنًا متخيلاً على أصحابه وإذا ظن بإنسان شراً جعل الشك يقينًا... ».

٨- المقريزى، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٢٦٢ ؛ William of Tyre, Op. cit., II, p. 302

٩- ابن الأثير، الكامل ، جـ٩ ، ص٨١ ؛ المؤرخ المجهول، البستان الجامع، ص١٣٤ ؛ المقريزى، اتعاظ الحنفا ، جـ٣، ص٢٦٤ .

وفى الشام كان شاور يستجير بالسلطان الملك العادل نور الدين محمود على ضرغام « ... فتحدث مع السلطان فى أن يرسل معه العساكر إلى مصر ليعود إلى منصبه ، ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد بعد إقطاعات العساكر، ويكون معه من أمراء الشام من يقيم فى مصر، ويتصرف هو بأوامر نور الدين واختياره ... »[١٠] وبعد فترة من التردد قوى عزم نور الدين محمود على إرسال جيشه إلى مصر .

هكذا استجاب نور الدين محمود لطلب شاور، وأرسل معه جيشاً بقيادة واحد من رجاله هو أسد الدين شيركوه، وبرفقته شاب فى السابعة والعشرين من عمره هو ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب الذى ظهر اسمه للمرة الأولى على المسرح السياسى فى المنطقة العربية ليصبح فى غضون سنوات قليلة اللاعب الرئيسى ومحرك الأحداث الأول على هذا المسرح. وربما يكون مناسباً أن نرجئ الحديث عن صلاح الدين الأيوبى حتى نستكمل رواية الأحداث الدرامية التى أدت إلى قيادته للجبهة الإسلامية ضد الفرنج الصليبيين .

أمر نور الدين محمود قائده أسد الدين شيركوه أن يسير إلى مصر و« ... كان هوى أسد الدين فى ذلك... »، وأمره بإعادة شاور إلى منصبه والانتقام له ممن نازعه فى الوزارة[١١]. وعلى الجانب الآخر، هرع ضرغام إلى الصليبيين يطلب منهم النجدة والمساعدة فى مواجهة حلف شاور- نور الدين. وكانت تلك فرصة انتظرها ملك بيت المقدس طويلاً ، ولم يتردد فى الإمساك بها . وتعهد ضرغام لعمورى (أماريك) ملك بيت المقدس بأن يجعل مصر تابعة للفرنج الصليبيين إذا ساعدوه فى التخلص من شاور وجيش نور الدين محمود الذى يقوده أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبى [١٢].

١٠- المقريزى ، المصدر السابق ، ج٣ ، ص٢٦٤ ؛ أبوشامة ، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية (تحقيق د. محمد حلمى محمد أحمد) القاهرة ١٩٦٢، جـ١ ، ص٣٢٩-ص٣٣١؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، القاهرة ١٣١٧هـ، ص٣٦ .

١١- أبوشامة ، الروضتين ، ج١ ، ص٣٣٢-ص٣٣٣ .

١٢- قبل أن يعرف ضرغام بأنباء الاتفاق بين شاور ونور الدين محمود، انتهز ملك بيت المقدس فرصة الفوضى وهاجم مصر سنة ١١٦٣م وتقدم إلى الشرقية وحاصر مدينة بلبيس، ولكن ضرغاماً الذى كان حاكم مصر الوحيد آنذاك تصدى له وقطع جسور النيل بحيث شكلت مياه الفيضان خطراً على جيش عمورى فعاد إلى فلسطين. ولكن تطورات الأحداث جعلت ضرغاماً يستنجد به بعد أن حاربه أنظر: William of Tyre , vol . II, pp. 300 pp.

المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص٢٦٢ .

هكذا ، باتت أرض مصر ميدانًا للصراع بين المنطقة العربية والفرنج الصليبيين من أجل البقاء. إذ لم يكن هذا الصراع صراعًا على النفوذ أو الحدود؛ وإنما كان صراعًا على الأدوات والوسائل التى يمكن لمن يمتلكها أن يقضى على الآخر ويضمن لنفسه البقاء. ومن ناحية أخرى، لم يكن انتقال الصراع من بلاد الشام والجزيرة إلى وادى النيل فى شطره المصرى مجرد انتقال جغرافى من مكان إلى مكان آخر، وإنما كان تجسيداً للتحول فى المفاهيم السياسية التى كانت تحكم مجريات الصراع بين الطرفين. وكما أشرنا من قبل ، أدرك الفرنج الصليبيون قيمة مصر، بمواردها الضخمة إقتصاديًا وبشريًا وبخبرتها التاريخية وبميزاتها الجغرافية، فى حسم مصير الكيان الصليبى المزروع على الأرض العربية فى فلسطين . وعلى الجانب الآخر أدرك المسلمون هذه الحقيقة التى يفرضها منطق التاريخ وحقائق الجغرافيا السياسية. لقد دخل النضال ضد الفرنج الصليبيين مرحلة جديدة كان لابد فيها أن تكون مصر هى القوة الضاربة الأساسية ولايمكن أن تعزل نفسها، أو أن يعزلها أحد، بحيث يكون دورها هامشيًا فى ذلك الصراع الطويل المضنى ...

وفى تقديرنا أن هذا كان بمثابة الدرس السياسى الأول لصلاح الدين الأيوبى الذى جاء ضابطًا فى جيش نور الدين محمود الذى يقوده عمه أسد الدين شيركوه . وقد تمكن الجيش من عبور الحدود المصرية دون أن يعترضه الصليبيون، «... فلم يدر ضرغام ... إلا بطيور البطائق قد سقطت من عند أخيه الأمير حسام الدين ، متولى بلبيس ... يخبره فيها بوصول شاور وأسد الدين شيركوه، ومعهما من الأتراك خلق كثير ...»[١٣]. وفى بلبيس دارت معركة انهزمت فيها قوات ضرغام ، وفرت إلى القاهرة. وقام العربان والفلاحون وعامة الناس بقتل أعداد من عسكر ضرغام الذى زادت كراهية الناس له بسبب ظلمه وغدره بالأمراء وعجزه عن مقاومة شاور. وذاعت أنباء بأن الوزير ضرغام «... يتوعدهم إذا ظفر بشاور أنه يحرق مصر على أهلها من أجل أنهم أمكنوا شاوراً من دخول البلد وباعوا عليه وعلى من معه. ... ولما رأى الخليفة العاضد انحلال أمر ضرغام بعث يأمر الرماة بالكف عن الرمى ... وخرج ضرغام ومعه جماعة إلى خارج القاهرة ... وبعث شاور إلى الخليفة العاضد يستأذنه فى الدخول إلى القاهرة ، فأذن له ... فمرَّ (ضرغام) على وجهه إلى باب زويلة فتخطَّف الناس من معه ،

١٣- المقريزى ، اتعاظ الحنفا، ج٣ ، ص٢٦٦-٢٦٧ . والمقصود فى هذا النص بطيور البطائق، الحمام الزاجل الذى كان يحمل الرسائل .

وعطعطوا عليه ولعنوه، فأدركه بعض الشاميين فى غلمان شاور وطعنه فأرداه ، ونزل إليه واحتز رأسه بالقرب من مشهد السيدة نفيسه ... فى يوم الجمعة الثامن والعشرين من جمادى الآخرة...»[١٤] وكان ذلك فى جمادى الآخرة ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م.

هكذا انتهى الصراع بين شاور وضرغام بتلك اللوحة الدرامية التى رسمتها كلمات المؤرخ تقى الدين المقريزى، والتى تكشف عن أن الأهالى المصريين لم يكتفوا، أبداً، بدور المتفرج . بيد أن هذه النهاية كانت بداية لصراع آخر كبير على الأرض نفسها، هو الصراع بين المسلمين والفرنج الصليبيين.

أقام أسد الدين شيركوه بالقاهرة ينتظر تنفيذ بقية الاتفاق مع شاور الذى انفرد بكرسى الوزارة بعد قتل ضرغام، « ... وغدر به شاور وعاد عمًّا كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية، ولأسد الدين أيضًا... »[١٥] بل إن شاور طالب أسد الدين شيركوه بالانسحاب من البلاد «فأنف أسد الدين شيركوه فاستولى على بلبيس ... »[١٦] ثم كاد شيركوه أن يدخل القاهرة بعد أن هزم قوات شاور الذى فرَّ إلى داخل العاصمة مصابًا بحجر أفقده الوعى ...

كان شاور ، بدافع من حرصه على الحكم، والأنانية السياسية التى أعمته عن مصالح البلاد والعباد، قد بحث عن حليف يساعده فى محاربة حليفه القديم الذى صار له غريمًا. وأرسل شاور إلى الفرنج « ... يستمدهم ويخوِّفهم من نور الدين إن ملك مصر، وكان الفرنج قد أيقنوا بالهلاك إن ملكها نور الدين، فهم خائفون ، فلما أرسل إليهم شاور يستنجدهم أن يساعدوه على إخراج أسد الدين من البلاد، جاءهم فرج لم يحتسبوه .... »[١٧] هذه الكلمات للمؤرخ أبوشامة تكشف ببساطة عن حقائق الموقف السياسى ، وعن مدى فهم كل طرف من طرفى الصراع لهذه الحقائق .

على أية حال ، عادت قوات عمورى ملك بيت المقدس مرة أخرى إلى مصر. وفى صيف سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٤م دخلت مدينة فاقوس الحالية فى محافظة الشرقية . وقام شاور بتمويل

١٤- المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص٢٦٧- ص٢٧١؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج١ ، ص١٣٩ .

١٥- أبو شامة ، الروضتين ، ج١ ، ص٣٣٥ .

١٦- نفسه. ويذكر المقريزى تفاصيل الأحداث التى سبقت خروج أسد الدين وصلاح الدين إلى بلبيس ، وأعمال صلاح الدين القتالية. راجع اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص٢٧٢ / ٢٧٥ .

١٧- أبوشامة ، الروضتين، ج١ ، ص٣٣٥ .

نفقات الحملة الصليبية ثم فرضت القوات المشتركة حصاراً على قوات أسد الدين شيركوه فى بلبيس استمر حوالى ثلاثة شهور . بيد أن تطورات الأحداث فى الجبهة الشمالية. أجبرت الملك الصليبى على طلب الصلح والتعجيل بالرحيل . فقد تمكنت قوات نور الدين محمود من دحر الصليبيين فى هزيمة ثقيلة فى حارم ، ثم فى بانياس [١٨]. وتم الاتفاق على انسحاب كل من المسلمين والصليبيين من مصر، وتم ذلك بالفعل .

لم يكن الاتفاق، والانسحاب الذى نتج عنه، تعبيراً عن حقائق الموقف السياسى أو العسكرى، ولم يكن تعبيراً عما يجرى على أرض الواقع ؛ ومن ثم كان لابد من تجاهله . والمثير فى الأمر أن جميع الأطراف قد سعت إلى تجاهل هذا الاتفاق . إذ إن أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبى عادا إلى بلاد الشام بنية الإعداد لحملة جديدة تعيدهم إلى مصر. وثابر شيركوه على محاولاته لإقناع نور الدين محمود بأهمية مصر العسكرية والسياسية فى الصراع. وفى سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٦م كان شيركوه وصلاح الدين يحثان الخطى نحو مصر على رأس حملة عسكرية كبيرة حظيت بمباركة الخليفة العباسى الذى كانت تحدوه الرغبة فى القضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية فى القاهرة[١٩]. ووصلت قوات نور الدين إلى الجيزة وعسكر أمام مدينة الفسطاط فترة تزيد على خمسين يوما .

وفى هذه المرة كان الملك الصليبى هو الذى بعث إلى شاور يخبره بمسير الجيش النورى صوب مصر . وطلب شاور النجدة من عمورى واعداً إياه بأن يستمر فى تقديم الإتاوة المالية التى كان يدفعها إلى الفرنج الصليبيين فى العام السابق.

تقدم الجيش الصليبى وقوات شاور لقتال قوات أسد الدين شيركوه فى الصعيد . وعند قرية البابين ، التى تلاصق مدينة المنيا، دارت معركة عنيفة انتهت بهزيمة الصليبيين [٢٠]. بعدها

١٨- أبوشامة ، الروضتين ، ج١ ، ص٣٣٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، ج١ ، ص١٤٠ ؛ محمد مؤنس عوض ، فى الصراع الإسلامى- الصليبى: السياسة الخارجية للدولة النورية، (دار عين للدراسات والبحوث القاهرة ١٩٩٨م) ص٩١-٩٢ .

١٩- أبو شامة ، الروضتين ، ج١ ، ص٣٦٣ ، ٣٦٥ ؛ المقريزى، اتعاظ الحنفا ، ج٣، ص٢٨٢ ويقول المقريزى عن نور الدين محمود « ... وكان كارها لمسير شيركوه لكثرة ما رأى من حرصه على السفر... ».

٢٠- أبوشامة ، الروضتين ، ج١ ، ص٣٦٥ ؛ وكان قائد قلب الجيش هو الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبى الذى يقول عنه المقريزى « ... وأبلى يومئذ صلاح الدين يوسف بلاء حسنًا ، وحمل حملات فرقّ بها الجموع وبدد شملها... ». أنظر : إتعاظ الحنفا، ج٣ ، ص٢٨٣-٢٨٤ .

سار الجيش النورى بقيادة شيركوه وصلاح الدين صوب مدينة الاسكندرية التى كان أهلها من أنصاره . ويقى صلاح الدين فى الاسكندرية على حين عاد عمه إلى الصعيد. وسار الفرنج مع جيش شاور إلى الاسكندرية وهاجموا صلاح الدين الذى عاونه أهل الاسكندرية وصبروا على الحصار وقلة القوت. ثم بدأت المراسلات بين الفرنج وأسد الدين شيركوه الذى كان فى طريقه من الصعيد إلى الاسكندرية، وتم الاتفاق على أن يرحل الطرفان عن مصر، وأن يأخذ خمسين ألف دينار (٢١).

وتسلم شاور الاسكندرية فى منتصف شهر شوال ٥٦٢هـ / ١١٦٧م. ثم رحل شيركوه ، وتبعه عمورى ملك بيت المقدس الذى خرج شاور فى وداعه حتى مدينة بلبيس. ولكنه فى هذه المرة اتفق مع الصليبيين على ترك حامية عسكرية فى القاهرة و« ... أن تكون أسوارها بيد فرسانهم ليمتنع نور الدين من إرسال عساكر إليها؛ وأن يكون لهم من دخل ديار مصر فى كل سنة مائة ألف دينار. قرر لهم شاور ذلك من غير علم العاضد ولامشاورته ، فإنه كان ممنوعًا من التصرف وشاور يستبد بأمور الدولة ... »(٢٢).

هكذا وصل العمى السياسى بشاور إلى اللعب بالنار التى أحرقت الفسطاط بعد قليل، كما أحرقت مصيره السياسى، فضلاً عن أنها أحرقت النظام السياسى القديم برمته . إذ إن ما حدث فى هذا السباق الثانى بين المسلمين والصليبيين على مصر ، كان تعبيراً عن أن التوازنات بين القوى السياسية والعسكرية لم تكن قد وصلت بعد إلى مرحلة النضج بحيث يتم حسم الصراع لصالح إحدى هذه القوى. فالواقع التاريخى ينبئنا أن الشرعية السياسية للدولة الفاطمية كانت قد تدهورت وانحدرت إلى درك مخيف بسبب فشل الخلافة فى حماية البلاد والعباد ، كما أن شاور- الحاكم الفعلى- لم يكن أكثر من غاصب للسلطة لايهمه سوى كرسى الحكم الذى تسنده قوة الأعداء الصليبيين. ولم يكن ممكنًا أن يستريح المصريون لمرأى الفرنج وهم يتحكمون فى أبواب القاهرة وأسوارها . وكان حتمًا أن يتجدد الصراع لفرض منطق التاريخ .

٢١- أبوشامة ، الروضتين ، ج١ ، ص٣٦٦ ؛ William of Tyre , vol . II, pp. 340-1
المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص٢٨٦ .

٢٢- المقريزى، المصدر السابق، ج٣ ، ص٢٨٦ / ص٢٨٧ .

كانت أولى تجليات منطق التاريخ أن «الكامل شجاع بن شاور» غضب من فعلة أبيه، وبعث إلى نور الدين محمود «... يُنهي محبته وولاءه، ويسأل الدخول في طاعته، وضمن له عن نفسه أنه يفعل هذا ويجمع الكلمة على طاعته ...»[٢٣] ويلخص المقريزى فساد حكام مصر في ذلك الزمان بقوله : «فكان من تأمل أحوال الوزراء ، فإنه يجد الصالح بن رزيك ربىَّ رجال الدولة، وجاء الضرغام فأفناهم ، ثم جاء شاور فأتلف أموال مصر وأطمع الغز في البلاد ، وجرّأ الفرنج عليها ...»[٢٤].

لقد تجلّى الغباء السياسى وقصور النظر لدى شاور من خلال إصراره على مواصلة اللعب بالنار من ناحية، واعتقاده بأن الأعداء الصليبيين يمكن أن يوفروا له الحماية من ناحية ثانية. ولكن التاريخ يذكرنا دائمًا بأن «**جيش الإنقاذ**» سرعان مايتحول إلى «**جيش احتلال**» إذا ما تمت الاستعانة بجيش غريب لاتربطه بالبلاد وأهلها رابطة. فما بالك إذا كان الجيش جيش العدو ؟!!

واصل شاور سياسة العمى والغباء السياسى داخليًا وخارجيًا . وصار قتل العلماء والأمراء خبرًا يوميًا في القاهرة. ومن ناحية أخرى، بعث شاور إلى نور الدين محمود برسالة ودية يطلب إليه عدم إرسال أسد الدين شيركوه إلى مصر في مقابل جزية سنوية ، ووافق نور الدين محمود.

وإذ ظن شاور أن الجو قد خلا له ، كشف التاريخ عن حكمته الأبدية التى لخصها القرآن الكريم «فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض»[٢٥]. ذلك أن حركة التاريخ محكومة بمصلحة الناس الذين يصنعون التاريخ ، ومن غير المعقول أو المقبول أن يرضى الناس بما فعله شاور. وقد أوجز المقريزى هذه الحقيقة فى عبارة بليغة على إيجازها :

٢٣- المقريزى ، المصدر نفسه ، ج٣ ، ص٢٨٧ . ويروى أبوشامة الخبر نفسه بما نصه : «... ثم إن الكامل شجاع بن شاور راسل نور الدين محمود مع شهاب الدين محمود الحارمى، وهو من أكابر أمراء الملك العادل، وهو خال صلاح الدين يوسف ، ينهى محبته وولاءه، ويسأله أن يأمر بإصلاح الحال وجمع الكلمة بمصر على طاعته ، ويجمع كلمة الإسلام...» أنظر : الروضتين ، ج١ ، ص٣٦٦ .

٢٤- المقريزى ، نفسه ، ج٣ ، ص٢٨٨ .

٢٥- سورة الرعد : آية ١٧ «أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدًا رابيًا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأمّا ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال».

«فيها (سنة ٥٦٤هـ) تمكن الفرنج من ديار مصر وحكموا فيها حكمًا جائراً ، وركبوا المسلمين بالأذى العظيم، وقد تيقنوا أنه لاحامى للبلاد ، وتبين لهم ضعف الدولة وانكشفت لهم عورات الناس ... »[٢٦].

لقد تحول «جيش الإنقاذ » الصليبى الذى استدعاه شاور إلى جيش احتلال. ولم يقف الأمر عند هذا الحد ؛ لأن الفراغ السياسى والعسكرى الواضح فى مصر آنذاك ، وعجز الحاكم «شاور» عن إدارة شئون البلاد ، أغرى الفرسان الصليبيين فى حامية القاهرة على مراسلة عمورى (أماليك الأول الذى يسميه أبوشامة والمقريزى مرِّى) « ... يستدعونه لتملك البلاد ، وأعلموه خلوها من ممانع عنها ، وسهلوا أمرها عليه. فوافقهم بعد تردد ... » وخرجت الجيوش الصليبية من قاعدتهم عسقلان واستولوا على بلبيس سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م وارتكبوا بها مذبحة فظيعة استمرت على مدى خمسة أيام، ثم ساروا إلى القاهرة وفرضوا حصارهم عليها[٢٧].

هنا ، وهنا فقط، أدرك شاور مدى ما يشكله الصليبيين من خطر وتهديد له شخصيًا ولنفوذه ! وكان تصرفه متسقًا مع عقليته الخائنة تمامًا؛ فقد أضرم النار فى الفسطاط قبل نزول الفرنج عليها بيوم واحد ... وظلت النيران تأكلها على مدى أربعة وخمسين يوما.

... ورحل الفرنج بعد أن دفع لهم شاور مائة ألف دينار، وبعد أن رأوا الشدة والبأس من جانب أهل القاهرة الذين استماتوا فى الدفاع عن مدينتهم[٢٨].

٢٦- المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص٢٩١ .

٢٧- أبوشامة ، الروضتين ، ج١ ، ص٣٨٩ ، ٣٩١ ؛ المقريزى، اتعاظ الحنفا ، ج٣، ص٢٩٢ ، ٢٩٣ . ويذكر المقريزى قصة عن سبب المذبحة التى قام بها الصليبيون فى بلبيس هذه المرة مؤداها أن الملك الصليبى، حليف شاور ، سأل ابن شاور الذى كان مسئولا عن بلبيس ، أين ينزل ؟ فأجابه بأنه يمكن أن ينزل على أسنة الرماح. وأن طى ابن شاور قال أيحسب مرِّى أن بلبيس جبنة يأكلها ؟ ورد عمورى نعم بلبيس جبنة والقاهرة زبدة (اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص٢٩٢-٢٩٣) . والحقيقة أن الفرنج الصليبيين لم يكونوا بحاجة إلى عذر أو ذريعة لارتكاب مذبحة جديدة فى تاريخهم الحافل بسجل المذابح ضد المسلمين وضد المسيحيين الأرثوذكس فى البلقان. وهل يحتاج الصهاينة اليوم إلى عذر أو ذريعة لتبرير سجل مذابحهم؟!!

٢٨- أبوشامة ، الروضتين ، ج١ ص٣٩١ ؛ William of Tyre, vol . II, pp. 350-7

وقد تم عمل سور على الفسطاط تعاون كل أهل الفسطاط على بنائه، وحفر من ورائه خندقًا... واجتمع الناس بالقاهرة «ووطنوا أنفسهم على الموت»، و«قاتل أهل القاهرة قتالاً شديداً» وحفظوها وبذلوا جهدهم...»- أنظر : المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص٢٩٧ ، ص٢٩٨ .

وبينما كانت تلك الأحداث السوداوية تجرى كان الخليفة العاضد يستنجد بنور الدين محمود « ... وبذل له ثلث بلاد مصر، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيمًا عنده في عسكره، وإقطاعهم عليه خارجًا عن الثلث الذى لنور الدين ... ». وبالفعل جاء شيركوه إلى القاهرة واجتمع بالخليفة العاضد الفاطمى الذى أكرمه . ومرة أخرى ، وأخيرة ، عاد شاور إلى ممارسته السياسية القذرة ، وبدأ يماطل من جديد فى تنفيذ الإتفاق . ولما ظهرت مماطلته ، اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جرديك، وغيرهما على قتله، وفى أثناء سير شاور مع صلاح الدين وعز الدين، قرب قبر الإمام الشافعى، وثب عليه الإثنان وأسقطاه عن فرسه ثم ساقاه مقيداً إلى معسكر أسد الدين شيركوه. وفى يوم السبت ١٧ ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م، تم قتله بسيف أرسله الخليفة العاضد، وبطلب منه ، وأرسلت رأس شيركوه إلى العاضد الذى أحس بالراحة من جراء موت ذلك الداهية الذى جلب المصائب على البلاد [٢٩].

هكذا؛ حُسم الصراع لصالح القوى الإسلامية. وكان لابد لمنطق التاريخ أن يفرض نفسه حتى النهاية. لقد كانت الاستجابة السياسية للتحدى الذى فرضته الحروب الصليبية قد تجسدت فى نموذج الدولة العسكرية التى يقودها ملك محارب بدلاً من دولة الخلافة التى يجلس على قمتها خليفة ليس له من الخلافة سوى الإسم. وعلى الرغم من أن عماد الدين زنكى، وابنه وخليفته نور الدين محمود من بعده، قد سعيا باستمرار إلى الارتباط بالخلافة العباسية السنية فى بغداد ، فالحقيقة أن هذا كان نوعًا من السعى إلى الشرعية السياسية ولم يكن تعبيراً حقيقيًا عن القوة السياسية. فقد بان عجز الخلافة العباسية منذ وقت مبكر.

وكان ما حدث فى مصر والقاهرة ، منذ قدم الفرنج الصليبيون إلى المنطقة العربية، تأكيداً آخر على هذه الحقيقة السياسية . إذ إن الفشل العسكرى والسياسى الذى حاق بالمحاولات الفاطمية (من محاولات التحالف مع قادة الحملة الصليبية الأولى أمام أنطاكية حتى السماح بوجود حامية من الفرسان الفرنج الصليبيين على أبواب القاهرة وفوق أسوارها) كان تجسيداً موازيًا لحقيقة أن دولة الخلافة- الشيعية هذه المرة- لم تعد إطاراً سياسيًا ، أو عسكريًا ، مناسبًا للحرب ضد الصليبيين . لقد امتدت الدولة العسكرية التى يقودها ملك محارب (نور

٢٩- أبوشامة ، الروضتين ، ج١ ، ص٣٩٦ ، ص٤٠٢ ؛ المقريزى، اتعاظ الحنفا ، ج٣، ص٢٩٩، ص٣٠١ .

٣٠- أبوشامة ، الروضتين، ج١ ، ص٤٠٢ .

الدين محمود) إلى ضفاف النيل وابتلعت دولة الخلافة الفاطمية فى سهولة ويسر لايفسرهما سوى فشل نموذج الدولة التى يقودها خليفة لانفوذ له. وكم كان المشهد غريبًا على مسرح التاريخ آنذاك؛ فبعد مقتل الوزير شاور المراوغ بعث الخليفة العاضد الفاطمى خلعة الوزارة إلى أسد الدين شيركوه ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش(٣٠).

هكذا تجسد العجز السياسى لدولة الخلافة الفاطمية من ناحية ، كما تجسد الإفلاس السياسى لدولة الخلافة العباسية من ناحية أخرى. وكانت المشابهات كثيرة بين الظروف السياسية التى مرت بها كل من هاتين الدولتين؛ بيد أنه كان هناك فرق جوهرى واضح بينهما. إذ كانت الخلافة العباسية قد أسلمت قيادها للعسكريين منذ زمن ، وكان الأتراك السلاجقة هم آخر المتحكمين فى الخلافة السنية بدعوى حمايتها؛ ولذلك بقيت الخلافة وبقى الخليفة دون سلطات حقيقية ليكونا مصدراً للشرعية السياسية التى تحتاجها الدول العسكرية. أما الدولة الفاطمية ، فقد خضعت لقائد عسكري سنى، وعينه الخليفة الشيعى وزيراً !! كانت تلك «خلطة» سياسية غير مقبولة وكانت علامة على ما هو آت . فقد كان شيركوه السنى وزيراً للعاضد الشيعى، وكان شيركوه قائداً فى جيش ملك محارب سنى هو نور الدين محمود الذى أعلن ولاءه وتبعيته الإسمية للخلافة العباسية فى أكثر مناسبة . وكانت مسألة سقوط الخلافة الفاطمية رسميا مجرد مسألة وقت فحسب.

ولم يمكث أسد الدين شيركوه فى الوزارة زمنًا كافيًا؛ إذ وافته المنيه بعد حوالى تسعة أسابيع ، وكانت وفاته يوم السبت ٢٢ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٩م(٣١) ولم يفعل أسد الدين شيركوه شيئًا طوال هذه المدة يمكن أن يكشف عن اتجاه الأحداث، وربما كان الرجل من أهل الحرب ولكنه لم يفعل شيئًا يعترض مجرى أحداث السياسة. ومن ناحية أخرى ، كانت وفاته فى وقت مناسب تمامًا من الناحية السياسية لظهور نجم صلاح الدين الأيوبى. إذ إن السنوات التى قضاها صلاح الدين برفقة عمه أسد الدين، والمهام العسكرية والسياسية التى اضطلع بها ، كانت بمثابة الدرس السياسى والعسكرى الأساسى الذى تلقاه حول حقائق الصراع الدائر فى المنطقة العربية بين المسلمين أصحاب البلاد والفرنج الصليبيين القادمين من وراء البحار .

٣١- أبوشامة ، الروضتين ، ج١ ، ص٤٠٥ . ويذكر المقريزى أن نور الدين محمود لما بلغه أن أسد الدين شيركوه صار وزيراً للعاضد « ... كره ذلك وأمضّه ، وظهر على صفحات وجهه وفلتات لسانه... » وطلب من العاضد إخراج شيركوه ولكن العاضد رفض بسبب حسن سياسة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف- أنظر: اتعاظ الحنفا ، ج٣، ص٣٠٤ .

وكان من الطبيعي أن يختار الخليفة العاضد الفاطمي القائد الشاب صلاح الدين وزيراً له. وقد نقل ابن الأثير لنا قصة كيفية ولاية صلاح الدين الوزارة، ونقلها عنه أبو شامة صاحب كتاب «الروضتين» ، وهي قصة مؤداها أن عدداً من كبار الأمراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا «التقدم على العسكر وولاية الوزارة»، ومنهم شهاب الدين الحارمي وهو خال صلاح الدين .... «فأرسل الخليفة العاضد إلى صلاح الدين، فأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة ، ويوليه الأمر بعد عمه . وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين ، فإنه ظن أنه إذا ولي صلاح الدين ، وليس له عسكر ولارجال، كان في ولايته بحكمه، ولايجسر على المخالفة، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه فإذا صار معه البعض أخرج الباقين وتعود البلاد إليه ... فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن هذا المقام، فألزم به وأخذ كارها. إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل !! فلما حضر في القصر خلع عليه خلعة الوزارة : الجبة والعمامة وغيرها ، ولقب بالملك الناصر...»(٣٢) ولكن المؤرخ تقي الدين أحمد بن علي المقريزي يروي لنا رواية أخرى: «لما توفي أسد الدين افترق أهل القصر وحواشي الخليفة العاضد فرقتين - فأما إحداهما - وكبيرهم الأستاذ صنيعة الملك مؤتمن الخلافة جوهر- ...» وكان رأيهم أن تجمع قوات أسد الدين شيركوه في إقليم الشرقية تحت قيادة بهاء الدين قراقوش بحيث تكون هذه القوات حاجزاً أمام الفرنج الصليبيين، كما كان من رأيهم إلغاء منصب الوزارة. أما الطائفة الأخرى فقد أصروا على أن يتولى صلاح الدين الوزارة. واجتمع مماليك أسد الدين وعددهم خمسمائة على أن يتولى صلاح الدين الوزارة، ولما سأل العاضد الأمراء عمن يصلح للوزارة ، سار إليه شهاب الدين الحارمي، خال صلاح الدين، «وأرشده إلى تولية صلاح الدين»(٣٣).

على أية حال ، فإن الأحداث التاريخية التي جرت من قبل، ومن بعد، تكشف عن تهافت رواية المؤرخ ابن الأثير والغرض الكامن بين سطورها، على حين تبدو رواية المقريزي أقرب إلى الحقيقة.

كان من طبيعة الأمور أن يتولى صلاح الدين الوزارة بعد وفاة عمه لأسباب كثيرة. وكانت فترة الوزارة بالنسبة له فترة سيولة سياسية اختلطت فيها أمور السياسة الداخلية بأحداث

٣٢- أبوشامة ، الروضتين ، ج١ ، ص٤٠٦ ، ص٤٠٧ .

٣٣- المقريزي، اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص٣٠٦ ، ص٣٠٨ .

السياسة الخارجية وتطوراتها ، وتداخلت صفوف الحلفاء والأصدقاء مع صفوف الخصوم والأعداء، وتشابكت خيوط المؤامرات السياسية مع طموحات العسكريين فى الجيش الفاطمى والجيش النورى، وتقاطعت خيوط جهود إعادة المذهب السنى مع المخاطر القادمة عبر البر والبحر تنذر بهجمات صليبية جديدة. وفوق هذا وذاك، كان على صلاح الدين - صاحب السلطة الفعلية بمصر آنذاك- أن يدير علاقته بنور الدين محمود بقدر كبير من الحذر والصبر والمرونة .

وربما كان الخليفة العاضد الفاطمى قد اختار صلاح الدين وزيراً لأنه كان شابًا حديث السن، قليل الخبرة فى السياسة ؛ ولكن هذا الشاب «لم يكشف عما بداخله سوى بعد أن صار وزيرا» على حد تعبير المؤرخ الألمانى هانز ماير [٣٤]. وقد أثبت صلاح الدين أنه أكبر من ظنون الخليفة، وأدار دفة السياسة الداخلية بحنكة واقتدار ظاهرين . وكانت أولى المشكلات التى واجهته من أهله وعشيرته . إذ يذكر المؤرخ تقى الدين المقريزى ما نصه : «ولما نزل صلاح الدين إلى دار الوزارة لم يطعه أحد من الأمراء النورية ولاخدموه فسعى الفقيه عيسى الهكارى فى الإصلاح بينه وبينهم...»[٣٥] وبسرعة تمكن صلاح الدين من حل هذه المشكلة التى انتهت بالتفاف الغالبية حوله على حين رحل أمير واحد منهم برجاله إلى بلاد الشام.

وبدأ صلاح الدين فى استمالة قلوب الناس إليه، وأحبه الخليفة العاضد فساعده بالكثير من المال الذى استخدمه فى زيادة نفوذه وقوته [٣٦]. ولم يلبث نجم صلاح الدين أن تألق فى سماوات السياسة المضطربة فى المنطقة العربية، وبدأ يوطد مركزه فى القاهرة وعيناه مفتوحتان على ما يمكن لنور الدين محمود أن يفعله إزاءه. وكانت المشكلة الثانية التى واجهته عسكرية/ سياسية. إذ إن الجيش الفاطمى الذى عاش طويلاً فى أجواء التآمر المضاد بين المتنافسين على كرسى الوزارة لم يكن ليعطى ولاءه لوزير فى مثل وضع صلاح الدين الأيوبى من ناحية، كما لم يكن يدين بالولاء للخليفة الفاطمى نفسه من ناحية أخرى. كان الجيش الفاطمى يتألف، آنذاك ، من قسمين رئيسيين: الفرسان، وهم القوة الضاربة فى الجيش وكان

٣٤- H. E. Mayer, The Crusades, (transl . by : John Gilligham), Oxford university Press, 1972 , pp. 123-124 .

٣٥- المقريزى ، اتعاظ الحنفا، ج٣ ، ٣٠٩ .

٣٦- أبوشامة ، الروضتين ، ج١ ، ص٤٤٠ .

معظمهم من الأرمن الذين بدأت أعدادهم تزيد منذ أيام الوزير الأرمنى بدر الدين الجمالى، أما القسم الثانى فكان من المشاة الذين كانت غالبيتهم من الأفارقة الذين عرفوا فى مصطلح ذلك العصر باسم «السودان» .

جاءت الفرصة تسعى إلى صلاح الدين لتدمير الجيش الفاطمي وبناء منظمته العسكرية الخاصة عندما أخذ الإقطاعات من قادة الجند وبدأ يوزعها على من معه من الجنود والأمراء . إذ إن خصيًا بالقصر الفاطمى، يُدعى مؤتمن الخلافة جوهر، ساءه أن صلاح الدين أخذ إقطاعات قادة الجيش الفاطمى ، واستبد بإدارة شئون البلاد من دون الخليفة العاضد فأعد مؤامرة للإطاحة به. وأرسل رسالة سرية إلى الفرنج يحثهم على غزو مصر بحيث يخرج إليهم صلاح الدين بجيشه ، فينتهز هو الفرصة لكى يشعل التمرد فى صعيد مصر ؛ وبذلك يصبح صلاح الدين الأيوبى بين شقى الرحى. وتم كشف المؤامرة(٣٧) وأعدم مؤتمن الخلافة جوهر وعين مكانه بهاء الدين قراقوش . وفى اليوم التالى كانت قوات المشاة الفاطمية تزحف إلى دار الوزارة .

واستمر القتال يومين ثم انتهى بمذبحة مروعة على الجنود السود ، ولما طلبوا الأمان أجيبوا إلى طلبهم بشرط عدم البقاء فى القاهرة . وعلى الرغم من خروجهم إلى الجيزة فقد طاردتهم قوات صلاح الدين « ... ولم ينج منهم إلا الشريد » (٣٨).

كانت النتيجة المباشرة لهذه المعركة إزدياد نفوذ صلاح الدين الأيوبى وسطوته من ناحية، وانكماش دور الخليفة العاضد الفاطمى من ناحية أخرى، «ولم يبق له سوى إقامة ذكره في الخطبة ... » على حد تعبير المقريزى. ويذكر لنا هذا المؤرخ الكثير من الإجراءات التى اتخذها صلاح الدين الأيوبى لإضعاف الخليفة الفاطمى . فقد أخذ صلاح الدين يطالبه بالأموال والعتاد بصورة مرهقة « ... ووالى صلاح الدين الطلب من العاضد في كل يوم ليضعفه ، فأتى على المال والخيل والرقيق وغير ذلك، حتى إن العاضد كان فى بعض الأيام بالبستان الكافورى وإذا بقاصد صلاح الدين قد وافاه يطلب منه فرسًا وهو راكب ، فقال ما عندى إلاَّ الفرس الذى

٣٧- بالقرب من مدينة بلبيس ، فى محافظة الشرقية حاليًا ، قبض أحد جنود صلاح الدين على الرسول الذى أرسله مؤتمن الخلافة جوهر ، ومعه نعلان جديدان فى يده فارتاب الجندى بسبب سوء مظهر الرجل «وحُسن النعلين، وعلم أنهما لايليقان به، ولو كانا من ملابسه لكان تبين فيهما أثر الاستعمال ... » فأخذهما وفتحهما فوجد الرسالة الموجهة إلى الفرنج- أنظر المقريزى، اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص٣١٢ .

٣٨- المقريزى ، المصدر السابق، ج٣ ، ص٣١٣ ؛ أبوشامة ، الروضتين ، ج١ ، ص٤٥١ ، ص٤٥٢ .

أنا راكبه ، ونزل عنه ، وشق خفيه ، ورمى بهما وسلم إلى القاصد الفرس، وعاد إلى قصره ماشيًا ، فلزم مجلسه ولم يُعد بعدها يركب حتى مات » (٣٩).

هكذا تمكن صلاح الدين من السيطرة على الأمور الداخلية تمامًا بعد أن قضى على مؤامرة مؤتمن الخلافة جوهر، وتمرد الجنود السود في الجيش الفاطمي، وجرَّد الخليفة العاضد من مصادر قوته. ولكي يضمن السيطرة التامة على القصر وسكانه عين «بهاء الدين قراقوش الأسدى» مشرفًا على شئون قصر الخلافة بدلاً من «مؤتمن الخلافة» المقتول . رويداً رويداً بدأ صلاح الدين الأيوبى يجمع كل خيوط السلطة والنفوذ بيديه، كما اهتم ببناء مؤسسته العسكرية والسياسية الخاصة داخل مصر .

في سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م كان على صلاح الدين أن يواجه تحديًا جديداً لنفوذه وسلطته على مصر؛ وجاء الخطر هذه المرة من جانب خصمه اللدود الملك الصليبى عمورى الذى كان يمثل تهديداً دائمًا لمصر وللمنطقة العربية كلها. إذ إن الطبيغة العدوانية الاستيطانية للكيان الصليبى نفسه كانت تهديداً قائمًا طالما بقى هذا الكيان الاستيطانى ؛ فإذا ما تولى قيادة هذا الكيان العدوانى قائد عدوانى طماع مثل عمورى تفاقم الخطر وزاد .

ففي أول شهر صفر من هذه السنة نزل الفرنج على دمياط . واشترك في هذه الحملة جنود عمورى الأول وأسطول الامبراطور البيزنطى عمانويل كومنين (١١٤٣-١١٨٠م) الذى بلغ عدد سفنه مائتى سفينة. فقد شعر الفرنج فى بلاد الشام بالرعب من جراء تنامى قوة صلاح الدين فى مصر، على حين كانت قوات نور الدين محمود تضغط عليهم فى بلاد الشام. وكان الاستيلاء على مصر أملاً يراود ملك بيت المقدس منذ رجوعه خائبًا من حملته الثالثة على مصر عند اندلاع الصراع بين شاور وضرغام. وتبادل زعماء الصليبيين الإتهامات بسبب فشلهم فى الاستيلاء على مصر(٤٠). ولم تكن مغادرة زعيم الاسبتارية نهاية لأطماع الفرنج فى مصر؛ إذ إن عمورى أرسل عدة رسائل مع سفارة يقودها بطريرك بيت المقدس اللاتينى وكبير أساقفة قيسارية إلى الغرب الأوربى يطلب منهم قوات عسكرية لمساعدته ولكن عاصفة عاتية

٣٩- المقريزى ، المصدر السابق، ج٣، ص٣١٤ .

٤٠- كان من نتيجة هذه المنازعات الداخلية التى نشبت بين زعماء الصليبيين أن أجبر زعيم طائفة فرسان المستشفى (الاسبتارية) على التخلى عن منصبه والرجوع إلى غرب أوربا. أنظر :

S. Runciman, A History of the Crusades, Cambridge Univ. Press, 1957 , vol . II, pp. 619- ff .

أرغمت أفراد هذه السفارة على العودة بسفينتهم إلى ميناء عكا. ولكن سفارة أخرى وصلت إلى الغرب دونما نتيجة إيجابية [٤١].

غابت السفارة الصليبية المرسلة إلى ملوك أوربا وإماراتها حوالى عامين، وفى تلك الأثناء لجأ الصليبيون إلى أسرة كومنين الحاكمة فى القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، وسارع الإمبراطور عمانويل كومنين إلى تلبية نداء الفرنج . ولم يكن دافعه إلى هذا حبه فى الفرنج الذين كانت عداوتهم للبيزنطيين واضحة منذ بداية الحركة الصليبية ؛ وإنما كانت خشيته من تصاعد قوة المسلمين فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط وراء عرضه بتقديم أسطول قوى للمشاركة فى الهجوم الصليبى على دمياط .

ولنترك ابن شداد ، كاتب سيرة صلاح الدين ، يروى لنا أحداث هذه الحملة بأسلوبه : « ... لما علم الفرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم وما تم للسلطان من استقامة الأمر فى الديار المصرية علموا أنه يملك بلادهم ويخرّب ديارهم ويقلع آثارهم لما حدث له من القوة والملك. فاجتمع الفرنج والروم جميعًا وحدثوا نفوسهم بقصد الديار المصرية، والاستيلاء عليها وملكها، ورأوا قصد دمياط لتمكن القاصد لها من البر والبحر، ولعلمهم أنها إن حصلت حصل لهم مغرس قدم يأوون إليه ... »[٤٢].

وعلى الرغم من خروج الأسطول البيزنطى قاصداً دمياط فى ١٥ يوليو ١١٦٩، فإن القوات الصليبية كانت لاتزال تلعق جراحها من جراء حملتها الفاشلة على مصر في العام السابق. وكان فرسان المعبد (الداوية) يصرون على عدم المشاركة فى الحملة، كما أن عدداً كبيراً من الأمراء الفرنج كانوا غير متحمسين لمعاودة محاولة غزو مصر للمرة الرابعة. ومن ناحية أخرى، كان الإمبراطور البيزنطى مفرطًا فى الثقة بقوته وقوة حلفائه ، فلم يشحن أسطوله بالمؤن والمعدات الكافية لحصار طويل، وإنما اكتفى بما يكفى لمدة ثلاثة أشهر [٤٣]. وربما كان سبب هذا التفاؤل البيزنطى راجعًا إلى أن أنباء اكتشاف مؤامرة مؤتمن الخلافة جوهر، والقضاء على الجنود السود فى الجيش الفاطمى ، لم تكن قد وصلت إلى الحليفين الفرنجى والرومى.

٤٢- بهاء الدين بن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص٣٣- ص٣٤ ؛ أبو شامة ، الروضتين في أخبار الدولتين ، ج١ ص٤٥٧ ، وهو ينقل رواية ابن شداد حرفيًا.

٤٣- William of Tyre , vol . II, pp. 961-962 .

من ناحية أخرى ، تصرف صلاح الدين بحنكة عسكرية وسياسية واضحة فى مواجهة هذه الحملة المزدوجة . فقد أرسل إلى نور الدين محمود يخبره بنبأ هذه الحملة وحرج موقفه فى مواجهتها فى الوقت الذى يخشى من خطر بقايا القوات الفاطمية فى مصر . وفى الوقت نفسه أرسل إلى دمياط « ... العساكر فى النيل، وحشر فيها كل من عنده، وأمدهم بالمال والسلاح والذخائر... »(٤٤) وقد ساعده الخليفة العاضد الفاطمى مساعدة جمة ربما بلغت مليون دينار على حد رواية ينسبها أبوشامة إلى صلاح الدين الأيوبى.

على أية حال، استمر الحصار البيزنطى/ الصليبى على دمياط واحداً وخمسين يومًا. وبينما كانت مقاومة المدافعين عن دمياط عنيفة واثقة ، كشفت العداوة بين الحليفين الفرنجى والرومى عن وجهها القبيح؛ إذ بدأ البيزنطيون (الروم) يعانون من نقص المؤن والأغذية ورفض الصليبيون (الفرنج) مساعدتهم . وفى تلك الأثناء كان نور الدين يهاجم المستوطنات الصليبية ويخربها (٤٥). وأخيراً أدرك الصليبيون عبث موقفهم وبادر عمورى بحرق معداته فى أواخر سنة ١١٦٩م (ربيع الأول سنة ٥٦٥هـ) وعاد إلى فلسطين لمواجهة هجمات نور الدين محمود. ولم يلبث الأسطول البيزنطى أن انسحب بعد أن تكبد خسائر كبيرة (٤٦).

على الجانب الآخر، كانت النتائج السياسية لهذه الحملة الخائبة إضافة إلى رصيد صلاح الدين الأيوبى ؛ إذ إن سلطته قد رسخت وطالت قامته السياسية فى عيون معاصريه . لقد عرف المصريون أن وزيرهم الجديد، صاحب السلطة الفعلية فى البلاد، يختلف عن ذلك النفر من الوزراء المتآمرين الذين عانت منهم البلاد طوال العقود السابقة. وكان أداؤه السياسى والعسكرى فى مواجهة العدوان الصليبى / البيزنطى المشترك دليلاً علىٰ قدرته وكفائته . لقد كانت تلك الحملة ، بنتائجها وتداعياتها ، من أهم عوامل تثبيت سلطة الناصر صلاح الدين

٤٤- أبوشامة ، الروضتين ، ج١ ، ص٤٥٦ ، ص٤٥٧ ؛ المقريزى ، إتعاظ الحنفا، ج٣، ص٣١٥ وكان على رأس القوات المدافعة عن دمياط الأمير تقى الدين عمر بن شاهنشاه ابن أخى صلاح الدين، والأمير شهاب الدين الحارمى، ثم تلاهما الأمير قطب الدين خسرو فى الأسبوع الأخير من الحصار .

٤٥- أبوشامة ، الروضتين، ج١، ص٤٥٧ .

٤٦- ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص١٠٥ - ص١٠٦ ؛ المقريزى، اتعاظ الحنفا، ج٣ ص٣١٦ ، William of Tyre , vol . II, pp. 363-68 ; Baldwin, "The Latin States under Baldwin III and Amalric I " in Setton, vol . I, pp. 536-38 , 565 - 66 ; Mayer , The Crusades, p. 124 .

يوسف الأيوبى، كما كانت فاتحة طيبة لمسيرته السياسية والعسكرية التى توجها انتصار حطين وتحرير بيت المقدس على نحو ما سنرى فى الصفحات التالية .

وفى العام التالى لحملة دمياط الفاشلة قام صلاح الدين الأيوبى بهجوم مضاد وتمكن من أن يسترد غزة ، وهاجم عسقلان والرملة وقتل الكثيرين من الصليبيين، ثم خرج فى منتصف شهر ربيع الأول سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م إلى أيلة ومعه مراكب مفصلة على الجمال، واستطاع استعادة أيلة [٤٧]. وعندما عاد إلى القاهرة سار منها إلى الاسكندرية.لكى يتابع بنفسه أعمال التحصينات الجارية فى أسوارها وأبراجها .

هكذا مضت السنة الأولى من وزارة صلاح الدين الأيوبى فى مصر بين تحركات سياسية وأعمال عسكرية لتدعيم مركزه وسلطانه فى مصر . بيد أنه كان ما يزال وزيراً للخليفة العاضد الفاطمى من ناحية ، وتابعًا لنور الدين محمود صاحب السلطة فى أعالى الشام من ناحية أخرى. فقد كانت راية نور الدين محمود ترفرف على دولة إقليمية كبرى ضمت خمس عواصم؛ الموصل ، والرها ، وحلب ودمشق ثم القاهرة التى كان فيها صلاح الدين الأيوبى. وكانت المشكلة التى واجهت صلاح الدين مشكلة كبيرة حقًا ؛ إذ إنه لم يشأ أن يعلن خضوعه التام لسيده نور الدين محمود من ناحية، كما أنه لم يكن قادراً على إعلان رفضه الخضوع لنور الدين صراحة من ناحية أخرى. فضلاً عن أن الأخطار الداخلية كانت ما تزال كامنة فى مصر ، كما كانت الأخطار الخارجية التى يجسدها الصليبيون على حالها .

هكذا كان على صلاح الدين أن يمزج العمل السياسى بالفعل العسكرى والإجراء الاقتصادى. فقد كان هجومه على أيلة واسترداد حصنها من الفرنج إجراء عسكريًا ذا هدف اقتصادى لأنه حرم الفرنج من الميناء الوحيد (أيلة- العقبة) على البحر الأحمر، كما أنه ضمن سيطرته على تجارة البحر الأحمر وطرق التجارة مع شرق آسيا من خلال الحملات التى أرسلها فى الفترة التالية إلى اليمن والحجاز ثم شرق أفريقيا .

وفى مصر بدأ صلاح الدين ترتيباته بإصلاح أسوار القاهرة[٤٨] وفى الوقت نفسه كان جنوده وأقاربه قد كثروا فى مصر. وعندما أدرك صلاح الدين مدى قوته دبر مؤامرة للقبض على أمراء الدولة الفاطمية وعندما أشرق الصباح كان الأمراء الشاميون الذين جاء بهم

٤٧- أبوشامة ، الروضتين ، ج١ ، ص٤٨٦ ؛ المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص٣٢٠ ؛

Mayer, The Crusades, p. 124 .

٤٨- المقريزى ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص٣٢١ .

صلاح الدين قد حلّوا محل أمراء الدولة الفاطمية . وعندما سأل الخليفة وزيره عن السبب فيما فعله جاءه جواب صلاح الدين ليسكته انتظاراً لمصيره (٤٩). « ... وتقوى صلاح الدين وعظم أمره، وذهب من كان يخشاه ويخافه ، وأخرج أكثر اقطاعات الأجناد بمصر ... وانحل أمر العاضد »(٥٠).

وتمهّل صلاح الدين فى إعلان نهاية الخلافة الفاطمية، على الرغم من إلحاح نور الدين محمود. وبعد فترة من التردد أعاد الخطبة للخليفة العباسى على منابر القاهرة . وتم ذلك دون ضجة . ففى أول جمعة من شهر محرم سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م (أو الجمعة الثانية حسبما يذكر المقريزى) خُطب باسم الخليفة المستضئ بأمر الله العباسى وقُطعت الخطبة للعاضد(٥١).

وتكشف حقيقة عدم حدوث رد فعل إزاء ما حدث أن المذهب الشيعى كان له تأثير ضئيل فى مصر على الرغم من الطول الزمنى النسبى لحكم الفاطميين. ومن ناحية أخرى، كان صلاح الدين الأيوبى تابعًا لنور الدين محمود من الناحية الرسمية؛ ولكن الحقيقة أن صلاح الدين كان هو صاحب السلطة الفعلية . وأدى هذا ، بالضرورة إلى توتر العلاقات بين نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى . إذ إن نور الدين محمود كان قد استطاع سنة ٥٦٧هـ / ١١٧٠م أن يضم الموصل وأعالى العراق تحت حكمه . وكان كل من الرجلين يرى أن المنطقة التى يحكمها هى المركز الحقيقى للإسلام (٥٢).

لقد خلت الساحة تمامًا لصلاح الدين بوفاة الخليفة العاضد يوم ١١ محرم سنة ٥٦٧هـ / ١١٧٠م، وفى عشية يوم عاشوراء ، دون أن يدرى أنه آخر خلفاء الفاطميين فى مصر (٥٥).

٤٩- نفسه .

٥٠- نفسه، جـ٣ ، ص٣٢٢ .

٥١- أورد المقريزى النص الآتى : «وفيها (٥٦٧هـ) نزل نجم الدين أيوب بجماعة معه إلى الجامع وأمر الخطيب ألا يذكر العاضد، وقال إن ذكرته ضربت عنقك . فقال لمن أخطب؟ فقال للخليفة المستضئ بأمر الله العباسى. فلما خطب لم يذكر العاضد ولاغيره ، بل دعا للأئمة المهديين والملك الناصر، فقيل له فى ذلك ، فقال : ما علمت المستضئ ولانعوته، وفى الجمعة الثانية أفعل ما يجب فعله وأذكره . فلما بلغ العاضد ذلك قال فى الجمعة الأخرى يعينون اسم الرجل المخطوب له، فلما كانت الجمعة الثانية، وهى سابع شهر محرم خُطب باسم الخليفة المستضئ بأمر الله ...» (اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٣٢٤ / ٣٢٥).

٥٢- Mayer , The Crusades , p. 124 .

٥٣- المقريزى ، اتعاظ الحنفا، ج٣ ، ص٣٢٧ ؛ أبوشامة، الروضتين ، ص٤٩٣-٥١٨ .

وبعد أن أحس صلاح الدين بقوته وثبات مركزه فى مصر رفض أن يتعامل نور الدين مع مصر باعتبارها مجرد مورد للأموال التى يموّل بها حروبه ضد الفرنج فى بلاد الشام . وأخذ التوتر يتصاعد بين الجانبين دون أن يصل أبداً إلى مرحلة العداء السافر . وحدث فى تلك السنة نفسها ما أكد اختلاف الرؤية السياسية لكل من نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى؛ فقد أرسل نور الدين محمود يطلب قدوم صلاح الدين إلى الكرك والشويك ويقول أبو شامة إن صلاح الدين خرج من القاهرة فعلا ولكن أمراً ما جعله يعود إلى القاهرة[٥٤] ولكن ابن الأثير يورد رواية أخرى يحاول أن يثبت فيها خيانة صلاح الدين مولاه نور الدين وخروجه عن طاعته[٥٥].

وعلى أية حال ، فإنه يبدو أن السبب فى التوتر بين الرجلين كان هو اختلاف رؤية كل منهما لحقائق الموقف السياسى فى المنطقة العربية من ناحية، والمفاهيم السياسية لكل منهما من ناحية أخرى . إذ كان نور الدين محمود يرى أن بلاد الشام هى بؤرة الصراع ومركز الثقل السياسى والعسكرى ، وأن دور مصر يجب أن يقتصر على تمويل خططه العسكرية والسياسية بمواردها الاقتصادية ، وأن تكون ظهيراً بشريًا للقوى العسكرية فى بلاد الشام والعراق. ولكن صلاح الدين أدرك من حقائق الموقف السياسى والعسكرى مالم يدركه نور الدين محمود من ناحية ، وما جعله يرفض أن تكون مصر مجرد مورد للمال من ناحية أخرى . لقد أدرك صلاح الدين ما أدركه الصليبيون بعد ذلك ومؤداه أن مصر هى مفتاح المنطقة العربية ولذلك فإنها يجب أن تقود الصراع لا أن تبقى مجرد قوة احتياط . وكانت هذه الرؤية السياسية الثاقبة أهم ما ميّز صلاح الدين عن نور الدين محمود. وعلى أية حال ، فإن الاستراتيجية الصليبية بعد الحملة الصليبية الثالثة (والتى ركزت على النزول فى دلتا النيل، بدلا من ضفاف الأردن، لضمان أمن الكيان الصليبى فى فلسطين وبلاد الشام) أكدت صحة الرؤية السياسية لصلاح الدين .

كان التوتر المتصاعد بين نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى جزءاً من المصاعب السياسية التى واجهها الأخير، لكنه لم يكن كل تلك المصاعب . فقد كان الملك الصليبى عمورى الأول ما يزال أسير سراب يجذبه نحو مصر وحلم بأن يحكمها. وفى سبيل الإمساك

٥٤- أبوشامة ، الروضتين ، ج١، ص٥١٨ .

٥٥- ابن الأثير ، التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ، ص٢٨٦ ، ص٢٩٠ . وقد أورد أبوشامة نص هذه الرواية ، ج١ ص٥١٨- ص٥١٩ .

بالسراب وتحقيق الحلم أخذ يطرق كل السبل ؛ فقد حاول أن يعقد اتفاقًا مع راشد الدين سنان زعيم الحشاشين فى بلاد الشام، والذى كان معروفًا باسم «شيخ الجبل»، مستغلاً العداء المذهبى بين الحشاشين الشيعة وصلاح الدين السنى الذى قضى على الدولة الفاطمية الشيعية . كما جرت مكاتبات لترتيب مؤامرة مع بقايا القوى الموالية للفاطميين فى مصر بزعامة عمارة اليمنى الشاعر، فى خطة تشبه تلك التى كان مؤتمن الخلافة جوهر قد رتبها معهم من قبل . وانتهت المؤامرة بالفشل وتم صلب عمارة اليمنى وعدداً من زعماء المؤامرة [٥٦].

أما الأطراف الخارجيين فى المؤامرة فقد انتهى أمرهم بفشل ذريع ، فقد عجز عمورى عن الحركة عندما سمع أنباء اكتشاف شركائه وإعدامهم ، على حين فشل الأسطول الذى أرسله نورمان صقلية أمام الاسكندرية فى أن يفعل شيئًا سوى الهرب من مواجهة جيش صلاح الدين بعد أن خسر عدداً من سفنه ورجاله [٥٧]. وهكذا، حقق صلاح الدين نصراً آخر دعم به حكمه ومكانته على شواطئ الاسكندرية فى شمال مصر، ولم يلبث أن وجه حملة إلى النوبة لإخماد تمرد آخر على الحدود الجنوبية . وتسمى المصادر التاريخية الموالية لصلاح الدين هذا التمرد «نوبة الكنز» ، وهو «الكنز» أو «كنز الدولة المتوج» الذى يبدو أنه كان واحداً من كبار رجال الدولة الفاطمية كان قد فرَّ إلى أسوان ، وتمكن من أن يجمع حوله عدداً من الناس بأمل إعادة الدولة الفاطمية .

وفى سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م هاجم هذا الرجل الصعيد وهدد مدينة قوص والمناطق التابعة لها، كما تمرد رجل آخر ، هو عباس بن شادى «... وثار فى بلاد قوص ونهبها وخربها وأخذ أموال الناس... » وكان الملك العادل سيف الدين أبوبكر ، شقيق صلاح الدين الأيوبى ونائبه بمصر، هو الذى تولى إخماد حالتى التمرد وقتل الرجلين[٥٨] بحيث ازدادت سلطة صلاح الدين فى مصر رسوخًا وثباتًا .

٥٦- أبوشامة ، الروضتين ، ج١ ، ص٥٦٠- ص٥٦٧ ؛ وقد ذكر أنهم راسلوا راشد الدين أبو الحسن سنان شيخ الجبل وزعيم الحشاشين الإسماعيلية، وكان مقرهم على مدى قرن من الزمان (٥٥٧-٦٦٠هـ) مصياف . أنظر : زامباور، معجم الأنساب، ص١٦١ . وعن مؤامرة الشاعر عمارة اليمنى أنظر: ابن واصل ، مفرج الكروب، ج١ ، ص٢١٢ . ص٢٤٧ ؛ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ، ج١١، ص١٥٢ وما بعدها ؛ Mayer , The Crusades, p. 125 .

٥٧- أبوشامة ، الروضتين ، ج١، ص٥٩٨- ص٦٠٠ .

٥٨- نفسه، ج١ ، ص٦٠٠- ص٦٠٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص٢٢٩،ج٢، ص١٦-١٧=

كانت الأمور تزداد انفراجًا على مستوى السياسة الداخلية، واستقرت سلطة صلاح الدين الأيوبى تمامًا بعد صد الغارة النورمانية الصقلية الفاشلة على الاسكندرية ، وإخماد مؤامرة عمارة اليمنى وإعدامه ، ثم إخماد حالتى التمرد فى الجنوب، وعلى مستوى السياسة الخارجية جاءت وفاة نور الدين محمود فى ١١ شوال سنة ٥٦٩هـ / ١٥ مايو سنة ١١٧٤م حلاً اختاره القدر لمشكلات التوتر التى كانت تتصاعد بين نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى ، وبعد شهرين من وفاة نور الدين محمود مات عدوهما الصليبى المزعج أماريك الأول (عمورى) ملك بيت المقدس فى ١١ يوليو ١٧٤٤م.

هكذا ، طالت قامة صلاح الدين السياسية. فقد خلت الساحة السياسية فى المنطقة العربية من سيده نور الدين محمود الذى كان يمكن أن يتحول إلى خصم قوى وعنيف، ومن عدوه الصليبى الذى كان لايكف عن محاولة كسر قوته وإخراجه من مصر لضمان بقاء الكيان العدوانى الذى زرعه الغرب الأوربى على الأرض العربية فى فلسطين والشام .

كان وريث عمورى طفلاً فى الثالثة عشرة من عمره ، وكان مريضًا بداء عضال. ولم يكن هذا فألاً طيبًا بالنسبة لمستقبل مملكة بيت المقدس الصليبية [٥٩]. أما وريث نور الدين محمود فكان طفلاً هو الآخر، وتسابق قادة جيش نور الدين ودب التنافس فيما بينهم، وناضل كل منهم لكى تكون له الوصاية على الصبى الصغير. كما أن شمال الشام كان ما يزال يعانى من الزلزال الرهيب الذى حول أنطاكية وطرابلس إلى أنقاض [٦٠]. ومن ناحية أخرى لم يكن هناك حليف يمكن أن يعتمد عليه الصليبيون فى مواجهة صلاح الدين الأيوبى بعد أن فشلت الحملة الصقلية / الفرنجية على الاسكندرية بسبب نشاط صلاح الدين ونقص الإمدادات الفرنجية ، فضلاً عن استيلاء السلاجقة على الأناضول بعد معركة ميريو سفالم Myriocephalem التى

= المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ١ ، ص٥٧-٥٨ . وكان لقب «كنز الدولة» من ألقاب الدولة الفاطمية مُنح لأول مرة أيام الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى لأمير أسوان أبى المكارم هبة الله بعد انتصاره على ثورة «أبى ركوة» ، وأصبح هذا اللقب وراثيا فى أسرة أبى المكارم بعد اندماجها مع النوبيين. وكان آخر من حمل هذا اللقب هو المتمرد الذى قتله العادل .

٥٩- Mayer, The Crusades, p. 126 .

٦٠- أنظر تفاصيل هذا الزلزال فى أبوشامة ، الروضتين، ص٤٦٧- ص. ٤٧١ وقد وقع هذا الزلزال سنة ٥٦٥هـ .

قلمت أظافر البيزنطيين وجعلتهم عاجزين عن مساندة الصليبيين . ويرى المؤرخ الألمانى ماير أن هذه المعركة حسمت مصير الكيان الصليبى فى مواجهة المسلمين(٦١) وما لم يتلق الصليبيون مساعدة من غرب أوربا، فإن عليهم أن يقفوا وحدهم فى مواجهة الجبهة العربية المتحدة التى يقودها صلاح الدين الأيوبى.

من ناحية أخرى، واصل صلاح الدين سياسة خارجية نشيطة لتأمين مركزه فى مصر، وتأمين حدودها، ولضمان السيطرة على طرق التجارة المارة عبر البحر الأحمر. ففى سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٢م أرسل أخاه تورانشاه إلى بلاد النوبة بسبب قيام حكامها بالإغارة على أسوان وتخريب مناطق كبيرة من الصعيد . وكان جيش تورانشاه كبير العدد يرافقه أسطول نهرى كبير . وتمكن من الاستيلاء على قلعة «إبريم» داخل بلاد النوبة . وواصل أمراء الجيش الأيوبى الهجوم على النوبة ، وشن الغارات على أراضى النوبة. وحاول ملك النوبة المسيحى أن يعقد صلحًا مع تورانشاه ولكن الأخير رفض(٦٢). وهكذا تمكن تورانشاه من ردع ملك النوبة وكبح جماح خطره، كما ضمن تأمين حدود مصر الجنوبية إلى حين .

وفى السنة التالية ٥٦٩هـ / ١١٧٣م توجه تورانشاه ، أكبر إخوة صلاح الدين إلى اليمن فملكها. ومن الغريب أن الذى كان يحثه على غزوها الشاعر عمارة اليمنى الذى قتل فى أحداث المؤامرة الفاشلة مع الفرنج ونورمان صقلية. وخرج جيش تورانشاه إلى مكة ومنها إلى زبيد، فى مواجهة ساحل باب المندب على مدخل البحر الأحمر الجنوبى، فاستولى عليها وقبض على حاكمها «عبد النبى بن على بن مهدى» ثالث حكام الأسرة المهدية وآخرهم ، وقتله ، ثم استولى على عدن وتعز وخضعت له عدة حصون وقلاع فى اليمن (٦٣). وعلى الرغم من أن المصادر التاريخية تخبرنا أن صلاح الدين أرسل إلى نور الدين يخبره بما حدث فى اليمن ، وأن نور الدين أرسل البشارة بذلك إلى الخليفة العباسى ببغداد ، فإن هذه كلها كانت إجراءات

٦١- Mayer, Op. cit., p. 125 .

أنظر الصفحات التالية.

٦٢- ذكر أبوشامة (الروضتين ، ج١ ، ص٥٣٠- ص٥٣٣) أن تورانشاه أرسل رده مع رسول ومعه رجل آخر إلى دنقلة عاصمة ملك النوبة «... قال مسعود فوجدت بلاداً ضيقة ليس لهم زرع إلا الذرة، وعندهم نخل صغار منه إدامهم ... وأما دنقلة فليس فيها عمارة إلاّ دار الملك فقط وباقيها أخصاص».

٦٣- أبوشامة ، الروضتين ، ج١، ص٥٥١، ص٥٥٢ ؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٣٦- ص٣٧ .

شكلية لاتغير من حقيقة أن فتح اليمن على يد تورانشاه كان دعمًا لمركز صلاح الدين السياسى والعسكرى من جهة ، وضمانًا لسيطرته على البحر الأحمر بما له من أهمية دينية واقتصادية من جهة أخرى.

على أية حال ، كانت الظروف السياسية ، على المستوى الداخلى والخارجى، مواتية تمامًا لطموحات صلاح الدين . وينبغى أن نتذكر أنه كلما زاد صلاح الدين من تقوية مركزه زاد الخطر على الصليبيين. لقد خلت الساحة الآن من الملك الصليبى العدوانى عمورى الأول، وكان خليفته الطفل المريض عاجزاً عن مواصلة دوره . وعلى الجانب الآخر كانت وفاة نور الدين محمود قد خلقت فراغًا سياسيًا رهيبًا ؛ إذ تفرق قادة جيوشه وأمراؤه عندما هبت عليهم ريح الأنانية السياسية وعصفت بهم أهواء المصالح الشخصية . وكان على صلاح الدين أن يثبت أنه رجل هذه المرحلة وأنه جدير بأن يقود المنطقة العربية فى نضالها ضد الوجود الصليبى العدوانى. كما كان عليه أن يعالج ما نجم عن صراع قادة جيش نور الدين محمود للوصاية على ابنه الصغير الصالح اسماعيل الذى كان فى الحادية عشرة من عمره .

وبينما كان أمراء الشام والعراق غارقين فى تنافسهم غير المحمود على الفوز بالوصاية ، ومكاسبها السياسية، كان صلاح الدين الأيوبى فى القاهرة يحسب الأمور بمنظور سياسى مختلف . لقد كان يهدف إلى إعادة بناء ما تصدع من دولة الوحدة التى بناها نور الدين محمود . فقد تنافست عدة عواصم على الوصاية على الملك الصالح اسماعيل؛ ففى الموصل كان الملك سيف الدين غازى الثانى حاكم دولة الأتابكة قد بادر إلى ضم البلاد المجاورة لإمارة الموصل وأعلن نفسه أميراً على الجزيرة، وحدثته نفسه بضم حلب ودمشق. أما دمشق فكان حاكمها مقدم الجيش النورى شمس الدين محمد قد اضطر إلى مهادنة الصليبيين ودفع لهم إتاوة حتى لايهاجموه، ثم أرسل يطلب مساعدة صلاح الدين . وفى حلب كان كبير القادة العسكريين، «شمس الدين على بن الداية» يخطط لأن يستولى على دولة نور الدين من خلال الوصاية على الملك الصالح الذى استدعاه إلى المدينة ولكن قائداً عسكريًا منافسًا، هو سعد الدين كمشتكين، قبض عليه ، وتولى هو أمر خليفة نور الدين الطفل (٦٤).

فى هذه الأثناء كان صلاح الدين يرتب أموره السياسية، وكانت أبرز تحركاته فى هذه المرحلة الحرجة هو السعى إلى إضفاء الشرعية على كيانه السياسى. وكان قد بعث إلى الخليفة

٦٤- ابن شداد، النوادر السلطانية، ص٤٩ .

العباسي ، المستضئ بأمر الله، في بغداد يعدد فتوحاته وجهاده ضد الفرنج وإعادته الخطبة للخليفة العباسي في مصر، واستيلائه على بلاد كثيرة من أطراف المغرب وعلى بلاد اليمن كلها، وطلب من الخليفة تقليداً بحكم مصر واليمن والمغرب والشام « ... وكل ما يفتحه بسيفه... ». وفي سنة ٥٧٠هـ جاءته رُسُل الخليفة العباسي في حماة ببلاد الشام بالتشريف والأعلام السود، وتوقيع بسلطنة بلاد مصر والشام وغيرها [٦٥]. كانت تلك مناورة سياسية بارعة من صلاح الدين الأيوبي صار فيها الحاكم الشرعي على أملاك نور الدين محمود بحيث ظهر المتنافسون في صورة الغاصبين الخارجين على السلطة الشرعية. ومن ناحية أخرى، كان صلاح الدين قد تصرف بحكمة وحنكة بالغين في أعقاب وفاة نور الدين؛ إذ خطب للصالح اسماعيل بن نور الدين محمود في مصر وضرب السكة باسمه . وقد جعله هذا التصرف اللائق أهلاً لثقة المعاصرين . وعندما امتزجت الثقة بالشرعية التي أسبغها عليه الخليفة العباسي ، بات تحركه السياسي والعسكري مأمون العاقبة وبموافقة القوى السياسية وجماهير المنطقة العربية.

بدأ صلاح الدين تحركاته في سنة ٥٧٠هـ ضد المتنافسين؛ فعندما علم بنبأ مسير الملك الصالح اسماعيل إلى حلب والصلح الذي تم بين حلب والموصل . جعل أخاه العادل نائبه على مصر ووصل إلى دمشق في أول شهر ربيع الآخر « ... وملكها من غير مدافع... » واتبع سياسة التودد إلى أهلها؛ فأبطل الضرائب . وأظهر أنه جاء لكي يتولى رعاية الملك الصالح[٦٦]. ثم واصل صلاح الدين مسيرته فأخذ حمص ثم حماة . وبعد ذلك سار إلى حلب واشتبك في عدة معارك غير حاسمة . وفي هذه الأثناء كان ريمون الثالث حاكم طرابلس الصليبي قد تلقى رسالة من حلب تطلب منه الهجوم على بعض المدن والحصون التابعة لصلاح الدين لكي يرفع حصاره عن حلب. وتوجه ريمون الثالث فعلاً إلى حمص ولما اقتربت قوات صلاح الدين تقهقر ريمون الثالث إلى بلاده[٦٧] ولم تكن تحركات ريمون الثالث حبًا في حكام حلب وإنما كانت كراهية وخوفًا من صلاح الدين . إذْ أدرك الأمير الصليبي أن استيلاء صلاح الدين على حلب سيزيد من قوته خصمًا من حساب القوة الصليبية المتدهورة بالفعل.

٦٥- المقريزي ، السلوك، ج١، ص٥٩-٦٠ .

٦٦- أبوشامة ، الروضتين ، ج١ ، ص٦٠٢-٦٠٣ ؛ ابن الأثير، الكامل، جـ١١ ، ص١٦٥-١٦٦؛ المقريزي، السلوك ، ج١ ، ص٥٧ ، ٥٨ .

٦٧- ابن شداد ، النوادر السلطانية، ص٥٢ ؛ Runciman , A Hist. of the Crusades, vol . II, pp. 407-408 .

كان ريمون هو الوصى على عرش مملكة بيت المقدس ، ورأى أن من واجبه أن يوقف نمو قوة صلاح الدين الأيوبى؛ وإذ لم يستطع الفرنج منع الوحدة بين دمشق والقاهرة ، فإنهم تطلعوا إلى الإبقاء على حلب منفصلة . وعلى أية حال فإن ريمون ظهر بجيشه أمام حمص فى شعبان ٥٧٠هـ / فبراير ١١٧٥م، وعندما توجه صلاح الدين بقواته إلى هناك عاد إلى المناطق الصليبية؛ ولكنه كان قد حقق الغرض المنشود من حركته لأن صلاح الدين رفع الحصار عن حلب. واعترافًا بجميل الفرنج ، أطلق كمشتكين ، حاكم حلب الفعلى، سراح رينالد دى شاتيون (أرناط) وچوسلين دى كورتناى وكل أسرى الفرنج فى حلب آنذاك (٦٨).

بعد هذه الأحداث حصل صلاح الدين على الشرعية من الخليفة العباسى وهو فى حماة فى تلك السنة، ولكنه كان قد رتب لهذا الأمر منذ فترة، وعندما حصل على الشرعية السياسية- كما أوضحنا من قبل- بادر بإعلان خروجه على طاعة البيت الزنكى ممثلاً فى الصالح اسماعيل، وأعلن نفسه سلطانًا على مصر والشام .

فى السنة التالية ٥٧١هـ / ١١٧٦م عبر سيف الدين غازى صاحب الموصل نهر الفرات بجيش كبير وانضم إلى قوات حلب الموالية للصالح اسماعيل والتى يقودها كمشتكين خارج حلب . وكان صلاح الدين قد طلب تعزيزات عسكرية من مصر ووصلته فى أول رمضان، ثم جرت معركة فى ١٠ شوال من تلك السنة وهزم صلاح الدين الأيوبى قوات التحالف الموصلى / الحلبى هزيمة فادحة وأسر منهم عدداً كبيراً ؛ ولكن صلاح الدين عامل الأسرى برقة وأعادهم إلى بلادهم(٦٩). وبقى السلطان صلاح الدين يمارس ضغوطه العسكرية على الحلبيين فى المنطقة. وفى ١٤ ذى الحجة ٥٧١هـ تعرض لمحاولة اغتيال من جانب الإسماعيلية (الحشاشين) يحكى أبوشامة تفاصيلها(٧٠). وتمثل رد فعل صلاح الدين الأيوبى فى الزحف على حلب لأن حكامها

٦٨- Runciman , A Hist. of the Crusades , (Harper and Torchbooks , N.Y. 1965), vol . II, pp. 408- ff.

٦٩- المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص٦١ ؛ أبوشامة، الروضتين ، جـ١ ، ص٦٤٨-٦٥٥ . ويذكر أبوشامة ما نصه (ج١، ص٦٥١): «ثم نزل (السلطان صلاح الدين) السرادق السيفى فتسلمه بخزائنه ومحاسنه ... ورأى فى بيت الشراب، بل فى السرادق الخاص، طيوراً من القمارى والبلابل ، والهزاز ، والببغاء فى الأقفاص، فاستدعى أحد الندماء وقال ... واذهب بها إلى سيف الدين (غازى) فأوصلها إليه وسلّم منا عليه، وقل له عُد إلى اللعب بهذه الطيور ، فهى سليمة لاتوقعك فى المحذور...».

٧٠- أبوشامة، الروضتين، ج١ ، ص٦٥٨- ص٦٦١ ؛ المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٦١ .

هم الذين تآمروا مع الحشاشين ، وفرض عليها حصاراً شديداً استمر حتى نهاية سنة ٥٧١هـ. وفي بداية سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م جرت مناوشات عسكرية بين القوات الحلبية وقوات صلاح الدين انتهت باتفاق يقضي بأن تكون حلب وأعمالها للصالح اسماعيل، ثم استدار صلاح الدين على طائفة الإسماعيلية ودخل جبال النصيرية وضرب حصاراً استمر عدة أيام على مصياف معقل زعيم الطائفة «راشد الدين سنان بن سلمان بن محمد» ولكنه اضطر إلى رفع الحصار والعودة إلى دمشق . وجرت في هذه السنة اشتباكات غير حاسمة بين الفرنج والمسلمين. ثم عاد السلطان إلى القاهرة بعد أن ترك أخاه تورانشاه على رأس جيش قوى ببلاد الشام.

وفى أواخر شهر ربيع الآخر ٥٧٢هـ/ سبتمبر ١١٧٦م عاد صلاح الدين إلى القاهرة بعد أن كان قد تزوج من أرملة نور الدين محمود(٧١). وكانت السنة الجديدة سنة راحة نسبية كانت جميع الأطراف بحاجة إليها، فقد كرس صلاح الدين الأيوبى وقتًا طويلاً لإعادة تنظيم الأمور فى مصر، على حين كان الفرنج فى مملكة بيت المقدس يواجهون مشكلاتهم الداخلية. وربما يكون مناسبًا أن نقف، بشئ من التفصيل ، على ما فعله صلاح الدين فى هذا الشأن.

على المستوى العسكرى، كان صلاح الدين مهتمًا بتحصين العاصمة المصرية ودعم قدرة ميناء دمياط وميناء الاسكندرية على البحر المتوسط، فضلاً عن الحصون والقلاع البرية فى سيناء. ومن ناحية أخرى، كان لابد لصلاح الدين الأيوبى من أسطول قوى يؤمن عملياته العسكرية البرية من جهة ، ويحمى شواطئ مملكته التى شملت الشواطئ المصرية على البحر المتوسط وعلى البحر الأحمر من جهة ثانية، ويضمن له قطع الإمدادات الأوربية للفرنج فى فلسطين من جهة ثالثة .

ففى سنة ٥٧٢هـ أمر صلاح الدين ببناء السور حول القاهرة، والقلعة التى كان قد أمر ببنائها قبل خمسة أعوام، والفسطاط (التى عرفت فى مصطلح ذلك الحين باسم مصر، وعندما انضمت القاهرة ، إلى عواصم مصر الإسلامية؛ الفسطاط والقطائع والعسكر، صارت كلها عاصمة تعرف باسم مصر والقاهرة) ليحميها من أية إغارات محتملة (٧٢). وفى شهر شعبان من هذه السنة خرج من القاهرة لكي يتفقد أحوال ميناء دمياط وميناء الاسكندرية. وأمضى

٧١- أبوشامة، نفسه ، ج١ ، ص٦٧٥- ص٦٧٦ .

٧٢- أبوشامة ، الروضتين ، ج١ ، ص٦٨٧ ؛ المقريزى، السلوك، ج١، ص٦٣ ؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢ ، ص٥٢-٥٣ .

فى دمياط يومين شاهد أثناءهما الأسطول، ثم واصل سيره إلى مدينة الاسكندرية حيث شاهد السور الجديد الذى أمر ببنائه حولها، وأمر ببناء سفن جديدة بالأسطول ، ولأنه أدرك أهمية الأسطول «... أفرد له إقطاعًا مخصوصًا، ودويوانًا مفرداً ...»[٧٣]. كانت هذه الاجراءات على المستوى العسكرى ضرورة لتأمين الحدود البرية والبحرية لمصر من وجهة نظر صلاح الدين الذى أكسبته المعارك التى شارك فيها خبرة عسكرية كبيرة وجعلته يرتب أموره الداخلية قبل أن يسعى إلى تحقيق البرنامج الذى كان نور الدين محمود قد أعلنه منذ سنة ٥٦٦هـ / ١١٦٩م لتحرير المسجد الأقصى. لقد ورث صلاح الدين معظم أنحاء دولة نور الدين محمود ، وورث دوره السياسى كما ورث برنامجه الذى جعل تحرير بيت المقدس الهدف الأسمى لتحركاته العسكرية والسياسية والمدنية .

وعلى المستوى المدنى كان صلاح الدين الأيوبى يتحرك بسرعة وحسم للقضاء على بقايا المذهب الشيعى وإعادة نشر المذهب السنى فى مصر . وكان صلاح الدين نفسه شديد الاهتمام بعلوم الدين، وكان يذهب بنفسه لسماع الدروس من أفواه أشهر العلماء السنة [٧٤]. وفى غمرة حماسته لمحاربة الشيعة وإعادة نشر المذهب السنى قام ببيع كنوز ونفائس مكتبة القاهرة الفاطمية ، وربما يكون مناسبًا أن ننقل هنا نصًا عن العماد الأصفهانى ، أحد المقربين من صلاح الدين وكاتب سيرته الموسومة «الفتح القِسِّى فى الفتح القدسى» ، وقد نقلها أبوشامة فى «الروضتين» [٧٥].

«... وكان لبيع الكتب فى القصر كل أسبوع يومان، وهى تُباع بأرخص الأثمان وخزائنها فى القصر مرتبة البيوت ، مقسّمة الرفوف ، مفهرسة بالمعروف ... فأخرجت وهى أكثر من مائة ألف ... وكان فيها من الكتب الكبار، وتواريخ الأمصار، ومصنفات الأخبار، ما يشتمل كل

٧٣- أبوشامة ، المصدر السابق، ص٦٩٠ .

٧٤- أسس صلاح الدين بالقاهرة مدرسة للشافعية وأخرى للمالكية ، وهو لايزال وزيراً للخليفة الفاطمى العاضد سنة ٥٦٦هـ / ١١٦٩م- أنظر : المقريزى، اتعاظ الحنفا، ج٣ ، ص٣١٩ . وفى هذه السنة أيضا عزل صلاح الدين القضاة الشيعة فى مصر وولى قاضى القضاة صدر الدين عبدالملك بن درباس الهدبانى الشافعى «... ومن حينئذ اشتهر مذهب الشافعى ومذهب مالك بديار مصر وتظاهر الناس بهما...» راجع أيضا : عبد اللطيف حمزة ، الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول (ط. ٨ ، القاهرة ١٩٦٨م) ، ص١٥٠ ومابعدها ؛ محمد زغلول سلام، الأدب فى العصر الأيوبى (دار المعارف ١٩٦٨)، ص٨٨- ص٩٠ .

٧٥- أبوشامة ، الروضتين ، ج١ ، ص٦٨٦- ص٦٨٧ .

كتاب على خمسين أو ستين جزءا مجلداً، إذا فقد منها جزء لايخلف أبداً. فاختلطت واختبطت، فكان الدلاّل يخرج عشرة عشرة من كل فن كتبًا مبترة، فتُسام بالدون، وتباع بالهون ... فلما رأيت الأمر حضرت القصر واشتريت كما اشتروا، واستكثرت من المتاع المباع ... ولما عرف السلطان ما ابتعته، وكان بمئين، أنعم عليَّ بها...» بل إن السلطان صلاح الدين أنعم عليه أيضًا بأحمال أخرى من الكتب. وعلى الرغم من أنه يمكن تبرير ما فعله صلاح الدين في ضوء حماسته لإعادة مصر إلى رحاب السنة، فالواقع أن تأثيره كان سلبيًا على تاريخ الثقافة العربية الإسلامية بشكل واضح.

من ناحية أخرى، اتخذ صلاح الدين عدة إجراءات مدنية إصلاحية؛ منها إلغاء الضريبة التي كان يدفعها كل حاج يركب البحر من عيذاب إلى مكة وقدرها سبعة دنانير مصرية ونصف[٧٦]. وواصل إجراءاته المدنية واستمر في إنشاء المدارس كما أنشأ مستشفى (بيمارستان) مكان خزانة الأشربة التي كانت بالقصر الفاطمي. وكان هدفه الواضح من ذلك استقرار الأحوال داخل مصر.

أما الفرنج فكانت أحوالهم في تدهور مطرد، ولم يكن هناك أمل في أن يغالبوا مشكلاتهم الداخلية الناجمة عن وجود ملك مريض على عرش مملكة بيت المقدس الصليبية هو الملك بلدوين الرابع، وعن وجود وصي على العرش لايتفق عليه الجميع هو ريمون كونت طرابلس الذي لم يمكث في منصب الوصاية أكثر من ثلاث سنوات[٧٧]. ومن ناحية أخرى، لم يجد الصليبيون من يساندهم في الغرب المشغول بمشكلاته. كما أن الامبراطور البيزنطي مانويل كومنين كان في وضع حرج؛ ففي سنة ١١٧٦م ألحق السلطان السلجوقي قلج أرسلان الثاني هزيمة فادحة بالإمبراطور البيزنطي قضت على الجيش الذي كانت أسرته قد بنته على مدى عدة أجيال في مريو سيفالون Myriocephalon التي يقارنها المؤرخون بهزيمة مانزكرت قبل أكثر من مائة سنة. ويرى رنسيمان وماير أن هذه الهزيمة كانت كارثة لكل من البيزنطيين والفرنج على السواء[٧٨].

٧٦- المقريزي، السلوك، جـ١، ص٦٤.

٧٧- كان ريمون في الرابعة والثلاثين من عمره عندما تولى الوصاية على الملك بلدوين الرابع. وخلال السنوات الطويلة التي قضاها في الأسر عند المسلمين تعلم اللغة العربية ودرس أساليب المسلمين. وكان يرى مشكلات الصليبيين من منظور محلي وكان اهتمامه منصبًا على بقاء الكيان الصليبي وليس على دور الصليبيين باعتبارهم رأس حربة للغرب العدواني- أنظر: Runciman , Op. cit., vol . II, p. 405 .

٧٨- Ibid, pp. 411-12 ; Mayer, The Crusades, p. 125 .

وعلى الرغم من أن الجيش البيزنطى قد هلك فى هذه المعركة ، فإن أسطوله كان ما يزال قويًا ، وكان على استعداد لاستخدامه ضد صلاح الدين الأيوبى فى مصر. وبعد عدة أحداث فشلت محاولات الحلف البيزنطى/ الصليبى.

وفى ٣ جمادى الأولى سنة ٥٧٣هـ / ١٨ نوفمبر ١١٧٧م عبر صلاح الدين بقواته الحدود المصرية لمواجهة الفرنج، وكان جهاز مخابراته قويًا وممتازاً كالعادة فعرف أن التحالف البيزنطى/ الصليبى قد انهار . وعزم على شن هجوم قوى على سواحل فلسطين. وجمع فرسان الداوية كل ما أمكنهم من قوات للدفاع عن غزة ، ولكن الجيش المصرى اتجه إلى عسقلان مباشرة « ... فسبى وغنم وقتل وأسر... » وكانت تلك المرة الوحيدة التى أفرط فيها صلاح الدين فى ثقته بنفسه ؛ إذ إنه سمح لقواته بالتحلل من النظام الصارم الذى وضعه لها. وفى ٢ جمادى الآخرة ٥٧٣هـ / ٢٥ نوفمبر ١١٧٧م فاجأتهم القوات الصليبية بقيادة أرناط عند نهر تل صافية ، قرب مدينة الرملة بفلسطين ، ولحقت الهزيمة بجيش صلاح الدين الذى نجا بأعجوبة « ... ودخل السلطان القاهرة منتصف جمادى الآخرة ، فحلف لاتضرب له نوبة حتى يكسر الفــرنج... »[٧٩] كانت الهزيمة ثقيلة لكنها لم تغير شيئًا من الأوضاع السائدة فى المنطقة ؛ لأنها لم تكن تعبيراً حقيقيًا عن توازنات القوى ؛ إذ كانت موارد مصر غير محدودة بشريًا واقتصاديًا على حين كان الفرنج يعانون نقصًا فادحًا فى القوى البشرية والمال.

وبقى صلاح الدين الأيوبى فى مصر عدة شهور بعد هزيمة تل الصافية حتى تأكد أن كل شئ تحت السيطرة . وفى أواخر شهر شعبان خرج إلى بلاد الشام وظل بها حيث أمضى بقية سنة ٥٧٣هـ والأعوام التالية حتى سنة ٥٧٦هـ حين خرج من دمشق قاصداً القاهرة فى رجب سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م. وطوال هذه الفترة لم يكف صلاح الدين عن محاربة الصليبيين ولكنه ركز انتباهه أيضا على الأمراء المتنافسين فى بلاد الشام والجزيرة . وفى هذه السنة مات السلطان سيف الدين غازى صاحب الموصل من آل زنكى وخلفه على العرش أخوه عز الدين مسعود ، وطلب صلاح الدين تفويضا بحكم الموصل من الخليفة العباسى الذى لم يتأخر فى إرسال

٧٩- المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٦٤ ؛ أبوشامة ، الروضتين، جـ١ ، ص٦٩٩-٧٠٣ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية، ص٤٢-٤٣ .

وتل الصافية تسمية المصادر الصليبية مونت جيسارد Montgisard ،

أنظر: . Runciman, Op. cit., vol . II, pp. 416-418

التفويض ، ولكن ذلك لم يغير شيئًا من الأوضاع السياسية[٨٠]. وقد استغل صلاح الدين السنوات القليلة التي سبقت معركة حطين في تعزيز قوته؛ إذ إن حملاته ضد الفرنج في عامي ١١٧٧ ، ١١٧٩م أوضحت تمامًا أن صلاح الدين لايمكن أن يعتمد على الزنكيين في الموصل وحلب ؛ بل كشفت أنهم كانوا خطراً دائما على دولته وعقبة في سبيل بناء قوته . وجاءت وفاة سيف الدين غازي حاكم الموصل وتفويض الخليفة صلاح الدين حكمها كسبًا معنويًا أكثر من أي شئ آخر.

ولم يكف صلاح الدين عن مواصلة تحصينات الحدود المصرية، وترتيب أموره على المستوى السياسي والدبلوماسي ؛ فقد أمر سنة ٥٧٧هـ / ١١٨٠م بتحصين أبراج دمياط وإمدادها بالمقاتلين ، وجهز الأسطول وأنفق على قواته البحرية وجهَّزهم للقتال[٨١] وقد وصلت قوات الجيش المصري في هذه السنة حسب كلام المقريزي « ... وفي رجب استقرت عدة الأجناد ثمانية آلاف وستمائة وأربعين ، وأمراء مائة أحد عشر، وطواشية ستة آلاف وتسعمائة وستة وسبعين، وقرا غلامية ألف وخمسمائة وثلاثة وخمسين» بالإضافة إلى القوات المساعدة من العسكريين الذين ليست لهم إقطاعات وقبائل العربان في أنحاء مصر، وبلغت مصروفات الجيش أربعة ملايين وستمائة ألف وسبعين ألفًا وخمسمائة دينار حسب تقدير المقريزي[٨٢]، وهو رقم ضخم بمقاييس ذلك الزمان بيد أنه يكشف عن مدى حرص صلاح الدين على أن يكون مستعداً لمواجهة الفرنج .

في سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م خرج صلاح الدين الأيوبي من مصر قاصداً بلاد الشام، ووصل إلى دمشق في أواخر صفر . وكانت تلك الرحلة آخر عهده بمصر فقد أمضى السنوات التالية حتى وفاته ما بين فلسطين وبلاد الشام محاربًا ضد الفرنج وضد منافسيه من بقايا الزنكيين .

من ناحية أخرى، كانت أحوال الفرنج في تدهور مستمر؛ فقد كانت الخلافات بينهم مشتعلة ولم يستطع ملكهم المجذوم شيئًا . وقبل عام من خروج صلاح الدين من مصر توفي حليفهم

٨٠- المقريزي، السلوك، ج١ ، ص٧٠ / ص٧١ .

٨١- نفسه، ج١ ، ص٧٢ / ص٧٤ .

٨٢- نفسه، ج١ ، ص٧٢- ص٧٥ . وأمير المائة هو ضابط كبير يحق له أن يقود مائة من الفرسان وله إقطاع كبير يناسب رتبته، والطواشية أشبه بضباط الصف في الجيوش الحديثة ، وهم المسئولون عن التدريب بشكل مباشر، والقراغلامية يشبهون الشرطة العسكرية حاليا؛ إذ كانت مهمتهم ضبط النظام ومراقبة الطرق أثناء تحرك الجيوش.

القوى مانويل كومنين فى ٢٤ سبتمبر ١١٨٠م. وخلفه على العرش صبى فى الحادية عشرة من عمره ووفقًا للتقاليد الإمبراطورية البيزنطية صارت أمه الإمبراطورة ماريا حاكمة على الإمبراطورية ؛ بيد أنها كانت لاتينية وهو الأمر الذى جعلها أول حاكم لاتينى على عرش بيزنطة من جهة، وجلب عليها سخط شعب القسطنطينية من جهة أخرى . وأدت تطورات الأحداث إلى انقضاض شعب القسطنطينية على جميع اللاتين الموجودين بالمدينة. وجرت مذبحة رهيبة لم ينج منها سوى عدد قليل من التجار الإيطاليين. ودخل أندرونيكوس كومنين ليطيح بالإمبراطور الطفل أليكيوس الثانى وأمه اللاتينية ١١٨٢م. ثم أدت تطورات السياسة البيزنطية المتقلبة إلى تدهور بيزنطة بالشكل الذى قلب موازين القوى فى شرق المتوسط[٨٣] .

وكان ما حدث مناسبًا تمامًا للمسلمين ولقائدهم صلاح الدين الأيوبى . وأخذ صلاح الدين يستخدم ضد منافسيه الزنكيين نفس المزيج من الدبلوماسية والدعاية واستعراض القوة الذى استخدمه نور الدين محمود من قبل. وكان الفرنج والبيزنطيون عاجزين تمامًا عن إنقاذ مملكة بيت المقدس الصليبية ، وفى ظل هذه الظروف كان من المناسب للفرنج فى المملكة أن يحافظوا على الهدنة التى عقدوها مع صلاح الدين سنة ١١٨٠م، ولكن رينالد دى شاتيون (أرناط) لم يكن قادراً على أن يفهم سياسة تتعارض مع نزواته . ففى سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م وردت الأخبار بأن هذا الأمير الصليبى المشاغب فى إمارة الكرك بشرق الأردن يهدد بالمسير إلى تيماء ودخول المدينة النبوية . فخرج الأمير عز الدين فرخ شاه من دمشق بعساكره إلى الكرك «... ونهب وحرق ، وعاد إلى أطراف بلاد الإسلام فأقام به... »[٨٤] وكان من شروط الهدنة بين صلاح الدين والصليبيين الحفاظ على حرية مرور التجار المسلمين والفرنج فى أراضى الطرفين دونما اعتراض . وقد ساء رينالد دى شاتيون أن يرى القوافل الغنية للمسلمين تمر بجواره ؛ فاستجاب للغواية . وهاجم قافلة كانت فى طريقها إلى مكة، فأرسل صلاح الدين فرخ شاه الذى جعل «أرناط» يهرول عائداً إلى إمارته . واشتكى السلطان للملك بلدوين الرابع من انتهاك المعاهدة وطالب بالتعويض ، واعترف الملك بعدالة الشكوى ولكن أرناط تمادى فى غيّه وأعماه العناد. وبعدها بعدة شهور أسرت البحرية المصرية ألفًا وخمسمائة من الفرنج أجبرتهم أحوال الطقس على الرسو قرب دمياط[٨٥]. وأرسل صلاح الدين يعرض على بلدوين

٨٣- Runciman, A Hist. of the Crusades, vol . II, pp. 426-430 .

٨٤- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٧٢ .

٨٥- Runciman , Op. cit., vol . II., p. 431 .

إطلاق سراحهم فى مقابل عودة بضائع القافلة التى نهبها رينالد دى شاتيون، ولكن الأخير رفض أن يعيد شيئًا .

هكذا، باتت الأمور مواتية لعمل عسكرى كبير من جانب المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبى. فقد كانت جبهة المعارضين للسلطان آخذة فى التآكل، إذ إن اختفاء سيف الدين غازى من الموصل بعث الأمل فى نفس صلاح الدين، كما أن موت الملك الصالح اسماعيل سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م قوى هذا الأمل ، ويقول المقريزى : «... وكان موت الصالح هو المحرك للسلطان على السفر ... »[٨٦] أما جبهة الفرنج فكانت تشى بالعجز والضعف ؛ ملك مجذوم عاجز عن أن يفرض سلطته على أمير مشاغب مثل أرناط ، وبلاط منقسم على نفسه شيعًا وأحزابًا ، وبيزنطة والإمارات الصليبية عاجزة عن أن تمد يد العون إلى مملكة بيت المقدس المتهاوية، والغرب الأوربى مشغول عن الفرنج فى الشرق بمشكلاته الداخلية.

وعلى الجانب الآخر، كانت قوة صلاح الدين العسكرية فى تصاعد مستمر، كما أن نفوذه السياسى المباشر امتد من مصر إلى الحجاز واليمن وشرق أفريقيا ، والشام وأعالى العراق ، فضلاً عن بلاد المغرب. وكانت سيطرته السياسية قوية فى البلاد الخاضعة لحكمه المباشر ، كما أن تحصيناته العسكرية البرية فى القاهرة والسويس ودمياط والاسكندرية كانت قد اكتملت . وزاد عدد جيوشه وعدد القطع البحرية فى أسطوله .

وجاءت سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م بحادثين كانا السبب الأساسى وراء خروج صلاح الدين من مصر إلى بلاد الشام ؛ أولهما : وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود والفراغ السياسى الناجم عن ذلك فى حلب، وثانيهما : الهجوم البحرى البرى الذى شنه رينالد دى شاتيون (أرناط) على الحجاز ، وهكذا باتت الحرب حتمية .

= ويقول المقريزى (ج١، ص٧٧) «... وألقى الريح بُطسة للفرنج إلى بر دمياط، فأسر منها ألف وستمائة وتسعون نفسًا سوى من غرق».

٨٦- المقريزى، السلوك، ج١ ، ص٧٧ .

الفصل الثاني

معركة حطين واسترداد القدس

المشهد السياسي والعسكري- عدوان أرناط على الحجاز ورد الفعل من جانب صلاح الدين- الجبهة العربية الإسلامية وتطوراتها- معركة حطين وأهم نتائجها - تحرير بيت المقدس- رد فعل الغرب الأوربي- الحملة الصليبية الثالثة - ما بعد الحملة - وفاة صلاح الدين الأيوبي- خاتمة.

كانت سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م سنة حاسمة على المستوى السياسي والعسكري لكل من صلاح الدين ، وما يمثله على الجبهة العربية الإسلامية ، وخصومه السياسيين من بقايا البيت الزنكي، وأعدائه الصليبيين.

ففي تلك السنة كانت معظم مناطق مصر والشام والعراق قد دخلت في نوع ما من الوحدة السياسية باستثناء الموصل وحلب. ومن ناحية أخرى كان صلاح الدين قد مد نفوذه إلى بلاد المغرب واليمن[1] إلى جانب سيادته المباشرة على مصر والشام . كما أنه قد رتب نوعًا من الصلح مع الإمبراطور البيزنطي. وبقي على صلاح الدين أن يستكمل بناء الجبهة المتحدة قبل الهجوم الحاسم على الصليبيين. وحاول الاستيلاء على حلب ولكنه غادرها بعد ثلاثة أيام واستولى على الرها والرقة ونصيبين، ثم حاول أن يستولي على الموصل دونما نجاح [2].

في هذه الأثناء كان الأمير الصليبي «أرناط» يخطط لعملية خرقاء كانت تختمر في ذهنه منذ وقت طويل؛ مضمونها الإغارة على قوافل التجارة الغنية إلى مكة بل والهجوم على المدينة المقدسة نفسها. وفي خريف سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م سار إلى أيلة على خليج العقبة، واستولى على أيلة التي كانت بأيدي المسلمين منذ سنة ١١٧٠م. وربما يكون مناسبًا أن نورد نص رواية المقريزي ؛ إذ يقول : «... فيها قصد الفرنج بلاد الحجاز وانشأ البرنس أرناط صاحب الكرك سفنًا وحملها على البر إلى بحر القلزُم ، وأركب فيها الرجال، وأوقف منها

١- المقريزي، السلوك، ج١ ، ص٧٤ ، ص٧٥ .

٢- نفسه، ج١ ، ص٧٨ .

مركبين على حرزة قلعة القلزم ، لمنع أهلها من استقاء الماء، وسارت البقية نحو عيذاب فقتلوا وأسروا ، وأحرقوا فى بحر القلزم نحو ست عشرة مركبًا، وأخذوا بعيذاب مركبًا يأتى بالحجاج من جدة؛ وأخذوا مركبين فيهما بضائع جاءت من اليمن ، وأخذوا أطعمة كثيرة من الساحل كانت معدة لميرة الحرمين، فإنه لم يبق بينهم وبين المدينة النبوية سوى مسيرة يوم واحد، ومضوا إلى الحجاز يريدون المدينة النبوية. فجهّز لهم الملك العادل ، وهو يخلف السلطان بالقاهرة ، الحاجب حسام الدين لؤلؤ إلى القلزم ، فعمّر مراكب بمصر والإسكندرية ، وسار إلى أيلة ، فظفر بمراكب الفرنج فحرقها وأسر من فيها، وسار إلى عيذاب ، وتبع مراكب الفرنج ، فوقع بها بعد أيام واستولى عليها، وأطلق من فيها من التجار المأسورين، وردّ عليهم ما أخذ لهم ؛ وصعد البر ، فركب خيل العرب حتى أدرك من فرّ من الفرنج وأخذهم ، فساق منهم إثنين إلى منى ونحرهما كما تنحر البُدْن، وعاد إلى القاهرة بالأسرى فى ذى الحجة فضُربت أعناقهم كلهم ...»[٣].

هذه الحادثة أثارت ثائرة المسلمين جميعًا ؛ بل إن خصوم صلاح الدين من بقايا البيت الزنكى ساء موقفهم السياسى كثيراً من جراء تحالفهم مع الفرنج الذين كشفوا أنهم لايتورعون عن أى شئ . ومن ناحية أخرى، كان رد فعل الملك العادل أخى صلاح الدين ونائبه فى مصر عنيفًا حسب النص الذى أوردناه وحسب رواية المصادر التاريخية الأخرى. فقد هاجم الأسطول المصرى الصليبيين وخاض ضد أسطولهم معركة بحرية ظافرة، وقد أسر سفينة نقل عسكرية (بُطسة) كان بها أخشاب وعدد من الرجال أكثر من سبعين رجلا.

ومضى صلاح الدين فى محاولاته العسكرية والسياسية لتوحيد القوى المسلمة فى بلاد الشام. وهنا ينبغى أن نضع فى اعتبارنا أن وعى صلاح الدين بالتهديد الذى يمثله الفرنج من ناحية ، ومخاطر انقسام الصف الإسلامى من ناحية أخرى ، قد تكون من خلال خبراته الأولى فى مصر عندما جاءها فى جيش عمه أسد الدين شيركوه[٤] وهنا ربما يكون مناسبًا أن نقتبس فقرة من كلام الأستاذ جاكسون عن إدارة صلاح الدين لمسألة الحرب والسياسة:

٣- نفسه، ج١ ، ص٧٨ - ص٧٩ ؛ قارن رواية ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص١٢٧ . أنظر أيضًا :

Runciman, Op. cit., vol . II, pp. 436 -437 ; Mayer, Op. cit, p. 131 .

٤- ديفيد جاكسون ، «صلاح الدين : معركة حطين والاستيلاء على القدس- وجهة نظر»، فى كتاب : ٨٠٠ عام، حطين صلاح الدين والعمل العربى الموحد (دار الشروق، ١٩٨٩م) ، ص٨٧ .

«وعند تقييم فن إدارة شئون الدولة والفطنة السياسية الهائلة لصلاح الدين فإنه من المناسب بصفة خاصة أن نلاحظ المدى الذى يذهب إليه فى إعداد الأرضية السياسية والدبلوماسية قبل الإعداد لعمل ما. وعلى وجه الإجمال ، فإنه لا حلفاء صلاح الدين ولاخصومه ، أو المراقبون المحايدون (فى حالة المسلمين) قد خامرهم أدنى شك فيما كان صلاح الدين يفعله، أو لماذا كان يفعله. وما فعله صلاح الدين هو خلق الشروط التى يمكن فى ظلها إحراز النصر إذا ما كانت الفرصة فى متناول اليد»(٥).

ونحن إذ نوافق الأستاذ جاكسون على رأيه نرصد فى المصادر التاريخية ما يؤكد هذا الرأى أيضا. ففى شهر المحرم سنة ٥٧٩هـ / يونيو ١١٨٣م تسلم السلطان مدينة حلب باتفاقية صلح(٦)؛ وبهذا بدأت مرحلة جديدة وحاسمة فى المواجهة بين المسلمين والفرنج.

بعد ترتيب الأوضاع فى حلب عاد صلاح الدين إلى دمشق التى صارت قاعدة ملكه الذى امتد آنذاك من برقة غربًا حتى الفرات شرقًا . ويرى رنسيمان أنه على مدى القرنين السابقين لم يشهد التاريخ حاكما فى مثل قوة صلاح الدين (٧)، وهذه حقيقة . إذ إن صلاح الدين كان يحكم مصر بمواردها الهائلة ، كما أن دمشق وحلب المدينتان العظيمتان والمناطق التابعة لهما كانتا تحت حكمه المباشر. ولم يبق غير الموصل خارج نطاق سيطرته ، بيد أن المسافة بين حلب والموصل كانت مزروعة بالأتباع الإقطاعيين الذين كان يمكن للناصر صلاح الدين أن يعتمد عليهم. وكان حاكم الموصل يخشاه على حين كان السلطان السلجوقى فى الأناضول يسعى إلى كسب صداقته . أما الإمبراطورية البيزنطية فلم تعد تشكل خطراً على المنطقة العربية لأنها تحولت بفعل الأحداث والمنازعات السياسية الداخلية إلى جسد عاجز .

ولم يبق سوى هؤلاء الدخلاء الذين أقاموا مستوطناتهم على الأرض العربية، وكان استمرار بقائهم عاراً على أبناء هذه المنطقة. وبدأ صلاح الدين يعد العدة للمعركة الحاسمة ضد الفرنج .

٥- نفسه، ص٩١ .

٦- المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٨١ ؛ وقد تسلمها صلاح الدين من عماد الدين زنكى (الثانى) على أن يأخذ عماد الدين سنجار بدلاً منها. وتولى غياث الدين غازى بن صلاح الدين حكم المدينة.

٧- Runciman, Op. cit ., II, p. 435 .

بعد أن مكث صلاح الدين فى دمشق حوالى أسبوعين ، بدأ أعماله العسكرية ضد الصليبيين. فهاجم بيسان وعدداً من القلاع والحصون الصليبية . ثم سار إلى الكرك، حيث عدوه الكريه رينالد دى شاتيون (أرناط) «... فنازله مدة ولم ينل منه غرضًا ...»(٨) ويغلب على الظن أن صلاح الدين كان يريد بهذه المناوشات العسكرية أن يستعرض قوته لأغراض سياسية. ذلك أنه لم يكن ليقدم على الحرب الحاسمة طالما كانت إمارة الموصل القوية مصدر تهديد له . فقد كان صلاح الدين يدرك تمامًا حال الضعف التى أنشبت مخالبها فى الكيان الصليبى، كما كان يدرك أن وحدة القوى السياسية والعسكرية فى المنطقة العربية شرط جوهرى للنصر فى حرب كبرى. وكان فى مناوشاته العسكرية ضد الصليبيين يضع تحقيق هذه الوحدة ، أو العمل السياسى والعسكرى المشترك على الأقل، نصب عينيه .

على أية حال ، فإن صلاح الدين عاد إلى الهجوم على حصن الكرك الذى كان صاحبه المزعج «أرناط». ، من أكثر الصليبيين استفزازاً وإجرامًا . وكان صلاح الدين يريد التخلص من هذا العدو المشاكس ؛ إذ كان بوسع أرناط أن يقطع الطريق على القوافل بين مصر والشام طالما ظلت قلعة الكرك الحصينة تحت سيطرته، كما أن التجربة أوضحت فى الماضى أنه لايحترم المعاهدات . على أية حال، رحل السلطان من دمشق إلى الكرك وجاءته التعزيزات العسكرية من مصر فى شهر ربيع الآخر سنة ٥٧٩هـ / نوفمبر ١١٨٣م وعسكر أمام أسوار الكرك (٩). ويجدر بنا أن ننقل ما كتبه رنسيمان عن هذه المحاولة (١٠):

«هاجم صلاح الدين المدينة فى الحال وشق طريقه إلى الداخل بالقوة . ولم يستطع رينالد شيئا سوى الهرب إلى داخل القلعة بفضل بطولة واحد من فرسانه تمكن بمفرده من الدفاع عن القنطرة التى تصل ما بين البلدة والقلعة حتى أمكن تدميرها بعد عبوره . وفى استعراض للشجاعة المصطنعة استمرت احتفالات الزواج فى القلعة (١١). وبينما كانت قذائف الحجارة

٨- المقريزى، السلوك ، جـ١ ، ص٨١ - ض٨٢ .

٩- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٨٣ .

١٠- . Runciman, Op. cit., II, pp. 440-441

١١- كانت احتفالات الزواج لعقد قران الأميرة إيزابيلا، وعمرها إحدى عشرة سنة وهومفرى التورونى وعمره سبعة عشر عامًا، وكان رينالد قد صمم على أن يتم الزواج بأكثر ضجة ممكنة فى قلعته بالكرك التى كانت العروس هى الوريثة الشرعية لها أنظر : . Runciman, Op. cit., II, p. 440

تتساقط على الأسوار ، استمر الغناء والرقص داخل القلعة . وقامت أم العروس، السيدة ستيفانى، بتجهيز عدة أطباق من وليمة العُرس بنفسها وأرسلتها إلى صلاح الدين. ورد هو على ذلك بأن سأل عن البرج الذى يوجد به العروسان الشابان وأصدر أوامره بعدم قذفه بآلات الحصار. بيد أنه لم يتراخ فى جهوده . فقد كانت منجنيقاته التسعة الضخمة فى عمل مستمر، كما أن رجاله كادوا أن يردموا الخندق.. » .

ثم تقرر رفع الحصار عن الكرك عندما وردت الأخبار « ... عن اجتماع الفرنج... » وجرت مناوشات عسكرية عند نابلس وجنين، ثم عاد صلاح الدين إلى دمشق حيث أخذ يواصل مناوراته السياسية والعسكرية استعداداً لحربه الفاصلة ضد الفرنج. وعلى الجبهة الأخرى كانت الانقسامات تنهش فى الكيان الصليبى، كما كان المرض ينهش فى جسد الملك بلدوين الرابع الواهن . ومات ملك بيت المقدس سنة ١١٨٥م مما جعل جميع الفرقاء الصليبيين يوافقون على عقد معاهدة لمدة أربع سنوات مع صلاح الدين. وقد أتاحت هذه المعاهدة لصلاح الدين حرية المناورة ضد إمارة الموصل(١٢) وقد تمكن صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م أن يضغط على الموصل حتى تقرر الصلح « ... بينه وبين المواصلة فى يوم عرفة، وخُطب له بجميع بلاد الموصل ، وقُطعت خطبة السلجوقية منها ، وخُطب له فى ديار بكر ، وجميع البلاد الأرتقية، وضُربت السكة باسمه ... »(١٣). وهكذا ، آتت مناورات صلاح الدين السياسية والعسكرية ضد إمارة الموصل أُكلها ، فقد كانت ترجمة ما حدث على أرض الواقع زيادة جيش صلاح الدين فوراً بقوة عسكرية قوامها ستة آلاف رجل(١٤). وعلى المستوى السياسى كان ذلك يعنى توحيد كافة القوى الإسلامية فى المنطقة العربية تحت قيادة الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب، وعلى المستوى الاستراتيجى كان ذلك يعنى أن موازين القوى فى المنطقة العربية قد مالت لصالح المسلمين بشكل حاسم .

= ومن الملاحظ أن المصادر التاريخية العربية لم تذكر شيئًا عن هذه التفاصيل إذ يقول المقريزى « ... ونصب عليها تسعة مجانيق رماها بها ، وقدمت الأمداد من الفرنج ، فرحل السلطان إلى نابلس ، ونهب كل ما مرَّ به من البلاد ، وأحرق نابلس وخربها ونهبها ، وقتل وسبى وأسر... » (السلوك ، ج١ ، ص٨٤) .

١٢- Mayer, The Crusades, p. 126 ; Runciman , Op. cit., II, pp. 444-445 .

١٣- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٨٩ - ص٩٠ .

١٤- Mayer , Op. cit., p. 126 .

هكذا ، جاءت سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م تتويجًا لدبلوماسية صلاح الدين العبقرية التى استخدم فيها مزيجًا مدهشًا من القوة العسكرية والمرونة السياسية والدعاية؛ فضلاً عن التخطيط الجيد لكل تحركاته . فقد كان قد أتم بناء الأسطول المصرى بحيث صار قوة بحرية قادرة ومرهوبة فى البحر الأحمر وفى البحر المتوسط، وفى الوقت نفسه حاول عزل الفرنج عن جميع القوى التى كان من المحتمل أن تتحالف معهم؛ إذ إنه أقنع المدن التجارية الإيطالية أن تنقل تجارتها إلى مصر لكى يحرم الفرنج من المساندة التى يمكن أن تقدمها الكميونات الإيطالية فى المدن الصليبية ، كما أجرى إتصالاً دبلوماسيًا بالبيزنطيين، واتفق معه الامبراطور أندرونيكوس المتوجس خيفة من الغرب الأوربى (١٥).

وجاءت سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦م تحمل نُذُرَ الحرب ودلائل الهزيمة للفرنج. ففى مقابل وحدة المسلمين فى المنطقة العربية انقسم الصليبيون مرة أخرى إلى معسكرين. فقد مات الملك المجذوم بلدوين الرابع فى مارس ١١٨٥م، كما ذكرنا من قبل ، وخلفه بلدوين الخامس الذى كان طفلاً تحت وصاية ريمون دى سانجيل كونت طرابلس . ثم مات الملك الطفل فجأة أواخر صيف سنة ١١٨٦م، وكان آخر ملك صليبى يدفن فى كنيسة القيامة ببيت المقدس قبل تحريرها فى العام التالى. وبمناورة بارعة تغلبت سيبيلا (إيزابيلا) إبنة عمورى الأول، على ريمون وفريقه فى سبتمبر ١١٨٦م فيما يشبه الانقلاب وصار زوجها، جاى لوزنيان ملكًا على مملكة بيت المقدس الصليبية (١٦). وهكذا ، كان هناك معسكران: الملكة والملك زوجها الذى كان وسيمًا فى خلقته دنيئا فى أخلاقه، ومعهما عدد من صقور الصليبيين الذين كانوا يرون أن الحرب والعنف هى الوسيلة الوحيدة التى يمكن بها التعامل مع المسلمين. أما المعسكر الثانى فكان يضم عدداً من الأمراء يتزعمهم ريمون سانجيل كونت طرابلس، ويرون أن من الأفضل مهادنة المسلمين ما دامت الظروف لاتسمح بقتالهم (١٧). وقد أشار المقريزى إلى هذه الحقيقة بقوله فى حوادث سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦م : « ... ووقع الخلف بين الفرنج بطرابلس، فالتجأ القومص إلى السلطان، وصار يناصحه... »(١٨).

١٥- Ibid, pp. 127-130 .

١٦- Runciman , Op. cit., II, 447-9 ; Mayer, Op. cit, p. 130 .

١٧- جمال الدين الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، ج٢ العصران الأيوبى والمملوكى، ص٦٣-٦٦ .

١٨- السلوك ، ج١، ص٩٢ ، والمقصود بالقومص ريمون دى سانجيل كونت طرابلس.

كان هذا هو المشهد فى الساحة السياسية قبل معركة حطين، ثم ظهر رينالد دى شاتيون (أرناط) بطيشه ونزقه المعهود لينضم إلى الصقور الصليبية الجائعة وانتهك هدنة السنوات الأربع بين صلاح الدين والفرنج؛ وبذلك قدم لصلاح الدين سبب الحرب ومبرراً قوياً لبدء عملياته ضد الصليبيين. ففى هذه السنة خرج أرناط من مكمنه بالكرك وارتكب آخر حماقاته. فقد هاجم قافلة كبيرة ، وأسر من فيها « ... وامتنع من إجابة السلطان إلى إطلاقهم ، فتجهز السلطان لمحاربته، وكاتب الأطراف بالمسير لقتاله ... ». وهكذا دقت طبول الحرب .

هكذا وجد صلاح الدين الأيوبى فى غارة أرناط الحمقاء مبرراً قوياً لبدء عملياته العسكرية ضد الفرنج الصليبيين. وإذا كان المؤرخ الألمانى هانز ماير يرى أنه لم يكن بوسع صلاح الدين أن يسكت إزاء هذه التهديدات المستمرة لطريق التجارة الرئيسى بين مصر والشام، وللبحر الأحمر طريق التجارة بين مصر والهند وبلاد المحيط الهندى[١٩]، فإننا نرى أن هذا السبب كان السبب المباشر والذريعة التى تذرع بها صلاح الدين لشن الحرب الشاملة ضد الفرنج بعد أن أعد العدة لذلك.

وعلى أية حال ، فإن الأنباء وصلت بسرعة إلى صلاح الدين تخبره أن « أرناط » هاجم هذه القافلة الضخمة وذبح أفراد الحامية الصغيرة التى ترافقها لحمايتها من غارات البدو، وأنه أخذ التجار وأسرهم وممتلكاتهم أسرى عنده فى حصن الكرك . وطلب السلطان من الملك الصليبى «جاى لوزنيان» إطلاق سراح الأسرى ودفع التعويضات المناسبة مقابل هذا الانتهاك المخزى لشروط الهدنة بين الطرفين؛ ولكن التاج الصليبى كان أضعف من أن يضع أى قدر من التعقل فى رأس أرناط (رينالد دى شاتيون) الذى ألهبه الغرور والطيش. وحاول بوهيموند أمير أنطاكية تجديد الهدنة مع صلاح الدين ، كما حاول ريمون دى سانجيل أن يعقد معه هدنة تشمل طرابلس، كما تشمل إمارة طبرية التى تحكمها زوجته . واعتبر ملك بيت المقدس أن ما فعله ريمون خيانة للصليبيين. وكادت الحرب الأهلية أن تنشب بين الصليبيين. وتدخل باليان دى إبلين وتمت المصالحة بين الملك الفرنجى وريمون دى سانجيل كونت طرابلس[٢٠].

وبالقرب من الناصرة فى فلسطين جمع الصليبيون أكبر جيش أمكنهم جمعه فى تاريخ الكيان الصليبى على الإطلاق. إذ وصل عدد الجيش الصليبى إلى حوالى ثمانية عشر ألفاً

١٩- Mayer, Op. cit., p. 131 .

٢٠- Runciman , Op. cit., vol . II, pp. 451-452 .

من الفرسان والمشاة ؛ كان عدد الفرسان ذوو التسليح الثقيل ألفًا ومائتين، ومعهم أربعة آلاف من الفرسان خفيفة التسليح، والباقى من المشاة. وكانت تلك قوة ضخمة بمقاييس ذلك الزمان. وكان واضحًا أن الفرنج فى حال من الذعر والخوف جعلتهم يجندون كل الرجال القادرين على حمل السلاح .

أما قوات صلاح الدين فكانت تضم كافة القوات التى خرج هو على رأسها من دمشق إلى جانب القوات المصرية والعراقية التى قادها الأمراء الخاضعون لسلطته، أو أخوته وأبنائه. وكانت هذه القوات مقاربة فى عددها للقوات الصليبية وإن زادت عنها زيادة بسيطة.

وهنا بدأت التحركات العسكرية من الجانبين فيما يشبه مباراة الشطرنج التى يستخدم فيها كل طرف مالديه من شجاعة وذكاء وحسن استخدام لموارده . وهنا تجلت عبقرية صلاح الدين العسكرية التى حاول الكثيرون من مؤرخى الغرب التهوين من شأنها. لقد كانت معركة حطين، وما تلاها تتويجًا لجهود صلاح الدين فى الجهاد باعتباره الوسيلة الوحيدة لاستعادة بيت المقدس وتحرير المسجد الأقصى. ففى الفترة السابقة على معركة حطين قضى صلاح الدين ثلاثة عشر شهراً فى قتال الفرنج ، بصورة متقطعة ، على حين استغرقت معاركه ضد خصومه المسلمين، بصورة متقطعة أيضا ، ثلاثة وثلاثين شهرا (فى الفترة ما بين خريف سنة ١١٧٤م حتى معاهدته مع أمير الموصل سنة ١١٨٦م) [٢١]. ويمكن أن نخرج من هذه المعلومات بنتيجة هامة مؤداها أن السلطان كان يدرك تمامًا خطر مواجهة الفرنج قبل الاطمئنان إلى تقليم أظافر خصومه فى المنطقة العربية من ناحية، وأنه بعد أن عقد المعاهدة مع إمارة الموصل بادر إلى تنفيذ الجزء الأخير من خطته طويلة المدى من ناحية أخرى .

كانت خطة الفرنج الأولية قائمة على أساس تجنب المواجهة مع المسلمين؛ ومن ثم قامت استراتيجيتهم على خطة دفاعية بحتة ، والحيلولة دون نشوب حرب سريعة يكسبها صلاح الدين وجيوشه . وكان رأى ريمون كونت طرابلس أن الجيش الذى يهاجم فى حرارة الصيف اللاهبة لن يكون فى الوضع الأفضل، واقتنع الملك لوزنيان برأيه. ولكن زعيم فرسان الداوية «وأرناط» هاجما ريمون واتهماه بالجبن وبأنه باع نفسه للمسلمين ، ولما كان الملك الصليبى خفيف العقل فإنه كان يقتنع دائمًا بكلام آخر المتحدثين . وكان الجيش الصليبى آنذاك معسكراً فى صفورية ذات الحدائق الخضراء والمياه الوفيرة ، وكان بوسعهم أن يمكثوا هناك بقواتهم التى تقترب فى حجمها من قوات المسلمين أطول فترة ممكنة .

٢١- ديفيد جاكسون «معركة حطين والاستيلاء على القدس»، ص٨٦ .

وبادر صلاح الدين إلى خطة مضادة لإجبار الصليبيين على الخروج من مكمنهم الحصين، فشن هجومًا عنيفًا على طبرية فى ربيع الأول من سنة ٥٨٣هـ. وقد جاءت هذه المناورة البارعة بثمارها المرجوة . وعلى الرغم من أن ريمون سانجيل حاول إثناء الفرنج عن المسير إلى طبرية التى كانت زوجته محاصرة بداخلها ، وعلى الرغم من أن أمراء الفرنج وافقوه على رأيه بعدم الزحف إلى طبرية ، فإن زعيم الفرسان الداوية تسلل بليل إلى خيمة الملك جاى لوزنيان وأقنعه بتغيير رأيه. ونودى فى معسكر الصليبيين بالاستعداد للمسير إلى طبرية. وفى يوم الجمعة ٣ يوليو الذى كان يومًا قائظًا ساكن الهواء تحرك الجيش الصليبى من حدائق صفورية الخضراء إلى التلال العارية من الأشجار فى الطريق إلى طبرية .

وكالعادة ، كانت مخابرات صلاح الدين الأيوبى وقوات الاستطلاع فى جيشه تمتاز بالكفاءة والمهارة . وعرف بهدف القوات الصليبية والطريق الذى سوف تسلكه وتحرك الجيش الإسلامى من معسكره فى كفر سبت إلى حطين التى كانت قرية غنية بالمراعى وفيرة المياه. وهناك لحقت به فرق من القوات التى كانت تحاصر طبرية.

وبدأت الاشتباكات بين قوات الاستطلاع الإسلامية وقوات الفرنج أثناء مسير الجيش الفرنجى عبر التلال تحت شمس شهر يوليو اللاهبة . واضطر الفرنج أن يمضوا ليلتهم فى منطقة عديمة المياه فوق تل يشرف على بحيرة طبرية التى كان معسكر المسلمين يفصل بينهم وبينها. وأمضوا ليلة مرعبة زاد من سوئها العطش الذى أمسك بتلابيبهم جميعا ، والتهبت عيونهم من الدخان المنبعث من النيران التى أضرمها المسلمون فى الحشائش الجافة حول معسكر الصليبيين، كما أرهقتهم أصوات الصلاة والتكبير المنبعثة من معسكر المسلمين .

وعندما لاح ضوء الفجر اكتشف الصليبيون أنهم محاصرون تمامًا. وحاولت قوات المشاة الصليبيين شق الطريق صوب مياه البحيرة بالقوة ولكنهم تفرقوا بين القتل والأسر. وبعد قتال عنيف لقى الصليبيون أسوأ هزيمة فى تاريخ الكيان الصليبى. ولم ينج من الأسر أو القتل سوى ريمون سانجيل كونت طرابلس وعدد من أصدقائه. ففى يوم السبت ٢٤ ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ/ ٤ يوليو ١١٨٧م حصدت سيوف المسلمين زهرة الجيوش الصليبية[٢٢]. لقد فقد الصليبيون

٢٢- عن معركة حطين أنظر:

ابن شداد ، النوادر السلطانية، ص٦٠-٧٣ ؛ العماد الأصفهانى، الفتح القسى فى الفتح القدسى، ص١٧- ص٤٥ ؛ مجهول ، البستان الجامع ، ص١٤٦ ؛ ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ، ج٩، =

قواتهم الرئيسية فى هذه المعركة . وكانت النتائج المباشرة لمعركة حطين بمثابة كارثة كاملة على الفرنج؛ إذ إن مملكة بيت المقدس فقدت بالفعل جميع مقاتليها ، ولم يبق سوى حاميات صغيرة فى المدن والقلاع التى لم تسقط.

صحيح أن كوارث سابقة لحقت بالصليبيين فى المنطقة العربية قبل حطين، فقد لقى عدد من زعمائهم حتفهم بسيوف المسلمين، كما وقع بعض ملوكهم وأمرائهم أسرى فى السجون العربية، ونالتهم هزائم عسكرية ثقيلة. ولكن ما حدث فى حطين كان أبعد من مجرد هزيمة عسكرية على الرغم من أن المسلمين بقيادة صلاح الدين تمكنوا من تدمير أكبر جيش أمكن جمعه منذ قيام الكيان الصليبى على أرض فلسطين. ذلك أن حطين كانت بمثابة علامة تشير إلى الطريق الصحيح لهزيمة العدو ؛ وهو توحيد الجهود السياسية والعسكرية فى المنطقة العربية ضد الكيان الصليبى . وكانت جهود التوحيد هذه قد بدأت بعماد الدين زنكى، ثم ابنه نور الدين محمود ، وواصل صلاح الدين جهوده فى هذا السبيل كما أوضحنا فى الصفحات السابقة . فلاغرو أن كانت حطين تتويجًا لهذه الجهود.

ومن هنا جاءت أهمية معركة حطين تاريخيًا ، كما كان وقعها على الصليبيين وعلى أوربا الكاثوليكية قاسيًا.

على أية حال ، فإن الأسرى سيقوا إلى خيمة صلاح الدين الأيوبى. وأتى الحراس بالأسيرين الكبيرين؛ الملك جاى لوزنيان والأمير المشاغب رينالد دى شاتيون (أرناط) وأطاح صلاح الدين بسيفه رأس أرناط أمام الملك الصليبى المذعور، كما أمر بقتل كل فرسان الداوية وأبقى على حياة زعيمهم (٢٣).

بعد ذلك واصل صلاح الدين الأيوبى والقوات الإسلامية مسيرتهم الظافرة بعد معركة حطين

= ص١٨٧– ص١٧٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص١٨٧– ص١٩٢؛ المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٩٣ ؛ ميخائيل زابوروف ، الصليبيون فى الشرق، (دار التقدم، موسكو ١٩٨٦م)، ص١٩١– ص١٩٢ ؛
Mayer, Op. cit., pp. 131-132 .

Runciman , Op. cit., vol . II., pp. 450-460 .

وقال ابن الأثير فى وصف نتائج المعركة «... وكان من يرى الزسرى لكثرتهم لايظن هناك قتلى، فإذا رأى القتلى حسب أنه لم يكن هناك أسرى.

٢٣– المقريزى، السلوك، ج١ ، ص٩٣ ؛ Mayer , Op. cit., pp. 131-132 .

بسهولة بالغة . وتذكر المصادر التاريخية أن المسلمين استعادوا فى تلك الأثناء اثنتين وخمسين مدينة وحصنًا وقلعة . وقد استسلمت جميعًا نتيجة لما كان عليه حال الفرنج من تدهور وانعدام قوتهم العسكرية من جهة ، ولأن الفرنج كانوا يعرفون أن صلاح الدين يحافظ على وعوده من جهة أخرى. ومن ثم فقد رأوا أن من الأسهل لهم أن يستسلموا .

وتقدمت جيوش صلاح الدين إلى عكا التى كانت أهم موانئ الصليبيين على البحر المتوسط. واستسلمت المدينة وحاميتها فى الثانى من شهر جمادى الأولى ٥٨٣هـ / ١٠ يوليو ١١٨٧م وفى تلك الأثناء كانت جيوشه الأخرى تفتح مدن الجليل ونابلس فى الضفة الغربية. وفر الصليبيون إلى مدينة صور الحصينة ولم ينجح صلاح الدين فى اقتحامها بسبب قوة التحصينات وتنظيم الدفاع عنها . وعندما فشل الهجوم الأول عليها واصل الجيش زحفه صوب صيدا التى استسلمت دونما قتال فى ٢١ جمادى الأولى ٥٨٣هـ / ٢٩ يوليو ١١٨٧م . وحاولت بيروت أن تصمد وتدافع عن نفسها ولكنها استسلمت لصلاح الدين بعد ثمانية أيام بعد أن طلب الفرنج الأمان[٢٤]. وفى آخر جمادى الآخرة / سبتمبر من السنة نفسها تم تحرير عسقلان بعد أن احتلها الفرنج خمسًا وثلاثين سنة .

كانت عسقلان ذات أهمية عسكرية وسياسية فائقة بالنسبة لمصر؛ إذ إنها كانت بمثابة قاعدة بحرية وبرية متقدمة يمكن للقوات المصرية أن تشن منها هجمات مؤثرة ضد الصليبيين (على نحو ما حدث فى السنوات التى أعقبت نجاح الحملة الصليبية الأولى) كما يمكن ، من ناحية أخرى، أن تكون مصدر تهديد برى وبحرى لمصر على نحو ما حدث طوال الفترة التى أعقبت سقوطها بأيدى الصليبين. ولهذا السبب كان صلاح الدين الأيوبى حريصًا على أن يستولى على عسقلان قبل أن يواصل مسيرته المظفرة لفتح بيت المقدس وتحريره من الأسر الصليبى. ثم استسلمت غزة دون قتال .

سار صلاح الدين بجيشه قاصداً أن يفتح بيت المقدس بالسيف[٢٥] بعد أن فشلت المفاوضات بينه وبين رُسُل الفرنج فى بيت المقدس حول شروط الاستسلام وفى يوم الأحد ١٥

٢٤- Runciman , Op. cit., II, pp. 461-462 .

ويذكر المقريزى أن عدد الأسرى المسلمين الذين تم إنقاذهم بعد هزيمة الفرنج بلغ حوالى عشرين ألف إنسان، كما أسر المسلمون حوالى مائة ألف إنسان من الفرنج. أنظر:

المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٩٥ .

٢٥- ابن واصل ، مفرج الكروب، ج٢ ، ص٢٠٩- ص٢١١ .

رجب كانت قواته تفرض الحصار على المدينة «... وبه حشود الفرنج وجميعهم...» وبدأت القوات الإسلامية تنصب المجانيق وتهاجم الأسوار والأبراج ولكن مقاومة الفرنج العنيدة التى تحالفت مع حرارة شمس سبتمبر الحارقة جعلت صلاح الدين يغير موقع المعسكر، وظن الفرنج أن الجيش الإسلامى قد رفع حصاره عن المدينة؛ ولكنهم اكتشفوا أنهم أفرطوا فى التفاؤل حينما ظهرت القوات المسلمة على جبل الزيتون الذى يشرف على المدينة المقدسة.

فى الداخل كانت الملكة سيبيلا (إيزابيلا) تتولى الدفاع عن الصليبيين فى القدس ومعها البطريرك اللاتينى هيراكليوس والأمير باليان دى إبلين . وقد لجأ الصليبيون إلى طقوس غاية فى الغرابة لعلها تنجيهم من المسلمين؛ إذ إن السيدات من الطبقة الأرستقراطية حلقن شعور بناتهن ، وجردوهن من الملابس لكى يقمن بالاستحمام بالماء البارد علنًا فوق أحد التلال[٢٦]. ولكن المدينة كانت تحتاج إلى الرجال المقاتلين والعتاد ولاتحتاج لمثل هذه الطقوس العابثة .

ولابد أن المدافعين القلائل من الفرنج قد شعروا بالامتنان لأنهم تحت رحمة عدو مثل صلاح الدين يتصف بالإنسانية ويتمسك بوعوده . وعرض باليان الاستسلام على صلاح الدين الذى وافق بعد تردد طويل ، واستسلمت المدينة لمحرريها بعد أسر دام ثمانية وثمانين عامًا . ووافق صلاح الدين على أن يقوم كل رجل بدفع فدية قدرها عشرة دنانير ، وكل إمرأة خمسة دنانير، وفدية الطفل دينارين[٢٧] ودخل المسلمون القدس فى يوم ٢٧ رجب ٥٨٣هـ / ٢ أكتوبر ١١٨٧م .

وعلى حين بقى المسيحيون العرب وأتباع المذاهب الشرقية فى المدينة ، خرج البطريرك اللاتينى هيراكليوس ومعه كل أمواله وكل التحف الذهبية والفضية وذخائر كنيسة بيت المقدس تحت سمع وبصر الجنود المسلمين الذين أمرهم صلاح الدين بعدم التعرض له، أو لغيره من المدنيين. وغادر الفرنج القدس إلى صور .

لقد تم تحرير القدس بصورة إنسانية تناقض الصورة الهمجية الوحشية التى رسمها الغزو الصليبى للمدينة قبل بضع وثمانين سنة، و«... تسامع المسلمون بفتح بيت المقدس، فأتوه رجالاً وركبانًا من كل جهة لزيارته حتى كان من الجمع مالاينحصر...» على حد تعبير المؤرخ

٢٦- Mayer , Op. cit., p. 132 .

٢٧- ابن شداد ، النوادر السلطانية، ص١٢٩ ؛ المقريزى، السلوك، ج١ ، ص٩٧ .

Runciman , Op. cit., vol . II, pp. 264-266 .

تقى الدين المقريزى [٢٨]. وأقيمت الخطبة فيه يوم الجمعة الرابع من شعبان ، وعاد الأقصى مرة أخرى إلى المسلمين، وتم وضع المنبر الذى كان نور الدين محمود قد أعده لهذه المناسبة ، وخطب القاضى محيى الدين بن الزكى وهو بالملابس السوداء شعار العباسيين خطبة بليغة . وكانت عودة صلاة الجمعة والخطبة والمنبر رموزاً لمسيرة جهاد توارثتها الأجيال حتى تم تحرير القدس والأقصى من أيدى الفرنج[٢٩].

بقى صلاح الدين فترة لتنظيم أمور المدينة المحررة ، وسمح لليهود بدخولها بعد أن كانوا ممنوعين من زيارتها أيام الاحتلال الفرنجى، ولكن غالبية اليهود ظلوا مقيمين فى خارج المدينة حيث كانت أعدادهم ضئيلة بشكل عام فى فلسطين كلها ، وكانت هجراتهم تتجه إلى مصر بشكل واضح. كذلك بقى المسيحيون الشرقيون من الأرثوذكس واليعاقبة العرب فى مدينتهم إلى جانب المسلمين الذين عادوا إلى مدينتهم . وأمر السلطان بترميم المحراب العمرى القديم وكسوته بالرخام ، وجاء منبر نور الدين محمود من حلب ونصب بالمسجد الأقصى ، وأزيلت الصور والأيقونات المسيحية التى كان الصليبيون قد وضعوها بالمسجد الأقصى ، كما أزيلت مساكن فرسان الداوية التى اتخذوها فى ساحة الأقصى . وغُسلت قبة الصخرة بكميات كبيرة من ماء الورد وبُخِّرت وفُرشت . وتم ترتيب الموظفين الذين يقومون بخدمة المسجد الأقصى. وأغلقت كنيسة القيامة عدة أيام ثم فتحت وسمح للفرنج بزيارتها فى مقابل رسوم مالية يؤدونها .

وبعد عشرين يومًا غادر صلاح الدين مدينة بيت المقدس المحررة ، وزحف على عكا ومعه أخوه الملك العادل، وبقيا فى هذا الميناء الهام طوال الأسبوع الأول من شهر رمضان. ثم سار يواصل مهامه الجهادية .

٢٨- السلوك، ج١ ، ص٩٧ .

٢٩- ابن شداد ، النوادر السلطانية، ص٢٣٥- ص٢٣٧ ؛ الأصفهانى، الفتح القسى، ص٣١٤- ص٣١٧ مجهول ، البستان الجامع ، ص١٤٦- ص١٤٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ١٨٢ وما بعدها . ويروى ابن الأثير «أنه لما أمر صلاح الدين بعمل منبر للمسجد الأقصى قيل له إن نور الدين محموداً كان قد عمل بحلب منبرا ، أمر الصناع بالمبالغة فى تحسينه وإتقانه ، وقال هذا قد عملناه لينصب بالبيت المقدس، فعمله النجارون فى عدة سنين، لم يعمل مثله فى الإسلام فأمر صلاح الدين بإحضاره فحُمل من حلب ونُصب بالقدس». أنظر أيضا:

Mayer , Op. cit., p. 132 ; Runciman , Op. cit., II, pp. 466-7 .

لم يتبق بأيدى الصليبيين سوى أنطاكية وطرابلس وصور وبعض قلاع وحصون تناثرت هنا وهناك على الأرض العربية فى بلاد الشام. وكانت فلول الفرنج الهاربين من عكا وبيت المقدس وغيرهما من المدن والحصون المحررة قد انحشروا داخل صور التى تولى تنظيم الأمور الحربية فيها كونراد مونتفرات (المركيس فى المصادر التاريخية العربية) . وكانت مدينة صور قد باتت مدينة حصينة للغاية بسبب ترتيبات كونراد من ناحية، كما صارت غير قادرة على أن تستوعب المزيد من الفرنج اللاجئين من ناحية أخرى. ورفض كونراد دى مونتفرات أن يدخل المدينة سوى القادرين على القتال . أما العاجزون عن القتال فكان عليهم أن يواجهوا مصيرهم التعس ؛ فقد هاجمهم أحد الأمراء الصليبيين فى أحد الحصون المجاورة لصور وسرق ممتلكاتهم الهزيلة ، وساروا صوب طرابلس. وهناك كانت المدينة عاجزة عن أن تستوعب المزيد من اللاجئين الفرنج، كما كانت هناك مشكلة خطيرة ناجمة عن نقص الأقوات، وأمر حاكم المدينة بإغلاق بواباتها فى وجه الفرنج التعساء القادمين من القدس المحررة. وكان عليهم أن يواصلوا رحلة الشقاء نحو أنطاكية التى استقبلهم الصليبيون فيها على مضض (٣٠). لقد كانوا مستوطنين عدوانيين قدموا من الغرب الأوربى ليستوطنوا تحت سماء المنطقة العربية ، وعندما بدأت حركة التحرير الإسلامية لم يستطيعوا أن يساعدوا بعضهم بعضًا فى مواجهة أصحاب الحق.

توجه صلاح الدين بجيشه إلى صور فى اليوم التاسع من شهر رمضان ٥٨٣هـ / ديسمبر ١١٨٧م، ونصب عليها عدة مجانيق وحاصرها ، كما استدعى الأسطول من مصر للمساعدة فى حصارها، ولكن الفرنج استولوا على خمس من السفن الحربية حينما كان القتال دائرًا فى البحر والبر ، ثم أضطر صلاح الدين إلى رفع الحصار عن المدينة الحصينة ، «... وعادت العساكر إلى بلادها ...»(٣١) على حين أقام السلطان فى عكا. وفى العام التالى بدأ فى ترميم أسوار عكا وحصونها وعاد إلى دمشق . ثم استولى على عدة حصون وقلاع فى شمال بلاد الشام أخافت بوهيموند الثالث فطلب الصلح. ووافق صلاح الدين على عقد هدنة مدتها

٣٠- ذكر رنسيمان تفاصيل خروج الفرنج من بيت المقدس اعتمادًا على رواية أرنول الذى أكمل تاريخ وليم الصورى . Estoire d'Eracle , II, 81-99

وعلى بهاء الدين بن شداد، وابن الأثير - أنظر: . Runciamn , Op. cit. , vol II, pp. 467-468

٣١- المقريزى، السلوك ، ج١ ص٩٧ ، ص٩٨ .

ثمانية أشهر. وكان لكل من الطرفين هدف يسعى إلى تحقيقه من وراء هذه الهدنة بطبيعة الحال، ولكن أهم نتائجها تمثلت فى إطلاق سراح ألف أسير مسلم كانوا فى سجون أنطاكية(٣٢).

هكذا، كان الحال فى المنطقة العربية بعد استرداد القدس. فقد زادت مساحة المناطق الإسلامية وتقلصت مساحة المستوطنات الفرنجية . ويرى رنسيمان أن خطأ صلاح الدين القادح تمثل فى أنه ترك مدينة صور تستقبل الفارين من المدن التى حررها المسلمون، لأن الصليبيين تجمعوا فى هذه المدينة حتى جاءتهم النجدة من الغرب فيما عرف باسم الحملة الصليبية الثالثة. ولم يكن قد تبقى بأيدى الصليبيين فى بلاد الشام سوى صور وأنطاكية وطرابلس وبعض القلاع المتناثرة هنا وهناك .

وجاء رد الفعل الأوربى سريعًا وعنيفًا؛ ولأن الأنباء السيئة تنتشر بسرعة فإن الكارثة التى جرت على الفرنج فى معركة حطين وصلت أنباؤها إلى الغرب على ألسنة الرسل الذين ذهبوا لإبلاغ حكام أوربا الكاثوليكية وعلى رأسهم كبير أساقفة صور الذى زار عدداً من ملوك الغرب وأمرائه طالبًا مساعدتهم ، ومات البابا إربان الثالث (١١٨٥-١١٨٧م) من هول الصدمة (٣٣). وخلفه الباب جريجورى الثامن الذى لم يستمر فى كرسى البابوية سوى شهرين، والذى أرسل خطابًا بابويًا لكل «المؤمنين فى الغرب»، وذكَّرهم بأن سقوط الرها بأيدى المسلمين قبل أربعين سنة كان ينبغى أن يكون نذيراً لهم. وفى هذا الخطاب تطورت فكرة الغفران الكاثوليكية المرتبطة فى أصولها بالحروب الصليبية؛ إذ إن جريجورى الثامن وعد المشاركين فى الحملة الصليبية بالغفران الكامل لخطاياهم. ومن ناحية أخرى، فرض البابا على الكاثوليك صيامًا فى كل يوم جمعة على مدى خمس سنوات قادمة، والامتناع عن أكل اللحم فى أيام السبت والأربعاء(٣٤). وهكذا اكتست الحملة الصليبية الجديدة- والتى عرفت عند مؤرخى

٣٢- نفسه ، ص١٠٠ ؛ Runciman , Op. cit., II, pp. 470-471 .

٣٣- قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية: الإيديولوجية- الدوافع - النتائج، (دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ٢٠٠١م) ، ص١٤٨ ؛

Sidney Painter, " The Third Crusade : Richard the Lionhearted and Philip Augustus", in Setton (ed.) , A History of the Crusades, II, pp. 45-48 ; Edgar N. Johnson , " The Crusade of Frederick Barbarossa and Henry VI " in, Setton, Op. cit., II, pp. 8- ff.

٣٤- Mayer, Op. cit., 136-137 ; Runciman , Op. cit. III , pp. 4-5 .

الحروب الصليبية بالحملة الثالثة- ثوبًا دينيًا مثل الحملة الأولى، بيد أن هذا الثوب الديني للحملة الثالثة لم يستطع أن يستر عوراتها السياسية على نحو ما سنرى فى الصفحات التالية.

أما فى المنطقة العربية فكان المشهد السياسى مختلفا إلى حد كبير، إذ كان صلاح الدين الأيوبى قد استرد الكثير من الحصون والقلاع الداخلية ؛ وكان أكثرها أهمية حصن الكرك الذى طالما سبب حاكمه المتهور العدوانى «أرناط» كثيراً من المشكلات لقوافل التجارة بين دمشق والقاهرة . صحيح أنه لقى جزاءه بسيف صلاح الدين، ولكن حصنه كان ما يزال بأيدى الفرنج. وكانت حاكمته هى الليدى ستيفانى التى كانت معه بين السبايا الذين تم افتداؤهم فى القدس بعد تحريرها ، وطلبت من صلاح الدين أن يطلق سراح ابنها هيومفرى أمير تورون . ووافق بشرط أن تسلم إليه قلعتيها الكبيرتين. وتم إرسال هيومفرى من سجنه لكى يلحق بها؛ ولكن حامية الكرك رفضت الانصياع لأوامرها بالتسليم؛ وإزاء ذلك بعثت بابنها إلى الأسر ثانية. وقد أعجب تصرفها الشريف صلاح الدين فأمر بإطلاق سراح ابنها. وفى الوقت نفسه كان الملك العادل أخو صلاح الدين الأيوبى يحكم حصاره على حصن الكرك على مدى أكثر من سنة، ووصل الفرنج المحصورون بداخله إلى حافة الموت جوعًا أكثر من مرة ثم انتهى الأمر بتسليم الكرك إليه فى شوال ٥٨٤هـ/ نوفمبر ١١٨٨م[٣٥] ومن ناحية أخرى، كان موعد إطلاق سراح جاى لوزنيان ملك بيت المقدس، ومقدم الداوية قد حان. وبالفعل أطلق صلاح الدين سراحهما بشرط عدم اشتراكهما فى الحرب ضده، وهو الشرط الذى لم يتحقق على أية حال[٣٦]. وأخذ صلاح الدين والمسلمون يستعدون للحرب مجدداً . ففى أوربا كانت الاستعدادات تجرى على قدم وساق لإعداد حملة صليبية جديدة وصلت أنباؤها إلى المنطقة العربية.

ومات البابا جريجورى الثامن فى ١٧ ديسمبر سنة ١١٨٧م، وترك لخليفته البابا كليمنت الثالث (١١٨٧-١١٩١م) مهمة الاتصال بملوك ألمانيا وفرنسا وانجلترا للمشاركة فى الحملة الصليبية. وقامت البابوية بفرض ضريبة مقدارها ١٠٪ على كل الموارد وعلى الأملاك المنقولة عرفت باسم «عشور صلاح الدين» [٣٧] ويروى كاتب قصة «الحرب الصليبية الثالثة» - وهو

٣٥- المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص١٠١ ؛ Runciman , Op. cit. II, pp. 468-9

٣٦- الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، ج٢، ص٧٧ .

٣٧- قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص١٤٨ ؛ زابوروف ، الصليبيون فى الشرق، (دار التقدم ، موسكو ١٩٨٦)، ص٥- ص٩ .

كاتب مجهول كان شاهد عيان رافق الملك الإنجليزى ريتشارد الأول فى حملته - أن الحماسة الجارفة عمت أنحاء الغرب الأوربى للمشاركة فى هذه الحملة[٣٨] ويرى المؤرخ الألمانى «هانز إرنست مساير»[٣٩] أن تغيراً حقيقيًا حدث تجاه الصليبيين فى الشرق من جانب حكام أوربا الغربية حينما وصلت أنباء الهزيمة الكارثة التى جرت على الفرنج فى حطين يوم ٤ يوليو ١١٨٧م. وكان أول من استجاب للدعوة إلى نجدة الفرنج فى الشرق هو وليم الثانى ، حاكم صقلية النورمانى الذى أرسل أسطولاً من خمسين سفينة إلى المنطقة العربية لعب دوراً مهمًا فى الدفاع عن طرابلس؛ بيد أن موت وليم الثانى جعل مساعدته تتوقف عند هذا الحد[٤٠].

بعد ذلك ، وفى يوم ٢٢ يناير ١١٨٩م، وصل كبير أساقفة بيت المقدس جوشيوس إلى أوربا الغربية حيث وجد هنرى الثانى ملك انجلترا ، وفيليب الثانى ملك فرنسا وعدداً من كبار الأمراء والأساقفة فى اجتماع على الحدود النورمانية . وكانت بلاغته وفصاحته سببًا فى أن كلاً من الملكين ، وكونت الفلاندرز ، وعدداً كبيراً من الأمراء الكبار، أخذوا شارة الصليب . وارتدى الفرنسيون الصلبان الحمراء ، على حين ارتدى الإنجليز الصلبان البيضاء، أما الهولنديون (الفلمنج) فقد وضعوا الصلبان الخضراء. وسرعان ما فرض هنرى الثانى ملك انجلترا عشور صلاح الدين، وأرسل خطابات إلى الإمبراطور فردريك بربروسا الألمانى وإلى الملك بيلا الثالث، ملك المجر ، والإمبراطور البيزنطى اسحق أنجيلوس معلنًا عزمه على الرحيل «لتحرير» بيت المقدس، وطالبًا الإذن لقواته بالمرور فى أراضيهم [٤١]. ولكن بينما كان هنرى يجد فى الإعداد لحملته اشتبك ابنه الأكبر ريتشارد كونت بواتو فى حرب شرسة مع أفصاله وجيرانه فى فرنسا .

٣٨- Itinerarium Pereginorum et Gesta Regis Ricardi (ed. William Stubbs in Chronicles and Memoirs of The reign of Richard I, 2 vols., Rolls Series XXXVIII).

وقد ترجمها الدكتور حسن حبشى بعنوان «الحرب الصليبية الثالثة- صلاح الدين وريتشارد»- أنظر الترجمة العربية، العدد ١٨١م من سلسلة تاريخ المصريين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٠م، ١ق ، ص٥٤ ، ص٥٦ .

٣٩- Mayer, Op. cit., pp. 136-137 .

٤٠- مات وليم الثانى سنة ١١٨٩م، بعد أن كان أسطوله قد وصل فى ربيع سنة ١١٨٨م، ونشب نزاع على خلافته أدى إلى انشغال نورمان صقلية حتى سنة ١١٩٤م أنظر:

Sidney Painter, " The Third Crusade", p. 47 .

٤١- Ibid, pp. 47-48 .

كان ريتشارد قد أخذ شارة الصليب قبل أبيه وقبل فيليب أوغسطس ملك فرنسا؛ إذ كانت الحرب تبعث النشوة فى أوصاله أيا كان شكلها، وكان به هوى إلى المغامرة. والتقى فيليب أوغسطس وأصدر الإثنان وثيقة رسمية يعلنان فيها عزمهما على الذهاب فى حملة صليبية.

وفى أبريل سنة ١١٨٩م أخذ الإمبراطور الألمانى فردريك بربروسا شارة الصليب، وأرسل إنذاراً إلى صلاح الدين الأيوبى ولكن السلطان رفض الإنذار[٤٢] وفى ١١ مايو ١١٨٩م تحركت قوات الإمبراطور الألمانى قبل القوات الفرنسية والإنجليزية التى كانت تطورات الأحداث السياسية والعسكرية بين إنجلترا وفرنسا قد عطلتها [٤٣]. وسار الجيش الألمانى الذى قيل إن عدده بلغ مائة ألف رجل بينهم عشرون ألف فارس فى طريقه إلى الأراضى المقدسة وارتكب عدة فظائع فى طريقه على امتداد الدانوب . وكانت رحلة هذا الجيش التى استغرقت خمسة أسابيع داخل الأراضى المجرية قد جعلت جنوده يتوهمون أن رحلتهم ستكون رحلة سارة وممتعة. ثم دخل الألمان أراضى الدولة البيزنطية ليجدوا أن الأمور لاتسير على هواهم ،.وأن الإمبراطور البيزنطى لايمكن أن يقبل غطرستهم . وخطط الإمبراطور فردريك للاستيلاء على القسطنطينية، العاصمة المسيحية[٤٤]. وأخيراً وصل جيش الامبراطور الألمانى إلى الأراضى السلجوقية بعد عدة اشتباكات عسكرية وحوادث سياسية ودبلوماسية مع البيزنطيين .

فى ٢٥ أبريل ١١٩٠م / ٥٨٦هـ دخل الجيش الألمانى أراضى السلاجقة . واتضح أن المعاهدة التى كان بربروسا قد عقدها مع السلطان السلجوقى عز الدين قلج بن أرسلان لم تعد قائمة لأن ابنه قطب الدين ملك شاه ، زوج إبنة صلاح الدين الأيوبى عزم على مقاومة الألمان[٤٥]. ولكن الجيش الألمانى انتصر على السلاجقة وجدد الامبراطور والسلطان السلجوقى

٤٢- Mayer, Op. cit., p. 137 .

وقد أورد المؤلف المجهول صاحب كتاب الحرب الصليبية الثالثة (ترجمة حسن حبش) ج١، ص٥٨-ص٦٠، ص٦٠- ص٦٣ نص كل من إنذار الإمبراطور ورد السلطان عليه.

٤٣- Sidney Painter , op. cit., p. 49 ; Edgar N. Johnson" The Crusade of Frederick Barborossa and Henry VI" , in Setton (ed.), II, p. 92 .

٤٤- Edgar N. Johnson , Op. cit., pp. 94-97 , 98-101 .

٤٥- المقريزى ، السلوك ، ج١، ص١٠٧ ؛ الحرب الصليبية الثالثة، ج١ ، ص٧٢- ص٨٠ ؛ Mayer , Op. cit., pp. 138-139 .

اتفاقهما ، وعبر الألمان جبال طوروس، وهناك غرق الإمبراطور فردريك بربروسا يوم ١٠ يونيو سنة ١١٩٠م / ٥٨٦هـ في نهر سالف Saleph . وضربت الفوضى مخالبها في الحملة الصليبية الألمانية ، وعاد معظم الألمان إلى بلادهم . وسار إبنه فردريك دوق سوابيا إلى أنطاكية (٤٦). وهكذا ، انتهى أمر الألمان بالمشاركة الرمزية في الحملة الصليبية الثالثة على الرغم من قوة الجيش الألماني وضخامة أعداده .

في تلك الأثناء كان ريتشارد الأول (قلب الأسد) ملك انجلترا ، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ، قد اتفقا على إنهاء المنازعات بينهما والرحيل في الحملة الصليبية. وقد سلكا طريقين مختلفين للوصول إلى صقلية التي كانت المحطة الأولى في طريقهما إلى الأرض المقدسة، وهناك أمضى الملكان شتاء سنة ١١٩٠ / ١١٩١م (٥٨٦ / ٥٨٧هـ) حيث تورطا في النزاع الذي كان دائراً حول وراثة عرش وليم الثاني ملك صقلية النورماني (٤٧). وفي ١٠ أبريل أبحر أسطول ريتشارد من مسينا ليصل إلى رودس حيث بقي بها حتى أول مايو سنة ١١٩١م / ٥٨٧هـ . ثم استولى على قبرص .

وفي تلك الأثناء كان الملك الفرنسي قد وصل إلى عكا التي كان الفرنج يحاصرونها والمسلمون يدافعون عنها. وعلى الرغم من قلة عدد جيش فيليب أوغسطس فإن وصوله ، وظهوره أمام عكا في ٢٠ أبريل ١١٩١م (٥٨٧هـ)، أشعل الحماسة في نفوس الفرنج فشددوا حصارهم .

كانت هناك فرصة أمام المسلمين امتدت على مدى أكثر من عامين للقضاء على الشراذم الصليبية الباقية . ولكن القوات الإسلامية كانت قد لجأت إلى الاسترخاء لأسباب عديدة؛ أهمها أن الفرنج كانوا في حال من الضعف واليأس الذي جعل منهم قوة لايُحسب حسابها . وعلى الجانب الآخر، كانت القوات الإسلامية في حاجة إلى الراحة . وكانت غلطة صلاح الدين الأساسية هي الإبقاء على مدينة صور البحرية التي صارت ملاذاً للهاربين من سيوف العرب والمسلمين في بيت المقدس وعكا، وغيرها من المدن التي حررها المسلمون، من ناحية ، كما

٤٦- Mayer, Op. cit., p. 139 ; Runciman, Op. cit., pp. 34 ff; Edgar N. Johnson, Op. cit., pp. 114-117 .

الحرب الصليبية الثالثة ، ج١ ص٨٠- ص٨٤ ؛ المقريزي، السلوك، ج١ ، ص١٠٤ ؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ ، ج٩ ، ص٢٠٠، ص٢٠٤ .

٤٧- Painter, Op. cit., pp. 58 - 61 .

كانت الميناء البحرى الذى توالت عليه الإمدادات العسكرية من أوربا الغربية من ناحية أخرى. وسرعان ما تحولت قوة الصليبيين الواهنة فى صور إلى قوة هجومية ذات شأن بفضل قيادة المركيز دى مونتفرات والإمدادات العسكرية القادمة من أوربا (٤٨). ثم جاء فردريك دوق سوابيا، وابن فردريك بربروسا ، إلى منطقة عكا بناء على إلحاح المركيز دى مونتفرات . ومن ناحية أخرى، كان جاى لوزنيان ملك بيت المقدس ، الذى أطلق صلاح الدين سراحه بشرط ألايقاتل ضده، يقود جيشه الصغير صوب صور، ولكن المركيز رفض السماح له بدخولها ، فذهب إلى سهل عكا ....

ثم جاءت قوات فيليب أوغسطس كما ذكرنا فى ربيع سنة ١١٩١م / ٥٨٧هـ وبعدها بشهرين وصلت قوات الملك الإنجليزى ريتشارد الأول . فقد أبحر ريتشارد من جزيرة قبرص فى ٥ يونيو ١١٩١م ليصل إلى ميناء صور فى اليوم التالى، ولكن مساعد المركيز دى مونتفرات رفض السماح له بدخول المدينة فاضطر إلى أن يعسكر خارج أسوارها. وبعدها بيوم أو يومين وصل أسطوله إلى عكا (٤٩).

هكذا ، بدأت أحداث الحملة الصليبية الثالثة حول عكا لتستمر على مدى حوالى عامين. كانت عكا ، أهم موانئ فلسطين ، تقع على شبه جزيرة صغيرة داخل خليج يخرج من البحر المتوسط ، وكان يحميها من الجنوب والغرب سور ضخم تم بناؤه داخل المياه بمعجزة هندسية على أيدى أحد المسلمين ، وكان هذا السور يمنع الوصول إليها من جهة البحر. وفى الركن الجنوبى الشرقى كان حصن عكا الشهير للدفاع عن المدينة وميناءها من جهة البر. أما الجانب الشمالى فيحميه سور ضخم آخر يتقابل فى زاوية قائمة مع حصن ضخم يسمى الملعون فى الشمال الشرقى من عكا وكان قائد الحامية الإسلامية فى عكا هو الأمير بهاء الدين قراقوش (٥٠).

٤٨- ذكر مؤلف «أعمال الملك ريتشارد» أخبار السفن التى جاءت بالإمدادات، كما ذكر أسماء كبار الأمراء الذين جاءوا من أوربا، وأهمهم هنرى كونت شامبنى الذى تولى قيادة جيش الفرنج فى صور- أنظر: الحرب الصليبية الثالثة ، ج١ ، ص١٢٦- ص١٣٠ .

٤٩- Painter, Op. cit., p. 67 ; Mayer , Op. cit., p. 143 .

٥٠- المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص١٠٥ .

بعد وصول ريتشارد يوم ٨ يونيو تم تشديد الحصار، وكانت آلات الحصار التى صنعها الفرنسيون ذات فعالية كبيرة. وفشلت هجمات صلاح الدين على معسكر الفرنج وفى يوم ١٧ جمادى الآخرة / ١٢ يوليو ١١٩١م استسلمت حامية المدينة للصليبين على الرغم من اعتراضات صلاح الدين . وكانت شروط الاستسلام تنص على خروجهم سالمين مقابل أن يعيد صلاح الدين إلى الفرنج صليب الصلبوت ، وأن يطلق سراح ألف وخمسمائة من الأسرى الفرنج تحددت أسماؤهم . وأن يدفع فدية قدرها مائتى ألف بيزنت(٥١) وهكذا استسلمت المدينة بعد أن صمدت عامين . واقتسم ريتشارد وفيليب المدينة فيما بينهما، على حين احتل الفرسان والجنود الصليبيون منازل أهل المدينة. وبعدها تملكت الملك الفرنسى رغبة جارفة فى أن يعود إلى وطنه بأسرع ما يمكن ؛ إذ كانت مكانته قد اهتزت بسبب ريتشارد الذى كان من الناحية القانونية تابعًا إقطاعيًا له؛ ولكنه فاقه فى القوة والثروة والشهرة فى الشرق.

وحاول فيليب أوغسطس أن يرسى أحوال مملكة بيت المقدس بالتعاون مع ريتشارد قبل الرحيل،ولكن التسوية كانت هشة للغاية (٥٢). وأبحر فيليب إلى صور فى ٣١ يوليو ١١٩١م، ومنها أبحر فى طريق العودة إلى بلاده .

كان اهتمام ريتشارد الأول بعد رحيل فيليب موجهًا إلى ترميم أسوار عكا وتحصيناتها. ويذكر المقريزى أن الصلح لم يتم ، على حين تقول المصادر الصليبية إن صلاح الدين لم يفْ بوعده ؛ فقام ريتشارد بذبح ثلاثة آلاف أسير مسلم، فشن المسلمون هجومًا عنيفا على جيش ريتشارد وقتل فى هذا الاشتباك عدد من الجانبين .

وعلى مدى سنة كاملة ظل ريتشارد يقوم بحملات ضد صلاح الدين الذى كانت جيوشه قد بدأت تبدى علامات الملل والضجر من الحرب؛ فباستثناء الجيش المصرى وجيش الموصل لم يعد ممكنًا الاعتماد على جيوشه الأخرى. ومن ثم ركز صلاح الدين جهوده على حماية بيت المقدس كما ركز على تهديد خطوط الإمداد الداخلية للصليبيين فى فلسطين . وقد أدى هذا الأسلوب

٥١- جمال الدين الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية، ج٢ ، ص٨٧- ص٨٨ ؛

Mayer , Op. cit., 143 ; Painter , Op. cit., 69 .

وعن تفاصيل المعارك التى سبقت سقوط عكا أنظر:

أبوشامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص١٨٨- ص١٩٠ ؛ ابن الأثير الكامل، ج٩ ، ص٢١٤- ص٢١٥ ؛ مجهول ، البستان الجامع، ص١٨٧ ؛ الحرب الصليبية الثالثة ، ج٢ ، ص٩- ص٣٩ .

٥٢- Painter , Op. cit., p. 71 .

إلى حرمان ريتشارد من القيام بأى جهد للاستيلاء على بيت المقدس [٥٣]. وفى سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م استعاد صلاح يافا من الصليبيين ؛ ولكن ريتشارد لم يلبث أن استردها ...

كانت معركة يافا رمزاً على الأحوال فى المنطقة العربية آنذاك ؛ فقد أدرك ريتشارد مدى عبثية بقائه فى الأرض المقدسة على حين كانت مملكته فى انجلترا تواجه تهديدات عاصفة من ناحية، والخلافات والمنازعات لاتهدأ بين فرنج الشرق من ناحية أخرى. وعلى الجانب الإسلامى كان قادة الجيوش وجنودهم قد ضجروا من طول مدة الحرب. وفى ذلك يقول المقريزى « ... وعزم على لقاء الفرنج، فاختلف عليه أصحابه ، وأسمعه بعضهم كلامًا جافيًا، فانثنى عن ذلك... »[٥٤].

هكذا كانت الأمور تدفع كلاً من الخصمين نحو نوع من الهدنة . وكان على الفرنج أن يتجرعوا مرارة الحقيقة القائلة بأنهم لن يستطيعوا الاستيلاء على القدس مرة ثانية، كما كان على المسلمين أن يذكروا أن حالة الحرب لايمكن أن تستمر بدون هدنة يتم فيها التقاط الأنفاس وتجديد القوى. وهكذا توصل الطرفان إلى صلح الرملة فى ٢٢ شعبان ٥٨٨هـ / ٢سبتمبر ١١٩٢م؛ وكانت أهم موادها أن يبقى الساحل الفلسطينى فيما بين يافا وصور بأيدى الفرنج، وأعيدت عسقلان إلى صلاح الدين (ولكن بعد أن سويت تحصيناتها بالأرض بأوامر من صلاح الدين حتى لايحتلها الفرنج ويهددون بها المسلمين). وبقيت القدس فى حوزة المسلمين على أن يسمحوا للحجاج المسيحيين بزيارتها (وهو أمر كان المسلمون يسمحون به على الدوام، وقبل الحروب الصليبية بعدة قرون) . وفى الشهر التالى انضمت طرابلس وأنطاكية إلى الهدنة على الرغم من أنهما كانتا على الحياد طوال أحداث الحملة الصليبية الثالثة[٥٥]. وهكذا ، أبقى « صلح الرملة » الأمور على ما كانت عليه تقريبا قبل قدوم هذه الحملة .

٥٤- المقريزى ، السلوك، ج١ ، ص١١٠ .

٥٥- أبوشامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص١٩٩- ص٢٠٤ ؛ ابن الأثير، الكامل ، ج٩ ، ص٢٢١ ، ص٢٢٢؛ المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص١١٠؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٤٠٣ ؛ الحرب الصليبية الثالثة، ج٢ ، ص٢٦٣- ص٢٦٧ ؛ Mayer , Op. cit, p. 146 ; Painter , Op. cit., pp. 85-6 .

ويقول المقريزى « ... وكان يوم الصلح يومًا مشهوداً ، عم فيه الفرح والسرور الطائفتين، لما نالهم من طول الحرب. فاختلط عسكر الفرنج بعسكر المسلمين ورحل جماعة من المسلمين إلى يافا للتجارة ، ودخل خلق عظيم من الفرنج إلى القدس بسبب الزيارة ، فأكرمهم السلطان ومدّ لهم الأطعمة وباسطهم ... ».

ويرى بعض الباحثين الأوربيين أنه فيما يتعلق بإنجازات الحملة الصليبية الثالثة يجب أن نفرق بين الحملة الصليبية ككل ، وبين الحملة التى قادها ريتشارد وفيليب أوغسطس[٥٦]. وفى رأيه أنه لولا المساعدة التى قدمها الصليبيون الذين جاءوا من غرب أوربا فى خريف ١١٨٩م، أى قبل قدوم الملكين بعامين تقريبا ، لما كانت هناك جدوى من الهجوم الذى شنه الملك جاى لوزنيان على عكا ، وأن قدوم هنرى كونت شمبانى هو الذى جعل المدينة تسقط بأيدى الفرنج. وهو يُجْمِل رأيه فى أن الحملة الصليبية تمكنت من إعادة بناء مملكة بيت المقدس سياسيًا وعسكريًا .

وفى رأينا أن حصاد الحملة الصليبية الثالثة كان هزيلاً، ولم يحقق شيئًا ذا بال بالنسبة لمملكة بيت المقدس الصليبية ، فقد استرد المسلمون القدس رمز هذا الصراع ومحوره، كما دكوا معاقل الفرنج كلها باستثناء صور وأنطاكية وطرابلس . ولم تكن الحملة الثالثة هى التى أبقت على الكيان الصليبى، ولكن الإمدادات العسكرية والبشرية التى جاءت من الغرب بعد معركة حطين هى التى دفعت دماء جديدة فى شرايين الكيان الصليبى. وقد بدأت هذه الإمدادات بالأسطول الكبير الذى أرسله وليم النورمانى وأنقذ طرابلس، ثم بدأت المساعدات تتوالى حتى تحول الفرنج من جماعة مذعورة انحشرت فى صور إلى قوة هجومية قبل قدوم قوات الحملة الصليبية الثالثة .

على أية حال ، بقى الناصر صلاح الدين فى بلاد الشام بعد أن رحل الملك الإنجليزى «ريتشارد الأول» فى التاسع من أكتوبر ١١٩٢م من ميناء عكا معلنًا نهاية الحملة الصليبية الثالثة. وفى شوال سنة ٥٨٨هـ / نوفمبر ١١٩٢م عاد صلاح الدين من بيت المقدس إلى دمشق التى غاب عنها أربع سنين قضاها فى حرب متواصلة ضد الفرنج ، وأذن للقوات الإسلامية بالعودة إلى بلادها .

ثم توفى السلطان بدمشق فى ٢٧ صفر ٥٨٩هـ / ٤ مارس ١١٩٣م. وبذلك انتهت مرحلة هامة فى تاريخ الصراع الإسلامى/ الصليبى؛ وهى المرحلة التى كانت قد بدأت بعماد الدين زنكى، ثم استمرت فى عهد ابنه وخليفته نور الدين محمود ليستمر تواصلها فى عهد الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبى . وبوفاة صلاح الدين حدث فراغ سياسى وعسكرى على الجانب الإسلامى ؛ إذ إن خلفاءه جاءوا على غير شاكلته، وتفسّخت دولته عقب وفاته مباشرة وتنازع

٥٦- Painter, Op. cit., p. 85 .

أجزاءها ورثته من أبناء البيت الأيوبى وكانت تلك نعمة هبطت على بقايا الصليبيين برداً وسلامًا ....

وتلك قصة أخرى .

ولكن يبقى أن نلقى نظرة إجمالية على الدور التاريخى لصلاح الدين الأيوبى، وعلى المشهد السياسى فى المنطقة العربية عقب وفاته. وفى رأى الأستاذ جاكسون، الذى كتب بالاشتراك مع توماس آدامز أهم كتاب عن سيرة صلاح الدين (نشر سنة ١٩٨٢م) أن « ... سيرة صلاح الدين يجب تقييمها فى ضوء استيلائه على القدس، الذى مهد له الطريق بجيش المملكة اللاتينية فى حطين فى ٤ يوليو ١١٨٧م. وفى رأيى ، فإن اهتمام صلاح الدين- كما تبين ذلك فى مراسلاته مع الخلفاء المتعاقبين- كان منصبًا على الجهاد فى المقام الأول، باعتباره- على وجه الدقة- وسيلة لاستعادة القدس... »[٥٧] وهذا فى تصورنا هو مفتاح شخصية الناصر صلاح الدين . فالجهاد عمل جماعى بطبيعة الحال، ولكنه يحتاج إلى قائد يؤمن به ويوجه طاقاته ومواهبه فى سبيل توجيه الأمة على طريقه . وهكذا كسب صلاح الدين، وأمثاله، شهرتهم فى رحاب التاريخ. ومن هنا يجب النظر إلى شخصية صلاح الدين ودوره التاريخى فى ضوء الظروف التاريخية الموضوعية التى أفرزته ، ومعطيات العصر الذى عاش فيه.

لقد كانت الظروف التاريخية تتطلب وجود قائد يواصل دور نور الدين محمود ويطوّره وكان تقلب صلاح الدين فى تطورات السياسة والحرب، منذ جاء فى جيش عمه أسد الدين شيركوه حتى إنتصاره الرائع فى حطين ، بمثابة المدرسة التى تلقى فيها دروسه السياسية والاستراتيجية حول حقائق الصراع الدائر على أرض المنطقة العربية بين أصحاب الأرض والحق والتاريخ، وأولئك الغزاة الغرباء القادمين من غرب أوربا لكى يستوطنوا الأرض العربية فى فلسطين خاصة وفى المنطقة العربية عامة .

ومن ناحية أخرى، كانت المنطقة العربية، والعالم الإسلامى بصفة عامة، تعيش حالة من البعث الدينى والأخلاقى والسياسى جعلت الجميع يتحدثون عن فضل الجهاد والمجاهدين ، وعن فضائل بيت المقدس والمسجد الأقصى وقبه الصخرة . وبات القضاء على الخطر الصليبى، واستعادة الأماكن المقدسة ، وتحرير الأرض العربية ، مطلبًا شعبيًا يمثل نوعًا من الضغط السياسى والأخلاقى على حكام ذلك الزمان. وعندما حقق صلاح الدين هذا كله - عبر مراحل حياته المختلفة - كان طبيعيًا أن يرتفع من مجرد ضابط فى جيش أسد الدين شيركوه إلى بطل

يملأ القلب والعقل عند كل مسلم فى المنطقة العربية وخارجها . لقد كان صلاح الدين شخصية ملء القلب والعقل وكان موضع الإعجاب والهيبة من جميع معاصريه ؛ سواء كانوا من الأصدقاء أو الأعداء . وقد وضعه التاريخ فى مكانه زعيما مثاليًا للمسلمين تمكن من توحيد جبهة النضال ضد الصليبيين ، وألحق بهم أقوى الهزائم ، واسترد منهم القدس وحرر المقدسات الإسلامية والمدن والحصون العربية .

لقد بنى صلاح الدين الأيوبى دولته على أساس من الوحدة الأخلاقية والدينية للعالم الإسلامى تحت راية الجهاد ضد الصليبيين ؛ وكانت شخصيته تحمل من المناقب والسجايا ما يؤهله لبناء هذه الدولة الإقليمية الكبرى التى ضمت المنطقة العربية من كردستان وديار بكر شمالاً حتى اليمن جنوبًا ، ومن حدود مصر الغربية إلى بلاد الرافدين ، كما كانت له سلطة معنوية امتدت عبر كل العالم الإسلامى بفضل التأييد الذى حصل عليه من الخليفة العباسى على المستوى السياسى، والمساندة التى أعطته إياها جماهير المسلمين لدوره فى الجهاد على المستوى الشعبى. واصطدم كل من حاول استغلال مثالية صلاح الدين- وأمثالهم كُثُرٌ فى كل زمان- بأنه كان عازمًا بحق على تحقيق مثله الأعلى فى الجهاد ضد الفرنج لاسترداد القدس وتحرير المسجد الأقصى ، وباقى المقدسات الإسلامية والمسيحية الشرقية من براثن الاحتلال الأوربى الذى تسربل براية الصليب .

وتميز صلاح الدين الأيوبى بالطموح والإخلاص للمبادئ التى اعتنقها ؛ بيد أن طموحه لم يكن لتحقيق آماله الشخصية – فقد مات الرجل فقيراً- كما أن مبادئه كانت نابعة من إيمانه بالجهاد وسيلة وحيدة لاسترداد الأراضى التى استوطنها الصليبيون القادمون من أوربا وتحرير القدس والأقصى. وكان فى ذلك كله بسيطًا فى أخلاقه واضحًا فى رؤيته ، حاسمًا فى أداء دوره. لقد أدرك أن التشرذم والفرقة والأنانية السياسية ، التى وصمت حكام المنطقة العربية ، هى التى أدت إلى انتصار الصليبيين وقيام المستوطنات الصليبية فوق الأرض العربية فى فلسطين وبلاد الشام، كما أدرك أن استمرار تلك المستوطنات كان رهينًا بانحطاط الخلق السياسى لدى الحكام. ولهذا ثار صلاح الدين على النظام السياسى القائم ، وعمل على استبداله بنظام سياسى تكون الوحدة العربية أساسه. وقد لخص نظرته فى هذه المسألة بكلمات رسالته إلى الخليفة العباسى المستضئ بالله حين كتب إليه:

٥٧- ديفيد جاكسون ، «صلاح الدين : معركة حطين والاستيلاء على القدس- وجهة نظر» فى : حطين صلاح الدين والعمل العربى الموحد، ص٨٦ .

«... ولو أن أمور الحرب تصلحها الشركة، لما عز علينا أن يكون هناك كثير من المشاركين، ولا أساءنا أن تكون الدنيا كثيرة المالكين ، وإنما أمور الحرب لاتحتمل فى التدبير إلا الوحدة، فإذا صح التدبير ، لم يحتمل فى اللقاء إلاّ العدة ...»[٥٨]

وربما يكون مناسبًا أن نختتم هذا الفصل بأن نقتبس ما كتبه المقريزى عنه[٥٩]: «... وكان رحمه الله كثير التواضع ، قريبًا من الناس، كثير الاحتمال ، شديد المداراة ، محبًا للفقهاء وأهل الدين والخير محسنًا إليهم، مائلاً إلى الفضائل ، يستحسن الشعر الجيد ويردده فى مجلسه. ومدحه كثير من الشعراء، وانتجعوه من البلدان، وكان شديد التمسك بالشريعة، سمع الحديث من أبى الحسن على بن إبراهيم بن المسلم بن بنت أبى سعد . وأبى محمد بن مرى النحوى ، وأبى الفتح محمود بن أحمد الصابونى ، وأبى الطاهر السلفى، وابن عوف، وجماعة. وكان كريمًا : أطلق من الخيل بمرج عكا لمن معه إثنى عشر ألف رأس، سوى أثمان الخيل التى أصيبت فى الجهاد. ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود به، وصاحبه ملازم فى طلبه ... وكان ورعًا ... وكان لايصلى إلا فى جماعة، وله إمام راتب ملازم، وكان يصلى قبيل الصبح ركعات إذا استيقظ . وكان يسوى فى المحاكمة بين أكبر الناس وبين خصمه . وكان شجاعًا فى الحرب ، يمرٌ فى الصفوف وليس معه سوى صبى. وقُرِئَ عليه جزء من الحديث بين الصفين ، وهو على ظهر فرسه . وكان ذاكراً لوقائع العرب وعجائب الدنيا ، ومجلسه طاهر من المعايب، رحمه الله وغفر له».

«... وكان عمره يوم مات نحوا من سبع وخمسين سنة . منها مدة ملكه بعد موت العاضد اثنتان وعشرون سنة وأيام ... ولم يخلف فى خزائنه سوى سبعة وأربعين درهما ، ولم يترك داراً ولاعقاراً ....».

حينما توفى صلاح الدين الأيوبى كانت الظروف التاريخية التى أفرزت زعامته ما تزال قائمة فى المنطقة العربية ؛ إذ كان الصليبيون موجودين فيما بقى من المناطق التى احتلوها . وكان خطرهم مايزال ماثلاً يتهدد المنطقة العربية. وجاءت الأحداث السياسية والعسكرية التى شغلت مسرح التاريخ فى تلك الفترة لتمد فى عمر الكيان الصليبى مائة سنة وأكثر. إذ إن خلفاء صلاح الدين ورثوا مملكته الإقليمية الكبرى؛ ولكنهم لم يرثوا دوره السياسى، أو مكانته فى قلوب الناس .

وهذا هو موضوع الفصل التالى ....

٥٨- أبوشامة ، الروضتين ، ج٢، ص٤٨ ؛ ابن اصل ، مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١٥٩ .

٥٩- المقريزى، السلوك ، ج١، ص١١٣ .

الفصــل الثالث

الدولة الأيوبية : مرحلة رد الفعل

دولة أيوبيـة أم دول أيوبيـة ؟ العـادل الأيوبى وابنه الكامل- الحملة الصليبية الخامسة والحملة الصليبية السادسة- تقييم الدور التاريخى للكامل الأيوبى.

كانت وفاة صلاح الدين الأيوبى نهاية مرحلة تاريخيـة، وبداية مرحلة تاريخيـة غيـرها. وكانت تلك لحظة فى التاريخ تكررت كثيراً فى مختلف العصور، وعند كل الشعوب التى كانت مصائرها ترتبط بشخصيات قادتها وزعمائها . وكان ذلك أمراً مقبولاً فى تلك العصور ويتسق مع منطقها الذى لم يكن يعرف ، أو يعترف ، أن الحاكم مجرد شخص ينوب عن الأمة فى إدارة أمورها من خلال مؤسساتها . حقيقة أن تراث الفكر السياسى فى الإسلام يرسى مبدأ أن الأمة مصدر السلطات ، وأن الخليفة أو الإمام مسئول عن إدارة شئون الأمة فى إطار الشريعة الإسلامية ولكنه خاضع أيضا لأحكام هذه الشريعة ، وحقيقة أيضا أن هناك مؤسسات مارست دورها فى إدارة شئون المسلمين وفق أحكام الشريعة؛ على مدى التاريخ الإسلامى؛ ولكن دولة الخلافة تحولت إلى كيان إسمى حكم من خلاله قادة الجند ونسوة القصور. وعلى الرغم من ذلك ، كانت المؤسسات الشرعية هى التى تحكم تصرفات الناس فى حياتهم اليومية بيد أن التطورات ذات الطابع السياسى والعسكرى أفرزت نموذج الدولة العسكرية التى يقودها ملك محارب بدلاً من الدولة التى يرأسها خليفة لايملك من الخلافة سوى الاسم مثلما كان حال كل من الخلافة العباسية فى بغداد والخلافة الفاطمية فى القاهرة عندما جاءت قوات الفرنج وشراذم المستوطنين إلى أرض المنطقة العربية .

لقد أفرزت تطورات الأحداث التاريخية، وتزايد إحساس الرأى العام بين الجماهير بمدى خطورة الهجوم الصليبى، صياغة سياسية جديدة تضع الدولة القوية الموحدة بدلاً من الكيانات السياسية الهزيلة والمبعثرة (مثل دولتى الخلافة ومدن الدول التى انتشرت فى بلاد الشام آنذاك) ؛ وهى دولة تقوم على أسس عسكرية تضع كل الموارد فى خدمة المجهود الحربى ويقودها ملك محارب يقود جيوشه بنفسه فى الميدان . وقد أكدت الأحداث عجز كل من الخليفة العباسى فى بغداد ، والخليفة الفاطمى فى القاهرة، عن فعل أى شئ إزاء سقوط القدس

بأيدى الفرنج الصليبيين سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م[١] مما يؤكد أن الدور التاريخى لدولة الخلافة ونموذجها السياسى، كانا قد تجمدا منذ فترة ، وعجزت الخلافتان عن مواجهة التحدى الذى فرضه العدوان الصليبى. وقد سقطت الخلافة الفاطمية فى خضم الصراع بين المسلمين والصليبيين، وحلّت محلها دولة عسكرية هى دولة الأيوبيين التى أقامها صلاح الدين الأيوبى على أسس عسكرية محضة كانت استمراراً لدور دولة آل زنكى [٢].

فقد تولى عماد الدين زنكى حكم الموصل سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م ليقود دولته العسكرية الصغيرة نحو هدف مزدوج : توحيد الجهود العربية الإسلامية وطرد الفرنج من المنطقة العربية. وحقق عماد الدين زنكى نجاحًا واضحًا عندما استعاد الرها من الصليبيين سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م، وأثبت نموذج الدولة العسكرية جدواه عندما واصل نور الدين محمود سياسة أبيه، ونجح فى ضم دمشق إلى دولته سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م . ثم دخلت مصر داخل نطاق هذه الدولة بعد سقوط الفاطميين وتولى صلاح الدين الحكم تحت سيادة نور الدين محمود كما أوضحنا فى الصفحات السابقة.

وبذلك بدأت مرحلة جديدة فى الصراع ضد الفرنج الصليبيين؛ إذ كان نموذج الدولة العسكرية قد رسخ تمامًا بعد وفاة نور الدين محمود وتضاءل دور الخلافة العباسية إلى مجرد منح البركة والموافقة وإضفاء الشرعية السياسية على الدولة الجديدة التى كان يقودها السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى. لقد بنى صلاح الدين دولته على أساس من الوحدة الدينية والأخلاقية للعالم الإسلامى، وكانت شخصيته تحمل من المناقب والسجايا ما يؤهله لبناء هذه الدولة التى امتدت من شمال العراق وديار بكر شمالاً حتى اليمن جنوبا ، ومن الفرات فى الشرق حتى النيل فى الغرب، مع سلطة معنوية شملت كل أنحاء المنطقة العربية والعالم الإسلامى[٣]. وقامت دولة صلاح الدين على أساس أن الحرب ضرورة دائمة من ناحية، وارتبطت بشخصه وقدراته الذاتية ومواهبه وأخلاقه من ناحية أخرى .

١- وصف ابن الأثير (الكامل ، ج٨، ص١٨٩ ذهاب جماعة من أهل الشام إلى الخليفة العباسى ببغداد بعد سقوط القدس وعلى رأسهم القاضى أبوسعد الهروى، ولكن الخليفة لم يكن قادراً أن يفعل شيئًا ، أنظر أيضًا : ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٦- ص١٣٧ .

٢- قاسم ، ماهية الحروب الصليبية، ص١٧٣- ص١٧٩ .

٣- عن صلاح الدين وحياته ، أنظر :

وهكذا ، كانت وفاة صلاح الدين الأيوبى نهاية مرحلة تاريخية فى الصراع ضد الفرنج الصليبيين وبداية مرحلة تاريخية جديدة . وثمة مراحل تاريخية ترتبط فيها أمور البلاد والعباد بالشخصية الكارزمية للحاكم أو الصفوة الحاكمة. وتتمثل خطورة مثل هذه المراحل فى أن غياب الحاكم ذى الصفات الأخلاقية السامية، وعدم وجود خليفة له يحمل نفس صفاته ، يؤدى بالضرورة إلى تدهور المشروع الذى كرَّس نفسه له ، أو سير الأمور فى اتجاه معاكس للاتجاه الذى يسير فيه . والناظر فى تواريخ الأمم والشعوب سيجد أن هذه الحقيقة تصدق على كافة شعوب الأرض ، ولم تنج منها غير الشعوب التى تمكن من أن تقيم المؤسسات الدستورية والقانونية التى تضمن إدارة شئونها على أسس جماعية لاتخضع للظروف والأحوال الفردية. ولم يحدث هذا سوى فى العصر الحديث ، وفى عدد محدود من دول العالم . وما تزال غالبية الشعوب فى عالمنا الحالى تعانى من النظم الفردية التى تربط مصير بلادهم بما قد يحمله الحاكم من صفات إيجابية أو سلبية .

وقد ارتبطت الدولة الإقليمية الكبرى التى بناها صلاح الدين الأيوبى بصفاته وسجاياه ، وكانت تلك هى طبيعة الأمور فى زمانه ، ولم يكن ممكنًا أن يكون الأمر غير ذلك . ومن ثم فإن وفاة ذلك السلطان العظيم أدت فى الحال إلى تغير فى موازين القوى السياسية والعسكرية. فحين توارت هذه الشخصية الفذة من على مسرح التاريخ فى المنطقة العربية حدث فراغ سياسى كبير أضرَّ بالجانب الإسلامى وعاد بالفائدة على الجانب الصليبى؛ إذ كانت شخصيته ومواهبه وأداؤه السياسى والعسكرى هو الذى يحفظ الدولة من التفكك . ولم تكن هناك مؤسسات تضمن استمرار بقاء هذه الدولة الكبرى من ناحية ، كما أن صلاح الدين قسَّم دولته، كما يُقسَّم الإرث، بين أبنائه وأخوته وبنى عمومته على نحو ما كان مألوفًا فى تلك العصور. وكان طبيعيًا أن تعود المنطقة إلى الوراء مرة أخرى نتيجة المنازعات والتشرذم السياسى الناجم عن الخلاف بين ورثة صلاح الدين .

= ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٦٤م) ؛ عماد الدين الأصفهانى، الفتح القِسِّى فى الفتح القدسى (تحقيق محمد محمود صبح ، القاهرة ١٩٦٥م) ؛ أبوشامة ، الروضتين فى أخبار الدولتين (دار الجيل، بيروت د.ت) ، ج١ ، ص١٦٤- ص٢٧٩؛ المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١ ، ص٤١ ، ص١١٤ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ج٥ ، ص٣٨١- ص٣٨٩ .

كان خليفة صلاح الدين فى مصر ابنه أبو الفتح عثمان. وكان وقت وفاة أبيه مقيمًا بالقاهرة «... وعنده جُل العساكر والأمراء من الأسدية والصلاحية والأكراد...»[٤] وتولى أخوه الأفضل نور الدين على حكم دمشق ، على حين تولى الملك العادل الكرك والشوبك . وولى الظاهر غازى حكم بلاد الشام الشمالية وكانت حلب عاصمته . وتولى بقية أجزاء الدولة غير المهمة أبناء عمومته ؛ ففى حمص حكم أفراد سلالة أسد الدين شيركوه ، وفى حماة تولى الحكم أفراد من أسرة تقى الدين عمر بن شاهنشاه [٥].

هكذا، تفككت عُرى الدولة الإقليمية الكبرى التى جاهدت ثلاثة أجيال فى إقامتها بالمنطقة العربية (عماد الدين زنكى، ونور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبى) . وقد سبق أن ذكرنا إن السلطان صلاح الدين يوسف الأيوبى هو الذى قسَّم الدولة على هذا النحو كما تقسَّم التركات الخاصة؛ وكان ذلك متماشيًا مع التقاليد السياسية السائدة آنذاك من ناحية ، ولكنه سببًا فى انهيار الوحدة السياسية للمنطقة العربية وإطالة عمر الكيان الصليبى من ناحية ثانية .

وسرعان ما انغمس الأيوبيون فى صراعاتهم الداخلية، كما واجهتهم مشكلات أطماع بقايا البيت الزنكى من حكام الجزيرة وأعالى العراق. وكان الملك العادل أخو السلطان صلاح الدين الأيوبى قد ورث عن أخيه الكرك والشوبك والجزيرة وبلاد بكر، التى تسميها المصادر التاريخية «البلاد الشرقية» ، وكلها إقطاعات غير ذات وزن لاتناسب تاريخ العادل فى خدمة أخيه ولاتتوافق مع قدراته الذاتية . بيد أن هذا الرجل استطاع أن يحول مجرى الأمور السياسية لتحقيق زعامته على البيت الأيوبى، ويحقق نوعًا من الوحدة فى المنطقة العربية بعد ما يقرب من ست سنوات . ولكنه لم يكن أبداً ليطاول قامة صلاح الدين السياسية ، كما أن الوحدة التى بناها كانت نوعًا من البناء السياسى الهش الذى لايمكن أن نقارنه بالوحدة التى أسهم فى بنائها ثلاثة أجيال من الزعماء كان صلاح الدين آخرهم .

كان الملك العادل فى الكرك حينما عرف بوفاة السلطان ؛ وبسرعة أظهر الرجل قدراً من الحنكة السياسية كان الأيوبيون الصغار يفتقرون إليه، ففى سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٤م كانت

٤- المقريزى، السلوك، ج١، ص١١٤ .

٥- جمال الدين الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية، ج٢ ، ص٩٦ ؛ محمود الحويرى، العادل الأيوبى- صفحة من تاريخ الدولة الأيوبية ، (دار حراء ، القاهرة ١٩٨٠م) ، ص٤٨- ص٤٩ .

الأزمة قد تفاقمت بين إثنين من أبناء صلاح الدين وورثته ؛ السلطان الملك العزيز عماد الدين الذى تولى حكم مصر، والسلطان الأفضل نور الدين الذى تولى حكم جنوب الشام واتخذ دمشق عاصمة له. والسبب فى ذلك أن الأمراء الصلاحية (أى الذين كانوا فى خدمة السلطان صلاح الدين الأيوبى) قرروا أن « ... يكون الأمر كله للعزيز... »[٦] وخرج العزيز من مصر بجيوشه لكى ينتزع من أخيه حكم بلاد الشام ، وحاصرت قواته دمشق. هنا بدأ الملك العادل يلعب دور الوساطة السياسية ، وأرسل يطلب مقابلة العزيز ثم طلب منه رفع الحصار عن دمشق فأجابه إلى ذلك .

بعدها توجه العادل إلى الجزيرة وديار بكر لمواجهة صاحب الموصل عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى الذى طمع فى إقطاعات العادل بالجزيرة وديار بكر، وسانده أخوه عماد الدين زنكى الثانى صاحب سنجار ونصيبين ، وبعد عدة تطورات سياسية تمكن العادل من تأمين ممتلكاته فى تلك الأنحاء[٧].

فى تلك الأثناء لعب مستشارو السوء لعبتهم الدائمة فى الإيقاع من جديد بين الأخوين بعدما أصلح العادل ، عمهما ، الأمور، وكان الوزير «ضياد الدين ابن الأثير»، هو الذى يحرض الأفضل حاكم دمشق على أخيه العزيز وينفّره منه [٨]. وتكشف المصادر التاريخية عن أن الملك الأفضل لم يكن أهلاً لمسئولية الحكم؛ إذ كان يقبل على اللعب ليله ونهاره « ... وتظاهر بلذاته ، وفوّض الأمور إلى وزيره ، ثم ترك اللعب من غير سبب ، وتاب وأزال المنكرات ، وأراق الخمور، وأقبل على العبادة، ولبس الخشن من الثياب؛ وشرع فى نسخ مصحف بخطه، واتخذ لنفسه مسجداً يخلو فيه بعبادة ربه، ويقوم الليل ... »[٩] هذا التحول المفاجئ فى شخصية الملك الأفضل كانت له آثاره على التطورات السياسية بطبيعة الحال.

بيد أن طموحات العزيز السياسية لم تلبث أن ألهبت الموقف من جديد ، إذ إنه كان يريد أن يرث سلطة أبيه ومكانته، ولكن مواهبه وقدراته السياسية كانت أدنى من ذلك كثيراً. وحشد

٦- المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص١١٦، ص١١٧ .

٧- الحويرى، المرجع السابق ، ص٤٩ ، ص٥٠ .

٨- أخو «ابن الأثير» صاحب كتاب «الكامل فى التاريخ»، واسمه ابن الأثير أبو الفتح ضياء الدين رئيس الكتاب، وله عدة مؤلفات ، وكان وزيراً للأفضل بن صلاح الدين الأيوبى .

٩- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص١١٨ / ص١١٩ .

العزيز جيشًا للمسير إلى دمشق لإقامة الخطبة فيها باسمه ، وضرب السكة باسمه أيضا. واستنجد الأفضل بعمه الملك العادل كما استنجد ببقية إخوته . ويبدو أن بعض أولاد صلاح الدين كانوا يتوجسون خيفه من عمهم ولهذا أشاروا على الأفضل بعدم طلب مساعدته (١٠). ولكن الملك الأفضل آثر أن يستنجد بعمه . وهنا يذكر المؤرخ تقى الدين المقريزى عبارة ذات دلالة هامة ؛ إذ يقول :(١١) « ... وعلم العادل اختلال أحوال الأفضل ، وسوء تدبيره ، وقبيح سيرته، فانحرف عنه ونهاه ولم ينته، إلا أنه مبالغ فى كرامة عمه، حتى أنه ترك له السنجق . وصار العادل يركب بالسنجق السلطانى فى كل يوم، ويركب الأفضل فى خدمته... ».

هكذا ، نحن أمام شخصية متطرفة تنتقل من النقيض إلى النقيض ، كما تحمل الكثير من دلائل الضعف وعدم الثقة بالنفس. وعلى الرغم من أن انحياز ابن الأثير المعروف ضد صلاح الدين وآل بيته يجعل روايته عن رسالة الظاهر غازى صاحب حلب ، وزوج ابنة العادل، إلى أخيه الملك الأفضل محل شك؛ فالحقيقة أن العادل لقى المساندة والثقة من الأفضل ومن أخيه المنصور صاحب حماة ، وواجه العداوة من جانب ابن أخيه الظاهر غازى صاحب حلب الذى أرسل إلى العزيز صاحب مصر يغريه بالهجوم على الشام ويعده بالمساعدة ولم يكن الملك العزيز ليتردد فى تلبية هذا الطلب الذى وافق هوى نفسه .

على الجانب الآخر كان الملك العادل الأيوبى قد عقد العزم على أن يسير قُدُمًا نحو هدفه مستغلاً الجهل والطيش الذى اتسم به أبناء صلاح الدين . إذ إنه استخدم علاقاته القديمة ومكانته لتحقيق هزيمة سياسية وعسكرية لجيش الملك العزيز قبل أن يستل جندى واحد سيفه من غمده ؛ إذ كانت المنافسة قائمة بين الأمراء الصلاحية (أمراء صلاح الدين) والأمراء الأسدية (أمراء أسد الدين شيركوه الذين ورثهم صلاح الدين فى جيشه) . ونجح العادل فى

١٠- يذكر ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج٩، ص٢٣٥- ص٢٣٦) أن الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب أرسل إلى أخيه الأفضل صاحب دمشق: « ... إخرج عمنا من بيننا ، فإنه لايجئ علينا منه خير، ونحن ندخل لك تحت كل ما تريد، وأنا أعرف به منك ، وأقرب إليه، فإنه عمى مثل ما هو عمك، وأنا زوج ابنته ، ولو علمت أنه يريد لنا خيراً لكنت أولى به منك... »

أنظر أيضا : ابن واصل مفرج الكروب، ج٣ ، ص٤١- ص٤٤ ؛ أبوشامة، الروضتين، ج٢ ، ص٢٢٩ ؛ الحويرى، العادل الأيوبى، ص٥٤، ص٥٥ . .

١١- السلوك، ج١ ، ص١٢٣ .

الإيقاع بين الفريقين؛ بل إنه كتب سراً إلى الملك العزيز يحذره من الأمراء الأسدية وفى الوقت نفسه كتب إلى أمراء الأسدية يخوفهم من الملك العزيز [١٢]. ثم انسحبت فرقة كاملة من جيش الملك العزيز وانضمت إلى الملك العادل ، وكانت هذه الفرقة تشكل معظم الجيش المصرى. وعاد الملك العزيز إلى مصر . وفى الوقت نفسه كان العادل يواصل السعى نحو عرش الأيوبيين الكبير فى مصر على أساس من سياسة النفس الطويل؛ فاتفق مع الملك الأفضل أن يكون له ثلث مصر إذا نجحوا فى الاستيلاء عليها من الملك العزيز .

ووصل العادل إلى بلبيس وضيّق الحصار عليها « ... واشتد الحصار على بلبيس حتى كادت تؤخذ ، وضاق العزيز بالقاهرة، وقلت الأموال عنده وكان محبباً إلى الرعية لما فيه من حسن السيرة ، وكثرة الرفق والكرم . فلما نازل العادل والأفضل بلبيس احتاج إلى استخدام الرجال، فلم يجد عنده مالاً ، فبذل له الأغنياء جملة أموال فلم يقبلها ... »[١٣].

وحينما أدرك الملك العزيز عبث الاستمرار فى المقاومة ، أرسل إلى عمه يطلب منه أن يسمح له بالخروج منفيًا إلى المغرب، بحريمه وأولاده، ولم يشأ الملك العادل أن يعطى الثمرة الناضجة لابن أخيه الأفضل الذى كان قد اتفق معه على أن يأخذ ثلثها فقط، وآثر أن يواصل لعبة الصبر حتى يحصل على الثمرة كلها لنفسه . وتم الاتفاق على أن يبقى العزيز فى ملكه بمصر ومعه عمه الملك العادل، وأن يعود ضباط الجيش والأمراء إلى خدمة العزيز وتعود إليهم إقطاعاتهم ويتم الصلح بين الملك العزيز والملك الأفضل [١٤]. هكذا، انتقل العادل من دمشق إلى القاهرة ، ولم يكن ذلك انتقالاً جغرافيًا فحسب وإنما كان تغييراً فى أدوار المسرح السياسى ، كما كان تحولاً فى المواقع السياسية جعل الملك العادل الأيوبى أقرب كثيراً إلى هدفه الكبير. لقد بقى العادل فى القاهرة بجوار ابن أخيه الملك العزيز ، ولكنه لم يكن ضيفًا عليه وإنما صار صاحب سلطة سياسية وتنفيذية كبرى، « ... وأخذ العادل فى إصلاح أمور مصر والنظر فى ضياعها ورباعها، وأظهر من محبة العزيز شيئًا زائداً ؛ وصار إليه الأمر والنهى، والحكم والتصرف، فى سائر أمور الدولة جليلها وحقيرها ... وضبط العادل أمور

١٢- المقريزى، السلوك، ج١ ، ص١٢٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، ج٣، ص٤٦- ص٤٧ .

١٣- ابن واصل ، مفرج الكروب، ج٣ ، ص٥٢- ص٥٣ ؛ المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص١٢٦ .

١٤- ابن واصل ، مفرج الكروب، ج٣ ، ص٥٢- ص٥٤ ؛ المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص١٢٨ ، ص١٢٩؛ أبو المحاسن بن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج٦ ، ص١٢٤ ؛ الحويرى، العادل الأيوبى، ص٥٨ - ص٥٩ .

مملكة مصر ، وغيَّر الإقطاعات ، ووفر الارتفاعات وعمال الأعمال، وثمَّر الأموال، وقرب إلى العزيز الأمير «عز الدين أسامة»، فصار صاحب سره وحاجبه، والواسطة بينه وبين عمه... »(١٥).

هذا النص الذى أورده المقريزى يكشف ، على الرغم من اختصاره ، عن مدى التغيير السياسى الذى حدث فى مصر والمنطقة العربية نتيجة لعدم كفاءة أولاد صلاح الدين الأيوبى من ناحية ، ونتيجة لقدرات العادل الأيوبى ومواهبه السياسية وصبره على مواصلة تنفيذ خطته من ناحية ثانية. فقد أمسك العادل بزمام نقطةَ المركز وبؤرة التوازن السياسى فى المنطقة العربية حينما أمسك بزمام السلطة السياسية فى القاهرة، وأخذ يوجه الأمور لصالحه ولصالح مشروعه الكبير فى خلافة صلاح الدين الأيوبى .

من ناحية أخرى ، كانت الأمور تجرى لصالحه على جبهة دمشق وغيرها. فبعد أن عاد الأفضل إلى دمشق تحول مرة أخرى إلى الزهد « ... وأقبل على العبادة .... » وترك أمور الدولة كلها مفوضة إلى وزيره ضياء الدين ابن الأثير، وكان رجلاً غير مخلص وغير أمين « ... فاختلت به الأحوال غاية الاختلال ، وكثر شاكوه ... »(١٦). وفى شهر جمادى الأولى من سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٦م تواترت الأخبار بمدى تدهور الأحوال فى دمشق وخرج الملك العادل والملك العزيز من القاهرة . وتم الاستيلاء على دمشق فى شهر رجب من هذه السنة ، وتولى العادل محمد حكم دمشق محققًا بذلك خطوة هامة فى سبيل تنفيذ مشروعه لتولى السلطنة الكبرى فى القاهرة . وفى ذلك يقول المقريزى « ... ويقال إن العادل كان قد قرر مع الملك العزيز- وهو بالقاهرة- أن الملك العزيز إذا غلب أخاه الأفضل على دمشق وأخذها منه أن يقيم بها ، ويعود العادل إلى مصر نائبًا عن العزيز. فلما ملك العزيز دمشق وأخرج أخاه الأفضل منها ، انكشفت له مستورات مكائد عمه ، فندم على ما قرره معه، وبعث إلى أخيه الأفضل سراً يعتذر إليه ويقول له : لاتنزل عن ملك دمشق. فظن الأفضل هذا خديعة من أخيه، وأعلم عمه العادل به، فقامت قيامته، وعتب على العزيز وأنَّبه ... »(١٧).

١٥- المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص١٢٩ .

١٦- المقريزى : السلوك، ج١ ص١٦٩ ؛ أبوشامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص٢٣٠ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، ج٣ ، ص٥٦ .

١٧- المقريزى : المصدر السابق، ج١ ، ص١٣٥ . وقد تم تهريب الوزير الضياء ابن الأثير فى صندوق خوفًا عليه من القتل ، كما مُنح الأفضل إقطاعًا فى صرخد- قارن ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٣، ص٦٨ - ص٧٢ ؛ ابن الأثير، الكامل، ج٩ ، ص٢٣٦ ؛ أبوشامة، الروضتين، ج٢، ص٢٣٤ .

هذا النص يكشف عن أن خطط العادل محمد أصبحت أوضح من أن يخفيها هدوء تصرفاته، فقد ظل على هدوئه ومثابرته فى تنفيذ مراحل خطته . وأقام العادل محمد فى دمشق إقطاعًا له، وليس للعزيز بها سوى الخطبة والسكة فقط.

هكذا ، كانت المنازعات الداخلية بين الأيوبيين تحتل صدر اهتماماتهم ؛ ولكن تطور المشروعات الصليبية فى الغرب الأوربى أجبر الأيوبيين على توجيه قدر من اهتمامهم لمنازلة الفرنج وقتالهم؛ بيد أننا يجب أن نضع فى اعتبارنا حقيقة هامة مؤداها أن خلفاء صلاح الدين كانوا – بشكل عام- ينتهجون سياسة مهادنة إزاء الصليبيين تقوم على رد الفعل أكثر مما تقوم على المبادأة والمبادرة . فقد كان لإنشغال الأيوبيين بمنازعاتهم من جهة، واهتمامهم بالهدنة مع الفرنج وتجديدها من جهة أخرى، أثر إيجابى على الصليبيين الذين وجدوا الفرصة لالتقاط أنفاسهم وحشد المساعدات من الغرب الأوربى لمساعدتهم.

وفى سنة ٥٩٣هـ / ١١٩٦م بدأ الفرنج الصليبيون يتحرشون بالمسلمين فقام السلطان العادل محمد بالهجوم على يافا وانتزعها من الفرنج، ثم هاجم صيدا وبيروت وأوقع بالفرنج خسائر كبيرة . وفى السنة التالية جاءت عدة سفن تحمل عدداً من الصليبيين الذين لبوا دعوة البابا لشن حملة صليبية جديدة. وكان الملك الوحيد بين رؤوس أوربا المتوجة الذى لبى دعوة البابوية هو هنرى السادس ملك ألمانيا ، ووصلت قواته إلى سواحل بلاد الشام سنة ٥٩٤هـ / ١١٩٧م. ولكن وفاته المفاجئة فى مسينا بإيطاليا فى ٢٨ سبتمبر ١١٩٧م أفشل مخططات هذه الحملة[١٨].

بيد أن انهيار الحملة الصليبية الألمانية التى نظمها الامبراطور هنرى السادس تصادف مع حدوث تغير هام فى البلاط البابوى كان له تأثيره الخطير على الأحداث الجارية بالمنطقة العربية. ففى سنة ١١٩٨م تم انتخاب إنوسنت الثالث لكرسى البابوية وكان قد تلقى تعليمًا جيداً فى اللاهوت والقانون الكنسى؛ ولذلك كان يعتقد أن البابوية يجب أن تسمو فوق القوى العلمانية وأن البابا ينبغى أن يكون نوعًا من الملك – القسيس [١٩]. وقد استغل الفراغ السياسى الناجم عن وفاة الإمبراطور هنرى السادس لكى يحول النظرية إلى حقيقة واقعة .

١٨- المقريزى، السلوك، ج١ ، ص١٤٠ ؛ الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية ، ج٢ ، ص٩٦- ص٩٧ ؛
Mayer , The Crusades, pp. 147-148 .

١٩- Mayer , Op. cit., p. 188 .

وفى مفهوم إنوسنت الثالث ليس هناك مكان لحملات صليبية يوجهها الملوك وينحصر دور البابا فيها إلى مجرد الدعوة للحملة الصليبية ، وإنما يجب أن يكون الأمر كله تحت سيطرة البابا. ومن ناحية أخرى ، كان إنوسنت الثالث مهتمًا بإعادة تأسيس مملكة بيت المقدس الصليبية التى تم تدميرها على أيدى المسلمين سنة ١١٨٧م، واستعادت بعض عافيتها سنة ١١٩٢م. وكان هذان الموضوعان هما العاملين الفاعلين طوال بابوية إنوسنت الثالث ولكنه تعامى عن حقيقة أنه لم يعد بالإمكان تمويل حملة صليبية وقيادتها دون تعاون الحكام. وربما كانت حقيقة الموقف خافية عليه بسبب أن الحملة الصليبية الوحيدة الناجحة حتى ذلك الحين كانت هى الحملة الصليبية الأولى التى لم يكن للملوك نصيب فيها .

من ناحية أخرى، كان الفكر الاستراتيجى فى أوربا الغربية قد تغير منذ الحملة الصليبية الثالثة. فلم يعد النزول على سواحل الشام أو ضفاف نهر الأردن هدفًا للمشروعات الصليبية؛ وإنما بات الاستيلاء على مصر والنزول على دلتا نهر النيل قضية منطقية وضرورة عسكرية بالنسبة للصليبيين فى أوربا [٢٠]. وفى أغسطس ١١٩٨م، وعقب اعتلائه العرش البابوى مباشرة أعلن إنوسنت الثالث عن مشروع حملة صليبية جديدة، وركز انتباهه على فرنسا فكتب مخاطبًا كبار رجال الكنيسة والنبلاء، كما ركز على القوى البحرية الإيطالية التى كانت أساطيلها لازمة للقيام بهذه الحملة[٢١]. وأعلن إنوسنت الثالث أن هدف الحملة هو تصحيح الأوضاع الناجمة عن انتصارات صلاح الدين. وفى سنة ١١٩٩م كتب رسالة إلى بطريرك بيت المقدس الكاثوليكى يطلب منه تقريراً وافيًا عن حال المملكة الصليبية التى كانت مدينة عكا الفلسطينية قد صارت عاصمة لها[٢٢].

٢٠- محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة، (المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة ١٩٦١م) ، ص٣٩ .

٢١- Mayer , Op. cit., pp. 183-184 .

وعن شخصية البابا إنوسنت الثالث وسياسته فى غرب أوربا أنظر:

نورمان كانتور ، التاريخ الوسيط (ترجمة قاسم عبده قاسم) دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٩٨٦ ، ج٢ ، ص٥٥٣- ص٥٦٢ .

٢٢- Runciman, A Hist. of the Crusades, vol . II, pp. 109 - 110

واتفق زعماء الحملة مع جمهورية البندقية على نقل جنود الحملة وعتادهم على سفن البنادقة مقابل رسوم مالية محددة، فضلاً عن نصف الأراضى التى قد تستولى عليها الحملة. وفى يونيو ١٢٠٢م نودى باجتماع القوات الصليبية فى مدينة البندقية؛ ولكن البنادقة كانوا يرون الأمور من منظور مختلف. فقد كان سفراؤهم فى القاهرة يفاوضون السلطان العادل محمد لعقد معاهدة تجارية مربحة فى نفس الوقت الذى كان دوج البندقية الشهير «داندولو» يفاوض الصليبيين على تكاليف الحملة[٢٣].

فى تلك الأثناء كان السلطان العادل محمد ماضيًا فى تنفيذ مشروعه الخاص، وقد خدمته الظروف تمامًا. ففى سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م خرج الملك العزيز إلى الاسكندرية فى رحلة صيد «... وركض خلف ذئب فسقط عن فرسه ...» ولم يلبث أن مات[٢٤] ولم يتعد عمره ثمانية وعشرين عامًا. وتولى حكم مصر بعده ابنه الملك المنصور ناصر الدين محمد، وكان عمره تسع سنين وبضعة أشهر . وكاتبوا عمه الملك الأفضل فى صرخد لكى يكون هو الأتابك (أى الوصى) للسلطان الطفل. وجاء الأفضل إلى القاهرة متخفيًا خوفًا من عمه العادل، ثم استقر بالقاهرة وكتب إلى العادل محمد يخبره بوصوله إلى مصر «... حفظًا لدولة ابن أخيه ، وأنه لايخرج عما يأمره به ...». وجاء رد العادل محمد لينبئ عن حقيقة أهدافه ؛ فقد كتب إلى الأفضل بأنه إذا كان الملك العزيز قد مات دون أن يترك وصية فيجب على الأعيان أن يشهدوا بذلك ويكتبوا إليه لكى يقرر ما ينبغى عمله، أما إذا كانت هناك وصية فإنه يجب الالتزام بمضمونها. وفى كل الأحوال لاينبغى للأفضل أن يتدخل فى أمور مصر وشئونها[٢٥].

كان رد العادل حاسمًا يكشف عن أنه لم يكن ليسمح بأن تضيع منه مصر تحت أى ظروف، فقد كانت هى العمود الفقرى فى مشروعه لوراثة صلاح الدين. ولكن ابن أخيه الأفضل لم يلتفت إلى رسالته وانفرد بأمر مصر «... ولم يبق للمنصور غير مجرد الإسم فقط...» وبدأ يوطد لنفسه ولسلطته بالقضاء على من بقى بمصر من الأمراء الصلاحية، ففر منهم جماعة وقبض على عدد آخر. وفى تلك الأثناء كان العادل غائبًا عن دمشق فى حصاره لماردين ؛

٢٣- زيادة ، حملة لويس التاسع، ص٣٩ - ص٤٠ .

٢٤- المقريزى ، السلوك ج١ ، ص١٤٣- ص١٤٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل، ج٩ ، ص٢٣٤ .

٢٥- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص١٤٧ .

فأرسل الظاهر غازى صاحب حلب إلى أخيه الأفضل يحرضه على انتهاز الفرصة والاستيلاء على دمشق. وبالفعل خرج الأفضل بجنوده من القاهرة صوب دمشق ، ولحق به الظاهر غازى من حلب ، وحاصرا دمشق التى كان العادل قد وصل إليها مسرعًا بعد أن ترك ابنه الكامل مع جيشه فى حصار ماردين. وساءت الأحوال فى دمشق كثيراً . ولجأ العادل محمد إلى سلاحه المفضل؛ أى الدس والوقيعة بين قادة جيش التحالف الأخوى، ثم استدعى ابنه الكامل بجيشه من الشرق وتغير ميزان القوى العسكرية لصالح العادل. وانتهى الأمر برفع الحصار عن دمشق فى ربيع الأول سنة ٥٩٦هـ/ ديسمبر ١١٩٩م، وعاد الأفضل إلى القاهرة وطارده عمه بجيوشه. ثم أرسل إليه رسالة حاسمة واضحة فى قوتها : « ... أنا لا أحب أن أخرق ناموس القاهرة، لأنها أعظم معاقل الإسلام، ولاتحوجنى إلى أخذها بالسيف ، واذهب أنت إلى صرخد وأنت آمن على نفسك ... »[٢٦]. وخرج الأفضل من القاهرة ، بعد أن دخلها عمه، فى يوم السبت ١٨ ربيع الآخر من هذه السنة. وبذلك بات الطريق ممهداً أمام العادل للانفراد بالحكم . فقد صار الآمر الناهى بوصفه الوصى على الملك المنصور.

ثم قام بخطوته الأخيرة حين أعلن فى شوال أمام جماعة من الأمراء انفراده بحكم البلاد ، وخلع السلطان الطفل مبرراً ذلك بقوله[٢٧] : «إنه قبيح بى أن أكون أتابك صبى مع الشيخوخة والتقدم، والملك ليس بالإرث ، وإنما هو لمن غلب ، وإنه كان يجب أن أكون بعد أخى الملك الناصر صلاح الدين، غير أنى تركت ذلك إكراما لأخى ، ورعاية لحقه . فلما كان من الاختلاف ما قد علمتم، خفت أن يخرج الملك عن يدى ويد أولاد أخى. فسُسْت الأمر إلى آخره، فما رأيت الحال ينصلح إلا بقيامى فيه ونهوضى بأعبائه. فلما ملكت هذه البلاد ، وطنت نفسى على أتابكية هذا الصبى حتى يبلغ أشده . فرأيت العصبيات باقية ، والفتن غير زائلة ، فلم آمن من أن يطرأ علىّ ما طرأ على الملك الأفضل، ولا آمن أن يجتمع جماعة ويطلبون إقامة إنسان آخر، وما يُعلم ما يكون عاقبة ذلك. والرأى أن يمضى هذا الصبى إلى الكُتَّاب ، وأقيم له من يؤدبه ويعلمه. فإذا تأهل وبلغ أشده نظرت فى أمره ، وقمت بمصالحه ».

٢٦- أبوشامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص٢٣٧- ص٢٣٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٣ ، ص١٠٨- ص١٠٩ ؛ المقريزى، السلوك، ج١، ص١٥١ .

٢٧- أبوشامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص٢٣٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، ج٣ ، ص١١١؛ المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص١٥٢ .

هذا النص يكشف عن حقيقة السياسات الأيوبية منذ وفاة صلاح الدين حتى تولى العادل عرش السلطنة فى القاهرة ؛ فالتنازع والتخاصم كان سمة هذه الفترة بحيث حارب الأيوبيون بعضهم بعضًا ، وسعوا إلى مهادنة الصليبيين لكى يتفرغوا لقتال إخوتهم وبنى عمومتهم ، وكانت النتيجة فراغًا سياسيًا وعسكريًا أفاد منه الفرنج الصليبيون فى تجديد قواهم والاستعداد لعدوان جديد على المنطقة العربية . ومن ناحية أخرى ، أرسى العادل مبدأ سياسيًا خطيرًا كانت له آثاره بعيدة المدى فى التاريخ السياسى فيما بعد ؛ وهو مبدأ «الحكم لمن غلب» . فقد خسر الأيوبيون ملكهم أمام المماليك الذين كانوا عبيدًا لهم بمقتضى هذا المبدأ ، كما أن هذا المبدأ هو الذى حكم الأداء السياسى لدولة سلاطين المماليك طوال ما يقرب من قرنين وسبعين سنة على نحو ما سنرى فى الفصول التالية من هذا الكتاب.

كذلك فإن العادل قد سلك مسلكًا سياسيًا طبيعيًا فى تناوله للأمور ولم يكن انتهازيًا كما يحلو للبعض أن يصفه ؛ فقد تعامل الرجل مع حقائق الموقف السياسى ولم يحاول أن يغتال حاكمًا ولكنه كان الرجل الأكثر كفاءة وخبرة وسط جماعة من العابثين ولم يكن ممكنًا ، أو مقبولاً ، أن يترك الأحوال تتردى تحت حكم أشخاص متقلبين ما بين العبث واللهو من ناحية، والزهد والانقطاع للعبادة من ناحية أخرى، مثل ابن أخيه الأفضل. وعلى أية حال ، فإن الأحكام الأخلاقية لايمكن أن تكون معيارًا لتقييم حركة التاريخ التى تحكمها اعتبارات الصراع و«دفع الناس بعضهم بعضًا » على حد تعبير القرآن الكريم .

هكذا تولى العادل سيف الدين محمد أبوبكر بن أيوب عرش السلطنة سنة ٥٩٦هـ / ١٢٠٠م، وجعل ابنه الكامل ناصر الدين محمد نائبه فى مصر وولى عهده . وتم توحيد الدولة الإقليمية الكبرى مرة أخرى. ولكن الأمور لم تهدأ تمامًا على الجبهة الأيوبية، كما كانت سُحُب الخطر تتجمع على الجبهة الصليبية .

فى هذه السنة نفسها كانت أوربا تشهد أحداث الحملة الصليبية الى دعا إليها البابا إنوسنت الثالث للهجوم على مصر. وكان عام ١١٩٩م الذى تحدد لتجمع جيوش الحملة الصليبية قد جاء وانقضى دون أن يتم إنجاز شئ ، وفرض البابا ضريبة جديدة لكى يوفر نفقات الحملة، وسبب ذلك مشكلات داخل المسيحية الكاثوليكية نفسها [٢٨]. ثم بدأت القوات

٢٨- رفض الرهبان السسترشيان - الذين كانوا أكبر ممولى الحملة الصليبية الثانية- دفع الضريبة أنظر:

Mayer, Op. cit., p. 185 .

تتجمع من فرنسا، وذهبت رُسُل النبلاء الفرنسيين إلى إيطاليا للتفاوض بشأن نقل قوات الحملة الصليبية إلى الشواطئ المصرية على متن سفن إحدى الدول التجارية الإيطالية، كما سبق القول. وتم عقد معاهدة مع الدوج إنريكو داندولو على أن تقوم سفن البندقية بالنقل لمدة سنة، وذلك في مقابل ٨٥ ألف مارك من الفضة تدفع على أربع دفعات .

والحقيقة أن مصر كانت تبدو الهدف الوحيد المعقول الذى ينبغى أن تتوجه الحملة ضده لأن المساعدة الفعالة الوحيدة لفلسطين سوف تأتى من مصر التى صارت مركز القوة الأيوبية بعد أن اعتلى عرشها السلطان العادل. ثم حدثت عدة تطورات أدت إلى تغيير قيادة الحملة وإسنادها إلى قائد إيطالى هو الماركيز بونيفاس دى مونتفرات. ومرة أخرى تحددت سنة ١٢٠٢م موعداً للرحيل ولكن شيئًا لم يحدث [٢٩]. وطلب حاكم البندقية العجوز مساعدة الحملة الصليبية لكى يستولى على مدينة زارا من المجر مقابل تأجيل المبلغ الذى سيدفعه الصليبيون لنقل حملتهم إلى الشواطئ المصرية . ولأن البديل كان التخلى عن الحملة الصليبية وضياع المبلغ الذى دفعه الصليبيون بالفعل [٣٠]، فإن الزعماء قبلوا العرض. وفيما بين سنة ١٢٠٢ وسنة ١٢٠٤م جرت مجموعة من الأحداث العسكرية التى عرفت باسم الحملة الصليبية الرابعة. ففى ٢٤ يونيو سنة ١٢٠٣م كان الأسطول الذى يحمل القوات الصليبية يرسو فى مياه خلقدونية قبالة القسطنطينية . وهكذا انتهت الحملة التى تجمعت بهدف النزول على الشواطئ المصرية على البحر المتوسط بفرض الحصار على القسطنطينية العاصمة المسيحية. ولم يكن هذا مجرد تغيير جغرافى؛ وإنما كان تعبيراً عن الإفلاس الإيديولوچى للفكرة الصليبية نفسها.

لقد أريقت كميات هائلة من الحبر فى الكتابة عن أسباب «انحراف» الحملة الصليبية الرابعة، وأسرف الباحثون كثيراً فى مناقشة هذه الأسباب. ويبدو لى أن السؤال نفسه غير ذى جدوى على الرغم من أن الكتابة حول هذا الموضوع ما تزال مستمرة حتى اليوم على ما يقول «هانز ماير» [٣١]. فالرأى عندى أن العوامل الاقتصادية والدوافع المادية كانت باستمرار من الحوافز التى حركت الحركة الصليبية، منذ بدايتها سنة ١٠٩٥م، وطوال تاريخها . كما أن

٢٩- Edgar H . Mcneal, " The Fourth Crusade" in Setton (ed.) A Hist . of the Crusades, vol. II, pp. 166-167 ; Mayer, Op. cit., p. 186 .

٣٠- كان الصليبيون قد دفعوا جزءاً من نفقات النقل لمدينة البندقية .

٣١- Mayer, Op. cit., pp. 188-189 .

الاستيلاء على طرق التجارة وموانيها كان من أهم أهداف الصليبيين والمدن التجارية الإيطالية التى ساعدتهم بما يشكل تجسيداً عملياً وواقعياً لهذه العوامل الاقتصادية والدوافع المادية. ومن ناحية أخرى ، فإن العداء المذهبى المستمر بين كنيسة القسطنطينية ذات المذهب الأرثوذكسى والبابوية الكاثوليكية ، بمزاعمها العالمية عن رئاسة العالم المسيحى ، كان من بين الأسباب الهامة لاتجاه الحملة إلى القسطنطينية المسيحية بدلاً من القاهرة العربية المسلمة.

وعلى أية حال، فإن الصليبيين شنوا هجومهم ضد القسطنطينية وفى مارس سنة ١٢٠٤م أقاموا عدة دول وإمارات لاتينية تحل محل الإمبراطورية البيزنطية بمقتضى نوع من المعاهدات التى صاغوها وفرضوها لتحقيق أطماعهم. وفى ١٣ أبريل سنة ١٢٠٤م نفسها اقتحمت القوات الصليبية مدينة قنسطنطين ، وكانت تلك هى المرة الأولى فى تاريخ المدينة التى يقتحمها الغزاة الأجانب، وتُركت عرضة للسلب والنهب على مدى ثلاثة أيام مرعبة مارس فيها الصليبيون مذابحهم الشهيرة (٣٢).

وكان لذلك تأثيره على الأوضاع السياسية والعسكرية فى المنطقة العربية بطبيعة الحال. فقد تمخض مشروع الحملة الصليبية على مصر عن هجوم هزيل على الشواطئ المصرية بين رشيد وفوة . إذ إن بعض الذين لم يعجبهم «انحراف» الحملة الصليبية الرابعة عن هدفها واصلوا إبحارهم حتى شواطئ بلاد الشام . وهناك تعاونوا مع الصليبيين المستوطنين لشن هجوم عابث استمر خمسة أيام بأسطولهم « ... والعسكر تجاهه ليس له إليه وصول ، لعدم وجود الأسطول العادلى ... »(٣٣) هذا الهجوم الذى حدث سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٤م كان الإعلان الأخير عن فشل المشروع البابوى بشن حملة صليبية ضد مصر، وبلع البابا فشله ولكن إلى حين.

٣٢- عن الحملة الصليبية الرابعة أنظر:

Villehardouin, The Conquest of Constantinople, in Joinville and Villehardauin, Chronicles of the Crusades , (transl. by M. R.S. Shaw, Penguin Books, 1975), pp. 29 - 160 ; Mayer, Op. cit. pp. 183-193 ; McNeal, Op. cit, vol . II, pp. 155-186 ; Runciman, Op. cit., vol . III, pp. 107-111;

زابوروف ، الصليبيون فى الشرق؛ ابن الأثير، الكامل ، ج٩ ، ص٢٦٣- ص٢٦٤ حيث ذكر فى حوادث سنة ٦٠٠ هجرية ما نصه : «... إنما الفرنج هم الحكام فى البلد ، فثقلوا الوطأة على أهله، وطلبوا منهم أموالاً عجزوا عنها ، وأخذوا أموال البيع وما فيها من ذهب ونقره وغير ذلك... » كما وضعوا السيف فى أهلها ثلاثة أيام كاملة.

٣٣- ابن الأثير ، الكامل، ج٩، ص٢٦٥- ص٢٦٦ ؛ المقريزى، السلوك، ج١ ، ص١٦٣ .

وأدرك الصليبيون في الشرق استحالة قدوم حملة صليبية سريعة لنجدتهم فسعى ملكهم عموري الثاني (أماليك الثاني) إلى عقد هدنة مع السلطان العادل محمد الذي رآها فرصة مواتية له بسبب ازدهار التجارة وعوائدها في حال الهدنة مما يضمن له مورداً لمواصلة القتال ضد بقية الأيوبيين، وتم عقد هدنة مدتها ستة سنوات في شهر المحرم سنة ٦٠١هـ سبتمبر ١٢٠٤م[٣٤] وهذه المعاهدة تكشف عن حقيقة ما ذهبنا إليه من الصفحات السابقة من أن خلفاء صلاح الدين لم يكونوا مثله، وأنهم اتبعوا سياسة متخاذلة تجاه العدو الصليبي تقوم على رد الفعل، وتجنح إلى التفريط والتسليم على الرغم من قدرتهم العسكرية وضخامة مواردهم وسوء أحوال الفرنج بالمشرق. ومن ناحية أخرى ، نجدهم لايتهاونون في شن الحرب ضد بعضهم بعضاً لأسباب أهون بكثير. وقد كانت هذه الهدنة التي عقدها الكامل مع الفرنج بهدف تحرير يده في العمل ضد أقاربه الأيوبيين، وقدَّم في سبيل ذلك يافا وشاركهم في اللد والرملة.

بعد عقد هذه المعاهدة بعدة شهور مات أماليك الثاني، وظهرت على مسرح الأحداث شخصية جديدة هو حنا برين الذي كان قد اقترب من الستين ، ثم تزوج هذا النبيل الفرنسي المسن من ابنة أماليك الثاني، وحدثت عدة معارك ثانوية هنا وهناك بين الجانبين. ويبدو أن موقف السلطان العادل لم يكن حازماً تجاه الفرنج مما أثار عليه ضيق الناس، وهاجمه خطباء المساجد في صلاة الجمعة ؛ بل إن سبط بن الجوزي، الفقيه والمؤرخ، حينما خطب في جامع دمشق وأخبرهم أن نساء المسلمين قطعن شعورهن لتكون قيوداً لخيول المسلمين المجاهدين ؛ أهاج مشاعر الرجال ثم خرجوا لقتال الصليبيين حتى نابلس حيث لقيهم المعظم ابن العادل ، حاكم الشام وفلسطين وأخذ شعور النساء ووضعها على وجهه وهو يبكي في جامع المدينة[٣٥]، ثم هاجم المسلمون المستوطنات الصليبية وألحقوا بها بعض الخسائر . والحقيقة أن السلطان العادل كان يميل إلى مُهادنة الفرنج (وينبغي أن نتذكر صداقته مع الملك ريتشارد الأول (قلب الأسد) ملك انجلترا أثناء أحداث الحملة الصليبية الثالثة، ومشروع زواجه من أخت ريتشارد، وهو المشروع الذي فشل بسبب ما كان مطلوباً في مقابله من ناحية، وبسبب معارضة صلاح الدين من ناحية أخرى). وقد أنكر العلماء والفقهاء على العادل الأيوبي تهاونه « ... في عدم

٣٤- ابن الأثير ، الكامل، ج٩ ، ص٢٦٥- ص٢٦٦؛ المقريزي ، السلوك، ج١ ، ص١٦٤ . وقد ذكر المقريزي ما نصه : « ... وتقررت الهدنة مدة، وشرطوا أن تكون يافا لهم، مع مناصفات لد والرملة، فأجابهم العادل إلى ذلك... ».

٣٥- أبوشامة ، الذيل على الروضتين ، ص٩٦-٩٧ ؛ محمود الحويري ، العادل الأيوبي، ص٨٤ .

حفظ ثغور المسلمين...» ولاموه فى ذلك مباشرة ، وأمام الناس (٣٦). ويبدو أن السلطان العادل محمد كان يهتم بإبقاء العرش فى ذريته أكثر من أى شئ آخر. وقد أدى ذلك إلى نشوء موقف سياسى لصالح الفرنج؛ فمنذ تولى العرش سنة ١٢٠٠م لم تكن الدولة الأيوبية دولة مركزية بأى حال من الأحوال ؛ فقد كانت السيطرة على هذه الدولة تتطلب قدراً هائلاً من المهارة الدبلوماسية . وبسبب الصعوبات التى واجهها العادل فى إحكام قبضته على الممتلكات الأيوبية نعم الفرنج فى مستوطناتهم على الساحل الفلسطينى بفترة سلام أهاجت الرأى العام العربى كما ذكرنا .

وقد حكم أولاد العادل الأجزاء المنفصلة من دولته الإقليمية الكبرى؛ فابنه وولى عهده الكامل كان يحكم مصر، قلب هذه الدولة ومركزها ، على حين حكم المعظم بلاد الشام وفلسطين، وحكم ابنه الأشرف الجزيرة وأعالى العراق. كما كانت هناك عدة مدن - دول خاضعة للسيادة الأيوبية فى بلاد الشام والعراق يحكمها حكام من الفروع الأخرى من الأيوبيين ، أو حكام من بقايا الزنكيين والأراتقة (٣٧).

هكذا، كانت الأحوال فى المنطقة العربية مع بداية العقد الثانى من القرن الثالث عشر فى حال من السيولة السياسية والميوعة العسكرية التى لم تحسمها المعاهدة التى أبرمها السلطان العادل محمد مع الملك الصليبى الجديد حنا بريين فى ٦٠٧هـ / ١٢١٠م لمدة ست سنوات، والتى كانت فى واقع الأمر بمثابة فترة استعداد من جانب الفرنج وأوربا لشن حملة صليبية جديدة يكون هدفها مصر بدلاً من الحملة الرابعة التى ذهبت إلى القسطنطينية . وقد كان البابا إنوسنت مشغولاً بالإعداد لهذه الحملة الجديدة لتعويض الصدمة العنيفة التى تلقاها بسبب ما آل إليه مصير الحملة الرابعة . وكان سبب صدمته أنه قد بذل ما فى جعبته لكى يُحكم سيطرته على هذه الحملة بحيث تكون مشروعًا بابويًا خالصًا؛ ولكن التجار والمغامرين العلمانيين حولوها إلى مشروع لحسابهم (٣٨). ومن ناحية أخرى، فإن نجاح الحملة الصليبية الرابعة فى القضاء على الإمبراطورية البيزنطية والاستيلاء على أراضيها جعل الفرسان الصليبيين يهاجرون من مستوطناتهم فى فلسطين لكى يستقروا فى الإمارات الصليبية التى تأسست فى بلاد اليونان وبقية الأراضى البيزنطية بعيداً عن خطر القوى الإسلامية.

٣٦- أبوشامة ، الذيل على الروضتين ، (القاهرة ١٩٤٧م) ، ص١٣٦ .

٣٧- Mayer, Op. cit., pp. 210-211 .

٣٨- Ibid, p. 205 .

وكان لابد أن تتـولد قناعـة لدى إنوسنت الثالث أنه حينما يكون للقوى العلمانيـة ، مثل جمهورية البندقية والأباطرة الألمان، قدر كبير من التأثير على مجرى الحملة الصليبية ، فإن الفرصة ستكون ضئيلة فى أن تقدم هذه الحملة مساعدة للفرنج المستوطنين فى فلسطين، أو للفكرة الصليبيـة، أو أن تكون ذات جدوى بالنسبة لأهداف البابوية السياسيـة. ومن ثم قرر البابا إنوسنت الثالث أن تكون الحملة مشروعه الشخصى ، فأرسل فى سنة ١٢١٦م إنذراً إلى السلطان العادل محمد بالهجوم على مصر والاستيلاء عليها إذا لم يقم بتسليم بيت المقدس إلى الفـــرنج (٣٩). وقد عمل البابا على أن يشارك كل من يستطيع من الأوربيين فى هذه الحملة، وجعل للمعدمين والضعفاء دوراً فى الحرب ضد المسلمين . ويرى ماير أن إنوسنت لم تكن تراوده أية شكوك فى أن الصليبيين سوف ينتصرون فى هذه الحملة وأن أيام الإسلام والمسلمين قد باتت معدودة (٤٠). ولكن البابا إنوسنت الثالث مات سنة ١٢١٦ قبل أن تتم الاستعدادات لهذه الحملة وخلفه الكاردينال المسن «ساڤيللى» الذى اعتلى العرش البابوى تحت اسم «البابا هونريوس الثالث» وواصل الاستعدادات لهذه الحملة(٤١).

هذه الحملة عرفت فى تاريخ الحروب الصليبية باسم الحملة الصليبية الخامسة، وكان هدفها مصر. وكانت هناك عدة أسباب تحفز الصليبيين على النزول بقواتهم على أرض دلتا النيل بدلاً من ضفاف نهر الأردن؛ أولها أن استراتيجية الحملات الصليبية قد تغيرت منذ أحداث الحملة الصليبية الثالثة التى أوضحت أهمية مصر فى أى صراع فى المنطقة ، وثانيها، أن مصر كانت مركز الثقل فى الدولة الإقليمية الكبرى التى وحدها العادل سياسيا (على الرغم من هشاشة هذه الوحدة) ، وثالثها رغبة المدن التجارية الإيطالية (التى توفر للحملة وسائط النقل اللازمة) فى السيطرة على تجارة البحر المتوسط وضرب التجارة المصرية فى عقر دارها بالاستيلاء على

٣٩- محمد مصطفى زيادة، حملة لويس التاسع، ص٤٣ .

٤٠- كان البابا يفسر ما ورد فى سفر الرؤيا (١٣: ١٨) من أن عدد سنوات عمر الوحش هو ٦٦٦سنة ، على أن السنة الأخيرة للإسلام هى السنة ٦٦٦؛ فإذا ما تم حساب سنة ظهور الإسلام وهى سنة ٦٢٢ميلادية + ٦٦٦، تكون السنة التى توقع فيها نهاية الإسلام هى سنة ١٢٨٨ ميلادية . ولذلك كان إنوسنت الثالث مؤمنًا بأن حملته ستقرب المسلمين والإسلام من هذه النهاية- انظر:

Mayer , The Crusades, p. 206 .

٤١- قاسم ، ماهية الحروب الصليبية، ص١٥٥- ص١٥٦ .

ميناء دمياط الذى كان أهم موانئ منطقة شرق المتوسط فى ذلك الحين، أما السبب الرابع فكان الانتقام مما جرى على جيش الفرنج فى حطين سنة ١١٨٧م.

وبدأت طلائع القوات الصليبية تتوافد على ميناء عكا الفلسطينى عن طريق البحر فى وقت كان الفرنج يعانون فيه من أزمة اقتصادية حادة من جراء تدهور المحصول فى العام السابق (١٢١٦م) ، وتذكر المصادر الصليبية أن عدداً كبيراً من الصليبيين فى فلسطين قد هلكوا من جراء الجوع[٤٢] مما سبب قدراً من الاضطراب فى صفوفهم؛ ولكن وصول الصليبيين سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م جعل العادل محمد يخرج من مصر إلى الشام. ولكن يبدو أنه كان يخشى لقاءهم؛ إذ يقول المقريزى « ... وفيها تتابعت أمداد الفرنج فى البحر من روما وغيرها إلى عكا- وفيهم عدة من ملوكهم- وقد نقضوا الصلح، وعزموا على أخذ القدس ، وسائر بلاد الساحل وغيرها . فعظم جمعهم. فخرج العادل من مصر بعساكره ، وسار إلى لد. فبرز الفرنج من عكا فى خلق عظيم، فرحل العادل نابلس، ونزل فى بيسان . فقال له إبنه المعظم لما رحل : «إلى أين يابه؟ » فسبّه العادل بالعجمية ، وقال : «بمن أقاتل ؟ أقطعت الشام مماليكك ، وتركت من ينفعنى من أبناء الناس الذين يرجعون إلى الأصول» وذكر كلامًا فى هذا المعنى... »[٤٣] من هذا النص يبدو أن العادل لم يكن قادراً على ممارسة سلطة حقيقية على مملكته من جهة ، كما أنه كان يخاف مواجهة الفرنج من جهة أخرى .

على أية حال ، فإن الصليبيين عاثوا فساداً فى فلسطين، ونهبوا بيسان على الرغم من وجود العادل بها « ... وقد أنكوا فى المسلمين أعظم نكاية، وامتلأت أيديهم بالأسرى، والسبى والغنائم ، وأتلفوا بالقتل والتحريق وما يتجاوز الوصف ... » [٤٤].

وقبل وصول القوات الرئيسية للحملة الصليبية الخامسة إلى عكا ، عقد الملك حنا برين اجتماعًا مع زعماء منظمات الرهبان العسكرية (الداوية والاسبتارية) وتوصلا إلى خطة من شقين ؛ هجوم تقوم به قوة صغيرة على الملك المعظم شرف الدين بن العادل فى نابلس، وفى الوقت نفسه يتم إنزال بحرى يقوم به الجيش الرئيسى على دمياط فى مصر بحيث يتم

٤٢- Thomas C. Van Cleve, " The Fifth Crusade" in : Setton (ed.), A Hist. of the Crusades, vol . II, p. 389 .

٤٣- المقريزى، السلوك، ج١ ، ص١٨٦ .

٤٤- المصدر نفسه ، ج١، ص١٨٧ .

الاستيلاء على مصر لتأمين الاستيلاء على بلاد الشام كلها(٤٥). ومن الواضح أن مجلس الحرب في عكا رفض هذا المشروع ولكنهم لم يتوصلوا إلى أية خطة بديلة. ومن ثم أخذوا في شن هذه الغارات التي أشار إليها المقريزي .

هكذا ، بدأت أحداث الحملة الصليبية الخامسة لتستمر أحداثها ووقائعها على مدى أربع سنوات تنقص شهراً حسب تعبير ابن الأثير (٤٦) بهذا الهجوم الذي بدأته القوات الصليبية في الثالث من نوفمبر سنة ١٢١٧م. وبلغت حماسة الصليبيين ذروتها؛ ولكنها سرعان ما خبت وعندما وصل الصليبيون إلى نهر الأردن وبحيرة طبرية وجدوا متنفساً لحماستهم الدينية في الاستحمام في مياه النهر المقدس (حيث تم تعميد المسيح عليه السلام) والقيام بالعديد من رحلات الحج إلى المزارات المسيحية المقدسة بالمنطقة (٤٧). ثم عاود الصليبيون هجومهم على المسلمين في جبل طابور (قلعة الطور) التي كان السلطان العادل قد بناها سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م وأنفق عليها أموالاً جمة (٤٨)، وكانت تلك القلعة هي التي اتخذها إنوسنت الثالث ذريعة للدعوة إلى الحملة الصليبية ضد مصر. ولكن الهجوم الصليبي على القلعة باء بالفشل على الرغم من أن المصادر العربية ذكرت أن القلعة كانت على وشك الاستسلام . وتم رفع الحصار الذي استمر سبعة عشر يومًا (٤٩). وعاد الفرنج إلى عكا في ٧ ديسمبر من هذه السنة.

ثم أظهر الأيوبيون علامة أخرى من علامات التردد والخيبة في مواجهة الفرنج؛ فقد أمر المعظم ابن العادل محمد بهدم القلعة التي لم يكن قد مضى على تجديدها خمس سنوات ؛ ظنًا منه بأن وجود هذه القلعة هو الذي جلب عليهم هجوم الصليبيين(٥٠). ومن ناحية أخرى ، تبعثرت هجمات الصليبيين وجهودهم بشكل يكشف عن فوضى القيادة في الجبهة الصليبية.

٤٥- Van Cleve, Op. cit., p. 389 .

٤٦- ابن الأثير، ج٩، ص٣١٤- ص٣١٨ .

٤٧- Van Cleve, Op. cit., p. 391 .

٤٨- المقريزي، السلوك ، ج١ ، ص١٧٦ .

٤٩- نفسه ، جـ١ ، ص١٨٧ .

٥٠- ابن واصل ، مفرج الكروب، ج٣ ، ص٢٥٧ ؛ محمود الحويري، العادل الأيوبي ، ص٨٩ ؛ Van Cleve, Op. cit., p. 392 .

أما على الجبهة الإسلامية، فقد بقى السلطان العادل محمد بمرج الصفر فى فلسطين دونما حراك . وثمة قصة تحكيها المصادر التاريخية العربية لاتخلو من مغزى ودلالة ، كما تجسد التناقض بين موقف الحكام والرعية آنذاك ونصها : «ونزل العادل بمرج الصفر ، ورأى فى طريقه رجلاً يحمل شيئًا ، وهو يمشى تارة ويقعد أخرى، فقال له : « ياشيخ لاتعجّل ، ارفق بنفسك » فقال له : «يا سلطان المسلمين أنت لاتعجّل أو أنا ؟ إذ رأيناك قد سرت من بلادك ، وتركتنا مع الأعداء ، كيف لانعجّل؟...»[٥١] هذه القصة ، التى قد تكون حقيقية وقد تكون مختلقة، تشى بموقف الرأى العام من السلطان العادل الأيوبى.

وفى بداية سنة ٦١٥هـ / يناير ١٢١٨م رحل الملك المجرى أندرو ومعه عدد كبير من الصليبيين ودواب الحمل مما أضعف من حجم القوات الصليبية فى عكا بحيث لايمكنهم القيام بأية عمليات ضد المسلمين حتى وصول القوات الصليبية من غرب أوربا ، وهكذا ظل الصليبيون هادئين داخل أسوار عكا حتى فصل الربيع حينما بدأت قوات صليبية جديدة تفد من جميع أنحاء أوربا [٥٢]. فقد وصلت عدة سفن من هولندا (كانت تعرف آنذاك باسم فريزيا والأراضى الواطئة) فى أبريل ١٢١٨م ووصلت معها الأنباء بقرب وصول القوات الصليبية الرئيسية التى جهزها البابا هونوريوس إلى عكا .

وقرر مجلس الحرب الصليبى المجتمع فى عكا مهاجمة دمياط على مخرَج الفرع الشرقى لمصب نهر النيل فى البحر المتوسط. وكان من رأى الذين أيدوا الهجوم على دمياط أن هذا الميناء الهام هو مفتاح مصر، ولم يكن أحد من الصليبيين قد نسى نصيحة ريتشارد الأول ملك انجلترا ، وقائد الجيوش الإنجليزية فى الحملة الصليبية الثالثة، بضرورة الاستيلاء على مصر، كذلك كانت قرارات مجمع اللاتيران سنة ١٢١٥م قد حددت هدف الحملة الصليبية الجديدة فى أخذ مصر . وكان لنجاحهم فى الاستيلاء على مصر يعنى حرمان المسلمين من أغنى بلاد المنطقة العربية وأقواها من ناحية، والسيطرة على الحوض الشرقى للبحر المتوسط من ناحية أخرى، فضلا عن ضمان أمن المستوطنات الصليبية فى بيت المقدس وفلسطين .

وفى ٢٧ مايو ١٢١٨م وصلت طلائع الأسطول الصليبى إلى ميناء دمياط، ولم تواجههم أية مقاومة، واختاروا لمعسكرهم مكانًا على الضفة الغربية لفرع دمياط ، قبالة مدينة دمياط،

٥١- ابن الأثير ، الكامل، ج٩ ، ص٣١٥ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، ج٣ ، ص٢٥٦ ؛ المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص١٨٧ .

٥٢- زيادة ، حملة لويس التاسع ، ص٤٤ ؛ Van Cleve, Op. cit. pp. 394-395 .

فى منطقة كانت تعرف باسم «جيزة دمياط» . وكان المكان مثاليًا من وجهة النظر الدفاعية؛ ولكنه لم يكن مناسبًا لقوات تريد أن تواصل هجومها للاستيلاء على المدينة وميناثها ، وفى غضون عدة أيام كانت سفن بقية الأسطول الصليبى قد وصلت كلها قبالة دمياط[٥٣].

كان نزول الصليبيين على دمياط مفاجأة مذهلة للسلطان العادل محمد، وابنه الكامل الذى كان حاكم مصر . وخرج الكامل بالجيش المصرى للدفاع عن دمياط ضد الصليبيين. وكان مفتاح دمياط « ... برج منيع فى غاية القوة والامتناع ، فيه سلاسل من حديد ، عظام القدر والغلظ، تمتد فى النيل لتمنع المراكب الواصلة فى بحر الملح من عبور أرض مصر. وتمتد هذه السلاسل فى برج آخر يقابله ، وكانا مشحونين بالمقاتلة ، ويعرف اليوم مكانهما فى دمياط بين البرجين... »[٥٤] وفى غربى النيل كان الصليبيون قد أقاموا معسكرهم وحفروا خندقًا من حوله، وبنوا حوله سوراً. وكان ذلك موقفًا دفاعيًا غريبًا من جانب المهاجمين . وبنى الصليبيون عدة أبراج وسفن عريضة لمهاجمة برجى دمياط وفى الوقت نفسه خرجت قوات الكامل فى اليوم التالى لوصول الصليبيين، ونزل الكامل بمنزلة العادلية ، قرب دمياط، على حين جاءت سفن الأسطول المصرى إلى قرب دمياط فى فرع النيل .

وكان السلطان العادل أبوبكر فى هذه الأثناء يرسل إمداداته العسكرية إلى ابنه الكامل، وظل الحال متجمداً تقريبًا على مدى أربعة أشهر [٥٥]. ولدينا رواية شاهد عيان من الصليبيين كان له جهده فى حصار دمياط وهو المدرس الكتدرائى أوليفر الذى كتب عن هذه الحملة كتابه «تاريخ دمياط Historia Damiatina » [٥٦]، وقد بنى آلة حصار بحرية خاصة على حسابه ودفع تكاليفها بالعملة الألمانية التى جمعها من الصليبيين الألمان. إذ تم ربط سفينتين سويًا وأقيمت

٥٣- Van Cleve, Op. cit., p. 397 .

٥٤- المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص١٨٨ وقد ذكر المقريزى أن نزول الفرنج على دمياط كان فى يوم الثلاثاء ٤ ربيع الأول ٦١٥هـ / ٨ يونيو ١٢١٨م. وكان هذان البرجان محل اهتمام كل حكام مصر، واهتم صلاح الدين الأيوبى بهما تمامًا ، ومكانهما اليوم قرية البرج عند رأس البر، وقد هدم الظاهر بيبرس مدينة دمياط القديمة، وبنى مدينة جديدة فى داخل الأراضى المصرية بحيث لاتتعرض لغارات الفرنج والقراصنة. وعن تحصينات دمياط أنظر . Mayer , Op. cit ., p. 211 ; van Cleve , Op. cit ., pp. 398-401

٥٥- المقريزى ، السلوك ، ج١ ص١٨٩ .

٥٦- Oliver Scholasticus, Historia Damiatina (ed. H. Hogeweg) in Bibliothek des litterarischen Vereins in Stuttgart , CCII (Tubingen, 1894).

وقد اعتمدنا على ما أورده ماير وڤان كليف فى دراستيهما عن الحملة الصليبية الخامسة من أقوال أوليفر.

فوقهما أربعة صوارى ضخمة وفوقها بنيت قلعة خشبية ، وفى الجزء الأسفل كبارى إنزال يتم التحكم فيها بنظام السحب (٥٧). وبفضل هذا الحصن العائم، الذى وصفته المصادر العربية المعاصرة بأنه كان يسع ثلاثمائة محارب ومدرع بالنحاس والجلد تمكن الفرنج من الاستيلاء على برج السلسلة على الرغم من المقاومة العنيفة التى أبداها المدافعون عن البرج بحيث أنهم كادوا يحرقون الحصن العائم بقذائف النار الإغريقية . وفى يوم ٢٤ من شهر أغسطس ١٢١٨ اقتحم الصليبيون البرج واستسلمت الحامية فى اليوم التالى. وقطع الصليبيون السلسلة، ودمروا جسر المراكب الذى كان يصل مدينة دمياط بالجزيرة وأقاموا بدلاً منه جسراً يصل معسكرهم بالمدينة (٥٨).

كان السلطان المسن العادل محمد ما يزال مقيمًا ببرج الصفر عندما وصلته أنباء سقوط برجي السلسلة مفتاح الدفاع عن دمياط « ... فتأوه تأوها شديداً ، ودق بيده على صدره أسفًا وحزنًا ، ومرض من ساعته .... » ثم توفي في سابع جمادى الآخرة سنة ٦١٥هـ / ٣١ أغسطس ١٢١٨م(٥٩). وتم إخفاء خبر وفاة السلطان العادل محمد ريثما يقوم أبناء البيت الأيوبى بترتيبات الوراثة وانتقال الحكم . وتم نقل جثمانه إلى قلعة دمشق، وبعد أن استولى ابنه الملك المعظم على جميع أمواله، أذيع خبر موته ودفن بقلعة دمشق .

ولم يحدث تغيير يذكر فى مجريات الأحداث نتيجة لوفاة السلطان السلطان العادل محمد ، فقد استمرت العمليات العسكرية حول دمياط، كما أن وتيرة الأحداث السياسية الداخلية بين الأيوبيين سارت على نغمتها المعتادة . كانت فترة حكم العادل على مصر تسع عشرة سنة وشهرا واحداً وتسعة عشر يومًا ؛ وهى فترة طويلة، بالإضافة إلى فترة خدمته فى حكم أخيه صلاح الدين الأيوبى من قبل . ومات عن عمر يناهز الخمسة وسبعين عامًا دون أن يحقق إنجازاً يحسب له. كانت سياسته إزاء الفرنج من أهم أسباب استردادهم لعافيتهم العدوانية . وربما كانت شخصيته الميالة إلى التمتع بملذات الحياة وراء موقفه السياسى، فقد وصفه المقريزى بأنه « .... وكان أكولاً نهمًا ، يأكل خروفًا مشويًا بمفرده .... ومُتّع فى دنياه بأرغد عيش ، وتمكن من السعادة فى سائر أحواله... وكان لايرى محاربة أعدائه ، ويستعمل فى مقاصده المكايد والخدع ... »(٦٠).

٥٧- Mayer, Op. cit., p. 2 11, Van Cleve , Op. cit., pp. 399-400 .

٥٨- Ibid, pp. 211-212 .

٥٩- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٣ ، ص٢٧٠ ؛ المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص١٩٠-١٩١ .

٦٠- المقريزى، السلوك ، ج١، ص١٩٣- ص١٩٤ .

ويبدو أن العادل محمد لم يدخل أية تعديلات على أسس النظام الإدارى والمالى فى مصر والشام ، وكل ما حدث هو إجراء تغييرات فى كبار الموظفين المسئولين عن الإدارة . ومن ناحية أخرى ، فإن تمويل حروب العادل ضد الأيوبيين قد ألقى عبئًا ثقيلاً على موارد البلاد الاقتصادية . وكان العادل قد وزع حكم دولته على أبنائه ، وتم تقسيمها على أصحاب الإقطاعات فى مصر والشام . ومن الواضح أن الإقطاعات قد انتقلت إلى أيدى المماليك العاملين فى خدمة ملوك بني أيوب على نحو ما أشار السلطان العادل محمد حينما عاتبه ابنه المعظم لهروبه من مواجهة الصليبيين فى بيسان فى السنة السابقة على وفاته (٦١). وقد كان النظام الإقطاعى العسكرى زمن الأيوبيين يرتكز على الأرض الزراعية ، مصدر الثروة والسلطة، بحيث يأخذ كل أمير مساحة من الأرض تتناسب مع رتبته العسكرية فى مقابل تقديم عدد من الفرسان والجنود إلى جيش السلطان حينما تكون هناك حاجة إلى ذلك . كما كانت هناك رواتب نقدية وعينية تُمنح للأجناد والفرسان من أصحاب الرتب الصغيرة ، وكانت تسمى «الجامكيات». وكانت تلك الجامكيات تعطى فى العصر الأيوبى لمن لايأخذون إقطاعات من الأرض الزراعية (٦٢). وقد كانت الإقطاعات فى عصر الأيوبيين قائمة على نوعين: الإقطاع الشخصى، الذى يمنح لشخص ما طوال حياته ، ولايكون لورثته حق وراثة الإقطاع. والنوع الثانى هو الإقطاع الوراثى الذى كان يُمنح لكبار الأمراء وقادة الجيش الذين كان السلطان يعتمد على جيوشهم وعلى ولائهم له (٦٣).

وقد حدث تطور مهم فى نظام الإقطاع العسكرى أيام صلاح الدين الأيوبى واستمر قائمًا حتى نهاية العصر الأيوبى على أقل تقدير . إذ إن خيوط العلاقات الإقطاعية تجمعت فى شخص السلطان الذى كان هو السيد الأعلى لجميع الأمراء الإقطاعيين بحيث كان السلطان

٦١- أنظر ما سبق فى هذا الفصل .

٦٢- ابن مماتى ، قوانين الدواوين (تحقيق عزيز سوريال عطية)، ص٣٥٤- ص٣٥٥ ؛ وقد ذكر القلقشندى (صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ج٢ ، ص٤٥٧) الجامكية وعرفها بأنها الرواتب النقدية عندما ذكر أن نفقة مماليك السلطان «... جامكيات وعليف وكسوة وغير ذلك ...» مما يعنى أن الجامكية كانت راتبًا نقديًا .

٦٣- ابن شداد ، النوادر السلطانية، ص١٢١- ص١٢٣ ؛ حيث يورد أمثلة على جيوش كبار الأمراء من أصحاب الإقطاعات فى خدمة صلاح الدين الأيوبى أثناء حوادث الحملة الصليبية الثالثة، وأنظر أيضا نفس المصدر ، ص١٢٦- ص١٢٧ ؛ أبوشامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص١٥٠- ص١٥١ .

هو الذى يمنح الأمراء إقطاعاتهم، ويستدعيهم للخدمة العسكرية زمن الحرب كما كان من حقه عزل أى أمير عن إقطاعه إذا تخلف عن أداء واجباته العسكرية . ولم يكن هذا النمط من التنظيم الإقطاعى يسمح بتقوية نفوذ الأمراء الإقطاعيين على حساب السلطة المركزية ؛ وإنما كان على العكس وسيلة فعَّالة لإحكام سيطرة السلطان على الأمراء التابعين له(٦٤).

وأفاد السلطان العادل من هذه الأسس فى توطيد سلطته بعد أن انفرد بحكم الدولة الأيوبية فى مصر والشام والجزيرة وأعالى العراق؛ فقد قسم بلاد هذه الدولة الإقليمية بين أولاده على أسس إقطاعية خالصة على الرغم من أن عددهم بلغ تسعة عشر ولدا ذكراً « ... سوى البنات... »(٦٥). وإذا كان النظام الإقطاعى العسكرى وسيلة جيدة لتعبئة الجيوش فى ذلك الزمان؛ فإنه بالتأكيد لم يكن وسيلة مناسبة لإدارة اقتصاديات البلاد؛ لاسيما مصر التى كانت الزراعة موردها الأساسى ومصدر ثروتها . ولأن المقطعين كانوا فى غالبيتهم من غير أهل مصر ؛ فإن الاهتمام بتحسين أحوال الزراعة ونظام الرى والصرف لم يكن من صفاتهم ، وإنما كان همهم موجهًا إلى استخراج أكبر قدر ممكن من الأموال من هذه الإقطاعات .

ومن ناحية أخرى، شهدت مصر متاعب اقتصادية واجتماعية جمة أثناء فترة حكم العادل محمد بسبب المجاعة والوباء اللذين أنشبا مخالبهما فى البلاد سنة ٥٩٦هـ، وظلت الأحوال متردية لمدة ثلاث سنوات متصلة « ... لايمد النيل فيها إلاَّ مداً يسيراً ، حتى عدمت الأقوات، وخرج من مصر عالم كبير بأهاليهم وأولادهم إلى الشام، فماتوا جوعًا فى الطرقات... » و« ... وكانت أزقة القاهرة ومصر لايوجد بها إلا مساكن قليلة، ولم يبق بمصر عامر إلا شط النيل... » ولم تتحسن الأحوال سوى بعد زيادة ماء النيل سنة ٥٩٩هـ (٦٦).

هكذا ، كانت أحوال مصر الاقتصادية زمن العادل محمد، وعلى الرغم من أنه حكم لمدة تزيد على تسعة عشر عامًا فإن المصادر لاتحدثنا عن تحسن الاقتصاد المصرى بشكل أو بآخر، وإنما تحدثنا عن نفقات الحملات العسكرية التى كان يقوم بها هو وأبناؤه. ولدينا مثال واحد على ذلك هو ما أنفقه ابنه الملك المسعود فى حملته على اليمن، ويبدو أنه النفقات كانت كبيرة بحيث أن العادل محمد نفسه استكثرها (٦٧).

٦٤- قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ، ص١٨٨- ص١٨٩ .

٦٥- المقريزى، السلوك، ج١ ، ص١٩١ .

٦٦- نفسه، ج١ ، ص١٥٦- ص١٦٢ .

٦٧- نفسه، ج، ص١٨١ .

على أية حال، فإن وفاة السلطان العادل محمد لم تغير شيئًا فى التوازن العسكرية بين المسلمين والصليبيين، كما أنها لم تمس أسس النظام السياسى والإدارى فى الدولة الأيوبية؛ إذ خلفه ابنه السلطان الكامل، ولى عهده ، فى حكم مصر ، كما خلفه فى حكم الشام ابنه الملك المعظم عيسى. وقد ورث السلطان الكامل عن أبيه أساليبه فى الحكم ووسائله فى السياسة ؛ وورث عنه أيضًا الميل إلى مهادنة الفرنج والاكتفاء برد الفعل فى التعامل معهم. ولاشك فى أن السنوات التى قضاها السلطان الكامل فى حكم مصر نيابة عن أبيه من ناحية، ورؤيته لأبيه وهو يبذل قصارى جهده لكى يتجنب الحرب ضد الفرنج الصليبيين من ناحية ثانية، واشتراكه فى حروب أبيه ضد الأيوبيين الآخرين من ناحية ثالثة ، قد تركت بصماتها على سياسات الكامل محمد وفكره السياسى والعسكرى على نحو ما سنرى فى الصفحات التالية.

أسرع السلطان الكامل إلى منزلة العادلية ، بالقرب من دمياط ، لكى يمنع تقدم القوات الصليبية نحو المدينة بعد أن استولوا على برج السلسلة ، وقطعوا السلاسل المتصلة به «... لتعبر مراكبهم فى بحر النيل، ويتمكنوا من أرض مصر . فنصب الملك الكامل عوضًا من السلاسل جسراً عظيمًا يمنع الفرنج من عبور النيل، فقاتل الفرنج عليه قتالاً كثيراً حتى قطعوه، وكان قد أنفق على هذا البرج والجسر ما ينيف على سبعين ألف دينار . فأمر الكامل بتغريق عدة من المراكب فى النيل ، منعت الفرنج من سلوكه ، فعدل الفرنج إلى خليج هناك يعرف بالأزرق ، وكان بحر النيل يجرى فيه قديمًا، فحفروه حفراً عميقًا، وأجروا فيه الماء إلى البحر الملح، فجرت سفنهم فيه إلى ناحية «بورة»[٦٨] على أرض جيزة دمياط تجاه المنزلة التى فيها الكامل ليقاتلوه من هناك ... ولم يضر أهل دمياط ذلك لتواصل الإمداد والميرة إليهم، وكون بحر النيل يحجز بينهم وبين الفرنج، بحيث كانت أبواب المدينة مفتحه، وليس عليها حصر ولاضيق البتة»[٦٩].

كان هذا هو الموقف العسكرى كما وصفته المصادر التاريخية العربية . كان السلطان الكامل يعسكر بقواته غرب النيل يحاول منع تقدم الفرنج صوب دمياط . وعلى الجانب الآخر كان الصليبيون يعانون من سوء اختيارهم لموقع معسكرهم . وابتداء من خريف تلك السنة بدأت جموع الصليبيين القادمين من أوربا تتوافد على المعسكر غرب النيل ومنهم الإيطاليون

٦٨- شمال غرب دمياط وقد أخذ سمك «البورى» المصرى الشهير اسمه من هذه البلدة.

٦٩- المقريزى ، السلوك، ج١ ، ص١٩٤- ص١٩٥ .

والفرنسيون والإنجليز ؛ ومع ذلك فإنهم ظلوا عاجزين عن أن يجدوا لأنفسهم موطئ قدم على الضفة الشرقية للنهر، كما عانوا من الأمراض التى تنتشر عادة فى المعسكرات(٧٠) وكان بين الواصلين فى خريف سنة ١٢١٨م إثنان من الكرادلة أرسلهما البابا مندوبين عنه فى الحملة؛ وسرعان ما مات أحدهما وهو روبرت الكورسونى؛ أما الآخر فهو الكاردنيال البرتغالى بلاجيوس الذى صب اهتماماته وطاقته كلها لكى يجعل من مفهوم البابا إنوسنت الثالث (الذى مات قبل تشكيل الحملة) عن الحملة الصليبية التى تقودها الكنيسة أمراً واقعًا . وكان هذا عملاً يتطلب مهارة دبلوماسية عالية، لأنه على الرغم من أن حنابرين كان قائد الجيش الصليبى فإن فرق الجيش المختلفة كانت متفرقة الآراء والأهواء . ولم يكن بلاجيوس يتمتع بالخصال الشخصية التى تمكنه من القيام بهذا العمل. إذ كان رجلاً ذا طاقة هائلة ولكنه كان ضيق الأفق، قصير النظر، مستبداً ، مُغرمًا بنفسه وعنيداً بشكل مثير(٧١). ولم يكن بلاجيوس يتردد فى اتخاذ القرارات العسكرية بدلاً من أن يرجع إلى العسكريين من ذوى الخبرة. وسرعان ما تسبب وجوده فى مشكلات جمة داخل المعسكر الصليبى .

ومن ناحية أخرى، كانت المقاومة مستمرة ، وفعّالة، ضد الصليبين فى جيزة دمياط « .... والعربان تتخطف الفرنج فى كل ليلة، بحيث منعهم ذلك من الرقاد، خوفًا من غاراتهم ، فتكالب العرب عليهم حتى صاروا يختطفونهم نهاراً ، ويأخذون الخيم بمن فيها ... وأدرك الناس الشتاء، فهاج البحر على معسكر المسلمين ، وغرّق الخيم، فعظم البلاء واشتد الكرب، وألح الفرنج فى القتال، ولم يبق إلا أن يملكوا البلاد ، فأرسل الله سبحانه ريحًا قطعت مراسى مَرمَّة كانت للفرنج من عجائب الدنيا ، فمرّت تلك المرمة إلى البر الذى فيه المسلمون

٧٠- Mayer, Op. cit., pp. 212-213 ; Van Cleve, Op. cit., pp. 402-403 .

وقد علق رجل الدين المتعصب جيمس الڤيترى على انتشار وباء الدوسنتاريا فى معسكر الصليبيين بكلمات حمقاء تقول إن ضحايا الوباء سعدوا بمرضهم وفرحوا باعتباره «دعوة للانضمام إلى العصبة السماوية». ويرى ماير- بحق- أنه لم يحدث أبداً فى التاريخ أن عجز المحاربون عن إيجاد مغزى ما للموت فى الحرب.

٧١- Mayer , Op. cit., p. 212 .

وكان البابا هونوريوس الثالث قد أرسله مع زميله ليكون المندوب البابوى فى الحملة التى كانت مشروعًا بابويًا صممه البابا إنوسنت الثالث، ونفذه خليفته هونوريوس.

فملكوها؛ فإذا هى مصفحة بالحديد، لاتعمل فيها النار، ومساحتها خمسمائة ذراع، وفيها من المسامير مازنة الواحد منها خمسة وعشرون رطلا... »[٧٢].

وأرسل السلطان الكامل رسله إلى كافة بلاد المسلمين يطلب مساعدته فى قتال الفرنج، وجاءته فرق عسكرية من حماة ومن حلب . ثم جرت حادثة غيرت مسار القتال الذى كان غير فعال حتى ذلك الحين. فعندما توفى السلطان العادل قام الأمير «عماد الدين أحمد بن على المعروف بابن المشطوب» بتدبير مؤامرة لعزل السلطان الكامل عن العرش ، وتولية أخيه «الملك الفائز» بدلاً منه . وسانده عدد من الأمراء الأكراد بنى جنسه. وانتهت المؤامرة بالفشل[٧٣]. واسترد الكامل عرشه ولكنه خسر معركة دمياط. إذ إنه دخل على المتآمرين « ... فإذا هم مجتمعون وبين أيديهم المصحف ، وهم يحلفون لأخيه الفائز. فعندما رأوه تفرقوا ، فخشى على نفسه منهم، وخرج ... ».

هكذا، دبت الفرقة فى معسكر المسلمين وهرب السلطان بحياته إلى منطقة شرق مدينة المنصورة (التى لم تكن قد بنيت بعد) هى أشموم طناح تحت جناح الليل، « ... وأصبح العسكر وقد فقدوا السلطان، فركب كل أحد هواه ، ... وتركوا أثقالهم وخيامهم وأموالهم وأسلحتهم ... » وعبر الفرنج ، يقودهم بلاجيوس إلى العادلية فى ٦ ذى القعدة ٦١٦هـ ٥ فبراير ١٢١٩م، واستولوا على ما تركه الجنود دونما قتال [٧٤]. وبذلك أحاط الفرنج مدينة دمياط من البر والبحر وشددوا حصارهم عليها .

ولكن السلطان المذعور زلزلته هذه الحادثة « ... وهَمَّ بمفارقة أرض مصر... » على حد تعبير المقريزى. وهكذا كانت المطامع الأيوبية الصغيرة سببًا فى نصر لايستحقه الصليبيون؛ فقد تفرغ الكامل لتأمين سلطته وللتخلص من مصادر الخطر. وعندما جاءه أخوه المعظم عيسى حاكم

٧٢- المقريزى، السلوك، ج١ ، ص١٩٥ . ومن الواضح أن المقريزى هنا يتحدث عن القلعة العائمة الجديدة التى بناها الصليبيون فوق ست سفن لاستخدامها فى الهجوم على دمياط، وهى تطوير للبرج العائم الذى سبق استخدامه فى الاستيلاء على برج السلسلة- أنظر: Van Cleve , Op. cit., p. 406 .

٧٣- ابن الأثير ، الكامل، ج٩ ، ص٣١٦ ؛ المقريزى، السلوك، ج١ ، ص١٩٦ .

٧٤- المقريزى، نفسه ، ج١، ص١٩٧ ؛ . Mayer, Op. cit., p. 213

أنظر أيضا : زيادة ، حملة لويس التاسع، ص٤٨؛ الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية، ج٢، ص١٠٦- ص١٠٧ .

الشام بجيشه، بعد يومين من استيلاء الفرنج على معسكره شرق النيل، عدل عن فكرة الهروب من مصر . وتمكن أخوه المعظم عيسى من إخراج «ابن المشطوب» ، زعيم مؤامرة الإنقلاب ، إلى بلاد الشام، كما أخرج أخاه الفائز إلى بلاد العراق . وهدأت أعصاب السلطان وبدأ يعيد النظر فى إجراءات القتال ضد الفرنج الذين أحكموا حصارهم على دمياط. ثم جاءتهم إمدادات جديدة من قبرص(٧٥).

ولم يحدث أي حادث عسكرى مثير طوال فترة الحصار، وربما يكون من الأفضل أن نقتبس وصف الموقف العسكرى والسياسى من المقريزى «... هذا والفرنج قد أحاطوا بدمياط من البحر والبر، وأحدقوا بها وحصروها ، وضيقوا على أهلها، ومنعوا الأقوات أن تصل إليهم. وحفروا على معسكرهم المحيط بدمياط خندقًا ، وبنوا عليه سوراً . وأهل دمياط يقاتلونهم أشد قتال، وأنزل الله عليهم الصبر، فثبتوا مع قلة الأقوات عندهم وشدة غلاء الأسعار. وأخذ الكامل فى محاربة الفرنج، وهم قد حالوا بينه وبينها ، ولم يصل إليها أحد من عنده سوى رجل من الجاندارية ، قدم إلى القاهرة من بعض قرى حماة، يسمى شمايل ... وكان يخاطر بنفسه ويسبح فى النيل، ومراكب الفرنج به محيطة، والنيل قد امتلأت به شوانى الفرنج، فيدخل إلى مدينة دمياط، ويأتى السلطان بأخبار أهلها . فإذا دخل إليها قوى قلوب أهلها، ووعدهم بقرب وصول النجدات... »(٧٦).

كان الموقف العسكرى ساكنًا على الجانبين؛ فالسلطان ينتظر مزيداً من القوات ويسيطر عليه التردد ، والصليبيون منقسمون على أنفسهم تحيرهم حماقات بلاجيوس وتفرّقهم أهواؤهم. وطال الحصار على هذا الحال ستة عشر شهراً واثنين وعشرين يومًا . وفى أثناء الحصار ظهرت الخصال السياسية السلبية للسلطان الكامل، وربما كان أبوه السلطان العادل قد أوصاه بمهادنة الفرنج بدلاً من محاربتهم ، وربما نصحه بأن طريق المفاوضات أكثر أمنًا من طريق الجهاد!!

إذ تذكر المصادر التاريخية أن السلطان الكامل بدأ يفكر فى المفاوضات مع الفرنج مبكراً فى شهر فبراير ١٢١٩، وتم إرسال رسول إلى الملك حنا برين يطلب إرسال سفراء لوضع شروط السلام «... وبذل المسلمون لهم تسليم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية.

٧٥- Van Cleve , op. cit., pp. 408-409 .

٧٦- المقريزى ، السلوك، ج١، ص١٩٨ .

وجميع ما فتحه صلاح الدين ليسلموا دمياط؛ فلم يرضوا »[٧٧]. هكذا ، قـرر الكامل أن يشترى « السلام » بالتنازل عن كل ما فتحه صلاح الدين بدماء الشهداء وجهاد السنين ، ولم يكن الأمر بالنسبة له أكثر من مجرد «صفقة» يتنازل فيها عن القدس، وغيرها، مقابل رحيل الفرنج عن دمياط ليتحقق له « السلام» الذى يمكنه من مواصلة «نضاله» ضد الأيوبيين الآخرين.

كان عرض السلطان الكامل غاية فى الكرم ... والتخاذل ، ولكن الفرنج رفضوه !! كان الملك حنابرين والصليبيون الفرنسيون والصليبيون المستوطنون فى فلسطين يحبذون قبول العرض السلطانى ، وذكّروا بقية المعسكر الصليبى بأن هذه الحملة كان هدفها الأساسى تسهيل الاستيلاء على بيت المقدس؛ ولكن بلاجيوس الذى استغل وضعه بصفته المندوب البابوى فى الحملة رفض اقتراح الملك الصليبى وأيده فى ذلك الإيطاليون وفرسان الداوية والاسبتارية. بل إنه حينما رجعت السفارة السلطانية تعرض بالإضافة إلى ما سبق دفع إتاوة قدرها ٣٠ ألف بيزنت تعويضًا عن حصن الكرك وحصن الشوبك اللذين لم يتضمن العرض الأول إعادتهما إلى الصليبيين (كذا !!!) لم يكن هناك سوى الرفض[٧٨]، فهل كان بلاجيوس قد غيّر الأهداف الصليبية من تلقاء نفسه بحيث يغزو المنطقة العربية بأسرها ؟ لقد كان غرور هذا القسيس المتعجرف هو الذى أضاع من الفرنج فرصة الاستجابة لعروض السلطان المتخاذل ، وكانت أطماع التجار الإيطاليين، الذين ساندوا بلاجيوس ، تشدهم نحو مصر بموقعها على شواطئ المتوسط والبحر الأحمر، وتحكمها فى أهم طرق التجارة الهندية وظنوا أن بإمكانهم أن يحولوها إلى قاعدة تجارية تكفل لهم السيادة على تجارة العالم- كانت هذه الأطماع هى التى أضاعت على الحملة الصليبية فرصة انتصار مروع بلا ثمن.

وهكذا عادت الأعمال العسكرية مرة أخرى تشغل مسرح الأحداث. وكان المقاتلون المسلمون بالمدينة حوالى عشرين ألفًا أنهكتهم الأمراض وقلة الأقوات. كان الراهب فرنسيس الآسيسى مؤسس جماعة الرهبان الفرنسيسكان قد وصل إلى معسكر الصليبى ، وكان الرجل يظن أن

٧٧- ابن الأثير، الكامل ، ج٩، ص٣١٨ ؛ زيادة ، حملة لويس التاسع، ص٤٩- ص٥٠ ؛

Van Cleve, The Fifth Crusade, p. 409 .

٧٨- Eracles (R. H.C, Occ., II) p. 339 ; Runciman , A Hist . of The Crusades, vol . III, pp. 161-162 ; Mayer, The Crusades, p. 213 .

قاسم ، ماهية الحروب الصليبية، ص١٥٨ ؛ زابوروف ، الصليبيون فى الشرق، ص٢٩٦ .

التبشير يمكن أن ينجح حيث فشل السيف (٧٩). ومن المدهش أن هذا الراهب الساذج طلب مقابلة السلطان الكامل لكى يدعوه إلى اعتناق المسيحية، وذهب إليه بالفعل ، واستمع السلطان إليه باهتمام مصطنع؛ لكنه لم يعره أى اهتمام ، كما أن المصادر العربية سكتت عن هذه الزيارة تمامًا. وفى يوم ٢٥ شعبان ٦١٦هـ / ٥ نوفمبر ١٢١٩ م اقتحم الصليبيون مدينة دمياط وارتكبوا بها واحدة من مذابحهم الشهيرة.

باستيلاء الصليبيين على المدينة بدأت مرحلة جديدة فى الحملة الصليبية الخامسة. فقد نزل السلطان بالمكان الذى بُنيت به مدينة المنصورة فى مواجهة طلخا على حين كان الفرنج يحاولون صبغ دمياط بالصبغة الصليبية ، « ... وحصن الفرنج أسوار دمياط، وجعلوا جامعها كنيسة، وبثُّوا سراياهم فى القرى يقتلون ويأسرون فعظم الخطب واشتد البلاء ... »(٨٠) واستقر الصليبيون فى دمياط ولكن الخلافات نشبت بينهم بحيث مضى عام ونصف العام وهم غير قادرين على القيام بأية عمليات عسكرية حاسمة. إذ كان حنا برين يزعم لنفسه حق ملكية المدينة الأسيرة؛ بل إنه أمر بسك عملة جديدة عليها صورته بلقب «ملك دمياط» . وفى المقابل أعلن بلاجيوس أن المدينة ملك لكل المسيحيين الذين تمثلهم البابوية . وفى بواكير سنة ١٢٢٠م أبحر حنا برين إلى عكا مغاضبًا مما جعل بلاجيوس القائد الوحيد لهذه الجموع العرقية المشاغبة المتنافسة التى اشتبكت مع بعضها البعض فى معركة مسلحة(٨١).

كان السلطان قد اختار مكان معسكره الجديد « .... بناء على اعتبارات استراتيجية واضحة الأهمية لأغراض السلطان الحربية ... ومن بين هذه الاعتبارات الاستراتيجية أن هذا الموضع المثلث حصين بضلعين مائيين هما البحر الصغير والنيل ؛ فلاتستطيع الحملة الصليبية أن تصل إليه برا إلا بعد عبور البحر الصغير المعروف بشدة انحدار جانبيه وسرعة تياره، كما لاتستطيع الوصول إليه عن طريق النيل إلا بأسطول نهرى طويل بعيد عن قواعده... »(٨٢) ومن ناحية كان مكان معسكر الكامل قريبا من أماكن قدوم النجدات العسكرية من الشام، كما كان قريبًا من أماكن الإمدادات الغذائية . وكانت خلافات الفرنج فى معسكرهم داخل دمياط قد منحت السلطان منحة سخية غير مقصودة ؛ فقد انتهز فرصة الجمود الصليبى على

٧٩- Mayer, Op. cit., p. 214 .

٨٠- المقريزى، السلوك، ج١، ص٢٠١ .

٨١- Mayer , Op. cit., p. 215 .

٨٢- زيادة حملة لويس التاسع، ص٥٤ .

مدى ثمانية عشر شهراً، وبدأ يبنى المنشآت فى معسكره . وهكذا خرجت مدينة المنصورة إلى الوجود. ففى أثناء إقامة السلطان الكامل بهذا المكان بنى قصراً لنفسه، كما أمر الأمراء بالبناء، وبدأت المدينة تتخذ شكلها ، وأقيمت بها الأسواق، كما « ... شرع السلطان فى بناء الدور والفنادق والحمامات والأسواق بمنزلة المنصورة... »[٨٣] «وأدار الكامل عليها سوراً مما يلى البحر، وسترة بالآلات الحربية والستائر... » [٨٤].

هكذا وُلدت مدينة المنصورة مدينة عسكرية وقاعدة لقوات المصريين بقيادة السلطان الكامل. وأخذ جواسيس السلطان يخرجون من هذه القاعدة لاستطلاع أحوال الجيش الصليبى. وفى سنة ٦١٦هـ حاول الفرنج الزحف جنوبا وساروا نحو معسكر المصريين بالمنصورة فى جيش كبير يقدره المؤرخون المسلمون بمائتى ألف رجل وعشرة آلاف فارس[٨٥] ورابط الأسطول المصرى تجاه المنصورة بقوة قوامها مائة سفينة ، « ... واجتمع الناس من أهل القاهرة ومصر وسائر النواحى، ما بين أسوان إلى القاهرة ... ونودى بالنفير العام وألاّ يبقى أحد... » وهكذا صارت الحرب حرب الناس والجيش « ... فاجتمع من المسلمين عالم لايقع عليه حصر، وأنزل السلطان على ناحية شارمساح ألفى فارس، فى آلاف من العربان ، ليحولوا بين الفرنج وبين دمياط... » وقطع الأسطول طريق الإمدادات عن الفرنج . أما معسكر الصليبيين فقد عانى من السخط وعدم الرضى . وعلى الرغم من احتجاجات بلاجيوس وتهديداته رحل كثير من الصليبيين بحجة الفقر أو المرض أو غير ذلك من الأعذار . ولكن عدداً من الصليبيين الجدد حلّو محلهم [٨٦].

ظلت الأوضاع على سكونها حتى سنة ٦١٧هـ / ١٢٢١م، ولكن النجدات جاءت من بلاد الشام « ... حتى بلغ عدد فرسان المسلمين نحو الأربعين ألفًا ، فحاربوا الفرنج فى البر والبحر... » واستولى الأسطول المصرى على سبع سفن صليبية كبيرة، كما أسروا ألفًا ومائتى رجل منهم « ... فتضعضع الفرنج لذلك، وضاق بهم المقام ، وبعثوا يسألون فى الصلح... » وعلى الجانب الآخر وصلت قوات صليبية جديدة من أوربا فى مايو ١٢٢١م بقيادة لويس دوق

٨٣- المقريزى ، السلوك، ج١ ، ص٢٠١- ص٢٠٣ .

٨٤- المقريزى، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (طبعة بولاق) ج١ ، ص٢١٧ ، ص٢٣١ .

٨٥- ابن الأثير ، الكامل، ج٩ ، ص٣١٥- ص٣١٨ ؛ المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٢٠٢ .

٨٦- Van Cleve, Op. cit. p. 421 .

باقاريا وعدد كبير من السادة الإقطاعيين والفرسان الأوربيين . وبعد وصولهم حاول الكاردينال بلاجيوس تنفيذ خطته للزحف صوب القاهرة بعد أن تأخرت كثيراً . وفى ٢٩ يونيو بدأ الجيش الصليبى يستعد لتحقيق هذا الهدف ، ثم عاود الملك حنابرين الإنضمام إلى الصليبيين مرة أخرى بناء على الأوامر الصارمة الصادرة إليه من البابا هونوريوس الثالث ومعه عدد كبير من القوات ، وبدأت الزحف الصليبى يوم ١٧ يوليو على الضفة الشرقية صوب فارسكور . ثم وصلت القوات الصليبية قبالة المنصورة . وكان مكان معسكرهم غاية فى الخطورة[٨٨] وبدأ عدد كبير من الصليبيين فى الإنسحاب وصار موقفهم حرجًا للغاية بعد أن أسر المسلمون بعض سفنهم وقطعوا عنهم الإمدادات كما أشرنا من قبل.

كان ذلك فى شهر أغسطس عندما يبلغ الفيضان ذروته . وفى سنة ٦١٨هـ (مارس ١٢٢١م - فبراير ١٢٢٢م) كانت المناوشات مستمرة بين الجانبين « ... وكانت العامة تكر على الفرنج أكثر من العسكر... » وفى شهر أغسطس (شهر توت القبطى) كان النيل فى وقت الفيضان « ... والفرنج لامعرفة لهم بحال أرض مصر ، ولا بأمر النيل، فلم يشعر الفرنج إلا والماء قد غرّق أكثر الأرض التى هم عليها ، وصار حائلاً بينهم وبين دمياط ... » ثم قامت القوات المصرية بمناورة أخرى أحكمت الحصار على القوات المصرية . واضطر بلاجيوس إلى طلب السلام يوم ٢٦ أغسطس ، وفى اليوم التالى عقدت هدنة مدتها ثمانى سنوات[٨٩] وهكذا اضطر الصليبيون على التخلى عن أحلامهم فى الاستيلاء على مصر فى أوحال الدلتا .

واختلف قادة معسكر المسلمين حول طلب الفرنج؛ فكان الكامل يرى إجابتهم إلى الصلح على حين رأى أخوته وآخرون انتهاز الفرصة والقضاء عليهم. ولكن السلطان الكامل كان خائفًا من الحرب « ... ومازال الكامل قائمًا فى تأمين الفرنج إلى أن وافقه بقية الملوك... » .

٨٧- المقريزى، السلوك، ج١ ، ص٢٠٣ .

٨٨- Van Cleve , Op. cit., pp. 223-225 .

٨٩- Mayer , Op. cit., pp. 217-218 .

وقد وصف المقريزى (السلوك ، ج١ ، ص٢٠٧) الموقف بقوله : «ففتّ ذلك فى عضد الفرنج وألقى فى قلوبهم الرعب والذلة، بعدما كانوا فى غاية الاستظهار والعنف على المسلمين، وعلموا أنهم مأخوذون لامحالة، وعظمت نكاية المسلمين بهم برميهم إياهم بالسهام، وحملهم على أطرافهم ... ولاذوا إلى طلب الصلح. وبعثوا يسألون الملك الكامل، وإخوته الأشرف والمعظم، الأمان لأنفسهم ، وأنهم يسلمون دمياط بغير عوض... ».

وتبادل الجانبان الرهائن لضمان تنفيذ الاتفاق، وكان الملك حنابرين والكاردينال بلاجيوس (الذى يصفه المقريزى بأنه «نائب البابا») من بين رهائن الجانب الصليبى، وبعث الكامل إليهم بابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب وعمره آنذاك خمس عشرة سنة. وتسلم المسلمون المدينة يوم الأربعاء ١٩ رجب سنة ٦١٨هـ / سبتمبر ١٢٢١م. وعادت المدينة الأسيرة إلى أصحابها بعد سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما [٩٠].

هكذا ، انتهت الحملة الصليبية الخامسة بانتصار مصرى حاسم. وعندما اضطر السلطان الخائف إلى القتال كان النصر حليفه ؛ ولكنه لم يتعلم شيئًا من دروس الحملة الصليبية الخامسة الفاشلة فقد ظل على سياسة المهادنة والتخاذل ، وسعى إلى «السلام» مع الفرنج لكى يتفرغ لـ «الحرب» ضد المسلمين من أقاربه الأيوبيين. ولكن أوربا تعلمت الدروس كما تعلمه الصليبيون المستوطنون فى فلسطين ، فقد كانت الروح الصليبية ماتزال حية فى أوربا ، وكان على الصالح نجم الدين أيوب أن يواجه حملة صليبية كبيرة أخرى كانت هى السبب المباشر فى نهاية ملك الأيوبيين الذى كان الكامل حريصًا عليه لدرجة أنه تنازل عن القدس لفردريك الثانى مقابل هدنة يضمن فيها سلامة «ملكه» على مدى عشر سنين وهذه قصة يجب أن نحكيها .

٩٠- ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٣١٨ ؛ المقريزى، السلوك، ج١ ، ص٣٠٩ .

الفصل الرابع

آخـــرة الأيـــوبيين

السلطان الكامل والحملة الصليبية السادسة- الصالح نجم الدين أيوب والصراع الأيوبى / الأيوبى- الحملة الصليبية السابعة وهزيمتها- توران شاه ونهاية الأيوبيين- ملاحظات ختامية.

خرجت فلول الحملة الصليبية الخامسة المنهزمة من دمياط تلعق جراحها وقد غرقت أطماع بلاجيوس ، قائدها الأحمق، فى أوحال الدلتا كما رأينا . واستقبل السلطان الكامل الشعراء المادحين فى مجلسه بمدينة المنصورة التى خرجت إلى الوجود فى غمرة أحداث الحملة التى طالت لفترة تقترب من السنوات الأربع. وبدأ السلطان فى تصفية حساباته مع الأمراء الذين كانوا قد تورطوا فى المؤامرة ضده لصالح أخيه الفائز . وقد أتاح لهم السلطان نوعًا من المنفى الاختيارى، وفرّق إقطاعاتهم على مماليكه[1]. ومرّت سنتان دون حدوث شئ مهم ثم عاد النزاع والتخاصم ليحكما الساحة السياسية الأيوبية.

ففى سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م بدأ العداء ينشب مخالبه بين الإخوة الأيوبيين، فقد استولى السلطان المعظم عيسى على بعض أملاك أخيه الملك الأشرف الذى كان فى زيارة لأخيه الكامل فى مصر؛ فبعث الكامل إلى المعظم يأمره بالرحيل عن حماة « ... فتركها وهو حَنِق ... »[2] وهكذا بدأ الخلاف لكى يتحول إلى نوع من العداوة والحرب . ومن ناحية أخرى، بدأ السلطان الكامل يتوجس خيفة من أمرائه « ... لميلهم إلى أخيه الملك المعظم... » وبدأ فى اتخاذ بعض الاجراءات المستفزة، وبدأ الملك المعظم يبحث لنفسه عن حلفاء ضد أخيه. وتفاقمت العداوة بين الإخوة الأيوبيين؛ المعظم من ناحية وأخويه الكامل والأشرف من ناحية أخرى. وأرسل المعظم تهديداته إلى أخيه الكامل فى القاهرة « ... فوقع فى نفسه الخوف ممن معه ، وهمَّ أن يخرج من

١- المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص٢١٢ .

٢- نفسه، ، ج١، ص٢١٤ .

مصر فلم يجسر... » وبدأت الحرب الأيوبية - الأيوبية سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م عندما بدأ الملك المعظم فى مهاجمة أملاك أخيه . ثم حدث تحول فى التحالفات والعداوات الأيوبية / الأيوبية؛ إذ انقلب الأشرف على أخيه الكامل وعلى المجاهد صاحب حمص والناصر صاحب حماة وانضم إلى أخيه الملك المعظم عيسى. وكان رد الفعل من جانب السلطان الكامل الأيوبى مناسبًا لشخصيته المذعورة . يقول المؤرخ تقوى الدين المقريزى : « ... وضاق الكامل من انتماء أخيه المعظم إلى السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه ، فبعث الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ إلى ملك الفرنج، يريد منه أن يقدم إلى عكا ، ووعده أن يعطيه بعض ما بيد المسلمين من بلاد الساحل ، ليشغل سر أخيه المعظم؛ فتجهز الإمبراطور ملك الفرنج لقصد الساحل... »[٣] وهكذا، كان العمى السياسى والأنانية وضيق الأفق طابع السياسات الأيوبية المتداخلة ، فقد كان المعظم عيسى قد بعث بالفعل إلى جلال الدين خوارزم شاه (الذى كان فى صراع عسكرى ضد الخلافة العباسية، والذى قضى المغول على دولته كما سنرى فى الفصول التالية من هذا الكتاب) يطلب التحالف معه، وكان رد الفعل من جانب السلطان الكامل خائبًا بقدر ما كان تصرف المعظم عيسى طائشًا ، فقد طلب قدوم الإمبراطور الألمانى لكى يكون مصدر قلق لأخيه . ولاعبرة هنا بالآراء التى تقول إن الكامل كان رجل سلام وإنه كان يرغب فى منع الحرب ... وما إلى ذلك من آراء [٤]. فالحقيقة واضحة فى نصوص المصادر المعاصرة نفسها، لقد كان الرجل يناور لتحقيق مصالح سياسية ضيقة ولم يتردد فى استدعاء قوى خارجية لتحقيق هدفه .

كانت الأمور تجرى على هذا النحو العجيب فى المنطقة العربية، بينما كانت أوربا عازمة على تنفيذ خططها الصليبية للاستيلاء على مصر، مفتاح هذه المنطقة . لقد كانت الحملة ضد دمياط (الصليبية الخامسة) آخر محاولات البابوية لتوجيه حملة صليبية تحت قيادتها وحدها

٣- المقريزى ، السلوك ، ج١، ص٢٢١ ./ ص٢٢٢ ؛ قارن " أبوالفدا ، المختصر فى أخبار البشر، ص١٠٢ . والمقصود بملك الفرنج الإمبراطور الألمانى فردريك الثانى الهوهنشتاوفن امبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة . وكان من ألداء أعداء البابوية التى وقعت عليه قرار الحرمان . وقد جاء فردريك إلى المنطقة العربية على رأس الحملة الصليبية السادسة التى كانت رحلة سلمية أشبه ما تكون بعطلة سياحية حصل الإمبراطور أثناءها على القدس وأماكن أخرى فى فلسطين من السلطان المذعور كما سنرى فى الصفحات التاليات .

٤- الشيال ، تاريخ مصر الإسلامية، ج٢ ، ص١١٤- ص١١٦ ؛ زيادة حملة لويس التاسع على مصر، ص٦٠ ، ص٦٣ .

ولحسابها منفردة ؛ إذ إن أحداث هذه الحملة وقيادة بلاجيوس، المندوب البابوى ، قد أثبتت مدى ما يمكن أن تجلبه قيادة الكنيسة للجيوش من كوارث . وهنا يجب أن نلاحظ أن الحملات الصليبية فى القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى كانت بهدف تأمين الكيان الصليبى الهزيل الذى كان يعانى نوعًا من الضعف البنيوى والهيكلى سياسيًا وعسكريًا واقتصاديًا وسكانيًا منذ الضربات القاصمة التى تلقاها على أيدى المسلمين طوال الفترة التى امتدت من حكم عماد الدين زنكى حتى وفاة صلاح الدين الأيوبى. صحيح أن الخطر من جانب المسلمين قد توارى مؤقتًا بسبب سلوك الأيوبيين السياسى والعسكرى بعد وفاة مؤسس دولتهم؛ ولكن الكيان كان قد دخل بالفعل مرحلة خطيرة من التدهور والاضمحلال . وعلى الرغم من أن شواطئ فلسطين شهدت فى هذا القرن موجات متواصلة من الفرسان والمغامرين وشذاذ الآفاق والباحثين عن الفرص تحت راية الصليب؛ وعلى الرغم من أن بعض هذه الموجات كانت عاتية تضم فيالق من الفرسان والمحاربين، فإن هذه الموجات الصليبية التى كانت أشبه بعمليات نقل الدم التى لم تفلح فى شفاء الجسد الصليبى المريض.

ومن ناحية أخرى، كانت الحملات الصليبية فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى موجهة ضد مصر ، وهو الدرس العسكرى الذى تعلمه الغرب منذ الحملة الصليبية الثالثة فى العقد الأخير من القرن الثانى عشر الميلادى؛ وهكذا جاءت الحملة الخامسة ضد دمياط وانتهت بخروج الصليبيين. ولأن فشل حملة دمياط كان فى التحليل الأخير ضربة موجعة لهيبة البابوية ، التى كانت فى عز صراعها مع الإمبراطورية لتأكيد هيمنتها فى أوربا ، فقد أخذ البلاط البابوى يضغط بشدة من أجل شن حملة صليبية جديدة [٥]. وفى يوليو سنة ١٢٢٥م تم وضع الترتيبات النهائية فى اتفاقية سان جرمانو. وتعهد الإمبراطور بأن يقدم ألف فارس على مدى سنتين وأن يقدم وسائل النقل لألفى فارس آخرين. كما تعهد بأن يخرج هو نفسه فى حملة صليبية سنة ١٢٢٧م ؛ فإذا لم يفْ بتعهداته يخسر مبلغًا ضخمًا قدره مائة ألف أوقية من الذهب أودعه ضمانًا لتنفيذ تعهداته ، كما يتعرض لعقوبة الحرمان البابوى.

كان الإمبراطور فردريك الثانى (١٢١٥- ١٢٥٠م) شخصية تختلف عن مقاييس أوربا الأخلاقية بما فيها من مظهرية ونفاق فى تلك العصور . ولم يكن فردريك الثانى، الذى عرفه معاصروه باسم « أعجوبة الدنيا » يقبل التصرفات السياسية البابوية ، كما أنه لم يكن

٥- Mayer , The Crusades, pp. 223-224 .

«صليبيا» مثل بقية ملوك أوربا وأمرائها الذين قادوا الحملات الصليبية ، كما أنه لم يكن من ذلك الطراز المتعصب الذى يرى أن من حقه غزو بلاد المسلمين وقتلهم. لقد كان هذا الإمبراطور صقليًا تربى ونشأ فى ظل مظاهر الحضارة العربية الإسلامية التى فرضت نفسها على كل مكان فى الجزيرة التى ترعرع فى أحضانها .

وقد كانت جزيرة صقلية تحت حكم المسلمين منذ فتحها الأغالبة فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى ، وتحولت إلى مركز مهم من مراكز الحضارة العربية الإسلامية تحت حكم الأغالبة والفاطميين من بعدهم حتى غزاها النورمان فى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى . وفى ظل الحكم النورمانى ظلت الحضارة العربية الإسلامية مزدهرة لأن ملوك النورمان أحاطوا أنفسهم بالعرب والمسلمين فى دواوينهم وفى فرق الحراسة الخاصة بهم، كما كان عامة الناس من العرب والمسلمين يعيشون حياتهم بالجزيرة فى ظل الحكم النورمانى المتسامح . وفى هذا الجو نشأ الامبراطور فردريك الثانى ، ولم يكن الإسلام بالنسبة له مجرد كتاب مغلق ، كما أن المسلمين لم يكونوا مجرد قوم من الكفار يستحقون الموت ، فقد كان ذلك الإمبراطور يكن للمسلمين ودينهم وحضارتهم تقديراً كبيراً. وكان واسع العلم غزير المعرفة يجيد من لغات الدنيا آنذاك ست لغات هى العربية واليونانية واللاتينية والإيطالية والألمانية والفرنسية [٦].

كان فردريك الثانى قد تولى العرش سنة ١٢١٥م، وأخذ شارة الصليب فى تلك السنة لكى يضمن تأييد البابا إنوسنت الثالث له فى الحصول على حقه فى العرش الإمبراطورى . بيد أنه كان عازفًا عن القيام بحملة صليبية ، على الرغم من أنه أرسل بالفعل قوات لمساندة الحملة ضد دمياط ، ولكنها وصلت بعد فوات الأوان. كان الإمبراطور يريد أن يبسط نفوذه على كل إيطاليا بما فيها مدن الشمال التجارية وأملاك البابوية . وكانت البابوية تريد إخراجه من إيطاليا ، لأن إيطاليا بها روما، وروما بها الكرسى البابوى. وهكذا تصادم الطموح السياسى للبابوية مع الحقوق السياسية للإمبراطورية الرومانية المقدسة، وهو صراع بدأ مبكراً ودفع الهوهنشتاوفن ثمنًا باهظًا له فيما بعد .

٦- نورمان كانتور ، التاريخ الوسيط، (ترجمة قاسم عبده قاسم) ، ج٢ ، ص٥٩٣- ص٥٩٤ ؛ زابوروف، الصليبيون فى الشرق) ص٣٠٠ ؛

Runciman , A Hist . of the Crusades, vol . III , pp. 175-176 ; Van Cleve , " The Crusade of Frederic II " in Setton (ed.) Hist . of The Crusades, vol . II, pp. 461-62 .

على أية حال ، أخذ الإمبراطور فردريك الثانى يماطل فى الوفاء بقسمه بحمل شارة الصليب والخروج فى حملة ضد المسلمين [٧]. وبعد عدة تقلبات فى الأحداث ، تم الإتفاق على قيام الحملة فى يوليو ١٢٢٥ فى معاهدة قاسية بشروطها على الإمبراطور ، كما سبق القول[٨] . وفى أغسطس من السنة نفسها أرسل فردريك الثانى أسطولاً من أربع عشرة سفينة حربية لترافق خطيبته إيزابيلا ابنة حنابرين ملك بيت المقدس ، من فلسطين إلى أوربا . وفى عكا أعطاها وكيله الأسقف يعقوب الباتى خاتم فردريك وأتم مراسم الزواج. وفى مدينة صور لبست إيزابيلا تاج المملكة حسب رغبة أبيها ، ثم أبحرت إلى ميناء برنديزى الإيطالية حيث كان فى استقبالها أبوها والإمبراطور الزوج. وهكذا أصبح فردريك الثانى طرفًا مباشراً فى الشئون الصليبية. وكان الملك العجوز حنابرين يأمل فى أن يستمر فى حكم المملكة الصليبية فى عكا حتى نهاية حياته، ولكنه توارى عندما رأى فردريك الثانى يعلن نفسه ملكًا على هذه المملكة بحكم زواجه من ابنته، وعلى أساس قانونى سليم، غداة الزواج مباشرة [٩]. ومن ناحية أخرى، واصل الإمبراطور استعداداته للخروج فى حملته الصليبية ضد المسلمين فى المنطقة العربية.

فى تلك الأثناء كان الأيوبيون سادرين فى عبثهم السياسى والعسكرى، وقد أعمتهم الأنانية السياسية وعداءاتهم العائلية عن اتخاذ الموقف المناسب. وكان الموقف قد ازداد سوءا منذ وفاة صلاح الدين؛ فالفرنج مازالوا موجودين على الأرض العربية ، وازدادوا قوة بالمساندة الأوربية لهم على حين تفرغ الأخوة الأعداء لقتال بعضهم بعضًا. وحين عرف الملك المعظم عيسى أن أخاه الكامل استنجد بالفرنج وبالإمبراطور فردريك الثانى كتب إلى السلطان جلال الدين خوارزم شاه « ... يسأله النجدة على أخيه، ووعده أن يخطب له، ويضرب السكة باسمه،

٧- يرى ڤان كليف أن فردريك أخذ شارة الصليب ووعد بالخروج فى حملة صليبية بدافع من طموحه وطموح أسرة الهوهنشتاوفن لبناء امبراطورية عالمية، وأنه كان مدفوعًا بالرغبة فى الإعلان عن استقلاله عن البابوية والخروج من نطاق وصايتها- أنظر : . Van Cleve , " The Crusade of Frederick II, " p. 431

٨- Ibid, pp. 440-441 .

ويرى ماير أن إتفاقية سان جرمان كانت ، بشروطها القاسية كانت انتصاراً كاملاً للبابوية على الإمبراطور

Mayer, Op. cit., p. 223 .

٩- Ibid, p. 224 .

فسيَّر إليه جلال الدين خلعة لبسها، وشق بها دمشق ، وقطع الخطبة للملك الكامل... »(١٠) وخرج السلطان الكامل بجيشه لقتال أخيه، ولكن تردده وخوفه جعله يعود من الشرقية إلى مقر حكمه بالقلعة، وقبض على عدد من أمرائه الذين كانوا على صلة بأخيه، وبدأ يستعد لإرسال جيشه لقتال المعظم ....

كان المشهد التاريخي مثيرا للرثاء والسخرية ، إذ إن الملك الكامل الذى أظهر القوة والشراسة ضد أخيه تصرف على نحو مناقض تمامًا عندما « ... وصل رسول ملك الفرنج بهدية سنية وتحف غريبة ، وعدة خيول منها فرس الملك، بمركب مُرَصَّع بجوهر فاخر . فتلقاه الكامل بالإقامات من الإسكندرية إلى القاهرة، وتلقاه بالقرب من القاهرة بنفسه، وأكرمه إكرامًا زائداً... واهتم الكامل بتجهيز هدية سنية إلى ملك الفرنج فيها من تحف الهند واليمن، والعراق والشام، ومصر والعجم، وما قيمته أضعاف ما سيَّره ، وفيها سرج من ذهب، وفيها جوهر بعشرة آلاف دينار مصرية... »(١١) هذا التناقض الصارخ بين موقف السلطان الكامل العنيف تجاه أخيه وتودده الذى يشبه النفاق والزلفى تجاه الامبراطور الألمانى يكشف عن حقائق الموقف السياسى التعس فى المنطقة العربية آنذاك.

كانت تلك الحوادث التى وقعت سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م مقدمة طبيعية للحملة الصليبية العجيبة التى عرفت باسم «الحملة الصليبية السادسة». ثم توفى الملك المعظم عيسى فى أواخر تلك السنة بدمشق « ... وكان قد خافه الملك الكامل فسُرَّ بموته... » ثم نشبت الخلافات من جديد بين السلطان الكامل وبين ابن أخيه وخليفته الذى تولى حكم دمشق تحت اسم الملك الناصر داود ، وخرج السلطان على رأس جيشه لقتال ابن أخيه الذى استنجد بأعمامه الآخرين ، فجاءوا لكى يساعدوه ضد عمه السلطان الكامل. ثم جرت عدة وقائع متشابكة انتهت بصفقة غريبة بين الإخوة الأيوبيين راح ضحيتها الحاكم الشاب الناصر داود بن المعظم الذى فقد عرشه فى دمشق.(١٢)

أما على الجانب الآخر ، فإن الإمبراطور فردريك مرض فى وباء قبل رحيله من برنديزى ، وعاد الإمبراطور إلى أوترانتو حيث مكث حتى يسترد عافيته ، ولكنه أرسل أسطولاً من

١٠- المقريزى، السلوك، ج١، ص٢٢٢ .

١١- نفسه، ج١، ص٢٢٣ .

١٢- المقريزى، السلوك، ج١، ص٢٢٧ .

عشرين سفينة تحمل قسمًا من الحملة الصليبية إلى فلسطين تحت قيادة أحد أتباعه ، وأرسل بعض كبار الأساقفة إلى البابا جريجورى السابع لكى يشرحوا له أسباب عدم رحيل الإمبراطور إلى فلسطين ، ولكن البابا رفض استقبالهم ، وفى ٢٩ سبتمبر ١٢٢٧م وقع عقوبة الحرمان الكنسى على فردريك الثانى تنفيذاً لشروط اتفاقية سان جرمانو[١٣] وكان الأسطول الذى أرسله الإمبراطور قد وصل إلى عكا ولكن عدم ظهور الإمبراطور فى الوقت المتوقع جعل الكثيرين من الصليبيين يفقدون شجاعتهم ويغادرون عكا على نفس السفن التى وصلوا على متنها منذ وقت قصير، على حين كان بعض الصليبيين الآخرين يقومون بأعمال الترميم للقلاع والحصون الباقية بأيديهم.

فى تلك الأثناء كان فردريك الثانى قد شفى من مرضه، وبدأ يستعد للإبحار فى شهر مايو سنة ١٢٢٨م. وكان السلطان قد أرسل إليه فخر الدين بن شيخ الشيوخ فى صقلية سنة ١٢٢٨م. يحمل طلب المساعدة ويقدم عروضًا غاية فى السخاء والإغراء. ورد فردريك بسفارة يرأسها بيرارد بطريرك بالرمو والكونت توماس أمير أسيرا Acerra ومعها الهدايا التى ذكرها المقريزى[١٤]. ثم جاءت أنباء وفاة المعظم موسى لتجعل الامبراطور يسرع بإرسال خمسمائة من فرسانه إلى بلاد الشام خوفًا من أن يعدل الكامل عن الصفقة [١٥].

وأبحر الإمبراطور أخيراً فى ٢٨ يونيو ١٢٢٨م، ومعه أربعون سفينة من برنديزى إلى سواحل الشام ، ووصل إلى عكا يوم ٧ سبتمبر ١٢٢٨م / ٦٢٥هـ ولما وصل إلى عكا بعث رسوله إلى السلطان الكامل « ... وأمره أن يقول له: الملك يقول لك كان الجيد والمصلحة للمسلمين أن يبذلوا كل شئ ، ولا أجئ إليهم . والآن فقد كنتم قد بذلتم لنائبى ، فى زمن حصار دمياط الساحل كله وإطلاق الحقوق بالإسكندرية. وما فعلنا وقد فعل الله لكم ما فعل

١٣- Van Cleve , " The Crusade of Frederick II ", p. 446 .

١٤- أنظر ما سبق - تذكر المصادر التاريخية أن رسول فردريك الثانى واصل رحلته إلى دمشق وحاول أن يتفاوض مع المعظم عيسى، ولكنه رد عليه قائلا: «قل لسيدك أننى لست مثل آخرين يعرفهم، وأننى ليس لدى شئ أقدمه له سوى السيف ». وربما يكون الإمبراطور قد نصبّ فخر الدين بن شيخ الشيوخ فارسًا لأن جوانفيل رأى شارة الإمبراطور - بعد عدة سنوات- على بيرق ابن شيخ الشيوخ . أنظر:

John of Joinville , Histoire de St. Louis (ed. Natalis Wailly, Paris, 1974), pp. 109-110 .

١٥- Van Cleve, " The Crusade of Frederick II, p. 451 .

١٦- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٢٢٨ / ص٢٢٩ .

من ظفركموإعادتها إليكم . ومن نائبى؟ إن هو إلاَّ أقل غلمانى، فلا أقل من إعطائى ما كنتم بذلتموه له. فتحير الملك الكامل، ولم يمكنه دفعه ولامحاربته ، لما كان تقدم بينهما من الاتفاق فراسله ولاطفه، وسفر بينهما الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ... »(١٦) هكذا وصل الإمبراطور إلى المنطقة العربية وبدأت مساوماته مع السلطان الكامل الذى كبلته حيرته وتردده وانتهت سنة ٦٢٥هـ دون أن يتم حسم الأمر بين الطرفين، بيد أن الحرب لم تكن واردة بين الطرفين بسبب تردى موقف السلطان الحائر .

ولكن الخلافات الأيوبية ظلت تجرى على مسرح التاريخ على الرغم من كل شئ؛ فقد فرض الأشرف حصاره على دمشق وبداخلها ابن أخيه الناصر داود الذى رفض تنفيذ بنود الصفقة التى عقدها الكامل فى العام السابق، وجرى القتال بين الطرفين حول دمشق سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م دون أن يستطيع أحد الطرفين حسم الأمر لصالحه . وفى هذه الأثناء كانت المفاوضات ماتزال جارية بين الملك الكامل الأيوبى والإمبراطور فردريك الثانى. ولم يكن أى منهما فى وضع يسمح له باللجوء إلى الحرب، فقد كان الكامل كارها للحرب طوال ولايته إلا إذا كانت ضد أقاربه وأخوته . ولم يكن فى وضع سياسى أو عسكرى يسمح له باللجوء إلى الحرب كما رأينا. أما فردريك فلم يكن فى وضع يسمح له بأن يسعى إلى إحراز انتصار عسكرى. إذ كان جيشه صغيراً ، كما أنه فى علاقته مع السلطان كان ملتزمًا بالعمل الدبلوماسى بدلاً من الحل العسكرى . وكان على علم تام بكافة التفاصيل عن التطورات الجارية فى بلاد الشام بفضل علاقاته مع الكامل منذ سنة ١٢٢٦م. واستمرت المفاوضات بين الجانبين حتى أسفرت عن واحدة من أكثر الحوادث الكارثية فى تاريخ المسلمين على حد تعبير المصادر التاريخية العربية.

لقد جاء فردريك الثانى فى هذه الحملة العجيبة بجيش هزيل ، وفى عنقه قرار الحرمان البابوى ، ولكنه عاد بمكاسب لم تستطع أية حملة صليبية أخرى أن تحققه منذ نجاح الحملة الصليبية الأولى فى السنوات الأخيرة من القرن الحادى عشر الميلادى « ... وقع الاتفاق أن ملك الفرنج يأخذ القدس من المسلمين ، ويبقيها على ما هى من الخراب ولايجدد سورها ، وأن يكون سائر قرى القدس للمسلمين ، لا حكم فيها للفرنج ؛ وأن الحرم- بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى - يكون بأيدى المسلمين ، لايدخله الفرنج إلا للزيارة فقط، ويتولاه قُوَّام من المسلمين ، ويقيمون به شعائر الإسلام من الآذان والصلاة ، وأن تكون القرى التى فيما بين عكا وبين يافا ، وبين لدّ وبين القدس ، بأيدى الفرنج دون ماعداها من قرى القدس . وذلك أن الكامل تورط مع ملك الفرنج ، وخاف من غائلته ، عجزاً عن مقاومته ، فأرضاه بذلك ، وصار

يقول: إنا لم نسمح للفرنج إلاّ بكنائس وأدُر خراب ، والمسجد على حاله، وشعار الإسلام قائم ، ووالى المسلمين متحكم فى الأعمال والضياع. فلما اتفقا على ذلك عقدت الهدنة بينهما ، مدة عشر سنين، وخمسة أشهر وأربعين يوما أولها ثامن شهر ربيع الأول من هذه السنة . واعتذر ملك الفرنج للأمير فخر الدين بأنه لولا يخاف انكسار جاهه ، ما كلّف السلطان شيئًا من ذلك، ماله غرض فى القدس ولاغيره، إنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج... »[١٧].

كانت الصدمة عنيفة على العالم الإسلامى ؛ إذ إن سياسة التخاذل والخوف التى سار عليها السلطان الكامل قد آتت ثمارها المُرة فى هذه المعاهدة الفضيحة؛ فقد سلّم إليه، دون قتال ، كل ما فتحه المسلمون أيام جده صلاح الدين الأيوبى بعد حرب استرداد طويلة بدأت قبل أيام عماد الدين زنكى . وانهار جهد عشرات السنين ، وأهدرت دماء آلاف الشهداء الذين خاضوا القتال ضد الصليبيين المعتدين الذين جاءوا من بلادهم البعيدة ليقيموا على الأرض العربية ظلمًا وعدوانًا . ولايمكن أن نذهب مع القائلين بأن الكامل كان رجل سلام ، وأنه كانت تغلب عليه «... شخصية الحاكم المثقف الإدارى الذى يعنى بالإصلاح ونشر العلم وحرية الفكر وانشاء المعاهد والمدارس، أكثر من عنايته بالحروب... »[١٨] لأن اهتمامه الأول كان بكرسى العرش كما أن عهده لم يترك شيئا يدل على ارتقاء الفكر والثقافة ، فضلاً عن أنه لم يكن يتورع عن قتال إخوته إذا تعلق الأمر بالسلطة والنفوذ.

كانت المعاهدة تعنى بالنسبة للصليبيين الكثير. فبضربة قلم، وليس بضربة سيف ، حقق الإمبراطور ما كان الصليبيون فى فلسطين وما كان الغرب الأوربى يسعى إلى تحقيقه منذ زمن طويل؛ السيادة الصليبية على القدس وكنيسة القيامة، وهو ما عجزت كل الجهود العسكرية عن تحقيق منذ معركة حطين سنة ١١٨٧م وما أعقبها من تحرير القدس على أيدى قوات صلاح الدين الأيوبى ، كما أتاحت لفردريك فرصة ذهبية لإعلاء شأنه بين معاصريه . ومن المدهش أن البابوية غضبت من هذه المعاهدة ، وكان السبب فى ذلك- كما يقول ماير- أن البابوية متعصبة كارهة ضد المسلمين من ناحية وأن المعاهدة خلت من ذكر أية حقوق للكنيسة الكاثوليكية من ناحية أخرى[١٩].

١٧- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٢٣٠ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب، ج٤ ، ص٢٤٤ ؛ ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٣٧٨ .

١٨- الشيال، تاريخ مصر الإسلامية، ج٢ ، ص١١٤ .

١٩- Mayer , Op. cit., pp. 228-229 .

أما المسلمون، فى المنطقة العربية وخارجها ، فقد رأوا- بحق- أن المعاهدة التى عقدها الكامل مع فردريك كانت كارثة حقيقية ، ولكن السلطان بعث يأمر بخروج المسلمين من القدس وتسليمها إلى الفرنج « ... فاشتد البكاء ، وعظم الصراخ والعويل، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل، وأذنوا على بابه فى غير باب الآذان... فعظم على أهل الإسلام هذا البلاء، واشتد الإنكار على الملك الكامل ، وكثرت الشناعات عليه فى سائر الأقطار... »[٢٠]، « ... واستعظم المسلمون ذلك وأكبروه، ووجدوا له من الوهن والتألم مالايمكن وصفه ، يسّر الله فتحه وعوده إلى المسلمين بمنّه وكرمه ... »[٢١]، « ... وللكامل هفوة جرت منه ، عفا الله عنه ، ذلك أنه سلّم بيت المقدس اختياراً ، نعوذ بالله من سخط الله وموالاة أعداء الله... »[٢٢] ، « ... ووصلت الأخبار بتسليم القدس إلى الفرنج فقامت القيامة فى جميع بلاد الإسلام واشتدت العظايم بحيث أقيمت المآتم.... »[٢٣].

هذه العبارات التى اقتبسناها من المصادر التاريخية العربية تكشف عن حجم الصدمة التى سببها السلطان الكامل لمعاصريه بسبب تخاذله وخوفه وأنانيته السياسة. ومع ذلك استمر السلطان فى سياسته « ... وبعث الإمبراطور بعد ذلك يطلب تبنين وأعمالها فسلمها الكامل له ... فبعث يستأذن فى دخول القدس، فأجابه الكامل إلى ما طلبه... »[٢٤] ثم رحل الإمبراطور إلى عكا ، ومنها عاد إلى بلاده فى البحر آخر جمادى الآخرة سنة ٦٢٦هجرية / مايو ١٢٢٩م بعد أن تم تتويجه ملكًا على مملكة بيت المقدس الصليبية [٢٥].

رحل فردريك إلى بلاده ، وانتهت الحملة الصليبية الثالثة ، ولكن أصداءها ظلت تتردد فى المنطقة زمنًا طويلاً . فقد اشتد تشنيع الملك الناصر داود على عمه الكامل لأنه سلم القدس

٢٠- المقريزى ، السلوك، ج١، ص٢٣١ .

٢١- ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ج٩ ، ص٣٧٨ .

٢٢- ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٤، ص٢٤٦ .

٢٣- سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان (تحقيق ونشر الغامدى، مكة ١٩٨٧م)، ج٢ ، ص٤٣٢ .

٢٤- المقريزى ، السلوك ، ج١، ص٢٣١ .

٢٥- Van Cleve , " The Crusade of Frederick II " , pp. 458-60 .

إلى الفرنج ، «... وجلس الحافظ شمس الدين سبط ابن الجوزى بجامع دمشق، وذكر فضائل بيت المقدس ، وحزّن الناس على استيلاء الفرنج عليه ، وبشّع القول فى هذا الفعل ...» ومن ناحية أخرى، واصل بنو أيوب حروبهم البلهاء ضد بعضهم بعضًا . إذ تحالف الكامل والأشرف ضد الناصر داود وحاصرا دمشق وقطعا المياه عن أهلها وصمد الناصر داود والدمشقيون زمنًا طويلاً ، ثم اضطر إلى تسليم نفسه إلى عمه . وانتهت الحرب إلى حين (٢٦).

مرت السنوات التالية رتيبة فى إيقاعها ، ولم تشهد شيئا ذا أهمية خاصة سوى غضب الكامل على ابنه الصالح نجم الدين أيوب ولى عهده بسبب رسالة جاءته من أم ولده العادل «... تشكو فيه من ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب وأنه قد عزم على التوثب على الملك، واشترى جماعة كبيرة من المماليك الأتراك وأنه أخذ مالاً جزيلاً من التجار، وأتلف جملة من بيت المال، ومتى لم تتدارك البلاد ، وإلاّ غلب عليها ، وأخرجنى أنا وابنك الملك العادل منها...»(٢٧) وتمكنت المرأة من أن تجعل السلطان ينقلب على ابنه سنة ٦٢٧هـ ويخلعه من ولاية العهد فى عرش السلطنة وعين ابنها العادل وليًا للعهد بدلاً من أخيه.

ثم خرج السلطان الكامل بعدما جاءت الأنباء سنة ٦٢٩هـ باقتراب التتار بجيشه من دمشق دون أن يخوض أية معارك . ثم عانت مصر وباء سنة ٦٣٣هـ استمر على مدى ثلاثة أشهر مات فيه عدد كبير من سكان مصر. ثم نشبت الخلافات الأيوبية- الأيوبية من جديد، وتحالف ملوك الأيوبيين بالشام ضد الملك الكامل وعادت الحرب تطل بوجهها المرعب فى المنطقة من جديد. وسافر السلطان إلى الشام ، وهناك توفى عن عمر يناهز الستين عامًا (٢٨). فى ٢٣ رجب سنة ٦٣٥هجرية / مارس ١٢٣٩م. وقد حكم مصر ما يقرب من أربعين سنة منها حوالى عشرين سنة نائبًا عن أبيه (٢٨).

وبموت السلطان الكامل بن العادل الأيوبى انفرط عقد الدولة الأيوبية على نطاق أوسع من ذى قبل. فقد كان الملك الناصر داود يطمع فى استرداد دمشق وبدأت كل فرقة عسكرية ترشح من تراه لولاية من ولايات الدولة . ولكن الجزء الأكبر من الجيش الكاملى عاد إلى القاهرة حيث تمت تولية السلطان العادل بن الكامل عرش البلاد بصفته ولى العهد بعد عزل

٢٦- المقريزى ، السلوك، ج١ ، ص٢٣٣-٢٣٥ .

٢٧- المقريزى، السلوك، ج١ ، ص٢٣٨- ص٢٤٠ .

٢٨- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٥ ، ص١٥٥ .

الصالح نجم الدين أيوب كما ذكرنا في السطور السابقة[٢٩] ولكنه كان إنسانًا لاهيًا ومسرفًا « ... واتخذ لنفسه جماعة يساعدونه على ما هو بصدده من اللعب واللهو، وأبعد أهل الرأى والمعرفة ... » و« ... واشتغل عنهم بالإنهماك فى شرب الخمر ، وكثرة اللهو والفساد... »[٣٠].

وهناك كان فى الشرق البعيد كان السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه قد لقى هزيمة قاسية على أيدى التتار، وهرب إلى ميارفارقين حيث لقى مصرعه وحيداً طريداً فى سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١م [٣١]. وتحولت مملكة خوارزم شاه فى كرمان، جنوبى فارس، إلى ولاية تابعة لأوغطاى بن جنكيز خان ، وبعد ذلك تفرق الجيش الخوارزمى وتحول جنوده إلى مرتزقة يبيعون سيوفهم وخدماتهم العسكرية لمن يدفع إليهم أكثر من الحكام المتنافسين فى منطقة الجزيرة وديار بكر وأعالى العراق. وبدأوا فى تهديد أملاك الأيوبيين بهذه المناطق. وكان السلطان الكامل قد حاول صدّ التتار سنة ٦٢٩هـ ولكن التتار تراجعوا ، ثم عين السلطان ابنه الصالح نجم الدين أيوب على حصن كيفا فى تلك البلاد بعد أن كان قد خلعه عن ولاية العرش. وكانت تلك هى بداية علاقة الصالح نجم الدين أيوب بالخوارزمية؛ وهى علاقة سيكون لها تأثيرها البالغ على الأحداث فى المنطقة العربية فيما بعد.

ففى سنة ٦٣٤هـ استأذن الصالح نجم الدين أيوب أباه الكامل فى أن يستخدم الجنود الخوارزمية الذين هربوا من سلطان سلاجقة الروم ، غياث الدين كيخسرو ، الذى قتل قائدهم وانقلب عليهم بعد وفاة أبيه علاء الدين كيقباذ وهو الذى استخدم الخوارزمية فى جيشه ، وتمكن الملك الصالح من الاستيلاء على سنجار ونصيبين والخابور (شمال الموصل بأعالى العراق) فى سنة وفاة أبيه[٣٢] وأثناء الاحتفال بتتويج أخيه الأصغر، العادل أبوبكر الثانى سلطانًا على مصر×، وما تلى ذلك من أحداث ، كان الصالح نجم الدين أيوب مقيمًا فى أعالى العراق على حصار الرحبة. وعندما عرف الخوارزمية بوفاة الكامل انقلبوا على الصالح نجم

٢٩- نفسه، ، ج٥، ص١٧٤ .

٣٠- المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٢٦٩ .

٣١- المقريزى، السلوك ، جـ١ ، ص٢٤١ . وقد تفرقت جنوده ثم اجتمعوا وقصدوا بلاد سلاجقة الروم حيث استخدمهم سلطانها علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج أرسلان، وكان عددهم أكثر من إثنى عشر ألف فارس. وظلوا فى خدمته حتى مات. أنظر : ابن واصل، مفرج الكروب، جـ٥ ، ص١٣٤- ص١٣٥ .

٣٢- ابن واصل ، المصدر السابق، ج٥، ص١٥٣ .

الدين أيوب وكادوا يفتكون به لولا أن هرب إلى سنجار واختفى بها «... خوفًا على نفسه...» وعاث الخوارزمية فساداً في بلاد الجزيرة(٣٣).

وكأن نار الخلافات الأيوبية كانت بحاجة إلى من يزيد اشتعالها ويؤجج لهيبها؛ إذ إن عمة الصالح نجم الدين، «الصاحبة والدة الملك العزيز»، دخلت في حلبة السياسات الأيوبية المضطربة. وحاول الصالح نجم الدين أيوب أن يطلب تدخلها للصلح بينه وبين الملك المظفر صاحب حماة دونما طائل. ومن ناحية أخرى، كان العادل الثاني، حاكم مصر، قد أرسل إلى عمته في حلب يطلب الصلح على أساس ما كان سائداً زمن أبيه ولكن الأميرة الأيوبية رفضت مساعي الصلح واستدعت الأمراء لكي يحلفوا لحفيدها الملك الناصر، واستعدت للقتال. وخرجت جيوشها لتستولي على المعرة، ثم حاصرت حماة انتقامًا من ابن أخيها الملك المظفر «... عقوبة له على ما فعل من انحيازه إلى الملك الكامل ومظاهرته عليها بعد اتفاقه معها، فأمرت العسكر أن ينازلوا البلد ويقطعوا المادة عنه، ولايجدّوا في القتال والزحف ...»(٣٤).

وأخذت الأميرة الأيوبية، أخت السلطان الكامل، تلعب دورها كاملاً في تعقيد الأوضاع السياسية والعسكرية المعقدة بالفعل في المنطقة العربية، فقد أشرفت على زواج ومصاهرة سياسية بين سلطنة سلاجقة الروم وإمارة حلب الأيوبية؛ فقد عقد قران السلطان غيّاث الدين ملك الروم على غازية خاتون بنت الملك العزيز وأخت الملك الناصر حاكم حلب، وتولى المؤرخ المعروف «ابن العديم» العقد. وفي المقابل تزوج الملك الناصر من أخت السلطان غيّاث الدين(٣٥).

وأسفر هذا الزواج السياسي عن المزيد من تدهور الأمور؛ فقد حاول سلطان سلاجقة الروم أن ينتزع بعض ممتلكات الصالح نجم الدين أيوب ويعطيها لصهره الجديد، ولكن عمة الملك الصالح نجم الدين أيوب رفضت ذلك.

ثم ازدادت الأمور سوءاً عندما طمع أمير الموصل في الملك الصالح نجم الدين أيوب بسبب ضعفه البادي بعد أن تنكر له الخوارزمية. وحاصر سنجار وكاد أن يأخذ الصالح أسيراً، ولكنه

٣٣- ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب (نشر سامي الدهان، دمشق ١٩٥١- ١٩٦٨م)، ج٣، ص٢٤١- ص٢٤٣.

٣٤- ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص١٧٩- ص١٨٢.

٣٥- ابن واصل، المصدر السابق، ج٥، ص١٨٣- ص١٨٤.

استطاع أن يستعيد ولاء الخوارزمية وتمكن من هزيمة أمير الموصل وتشتيت جيشه[٣٦]. ويضيق بنا المقام عن محاولة تتبع كل المنازعات والحروب التى نشبت فيما بين الأيوبيين الصغار والتى لعبت فيها العمة «الصاحبة والدة الملك العزيز» دورها كاملاً؛ بيد أن ما نريد توضيحه أن المنطقة ظلت فى حال من السيولة والميوعة السياسية والعسكرية طوال سنتى ٦٣٥- ٦٣٦هـ . وربما يكون مفيداً أن نقتبس ما كتبه ابن واصل فى افتتاحية سنة ٦٣٦هـ: «... والسلطان الملك العادل سيف الدين أبوبكر بن الملك الكامل صاحب الديار المصرية وهو مقيم بها، والملك الناصر داود بن الملك المعظم بالكرك ، وقد قلّ جيشه وضعفت قوته، والملك الجواد بن مودود بن الملك العادل مالك دمشق ، وعنده الملك المجاهد صاحب حمص ، والملك المظفر صاحب حماة محصور بحماة [٣٧]، وعسكر حلب مع الملك المعظم بن صلاح الدين منازلون لحماة؛ والملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل بسنجار وقد قوى قلبه بكسر بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وانضمام الخوارزمية ومقدمهم بركة خان إليه ... وبيد الملك الصالح آمد وبلادها وما كان بيد الملك الكامل والملك الأشرف من بلاد الشرق»[٣٨].

هذه لوحة فسيفسائية رسمها قلم المؤرخ ابن واصل للأوضاع السياسية فى المنطقة العربية : إمارات صغيرة متحاربة ، وحكام صغار النفوس يأخذ كل منهم لنفسه لقب ملك، وحصار وحروب وضغائن ومؤامرات ...

وعلى الجانب الآخر كان الصليبيون مايزالون على اتصال بأوربا يطلبون إرسال حملات صليبية جديدة، واستغلال هدنة السنوات العشر التى عقدها السلطان الكامل الأيوبى مع الإمبراطور فردريك الثانى لتجهيز حملة جديدة ضد مصر والمنطقة العربية . وفى هذه السنة أيضا (٦٣٥هـ) كانت محاولة التتار الأولى لغزو بغداد «... فبعث الخليفة إليهم جيشًا ، قتل كثير منه ، وفرّ من بقى...»[٣٩] هكذا كان الحال فى المنطقة العربية ، على حين كانت الأحداث تتوالى بسرعة نحو الصدام الداخلى بين الأخوين؛ العادل الثانى والصالح نجم الدين أيوب.

٣٦- نفسه، ج٥ ، ص١٨٦ - ص١٩٠ .

٣٧- كانت القوات التى أرسلتها أم الملك العزيز هى التى تحاصر مدينة حماة .

٣٨- ابن واصل ، المصدر السابق، ج٥، ص١٩٧ .

٣٩- المقريزى، السلوك، ج١، ص٢٧٣ .

ففى شوال سنة ٦٣٦هـ جاءت الأنباء بأن الصالح نجم الدين أيوب وصل بجيشه إلى جينين (بين نابلس وبيسان فى فلسطين) . واستعد أخوه العادل لقتاله وجهز جيشه للاستيلاء على دمشق من ابن عمه الملك الجواد ، ولكن الأخير سلمها إلى الصالح نجم الدين أيوب فى صفقة سياسية غريبة [٤٠]. وبدأ الصالح نجم الدين أيوب استعداداته للخروج من دمشق لغزو مصر. وهرب إليه سبعة عشر من كبار الأمراء العاملين فى خدمة أخيه وانضموا إلى قواته؛ ولكنه لم يلبث أن عاد إلى بلاد الشام بعد أن عرف أن ابن عمه الملك الناصر داود بن المعظم عيسى قد توجه إلى مصر ليتحالف مع العادل الثانى[٤١]. وفى غمرة هذه الفوضى اشتبك الأتراك مع الأكراد فى جيش السلطان العادل فى قتال بمدينة بلبيس المصرية انتهى بهزيمة الأتراك. ومن ناحية أخرى، استمر الأمراء فى مراسلة الصالح نجم الدين أيوب يطلبون منه القدوم إلى مصر ويعدونه بالمساعدة .

واستمر الوضع جامداً حتى حاول بعض الأمراء القبض على العادل الثانى فى بلبيس أثناء إقامته بالمعسكر الذى أقامه هناك فى طريقه إلى الشام لمحاربة أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب، ولكن العادل هرب منهم. ثم تغيرت الأحوال ضد الصالح نجم الدين أيوب؛ إذ إن عمه «الصالح عماد الدين» دبر مؤامرة لأخذ دمشق لنفسه منه وكان الملك الصالح غافلاً عمَّا يدبره عمه الذى تمكن من الاستيلاء على دمشق فى ٢٧ صفر سنة ٦٣٧هـ . وتفرق جيش الصالح نجم الدين أيوب « ... وفارقوه ، فبقى الصالح نجم الدين فى دون المائة من امرائه وأجناده ... » ثم حاول البدو أن يأسروه ولكنه هزمهم وسار إلى المناطق المجاورة لنابلس. واستمرت المهزلة الأيوبية...

فقد انقلب الناصر داود ، مرة أخرى ، على السلطان العادل الثانى وعاد يخطب ود ابن عمه الملك الصالح نجم الدين أيوب فى مؤامرة أيوبية جديدة. وعندما وصل الناصر داود إلى نابلس قبض على الصالح وبعثه إلى الكرك وليس معه سوى جاريته «شجر الدر»، أم ولده خليل، ومملوك واحد لخدمته[٤٢]. وفرح العادل الثانى كثيراً بما جرى على أخيه « ... وظن أنه قد

٤٠- نفسه، ج١، ص٢٧٩ - ص٢٨٠ .

٤١- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٥ ، ص٢١٣- ص٢١٤ ؛ المقريزى؛ السلوك ، ج١، ص٢٨١- ص٢٨٣ . وكان الملك الناصر داود قد أرسل الصالح نجم الدين أيوب وطلب منه إمارة دمشق وجميع أملاك أبيه، فلما رفض الصالح سار ابن عمه الناصر إلى القاهرة حيث وضع نفسه فى خدمة العادل الثانى.

٤٢- المقريزى، السلوك، ج١، ص٢٨٩ .

أمن... » ، وأمرَ بزينة القاهرة ومصر (الفسطاط) « ... وعمل سماطًا عظيمًا فى الميدان الأسود تحت قلعة الجبل؛ وعمل قصوراً من حلوى، وأحواضًا من سكر وليمون، وألفًا وخمسمائة رأس شواء، ومثلها طعاما... »[٤٣] بل إن العادل طلب من ابن عمه أن يبعث إليه بأخيه الصالح فى قفص حديد مقابل مبلغ كبير من المال، ولكن الناصر جعل الصالح يقرأ ما طلبه أخوه ، وكتب إليه مواسيًا :

وإذا مسَّك الزمان بضُر   عظمت عنده الخطوب وجُلت
وتوالت منه ذوائب أخرى   سئمت عندها النفوس وملَّت
فاصطبر وانتظر بلوغ الأمانى   فالرزايا إذا توالت تولت

فكتب إليه الصالح نجم الدين يشكره:

قل للذى بصروف عَيَّرنا   هل حارب الدهر إلاّ من له خطر ؟
أما ترى البحر تطفو فوقه جيف   ويستقر بأقصى قعره الدُرر؟
وإن تكن عبثت أيدى الزمان بنا   ومالنا من تمادى بؤسه ضرر
ففى السماء نجوم لاعداد لها   وليس يكسف إلاّ الشمس والقمر

وفى غمرة هذا الفوضى السياسية ، قام الملك الناصر داود بعمل عظيم مَرَّت دون أن يلتفت إليه أحد من بنى أيوب. فقد انتهك الفرنج شروط المعاهدة الكاملية الفردريكية ، وبنوا قلعة بمدينة بيت المقدس « ... وجعلوا برج داود أحد أبراجها ... » فهاجمهم الناصر داود وحرر القدس يوم ٩ جمادى الأولى سنة ٦٣٧هـ / ١٢٤٠م [٤٤].

ويلفت النظر هنا أن هذه الحادثة مرَّت وكأنها لم تحدث ؛ إذ إن ابن واصل الذى يهتم بتفاصيل تحركات الأيوبيين التافهة ، أورد حادثة استرداد القدس من الصليبيين فى صفحة واحدة على الرغم من أنه كان حيًا فى تلك السنة. ولسنا ندرى السبب فى هذا الموقف من جانبه. ولكن الأمر المؤكد أن عودة بيت المقدس كان حدثًا ذا وقع مفرح على المسلمين الذين أقاموا المآتم يوم سلّمه الكامل إلى الصليبيين قبل عشر سنوات من هذا التاريخ .

٤٣- نفسه، ج١، ص٢٩٠ .

٤٤- ابن واصل ، مفرج الكروب، ج٥ ، ص٢٤٧ ؛ المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٢٩١ .

وربما يكون مناسبًا هنا أن نتوقف ، مؤقتًا، عن متابعة العبث الأيوبى لنلقى نظرة على الأحوال فى الجانب الآخر. كانت البابوية تترقب موعد نهاية المعاهدة فأرسلت تخاطب ملوك فرنسا وانجلترا والإمبراطور فردريك الثانى تطلب منهم إعداد حملة صليبية جديدة ضد المسلمين فى المنطقة العربية.

فبعد سنوات ثلاث من موت جنابرين سنة ١٢٣٦هـ، انتهت فعاليات معاهدة الكامل فردريك ، وفى ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م تمكن المسلمون من استرداد مدينة القدس كما أسلفنا . وكانت البابوية مستمرة فى الدعوة إلى حملة صليبية جديدة . وقد تجمعت فى فرنسا حملة صليبية ضخمة معظم جنودها من الفرنسيين بقيادة تيبالد كونت شمبانى ، والذى كان قد توج ملكا على ناڤار منذ سنة ١٩٣٤م، وأبحرت من موانئ جنوب فرنسا فى أغسطس سنة ١٢٣٩م(٤٥). وكانت حملة تيبالد الشمبانى تلك جزءاً من حملة صليبية ، لم تأخذ رقمًا ، جرت ما بين سنة ١٢٣٩م وسنة ١٢٤١م والواقع أنها كانت حملة عجيبة . فقد تم إعدادها فى جو تسوده ضبابية الغوضى والأهداف المتعارضة من ناحية ، كما أن المعاصرين لم ينظروا إليها بحماسة ، وربما نظروا إليها بامتعاض(٤٦) ؛ لاسيما من جانب البابا والإمبراطور فردريك الثانى. فضلاً عن أن قائدى هذه الحملة؛ تيبالد الشمبانى وريتشارد بلانتاجنت إيرل كورنول الإنجليزى، لم يتقابلا إطلاق أثناء أحداث تلك الحملة من ناحية أخرى . كذلك فإن جنود هذه الحملة أمضوا معظم وقتهم فى سلام بعكا ويافا وعسقلان، ولم يقوموا بأى نشاط عسكرى سوى فى اشتباكين انتهى أحدهما بانتصار صغير على حين انتهى الاشتباك الثانى بهزيمة كارثية.

غادر الصليبيون فرنسا فى أغسطس ١٢٣٩م ليصلوا إلى عكا فى أول سبتمبر وسرعان ما تمركز الجيش هناك . وجاءت أنباء هجوم المسلمين على القدس لتذكرهم بأنهم جاءوا من أوربا لقتال المسلمين . وكانت ظروف الخلافات الأيوبية / الأيوبية تشجع الصليبيين على القيام بالهجوم عليهم ، ولكن تيبالد كان شاعراً مجيداً وقائداً فاشلاً وسياسيًا متقلبا؛ فلم يستطع أن يحسم رأيه. وكان قراره النهائى أشبه ما يكون بالحل الوسط ؛ فقد تحرك الجيش تجاه عسقلان

٤٥- زيادة، حملة لويس التاسع ، ص٦٧ - ص٦٨ . وقد وصلت هذه الحملة إلى ميناء عكا فى أول شهر سبتمبر ١٢٣٩م؛ أى يوم إنتهاء هدنة السلطان الكامل والإمبراطور فردريك الثانى.

٤٦- Sidney Painter , " The Crusade of Theobald of Champagne and Richard of Cornwall, 1239- 1241 ", in Setton (ed.) A Hist. of the Crusades, vol . II, p. 463 .

وهاجم بطرس درو، أحد قادتها ، قافلة إسلامية قرب يافا واستولى على ما تحمله[٤٧] وتمثل رد الفعل الإسلامي في الهجوم الذي قام به الناصر داود على القدس وهدم تحصيناتها المستجدة وطرد الفرنج منها كما ذكرنا.

وحاول تيبالد الشمباني أن يفيد من المنازعات الأيوبية فتوجه شمالاً لمساعدة الملك المظفر الأيوبي حاكم حماة ضد أقاربه، ولكن الأمور سارت في اتجاه معاكس لطموحات القائد الصليبي. إذ كان أنصار الصالح نجم الدين أيوب يسعون إلى إطلاق سراحه وإعادة عرش الأيوبيين في مصر إليه [٤٨]. وسرعان ما سارت الأحداث في هذا الاتجاه . وتم إطلاق سراح الصالح نجم الدين أيوب في يوم ١٧ رمضان ٦٣٧هـ، وذهب إلى دمشق حيث تلقاه ابن عمه الناصر داود بكل مظاهر الاحترام، وسار الإثنان سوياً إلى القدس حيث اجتمعا عند الصخرة المقدسة «... وتحالفا ، فيقال إنهما اتفقا على أن تكون الديار المصرية للملك الصالح نجم الدين أيوب، والشام والشرق للناصر.... » ثم سار الحليفان تجاه مصر . وخرج العادل إلى بلبيس لقتالهما ، ولكن أمراءه خلعوه وهو في معسكره ببلبيس يوم ٩ شوال بعد أن حكم مصر ما يزيد على سنتين [٤٩].

وتولى الصالح نجم الدين أيوب حكم مصر، لتبدأ بذلك الصفحات الأخيرة في حكم الأسرة الأيوبية التي فقدت المبرر التاريخي والأخلاقي لاستمرارها . حقيقة أن السلطان الصالح نجم الدين حاول ترميم بنيان الدولة المتداعي ؛ ولكن محاولاته جاءت بعد فوات الأوان، وكتب التاريخ لهذا السلطان أن يغسل شرف أسرته عندما مات شهيداً وهو يناضل ضد قوات الحملة الصليبية السابعة من فوق سرير المرض.

وكانت ظروف البلاد غاية في السوء حين تولى الصالح الحكم ؛ فقد كانت الخزانة السلطانية خاوية ، وكان بيت المال فارغًا «... فلم يجد سوى دينار واحد وألف درهم... »[٥٠]، وما تزال

٤٩- المقريزي، السلوك ، ج١ ، ص٢٩٣- ص٢٩٦ .

٥٠- نفسه، ج١، ص٢٩٨ . وقد أرغم السلطان الأمراء والقضاة الذين كانوا في خدمة أخيه على رد الأموال التي أخذوها . إذ يذكر المقريزي ما نصه : «... فطلب القضاة والأمراء الذين قاموا في القبض على أخيه وقال لهم : لأي شئ قبضتم سلطانكم ؟ فاقلوا : لأنه كان سفيهًا . فقال : يا قضاة، السفيه يجوز تصرفه في مال المسلمين ؟ قالوا : لا . قال أقسم بالله متى لم تحضروا ما أخذتم من المال، فكانت أرواحكم عوضه . فخرجوا وأحضروا إليه سبعمائة ألف وخمسة وثمانين ألف دينار ، وألفي ألف وثلاثمائة ألف درهم. ثم أمهلهم قليلاً وقبض عليهم واحد بعد واحد .

الأحوال الداخلية فى مصر والمنطقة العربية غارقة فى فوضى الإقتتال والنزاع ، كما أن الحملة الصليبية بقيادة تيبالد الشمبانى كانت تتجول فى المنطقة تبحث عن هدفها الضال. وتلقى الصالح نجم الدين أيوب اعترافًا من الخليفة العباسى بسلطنته ، ولبس الخلعة التى أرسلها إليه الخليفة مما أكسبه نوعًا من الشرعية الهشة التى كانت تحتاج إلى قوة عسكرية تسندها . وأخذ السلطان فى تثبيت أركان حكمه ؛ فأرسل حملة عسكرية لتأديب قبائل العربان فى الصعيد وأخذ فى تصفية الأمراء الذين كانوا قد قبضوا على أخيه العادل حتى لايشكلوا مركز قوة يهدد سلطته . وصار المماليك يأخذون إقطاعات الأمراء الذين يقبض عليهم السلطان نجم الدين أيوب « ... فبقى معظم أمراء الدولة مماليكه ، لثقته بهم، واعتماده عليهم.... »، ثم بنى قلعة بجزيرة الروضة لتكون مركزاً لمماليكه وأمرائه (وقد استغرق بناؤها ثلاث سنوات)(٥١).

وبقى عليه أن يواجه الصليبيين وبقية الأيوبيين ...

كان الملك الصالح إسماعيل ، عمُّ السلطان الصالح نجم أيوب، قد طرده من دمشق وتسبب فى تشرده فترة من الوقت (٥٢). وحين وطد الصالح نجم الدين حكمه فى مصر بات واضحًا أن الصدام وشيك بين الجانبين. وبعد نزول الصليبيين على سواحل عكا ، « ... خاف الصالح عماد الدين إسماعيل من الصالح نجم الدين أيوب؛ فكاتب الفرنج ، واتفق معهم على معاضدته ومساعدته ومحاربة صاحب مصر، وأعطاهم قلعة صفد وبلادها ، وقلعة الشقيف وبلادها، ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالها، وجبل عاملة وسائر بلاد الساحل.... »(٥٣) ولم يكتف الصالح عماد الدين بهذه التنازلات الخرقاء للصليبيين ؛ بل عقد العزم على غزو مصر . وفتح هذا الأمير الأيوبى؛ أبواب دمشق أمام الصليبيين لشراء السلاح « .. فأكثر الفرنج من ابتياع الأسلحة وآلات الحرب من أهل دمشق... » وكان رد الفعل الشعبى حاسمًا ضد هذا الأمير الخائن « ... فأنكر المسلمون ذلك، ومشى أهل الدين منهم إلى العلماء واستفتوهم ، فأفتى

٥١- ابن واصل ، مفرج الكروب، ج٥ ، ص٢٦٦- ص٢٧٨ ؛ المقريزى السلوك، ج١ ، ص٣٠٠ ؛ وعن وصف قلعة الروضة وتاريخ الجزيرة أنظر:

المقريزى، المواعظ والاعتبار، ج٢ ، ص١٧٧- ص١٨٥ .

٥٢- انتهت هذه الفترة بإطلاق سراح المصالح نجم الدين أيوب من الكرك ، ثم تطورت الحوادث بالشكل الذى أدى إلى اعتلائه العرش كما ذكرنا .

٥٣- المقريزى، السلوك ، ج١، ص٣٠٣ .

الشيخ عز الدين بن عبد السلام بتحريم بيع السلاح للفرنج وقطع من الخطبة بجامع دمشق الدعاء للملك الصالح إسماعيل ، وصار يدعو في الخطبة بدعاء منه: "اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد، تعز فيه أولياءك ، وتذل فيه أعداءك ، ويعمل فيه بطاعتك ، وينهى فيه عن معصيتك ... »[٥٣]. وحاول الأمير الأيوبي إسكات المعارضة لسياساته الخائبة ؛ فأمر بتحديد إقامة عز الدين بن عبد السلام في داره، ومنعه من الإفتاء ومقابلة الناس ولكن أهل دمشق استمروا في معارضة الصالح اسماعيل .

من ناحية أخرى ، انتقل تيبالد الشمباني بحملته إلى منطقة الساحل الفلسطيني لكي ينضم إلى جيش الصالح عماد الدين اسماعيل الذي يعتزم الهجوم على دمشق . وكان العرض الذي قدمه هذا الرجل للصليبيين مغريًا للغاية. وتقدم الجيش المصري لمواجهة التحالف بين الصالح اسماعيل والصليبيين ؛ ولكن قسماً كبيراً من جيش الشام رفض تصرفات حاكمهم وساءهم التحالف مع العدو فتركوا الجيش الدمشقي وانضموا إلى جيش الصالح نجم الدين أيوب. ومن ناحية أخرى، سعت المعارضة في الجانب الصليبي إلى دفع تيبالد لعقد هدنة مع سلطان مصر الذي كان يتوق إلى السلام لكي يوطد سلطانه [٥٤]. ولكن فرسان الداوية وبعض القادة المحليين عارضوا الإتفاق مع الصالح نجم الدين أيوب وأصروا على التمسك بالاتفاقية مع حاكم دمشق . وهكذا نشب نزاع في المعسكر الصليبي انتهى برحيل تيبالد ورفاقه من فلسطين في سبتمبر ١٢٤٠م[٥٥]. وواصل الصالح نجم الدين أيوب إجراءاته لتشديد قبضته على زمام الحكم في مصر، وأفاد من قدوم الشيخ عز الدين بن عبد السلام من دمشق بعد أن طرده منها الصالح اسماعيل .

٥٣- المقريزي، السلوك ، ج١ ، ص٣٠٤ . وكان الشيخ عبد العزيز بن عبد السلام من الأئمة المبرزين في الفقه الشافعي ، و« ... وكان صالحًا زاهداً لايأخذه في الله لومة لائم... » أنظر: ابن واصل ، مفرج الكروب ج٥، ص٣٠٢ . وعن حياة هذا الشيخ الجليل أنظر: السُبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ج٥، ص٨٠- ص١٧٠ ؛ ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات ، ج١ ، ص٥٩٤- ص٥٩٦ ؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج٣ ، (مخطوط) ، ورقة ٦٥٠- ٦٥٢ .

٥٤- Sidney Painter , Op. cit., pp. 462-480 .

٥٥- Ibid , p. 481 .

في تلك الأثناء كان هناك أسطول يتجه إلى السواحل الفلسطينية حاملاً على متنه حملة صليبية يقودها ريتشارد إيرل كورنوول، أخو هنرى الثالث ملك انجلترا. وعندما وصل ريتشارد إلى عكا وجد أن الأمور وصلت إلى أدنى مستوى من التدهور داخل الكيان الصليبي ؛ إذ كانت المنازعات المريرة قد فرقتهم شيعًا وأحزابًا . فقد كان الاسبتارية يؤيدون المعاهدة مع سلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب، على حين كان فرسان الداوية يتمسكون بالمعاهدة مع ملك دمشق الصالح عماد الدين اسماعيل. والسبب في ذلك أن الاسبتارية كانوا سيحصلون على مكاسب من المعاهدة مع مصر؛ أما الداوية فكانت المعاهدة مع دمشق تحقق مصالحهم وقرر ريتشارد كورنول أن يجرى المفاوضات مع الصالح نجم الدين أيوب . وتم إطلاق سراح أسرى الفرنج الذين كان قد تم أسرهم في معركة غزة في مقابل إطلاق سراح الأسرى المسلمين لدى الفرنج. وحققت الاتفاقية ، التي كان الصالح نجم الدين أيوب. وتم إطلاق سراح أسرى الفرنج الذين كان قد تم أسرهم في معركة غزة في مقابل إطلاق سراح الأسرى المسلمين لدى الفرنج. وحققت الاتفاقية ، التي كان الصالح نجم الدين أيوب قد عقدها مع تيبالد الشمباني وجددها مع ريتشارد كورنوول أكثر مما كان الفرنج يحلمون به [٥٦].

رحل ريتشارد كورنوول عائداً إلى بلاده بما حققه من انتصار دبلوماسي رفيع ولكنه ترك الصليبيين غارقين في منازعاتهم التي أودت بهم في النهاية . وعلى الجانب الآخر كانت المنازعات الأيوبية / الأيوبية مستمرة ، وفشلت كل محاولات التوفيق. وتكون حلف جديد من الأيوبيين في الشام ضد الصالح نجم الدين أيوب، واستعان الأيوبيون (الصالح اسماعيل والناصر داود) بالفرنج « ... وتمكن الفرنج من الصخرة بالقدس ، وجلسوا فوقها بالخمر، وعلقوا الجرس على المسجد الأقصى ... »[٥٧] أما الصالح نجم الدين أيوب فقد استدعى الخوارزمية لمساندته . واستعد الصالح أيوب بجيش كبير بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس (وهو غير ركن الدين بيبرس البندقدارى الذى سيتولى الحكم فيما بعد). وفي غزة التقى الجمعان « ... وأحاط الخوارزمية بالفرنج، ووضعوا فيهم السيف، حتى أتوا عليهم قتلا وأسراً ، ولم يفلت منهم إلاّ من شرد ... »[٥٨] وبعد هذه الهزيمة العنيفة تفرق الحلف الأيوبي- الفرنجي البائس واستولت قوات الصالح نجم الدين أيوب على غزة والسواحل، وتم استرداد القدس والخليل سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م.

٥٦- زيادة، حملة لويس التاسع ، ص٧١- ص٧٢ ؛ Painter , Op. cit, p. 485 .

٥٧- المقريزى ، السلوك، ج١، ص٣١٥ .

٥٨- المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٣١٧- ص٣١٨ .

وتمكن جيش الصالح نجم الدين أيوب من الاستيلاء على دمشق، ولكن الخوارزمية الذين كانوا قد تعودوا على الفوضى والعبث عاثوا فى المدينة فساداً . وفى تلك الأثناء حدثت بدمشق مجاعة استمرت ثلاثة أشهر مات فيها عدد كبير من سكان المدينة. وقرر السلطان الصالح نجم الدين أيوب قتالهم ، واتفق مع صاحب حمص وصاحب حلب على محاربة الخوارزمية، ولما عرف الخوارزمية ذلك خرجوا من دمشق . وفى أول يوم من شهر المحرم سنة ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م ، استطاع الملك المنصور ابراهيم أمير حمص وحليف الصالح نجم الديم أيوب أن يلحق بالخوارزمية « ... هزيمة قبيحة ، تبدد منها شملهم ولم تقم لهم بعدها قائمة... » وفى الوقت نفسه كان الجيش الذى خرج من مصر بقيادة «الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ» قد هزم جيشًا مشتركًا من جنود الناصر داود والخوارزمية بالقرب من غزة فى فلسطين(٥٩).

هكذا، تخلص الصالح نجم الدين من الخوارزمية ومشاغباتهم ، ويبدو أن الخوارزمية كانوا من عناصر الاضطراب الشديد فى المنطقة العربية، بعد أن جاءوا إليها عندما دمرّ التتار مملكة خوارزم شاه فى جنوب إيران الحالية. وكانوا جنوداً مرتزقة يبيعون خدماتهم العسكرية لمن يدفع أكثر، ثم أغرتهم قوتهم من ناحية، وضعف الأيوبيين وتنازعهم من ناحية أخرى، على أن يلعبوا لحسابهم ولأنهم كانوا مجرد مجموعة من العصابات العسكرية ، بلا هدف سياسى ولايربطهم بالذين يقاتلون معهم سوى المكاسب والغنائم والأسلاب؛ فإنهم مارسوا الحرب والقتال بدرجة من العنف وعدم الانضباط العسكرى جعلتهم صداعًا دائمًا فى المنطقة الممتدة من أعالى العراق حتى غزة فى فلسطين .

على أية حال ، خرج السلطان الصالح نجم الدين أيوب بعد ذلك إلى دمشق لكى يرتب الأوضاع السياسية والإدارية فى بلاد الشام بعد أن تخلّص من الخوارزمية ، ثم أمر بإعادة بناء تحصينات مدينة بيت المقدس. وكانت آخر خطوة قام بها الصالح نجم الدين أيوب لتوطيد سلطانه قتل أخيه العادل الثانى خنقًا فى قلعة الجبل(٦٠). وواصل السلطان جولاته فى بلاد الشام سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٧م، حيث بنى عدة مدارس ، وأوقف عدداً من الأوقاف على المنشآت الدينية والعامة، وتصدق ومنح عدداً من كبار أهل العمامة ما يقربهم إليه ...

٦٠- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٥ ، ص٣٧٩- ص٣٨٣ حيث يورد سيرة كاملة للملك العادل الثانى الأيوبى.

ثم جاءت الأنباء بأن أوربا تستعد لشن حملة صليبية جديدة ضد مصر ، وفى سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م جاء السلطان إلى مصر « ... وهو مريض فى محفة ، لما بلغه من حركة الفرنج... »(٦١).

كانت الاستعدادات تجرى فى أوربا لهذه الحملة بالتنسيق بين البابا إنوسنت الرابع والملك الفرنسى لويس التاسع منذ سنة ١٢٤٥م عندما تمكن الصالح نجم الدين أيوب من استرداد القدس بقوات الخوارزمية . وكانت هذه الحملة تهدف إلى الاستيلاء على مصر من ناحية، وتكوين حلف مغولى / مسيحى بهدف تطويق العالم الإسلامى والقضاء عليه من ناحية أخرى. وكانت فكرة الحملة الصليبية على مصر تتطور فى الأوساط الكنسية والملكية الأوربية فى خط موازٍ لتطور فكرة تحويل المغول إلى المسيحية واستخدامهم فى الضغط العسكرى على المسلمين . وأثناء توقف لويس التاسع فى قبرص (فى الطريق إلى مصر) ، جاءته الرسل من « ... ملك التتار العظيم» يحملون رسائل ودية توضح أنه على استعداد لمساعدته فى غزو بيت المقدس وتخليصه من أيدى المسلمين ؛ على حد رواية جوانفيل الذى كتب قصة حياة الملك لويس التاسع وأرَّخ لحملته على مصر (٦٢). وأيا كان قدر الحقيقة فى كلمات جوانفيل ، فإنها تكشف عن أن المراسلات للتنسيق بين أوربا والمغول كانت قائمة حتى ذلك الحين.

والحقيقة أن الغرب الأوربى كان ينظر إلى مشروع التحالف المغولى/ الأوربى من ناحية ، على حين كان المغول يرون المشروع من ناحية أخرى. إذ إن البابوية ظنت أن بمقدورها تحويل المغول الوثنيين إلى المسيحية واستخدام قوتهم العسكرية لحصار المسلمين والقضاء عليهم . أما المغول الذين كانت قوتهم الحربية وانتصاراتهم الرهيبة قد أثارت فزع المعاصرين فى كل مكان، فكانوا يرون أن هذا المشروع يعنى خضوع الغرب الأوربى لسلطة الخان الأعظم ودفع إتاوة سنوية له. وهكذا فشل المشروع على الرغم من كثرة السفارات المتبادلة بين الجانبين(٦٣) .

٦١- المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٣٣٢- ص٣٣٣ .

٦٢- Joinville, The Life of Saint Louis, (transl. with an introduction by : M. R. B. Shaw, Penguin 1975), pp. 197-198 .

٦٣- عن تفاصيل المراسلات والسفارات بين خان المغول والبابا إنوسنت الرابع انظر:

عادل هلال ، العلاقات بين مغول فارس والغرب الأوربى، (رسالة دكتوراه جامعة الزقازيق ، ١٩٨٧م) ص٥١- ص٧٣ أنظر أيضا : =

على أية حال ، فإن حملة لويس التاسع علامة على أمرين متناقضين ، فقد كانت ذروة الحركة الصليبية من جهة، كما كانت بداية النهاية لهذه الحركة من جهة أخرى. إذ لم تكن هناك أية حملة صليبية سابقة على هذا القدر من حسن التنظيم، الذى تميزت به حملة لويس التاسع، كما أن قائدها قد حظى بدعاية كنسية هائلة جعلت منه قديسًا (وهو ما لم يحدث لأى من قادة الحملات الصليبية السابقة) . وفى المقابل كانت الحملة الصليبية السابعة آخر مجهود كبير تبذله أوربا عسكريًا ضد المسلمين فى المنطقة العربية. وعلى الجانب الإسلامى، كانت تلك الحملة بداية النهاية بالنسبة للأيوبيين ، وبداية ظهور الأهمية السياسية والعسكرية لفرسان المماليك الذين لم يلبثوا أن خلعوا سادتهم الأيوبيين وأخذوا الحكم فى المنطقة لحسابهم . وكانت الظروف التاريخية الموضوعية تحتم ذلك كما سنرى فى الفصول التالية من هذا الكتاب.

فى سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م تواترت الأنباء عن اقتراب موعد نزول الحملة على الشواطئ المصرية . وتروى المصادر التاريخية العربية أن الإمبراطور فردريك الثانى، صديق الأيوبيين وعدو البابوية اللدود ، قد أرسل أحد رجاله متخفيًا فى زى تاجر إلى السلطان الذى كان مريضا بدمشق يخبره بالاستعدادات الأوربية للهجوم على مصر [٦٤]، فعاد السلطان مسرعًا على محفة المرض. وفى العشرين من صفر سنة ٦٤٧هـ / ٤ يونيو ١٢٤٩م نزل الصليبيون أمام ساحل دمياط ، وأقيمت للملك الفرنسى خيمة حمراء. وناوشهم المسلمون قليلاً وفى المساء انسحبت القوات المدافعة عن المدينة ؛ ظنًا بأن السلطان الصالح نجم الدين أيوب قد مات؛ « ... فلما رأى أهل دمياط رحيل العسكر، خرجوا كأنما يسحبون على وجوههم طول الليل... ». وهكذا سقطت المدينة التى دوخت الحملة الخامسة بمقاومتها الشرسة . ولم يصدق الفرنج أنهم انتصروا بهذه السهولة ، وما أن تأكد الصليبيون من حقيقة النصر السهل، الذى سقط بين أيديهم دونما جهد، حتى أخذوا يدعمون وجودهم فى المدينة الأسيرة [٦٥].

Joseph R. Strayer , " The Crusades of Louis IX", in Setton ed.), A Hist . of the Cru- = sades, vol . II, pp. 487-518 .

حول تفاصيل الحملة السابعة وحملات لويس فى الشام وتونس من وجهة نظر أوربية .

٦٤- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٣٣١ حاشية ٣ حيث ينقل الدكتور زيادة هذا الخبر عن العينى صاحب عقد الجمان .

٦٥- المقريزى ، السلوك ، ج١، ص٣٣٥- ص٣٣٦ حيث يروى قصة دخول لويس وجنوده إلى المدينة « ... وأصبح يوم الأحد، لسبع بقين من صفر ، سائرين إلى مدينة دمياط ، فعندما رأوا أبوابها مفتحة ، ولا أحد =

واستقبل السلطان أنباء سقوط دمياط وهو على فراش المرض بمزيج من الألم والمرارة والغضب ، وأعدم عدداً من الفرسان الهاربين. ثم قرر أن يرحل إلى مكان قريب من دمياط ، فجعل معسكره فى مدينة المنصورة التى كانت قد أنشئت أثناء حوادث الحملة الصليبية الخامسة قبل ثلاثين سنة فقط من هذه الأحداث . ومن المنصورة بدأت المقاومة المصرية تتصاعد، وبدأت حرب عصابات أسهم فيها المصريون المدنيون بجهد كبير إلى جانب القوات العسكرية. وأعلن السلطان عن المكافآت المغرية لمن ينجح فى أخذ أسير فرنجى؛ فكثرت أعداد الأسرى الصليبيين الذين تخطفتهم آبادى المجاهدين المسلمين (من المصريين والعرب الشوام والمغاربة) .

وأخذت القوات العربية تأتى من الإمارات الأيوبية فى بلاد الشام لمساندة الجيش المصرى ضد الحملة الصليبية السابعة، وبدأت سفن الأسطول المصرى تقطع طرق الإمدادات الصليبية عن القوات التى كانت قد تقدمت واحتلت فارسكور ثم عسكرت تجاه القوات المصرية ويفصل النهر بينهما ، كما تمكن الأسطول المصرى من أسر عدة سفن صليبية برجالها وعتادها . وفى خضم هذه الأحداث توفى السلطان الصالح نجم الدين أيوب في يوم الاثنين ١٤ شعبان سنة ٦٤٧هـ / ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩م[٦٦] ومع ذلك فإن زوجته «شجر الدر» أخفت نبأ وفاته[٦٧] وأرسلت سراً تستدعى إبنه توران شاه من حصن كيفا بأعالى العراق. واشتدت المقاومة المصرية[٦٨]؛ إذ يقول جوانفيل بالنص : « ... وكان المسلمون يدخلون معسكرنا كل ليلة ويقتلون رجالنا عندما يجدونهم نياماً ؛ وقد تصرفوا بهذا الشكل لأن السلطان كان يعطى قطعة ذهبية مقابل كل رأس لرجل مسيحى (أى صليبى) ... »

= يحميها ، خشوا أن تكون مكيدة فتمهلوا حتى ظهر أن الناس قد فروا وتركوها ، فدخلوا المدينة بغير كلفة ولامؤونة حصار...».

أما جوانفيل ، مؤرخ الحملة الصليبى، فقد تحدث عن تقسيم الغنائم بين الملك لويس التاسع وأمرائه، انظر:

Joinville, The Life of Saint Loius, pp. 206-207 .

٦٦- المقريزى، السلوك ، ج١، ص٣٣٦- ص٣٤٢ .

٦٧- أنظر التفاصيل فى الفصل الخامس .

٦٨- Joinville, Op. cit., pp. 209-210 .

وقد انتهت الحملة الصليبية فيما بين المنصورة (ذى القعدة ٦٤٧هـ / فبراير ١٢٥٠م) وفارسكور (المحرم ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م) بالقضاء على الجيش الصليبى تمامًا وأسر لويس التاسع نفسه فى قرية منية عبدالله ؛ شمالى المنصورة ، ثم نُقل الملك الأسير إلى دار ابن لقمان القاضى بالمنصورة حيث بقى سجينًا فترة من الزمان حتى تم الإفراج عنه لقاء فدية كبيرة وتم الجلاء عن دمياط (٦٩).

كانت الحملة الصليبية السابعة آخر جهد أوربى كبير ضد مصر على المستوى العسكرى، بيد أنها لم تكن آخر تلك الجهود على أية حال . ومن ناحية أخرى، فإن الأحداث السياسية والعسكرية التى جرت أثناء تلك الحملة كانت بمثابة الصرخة التى تعلن الوفاة التاريخية للدولة الأيوبية، كما كانت- فى الوقت نفسه- صرخة الميلاد التى أعلنت ميلاد دولة عسكرية جديدة قادرة هى دولة سلاطين المماليك التى حكمت المنطقة العربية على مدى مايزيد على مائتين وسبعين سنة.

وإذا كنا قد اختصرنا تفاصيل هذه الأحداث فى هذا الفصل؛ فإن السبب فى ذلك راجع إلى أن الفصل التالى يحمل تفاصيل كثيرة لهذه الأحداث التى تتشابك فيها عوامل سقوط الأيوبيين مع عوامل صعود المماليك بشكل مثير.

لقد كان المبرر الشرعى والأخلاقى لقيام الدولة الأيوبية- التى أسسها الناصر صلاح الدين الأيوبى على أنقاض الدولة الفاطمية وبقايا الدولة الزنكية- يتمثل فى دور مؤسسها فى الجهاد ضد الهجوم الصليبى. ولكن الفراغ السياسى الناجم عن وفاة صلاح الدين وعدم وجود شخصية قيادية فى مستواه ، أدى إلى نشوب نوع من المنازعات العبثية بين الحكام الأيوبيين الصغار (بالمعنى السياسى) . وكان الطابع العام لخلفاء صلاح الدين هو التنازع والتخاصم والاقتتال ضد بعضهم البعض من ناحية، أخرى ، ويعنى هذا فى التحليل الأخير أن الأيوبيين تخلوا عن دورهم التاريخى ، وهو مبرر استمرارهم فى الحكم والمصدر الأساسى لشرعية هذا الحكم، لكى يتفرغوا للإقتتال ضد بعضهم البعض .

٦٩- أنظر التفاصيل الكاملة لهذه الحملة : محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع وهزيمته فى المنصورة ، والفصل الخامس من هذا الكتاب ، أنظر أيضا:

المقريزى السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١، ص٣٣٤- ص٣٦٤ ؛

Joinville, Op. cit., 220-264 ; Joseph R. Strayer , Op. cit., pp. 487-518 .

ومن اللافت للنظر أن الدولة الأيوبية التي ظهرت على مسرح تاريخ المنطقة العربية ، لأن مؤسسها صلاح الدين التزم بهذا الدور ، قد فقدت مبررات وجودها منذ تخلى ملوك وأمراء بنى أيوب عن هذا الدور بشكل أو بآخر . وعلى الرغم من جهود العادل وابنه الكامل وحفيده الصالح نجم الدين أيوب ضد الصليبيين ، فإننا يجب أن نلاحظ أنهم جميعًا كانوا يميلون إلى مهادنة الصليبيين حتى يتفرغوا لقتال أقاربهم وتحقيق أهدافهم السياسية والعسكرية الخاصة . كما ينبغى أن نلاحظ أنهم، جميعا، قد تنازلوا عن الكثير من تراثهم السياسى عندما أعادوا بعض الأراضى التى استردها المسلمون بقيادة صلاح الدين الكامل هو أبرزهم فى هذا الصدد، فإن أباه العادل قدم للصليبيين عروضًا مماثلة فى سخائها وتخاذلها ، كما أن الصالح نجم الدين أيوب عقد معاهدة مع تيبالد الشمبانى ، وجددها مع ريتشارد كورنوول، تتضمن تنازلات كبيرة للفرنج. وينبغى ، أيضا أن نلاحظ أن جهود الأيوبيين العسكرية ضد الفرنج ، كانت فى جملتها جهوداً دفاعية تأتى فى نطاق رد الفعل على هجمات الصليبيين. وهكذا فإن الأيوبيين وجدوا أنفسهم غير قادرين على أداء دورهم التاريخى، ووجدوا أنهم فى غمرة منازعاتهم قد انشأوا القوة البديلة لهم. ومثلما برزت الدولة الأيوبية فى خضم الجهاد ضد الصليبيين ، فإن سقوطها جاء بسبب ظهور القوة البديلة ؛ ولأن المماليك نجحوا فيما فشل الأيوبيون فى القيام به احتلت دولتهم مكان دولة الأيوبيين ومكانتها.

وهذا موضوع الفصل الخامس ....

الفصل الخامس

الظروف التاريخية لقيام دولة سلاطين المماليك

أيام الأيوبيين الأخيرة- حملة لويس التاسع وهزيمته فى المنصورة- بروز القوة العسكرية والسياسية للمماليك- نهاية وبداية- توران شاه وشجر الدر (آخر الأيوبيين وأول المماليك)

على الرغم من أن دولة سلاطين المماليك (٦٤٨ هـ / ٩٢٢هـ - ١٢٥٠ / ١٥١٧م) ورثت ممتلكات دولة الأيوبيين ومسئولياتها السياسية والعسكرية ، فإن المتأمل فى تاريخ الدولتين يشعر بحق أنهما جاءتا استجابة سياسية / عسكرية لظروف العالم الإسلامى عامة، والمنطقة العربية منه خاصة ، فى فترة حرجة من التاريخ الطويل للحضارة العربية الإسلامية. ومن المثير حقًا أن دولة الأيوبيين انتهت- وقامت على أنقاضها دولة المماليك- لنفس السبب الذى أدى إلى قيامها على يد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى؛ أى مسئولية التصدى لأعداء الأمة الذين احتلوا القدس وأجزاء من فلسطين وبلاد الشام وباتوا يهددون بقية المنطقة العربية. فقد فشل الأيوبيون الأواخر فى استكمال الدور التاريخى الذى أفرز دولتهم، وبدلاً من اهتمامهم بالجهاد ضد العدو الفرنجى ، وجهوا طاقاتهم وقدراتهم السياسية والعسكرية للاقتتال فيما بينهم، بل وصل الأمر ببعضهم إلى درجة الاستعانة بالفرنج ضد البعض الآخر. وبسبب حال التشرذم السياسى والتناحر العسكرى فيما بين ملوك الأيوبيين الصغار تراجع دورهم التاريخى أمام دور المماليك الذين رباهم الأيوبيين ليكونوا عدتهم العسكرية ضد بعضهم البعض .

ومن رحم الظروف التاريخية التى أحاطت بالأيوبيين الأواخر ، خرجت دولة سلاطين المماليك التى نجحت فى انتزاع الدور التاريخى من الأيوبيين. بيد أنها واجهت مسئولية هذا الدور التاريخى أيضًا؛ فقد تعين على سلاطين المماليك مواجهة خطر مزودج من جانب سادتهم السابقين من بنى أيوب، ومن الفرنج والغرب الأوربى المتربص بالعالم العربى. لقد اشتعلت

الحروب الداخلية بين ملوك الأيوبيين بالشكل الذى أغرى القوى الفرنجية الصليبية بالتدخل لصالح فريق ضد فريق . وتجمعت القوى الأيوبية المتناثرة فى بلاد الشام فى حلف بائس مع الصليبيين ضد السلطان الصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر وكبير الأيوبيين .

لقد انضم الملك الصالح اسماعيل حاكم دمشق والملك الناصر داود حاكم الكرك والملك المنصور إبراهيم حاكم حمص إلى الصليبيين فى تحالف غريب ضد الصالح نجم الدين أيوب حاكم مصر. ، وتنازل أولئك الحكام الثلاثة ، مرة أخرى ، عن منطقة المسجد الأقصى وقبة الصخرة للفرنج ، كما وعدوا الفرنج بأن يملكوهم جزءاً من مصر عندما يتمكن هذا الحلف من هزيمة الصالح نجم الدين أيوب .

هكذا ؛ تحتم على الصالح أيوب أن يواجه أقاربه بالسلاح ، وكفلت له موارد مصر الهائلة أن يجند جيشًا يفوق الإمكانيات العسكرية الهزيلة لهذا التحالف البائس . وجند عدداً من الجنود الخوارزمية الذين كانوا قد وفدوا إلى المنطقة العربية بعد أن دمر المغول دولتهم يبيعون خدماتهم العسكرية لمن يدفع أكثر. ونجح جيش الصالح نجم الدين أيوب والخوارزمية فى الاستيلاء على دمشق وبيت المقدس ونابلس وضموها إلى أملاك الملك الصالح. وتم تدمير جيوش التحالف سنة ١٢٤٤م فى المعركة التى اشتهرت باسم «معركة غزة»[1].

بعد ذلك غير الخوارزمية ولاءهم وانقلبوا ضد الصالح نجم الدين أيوب؛ ومن هنا بدأ اعتماده يتزايد على المماليك مما مهد السبيل لظهورهم قوة عسكرية ثم سياسية فى المنطقة لم تلبث زن سيطرت على مقاليد الأمور. ومن خضم الأخضار التى واجهها العالم الإسلامى ، والمنطقة العربية منه خاصة ، خرجت دولتهم لتحكم المنطقة قرابة ثلاثة قرون من الزمان ...

ولنتابع قصة الصراع الذى خاضه الصالح نجم الدين أيوب ضد مخاطر الأيوبيين والصليبيين فى بلاد الشام وأوربا . فبينما كانت جيوش الصالح أيوب تواصل انتصاراتها فى بلاد الشام وفلسطين جاءت الأنباء تسعى إليه عن حشود تتجمع تحت راية الصليب فى قبرص بهدف غزو مصر والاستيلاء عليها. وعلى الرغم من مرضه عاد السلطان الصالح نجم الدين إلى مصر بعد أن عقد صلحًا مع الملك الناصر يوسف صاحب حلب بوساطة الخليفة العباسي وبدأ فى ترتيب

١- استمرت هذه المعركة عدة ساعات فقط وخسر التحالف الصليبى الأيوبى آلاف القتلى والأسرى، انظر: المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١ ، ص٣٢٢ ، ج١ ، ص٣١٧ ؛ أبوشامة ، الذيل على الروضتين ، ص١٧٨ ؛ أبو الفداء المختصر فى أخبار البشر، ج٣ ، ص١٧٢- ص١٧٥ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج٦ ، ص٣٢٢- ص٣٢٤ .

أوضاعه العسكرية للدفاع عن مصر ، ودمياط تحديداً ، ضد الهجوم الصليبى المرتقب. وتحكى المصادر التاريخية أن الإمبراطور فردريك الثانى، صديق الأيوبيين وعدو البابوية اللدود ، أرسل واحداً من رجاله متخفيًا فى زى تاجر ليحذر الملك الصالح من الحملة الصليبية التى كانت آخذة فى التجمع بقيادة الملك الفرنسى لويس التاسع [٢].

هذه الحملة كانت الاستعدادات تجرى لها فى الغرب الأوربى بالتنسيق بين البابا إنوسنت الرابع والملك الفرنسى لويس التاسع منذ استرداد المسلمين لمدينة بيت المقدس سنة ١٢٤٥م. ولم يكن هدف هذه الحملة إعادة الاستيلاء على بيت المقدس فقط، وإنما كانت تهدف أيضًا إلى تكوين حلف مسيحى / وثنى بين الصليبيين والمغول لهدم الدولة الأيوبية في مصر والشام ووضع المنطقة العربية الإسلامية بين شقى الرحى. وقد يؤدى هذا- على نحو ما تصورت البابوية والقوى الأوربية- إلى القضاء على الإسلام ونشر المسيحية من ناحية، والاستيلاء على ثروات العالم الإسلامي والسيطرة على طرق التجارة الدولية من ناحية أخرى. والواقع أن فكرة الحملة الصليبية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا جاءت مصاحبة للفكرة الداعية إلى تطويق العالم الإسلامي بحلف مغولى/ صليبى على نحو ما يشير المؤرخ الفرنسى جوانفيل كاتب سيرة لويس التاسع والذى أرخ لحوادث الحملة الصليبية السابعة؛ فقد ذكر هذا الرجل الذى كان من ضباط الحملة الصليبية أنه بينما كان الملك فى قبرص يستكمل استعداداته لغزو مصر أرسل له «ملك التتر العظيم» رُسُلاً يحملون رسائل ودية «... توضح أنه على استعداد لمساعدته فى غزو مصر وتخليص بيت المقدس من أيدى المسلمين ...»[٣] ولكن مشروع التحالف المغولى/ الصليبى فشل لأن المغول كانت لهم أحلامهم الخاصة بالسيادة على العالم، ولم تسفر السفارات المتبادلة والرسائل الكثيرة التى تبادلوها عن شئ حقيقى[٤].

٢- ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، ص٤٥ ؛ المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٣٣١ ، هامش ٣ .

٣- Joinville, The life of Saint Louis . (transl . with an introduction by M. R. B. Shaw O, Penguin 1975 , pp. 197-198 .

٤- عن تفاصيل السفارات والرسائل المتبادلة بين خان المغول والبابا إنوسنت الرابع ، أنظر : عادل هلال، العلاقات بين المغول وأوربا وأثرها على العالم الإسلامى، (مؤسسة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ١٩٩٦م) ، ص٥٨-٨٠ .

كانت خطة البابوية الكاثوليكية تقوم على أساس أنه يمكن للحملة التى يقودها لويس التاسع أن تهاجم المنطقة العربية من سواحل البحر المتوسط، بعد أن تبدأ باحتلال ميناء دمياط أهم موانئ الحوض الشرقى للبحر المتوسط آنذاك، على حين تتقدم القوات المغولية لتشن هجومها على المنطقة من الشرق بعد اجتياح الجناح الشرقى من العالم الإسلامى؛ وبذلك يصفو الجو للبابوية بحيث تحقق أحلامها [٥]. وأرسل البابا إنوسنت الرابع سفارتين لهذا الغرض، بيد أن خان المغول الأعظم كان يرى الأمور من جانب معاكس لأحلام البابوية الكاثوليكية، فقد أرسل يطلب من البابا أن يعترف له بالسيادة ويعلن خضوعه هو وملوك أوربا بحيث يقدمون جميعا فروض الولاء والطاعة ، كما طالبه بأن يأتى جميع ملوك أوربا إلى بلاطه لتقديم الجزية له باعتباره الخان العظيم للتتار وسيد العالم كله .

هكذا فشل مشروع التحالف بين المغول وأوربا الكاثوليكية بزعامة البابا لأن كلاً من الطرفين كان قد وضع خططه وتصوراته على أساس استغلال الآخر؛ بيد أن المغول والصليبيين أخذوا يهاجمون العالم الإسلامى من الشرق والمغرب فى آن معًا وكل من الفريقين يعمل لحسابه. فقد استمرت هجمات التتر تطوى بلدان الشرق الإسلامى حتى وصلت إلى حدود مصر- على نحو ما سنرى فى الفصول القادمة- بينما كان المشروع الصليبى يحاول تنفيذ مراحله الأولى بالهجوم على مصر فى الحملة التى قادها لويس التاسع وعرفها المؤرخون بالحملة الصليبية السابعة.

ومن المثير أن دولة سلاطين المماليك قد خلقت فى رحم هذه الأخطار؛ وبينما كانت معركة المنصورة الظافرة ضد جيوش الحملة الصليبية السابعة بمثابة صرخة الميلاد لدولة سلاطين المماليك، كان انتصار الجيش الإسلامى على المغول بقيادة السلطان المظفر سيف الدين قطز بمثابة تأكيد هذا الميلاد وتدعيمه. فقد كان الأيوبيون قد تخلوا عن دورهم التاريخى (سبب وجود دولتهم ومبرر بقائها) فى التصدى للصليبيين، وآثروا الالتزام بسياسة المهادنة حتى يتفرغوا لمنازعاتهم الداخلية؛ ومن ثم فإن دولتهم التى جاءت استجابة ناجحة للتحدى الذى فرضه العدوان الصليبى على المنطقة لأن صلاح الدين الأيوبى مؤسس الدولة التزم بسياسة الجهاد ضد الصليبيين ، فقدت مبررات وجودها منذ أخذ ملوك بنى أيوب وسلاطينهم يعزفون عن الجهاد ضد الصليبيين ويميلون إلى سياسة المهادنة والتعايش السلمى.

٥- Atiya (A.S.), The Crusades, in the Later Middle Ages, (London 1938), p. 234 ; Runciman , A Hist. of the Crusades. III, pp. 258-90 .

وفى خضم أحداث الحملة الصليبية السابعة برزت قوة جديدة أثبتت قدرتها على التصدى للصليبيين وقيادة المنطقة العربية الإسلامية فى مواجهتهم- تلك هى قوة فرسان المماليك. ومن ثم فإن أحداث هذه الحملة تستحق قدراً من التفصيل فى تناول أحداثها ووقائعها . بيد أننا ينبغى أن نلاحظ أن سقوط الدولة الأيوبية وقيام الدولة المملوكية لم يغير من اتجاه الحركة التاريخية فى المنطقة ؛ فالواقع أن الدولة المملوكية جاءت امتداداً لدولة بنى أيوب، بيد أن المماليك نجحوا فيما فشل فيه الأيوبيون- أعنى توحيد المنطقة العربية فى مواجهة الخطر الصليبى والخطر التترى. وعلى الرغم من جهود العادل ثم الكامل فالصالح نجم الدين أيوب العسكرية ضد الصليبيين؛ فالواضح أنها كانت جهوداً دفاعية تأتى رد فعل للهجمات والحملات الصليبية[٦] ومثلما ولدت الدولة الأيوبية فى خضم الصراع ضد الفرنج الصليبيين، فإن سقوطها فى مصر- ثم فى بلاد الشام بعد ذلك- جاء نتيجة ظهور قوة بديلة أثبتت أنها أقدر من الأيوبيين على القيام بالدور التاريخى للدولة العسكرية التى يقودها ملك محارب . وكان المماليك (والسلطان المظفر سيف الدين قطز من أوائل سلاطينهم) هم الذين يجسدون هذه القوة الجديدة. وبسبب نجاحهم فيما فشل فيه الأيوبيون احتلت دولتهم مكان الدولة الأيوبية ، بيد أنها كانت امتداداً لها فى بنائها، وطبيعتها العسكرية، والأسس السياسية الاقتصادية التى قامت عليها.

وكانت أحداث الحملة الصليبية السابعة التى انتهت سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م بأسر الملك لويس التاسع نفسه، وتبدد فرسان جيشه وجنوده ما بين قتيل وأسير، عقب الهزيمة المخزية التى أوقعها به الجيش المصرى فى المنصورة بمثابة إرهاصات الميلاد لدولة سلاطين المماليك. وقد برز زعماء فرسان المماليك البحرية من أمثال « فارس الدين أقطاى » و«عز الدين أيبك » و« ركن الدين بيبرس البندقدارى » وغيرهم خلال المعارك ضد الحملة الصليبية السابعة، وأظهروا شجاعة وقدرة عسكرية فائقة[٧].

٦- Hamilton A. R. Gibb, " The Ayyubids", in Setton (ed.), A Hist. of the Crusades, II, pp. 714-716 .

٧- عن المماليك البحرية ودورهم فى تلك الفترة ، أنظر :

أحمد مختار العبادى ، قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام، (بيروت ١٩٨٦م) ، ص٩٦- ص١٠٠ .

ففى خريف سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م أبحر الأسطول الصليبى بقيادة لويس التاسع من ميناء مرسيليا الفرنسي إلى جزيرة قبرص، وهناك كان على الملك الفرنسى أن ينتظر فترة من الوقت حتى تتكامل قواته. وفى ربيع العام التالى (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) أقلعت سفن الحملة تجاه الشواطئ المصرية لتصل بعد أقل من شهر أمام ميناء دمياط. وفى العشرين من شهر صفر سنة ٦٤٧هـ / ٤ يونيو ١٢٤٩م بدأ الإنزال الصليبى أمام دمياط وتقدمت قوات الصليبيين وأمامهم لويس التاسع يخوض المياه الضحلة قرب الشاطئ وهو يرفع سيفه ودرعه فوق رأسه. وعلى الجانب الآخر انسحب المدافعون عن المدينة بسرعة بعد أن ظنوا أن سلطانهم الصالح نجم الدين أيوب المريض قد مات. وإذ خرجت الحامية العسكرية فر السكان المذعورون من دمياط(٨).

وهكذا سقطت دمياط فى أيدى قوات الحملة الصليبية السابعة دون قتال ... دمياط التى دوخت قوات الحملة الصليبية الخامسة بمقاومتها الشرسة استسلمت فى وداعة مذهلة لقوات الملك لويس التاسع. وما أن تأكد الصليبيون من حقيقة النصر السهل، ومن أنه ليس فى الأمر خدعة أو كمين ، حتى أخذوا يدعمون وجودهم فى المدينة الأسيرة التى سقطت بأيديهم دون جهد (٩). واستقبل السلطان المريض أنباء سقوط دمياط ، التى بذل جهداً مضنياً فى سبيل تحصينها ، بمزيج من الألم والمرارة . وأعدم عدداً من الفرسان الهاربين. بيد أنه تحامل على نفسه وتجاهل آلامه ونقل معسكره إلى مدينة المنصورة التى كانت قد خرجت إلى الوجود قبل ثلاثين سنة فقط من ذلك التاريخ . ومن هناك بدأت حرب عصابات أسهم فيها المصريون إلى جانب المتطوعين الذين وفدوا من فلسطين وبلاد الشام وبلاد المغرب الإسلامى. وبمرور الوقت تزايدت أعداد الأسرى الصليبيين الذين خطفهم المجاهدون من معسكراتهم، وتعددت مواكب أسرى الفرنج فى شوارع القاهرة بالشكل الذى زاد من حماسة الناس ورفع معنويات المقاتلين .

٨- قاسم عبده قاسم ، ماهية الحروب الصليبية، (مؤسسة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ١٩٩٣م) ، ص١٦٣- ص١٦٥ .

٩- ذكر المقريزى ما نصه : «أصبح الفرنج يوم الأحد، لسبع بقين من صفر ، سائرين إلى مدينة دمياط، فعندما رأوا أبوابها مفتحة، ولاأحد يحميها خشوا أن تكون مكيدة فتمهلوا حتى ظهر أن الناس قد فروا وتركوها، فدخلوا المدينة بغير كُلفة ولامؤونة حصار..»، انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١ ، ص٣٣٥- ص٣٣٦ ، وقارن بما ذكره جوانفيل عن توزيع الغنائم بين الملك وأمرائه :

Joinville, The Life of Saint Louis , pp. 206-207 .

ومن ناحية أخرى قامت البحرية المصرية بدورها فى حصار قوات الحملة وتدمير خطوط إمدادها فى فرع دمياط[١٠].

وأخيراً جمع الملك لويس التاسع مجلس الحرب لتقرير خطة الزحف صوب القاهرة، وكشفت المناقشات عن انقسام شديد فى الرأى بين الصليبيين بخصوص خطة الزحف. وعلى الرغم من هذا الإنقسام خرجت القوات من دمياط فى يوم السبت ١٢ شعبان ٦٤٧هـ / ٢٠ نوفمبر ١٢٩م وسارت بحذائها فى فرع النيل أعداد كبيرة من السفن. وفى دمياط بقيت حامية صليبية قوية كما بقيت زوجة الملك مرجريت البروفنسالية .

وربما كانت وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب التى حدثت فى ليلة النصف من شعبان سنة ٦٤٧هـ / ٢٢ نوفمبر سنة ١٢٤٩م من أهم أحداث تلك المرحلة. إذ إن وفاة ذلك السلطان أفسحت المجال لظهور قوة المماليك، كما كشفت عن عجز الأيوبيين بشكل مثير.

ويبدو أن السلطان كان قد رتب أمور الحكم مع زوجته شجر الدر قبل وفاته. وتولت شجر الدر ترتيب أمور الدولة ، وإدارة شئون الجيش فى ميدان القتال وأخفت نبأ موت السلطان وأعلنت أن الأطباء منعوا زيارته . وفى الوقت نفسه أرسلت إلى توران شاه، ابن الصالح نجم الدين أيوب تحثه على مغادرة حصن كيفا بالقرب من حدود العراق وعلى سرعة القدوم إلى مصر لكى يعتلى عرش السلطنة [١١].

فى تلك الأثناء كانت قوات الحملة الصليبية السابعة تخوض فى أوحال الدلتا بعد موسم الفيضان ، ثم دخل الفرنج مدينة فارسكور دون مقاومة تذكر. وتسرب خبر وفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب على الرغم من كل احتياطات شجر الدر. وعلى الجانب المصرى بدأت الإمدادات من الرجال والمؤن والعتاد تتدفق على معسكر الجيش فى المنصورة[١٢] وبدأت حرب

١٠- عن التفاصيل الكثيرة لهذه الأحداث ، أنظر:

محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع وهزيمته فى المنصورة، ص١١٦- ص١٦٤ .

١١- أبو الفداء، المختصر فى أخبار البشر، ج٣ ، ص١٨٠ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦ ، ص,٣٢٨ وقد ذكر المؤرخ جمال الدين نفسه مبرراً ذلك بقوله : «... ولو لم يكن من محاسنه إلا تجلده عند مقابلة العدو بالمنصورة ، وهو بتلك الأمراض المزمنة، وموته على الجهاد ، والذّب عن المسلمين، ما كان أصبره وأغزر مروءته ...». انظر النجوم الزاهرة ، ج٦، ص٣٣٠ .

١٢- ذكر جوانفيل ما نصه : «كان المسلمون يدخلون معسكرنا كل ليلة ويقتلون رجالنا عندما يجدونهم =

عصابات ضد معسكر الفرنج على الشاطئ المقابل كبدتهم خسائر كثيرة كما سببت لهم قدراً كبيراً من الفزع والقلق. وقد دفع ذلك الملك لويس التاسع إلى قرار الهجوم على المعسكر المصرى. وبعد عدة تطورات تفصيلية جرت المعركة داخل مدينة المنصورة بين طلائع الجيش الصليبى بقيادة كونت أرتوا ، شقيق لويس التاسع ، وفرقة الداوية، وفرقة من الفرسان الإنجليز من ناحية ، والجيش المصرى والمتطوعين بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى من ناحية أخرى.

كان بيبرس قد أعد خطة ماكرة لقتال الفرنج فى رحاب مدينة المنصورة، ووافقت شجر الدر على الخطة؛ وكانت هى صاحبة النفوذ الفعلى بعد موت الصالح نجم الدين أيوب . فقد أعد بيبرس عدة كمائن من الفرسان داخل المدينة، وطلب من الأهالى البقاء بمنازلهم دون حركة مع الاستعداد للإنقضاض على فرسان العدو عند اللحظة المناسبة . وكانت فرقة من الصليبيين بقيادة شقيق الملك تتسابق مع فرسان الداوية الذين اشتهروا بقسوتهم ووحشيتهم وفرقة من الفرسان الإنجليز ، الذين استفزتهم غطرسة الكونت أرتوا وكلماته الجارحة ، لكى يفوزوا بشرف اقتحام المدينة. ودخل هؤلاء جميعًا إلى المدينة الصامتة ، وأخذوا يتجولون فى شوارعها الخالية وظنوا أن الحامية والأهالى قد فروا منها . وبينما هم فى زهوهم وخيلائهم يبحثون عن الغنائم والأسلاب تحدوهم الرغبة فى ارتكاب واحدة من المذابح البشرية التى اشتهروا بها ، فُتحت عليهم أبواب الجحيم ، وأطبق عليهم فرسان المماليك وأهالى المنصورة والمتطوعون من كل ناحية ، وتبعثرت قوات الصليبيين المذعورين فى ثنايا المدينة. وقد وضع الأهالى المتاريس الخشبية والحجرية والطينية لعرقلة فرسان الصليبيين، كما قذفوهم بشتى «القذائف المنزلية» من فوق أسطح المنازل ومن الشرفات والنوافذ . وانقشع غبار المعركة عن عدد كبير من القتلى الصليبيين بينهم شقيق الملك نفسه «الكونت أرتوا» وعدد كبير من النبلاء. ولم ينجح فى الهرب من المذبحة سوى عدد قليل من الفرسان هربوا على أقدامهم ليلقوا بأنفسهم فى مياه النيل حيث غرقوا بعد أن طاردهم المصريون بالسهام والحراب والسيوف (١٣).

= نائمين ، وقد تصرفوا بهذا الشكل لأن السلطان كان يعطى قطعة ذهبية فى مقابل كل رأس لرجل مسيحى..» - انظر: . Joinville, Op. cit . pp. 209-210

١٣- Joseph R. Strayer, " The Crusades of Louis IX", in Setton (ed.) , A Hist. of the Crusades, II, pp. 487-518 .

أنظر أيضًا: ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٥ ، ص٣٦٦ .

وفى مكان آخر بالقرب من أشموم طناح كان الجيش الصليبى الرئيسى بقيادة الملك لويس يستعد للقاء الجيش المصرى الذى تولى قيادته آنذاك الأمير ركن بيبرس البندقدارى ولم تكن أنباء الكارثة التى جرت على طليعة الجيش الصليبى فى المنصورة يوم٤ ذى القعدة سنة ٦٤٧هـ/ ٨ فبراير ١٢٥٠م قد وصلت إلى أسماع الملك لويس وجيشه. وفى اليوم التالى لمعركة المنصورة عقد فارس الدين أقطاى الصالحى، القائد العام للجيوش المصرية، مجلس حرب عرض فيه على ضباطه معطفًا قصيراً عليه شارة البيت الملكى الفرنسى كان يرتديه الكونت أرتوا شقيق الملك الذى قُتل فى المنصورة ، ظنًا منه أنه معطف الملك نفسه وأعلن أن مقتل الملك يستوجب مهاجمة الجيش الفرنجى بلا تردد . وبدأ الهجوم الذى تمكن الفرنج من صده بعد أن تكبدوا خسائر فادحة (١٤). بعد هذه المعركة بعدة أيام (أى فى ٢٧ فبراير ١٢٥٠هـ / ٢٣ ذى القعدة ٦٤٧هـ) جاء المعظم تورانشاه ابن الصالح نجم الدين أيوب. وتم الإعلان رسميًا عن وفاة السلطان، وسلمت «شجر الدر» للسلطان الجديد الشاب مقاليد الأمور. ولم يلبث أن تولى قيادة الجيوش بنفسه ، وغيَّر من جانبه خطط المواجهة العسكرية ضد الصليبيين. فوضع خطة لإجبار الصليبيين على التسليم؛ فأمر بحمل عدة سفن مفككة على ظهور الجمال، ثم تركيبها وإنزالها خلف الخطوط الصليبية لمهاجمة الأسطول الصليبى وأسر عدد كبير من سفنه المحملة بالمؤن والأقوات . وساءت حال الفرنج ، وطلب قائدهم الملك لويس التاسع الهدنة وعرض تسليم مدينة دمياط للمصريين فى مقابل مدينة بيت المقدس؛ ولكن المصريين رفضوا الاقتراح الصليبى وفضلوا الحرب. ومن المثير أن غرور الملك الصليبى جعله يغفل أنه فى وضع لايسمح له بوضع الشروط فى طلب الهدنة. وقرب مدينة فارسكور دارت معركة رهيبة قضى فيها الجيش المصرى تمامًا على الجيش الصليبى. وضاع الفرنج بين القتل والأسر. وتم أسر الملك لويس نفسه فى قرية «منية عبدالله» شمال مدينة المنصورة، وتم نقله إلى دار ابن لقمان حيث بقى سجينًا فترة من الزمان (١٥). ثم أسفرت المفاوضات النهائية عن الإفراج عنه لقاء فدية مالية كبيرة، وتم الاتفاق على الجلاء الفرنجى من دمياط .

١٤- ابن واصل ، نفسه، ج٥ ، ص٣٦٦ - ص٣٣٨ ؛ المقريزى، السلوك، ج١ ، ص٣٥١- ص٣٥٣ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٣٦٣ Runcmian, S., A. Hist. of the Crusades (Cambridge 1957), III, p. 267 .

١٥- ابن واصل ، مفرج الكروب، ج٥، ص٣٦٨ ؛ المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٣٤٥- ص٣٥٨ ، ص٣٦٣- ص٣٦٤ ، وكانت الفدية التى تقررت على الملك الصليبى أربعمائة ألف دينار. أنظر :

Joinville, the Life of Saint louis , pp. 220-264 ; Joseph R. Staryer, " The Crusade of Louis IX" , pp. 487-518 .

وعلى الرغم من الإنتصار الإسلامى الرائع على الحملة الصليبية السابعة، فإن السلطان الأيوبى تورانشاه كان إخفاقًا أيوبيًا جديداً مهد الطريق أمام نهاية الدولة الأيوبية وصعود الدولة الجديدة التى شادها المماليك ، لقد فشل تورانشاه فى الاستجابة للتحديات التى كانت تفرضها الظروف التاريخية، وبدلاً من تكريس جهوده لتوحيد المسلمين للقضاء على الخطر الصليبى تمامًا ، بدأ يدبر للتخلص من «شجر الدر» وكبار أمراء المماليك . وبدلاً من أن يحمد السلطان الجديد لزوجة أبيه دورها فى مقاومة الحملة الصليبية وحفظ عرش البلاد له أخذ يضغط عليها ويهددها متهمًا إياها بالاستيلاء على أموال أبيه؛ فخافت منه وفرت إلى مدينة بيت المقدس حيث بقيت هناك فترة تنتظر ما تسفر عنه الأيام . من ناحية أخرى، كان تورانشاه يحسد المماليك على المكانة التى حققوها لأنفسهم بفضل سيوفهم وشجاعتهم فى القتال ضد الفرنج فى المنصورة وفارسكور، وسيطر عليه شعور بأنهم يزاحمونه فى حكم البلاد. وتحكى المصادر التاريخية أن السلطان المعظم تورانشاه كان فتى عنيف الأهواء، ورث عن أبيه السلطان الصالح نجم الدين أيوب الكآبة والكبرياء مما نفّر منه أمراء المماليك . كذلك أعرض السلطان عن المماليك وأظهر لهم الجفاء على حين أغدق المناصب والعطايا على رجاله الذين جاءوا معه من أعالى الجزيرة (١٦). وقد وصف أحد المؤرخين المعاصرين هذا السلطان بقوله : «... كان سيئ التدبير والسلوك ، ذا هوج خفة ... «كما حكى مؤرخون آخرون أنه كان يسكر فى الليل، ثم يمسك بسيفه ويطفئ به الشموع الموضوعة أمامه واحدة فواحدة، وهو يقول : «هكذا أفعل بالبحرية» . ومع كل شمعة يطفئها سيفه كان ينطق باسم واحد من زعماء المماليك البحرية. ونقل الخدم هذه الأخبار إلى زعماء الممالك البحرية؛ فعرفوا نواياه وأضمروا له السوء.

وتلاقت مخاوف «شجر الدر» مع مخاوف زعماء المماليك وغضبهم بعد أن حرمهم السلطان الجديد من إقطاعاتهم (١٧). وهكذا استقر الرأى على ضرورة التخلص من آخر السلاطين الأيوبيين فى مصر وتم تنفيذ المؤامرة بأيدى أربعة من كبار أمراء المماليك البحرية منهم : الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى ، والأمير قلاون الصالحى، والأمير أقطاى الجمدار .

١٦- المقريزى، السلوك، ج١ ، ص٣٥٩ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة، ج٦ ، ص٣٧١ .

١٧- ابن تغرى بردى، المصدر السابق، ج٦ ، ص٣٥٨- ص٣٧١ .

وفي صباح يوم الاثنين ٢٧ المحرم سنة ٦٤٨هـ / ٢ مايو ١٢٥٠م كان السلطان تورانشاه يتناول طعام الإفطار، وبعد أن فرغ من طعامه في الخيمة السلطانية بفارسكور تقدم نحوه ركن الدين بيبرس وضربه بسيفه ضربة تلقاها بيده قطعت أصابعه، وجرى تورانشاه ليحتمي ببرج خشبي في معسكره على شاطئ النيل، فأضرم المتآمرون النار في البرج فنزل يجري صوب النيل والسهام تناله من كل جانب، فرمى نفسه في الماء، ولحقه أقطاي وقتله . ويقول المقريزي إنه مات « ... جريحًا غريقًا محترقًا.. »[١٨].

تبددت دماء السلطان المعظم تورانشاه مع موجات مياه نهر النيل، ومعها تبددت آخر مظاهر السلطة الأيوبية الحقيقية في مصر؛ وإن بقي لها ظل يتواري خجلاً إلى جانب الأضواء التي فرضت نفسها على مسرح التاريخ آنذاك. إذ كان الأيوبيون الأواخر قد فقدوا كافة مبررات البقاء في حكم المنطقة العربية بعد أن تخلوا عن دورهم التاريخي الذي بدأه صلاح الدين. وقد أدى فشل الأيوبيين الأواخر في الاستجابة للتحدي السياسي/ العسكري الذي أفرزه الوجود الصليبي على الأرض العربية إلى عجزهم عن البقاء على عروشهم . ونشأ عن ذلك نوع من الفراغ السياسي خرج فرسان المماليك من طياته؛ بفضل كفائتهم العسكرية من ناحية، وقدرتهم على توجيه دفة الصراع السياسي/ العسكري في المنطقة من ناحية أخرى.

لقد كانت أحداث الحملة الصليبية السابعة، التي تحدثنا عنها في الصفحات السابقة، فرصة لإظهار أهمية فرسان المماليك البحرية، كما أتاحت لهم فرصة أخرى لإدراك أهميتهم السياسية. وحين لم يجد المماليك أحداً من الرؤوس الأيوبية المتوجة في بلاد الشام يستطيع كبح جماحهم ويتولى قيادتهم ، قرروا حل مشكلة العرش على طريقتهم . وهكذا ظهر في الأفق السياسي للمنطقة مرة أخرى مبدأ «الحكم لمن غلب» الذي قال به السلطان العادل الأيوبي ذات مرة.

كانت الخطوة الأولى في هذا السبيل خطوة انتقالية ؛ إذ اختار المماليك أرملة السلطان الصالح نجم الدين أيوب، الأميرة «شجر الدُّر» لكي تجلس على عرش السلطنة بعد مصرع توران شاه . ولما كانت السيدة جارية تركية (وقيل أرمنية) اشتراها السلطان الراحل ثم

١٨- أبوشامة ، الذيل على الروضتين ، ص١٨٥ ؛ أبو الفداء ، المختصر ، ج٣ ، ص١٨١ - ص١٨٣ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج١، ص٣٥٩ .

أعتقها وتزوجها ؛ فقد اعتبرها بعض المؤرخين المعاصرين أولى سلاطين المماليك فى مصر. ويقول المؤرخ «تقى الدين المقريزى» : « ... وهذه المرأة شجر الدر، هى أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك... »[١٩].

وعلى الرغم من أن «شجر الدر» قامت بدور بطولى بعد موت زوجها السلطان الصالح نجم الدين أيوب ضد الفرنج فى الحملة الصليبية التى قادها لويس التاسع ؛ فإن الرأى العام فى مصر وفى العربى والإسلامى لم يكن ليقبل بقيام إمرأة على كرسى الحكم؛ إذ كان التراث السياسى للحضارة العربية الإسلامية قد استقر على أن يكون الحاكم رجلاً. كذلك رفض الخليفة العباسى الاعتراف بالسلطانة الجديدة ، واتسمت ردود أفعال الأيوبيين الحاكمين فى بلاد الشام بالعصبية والضيق ورفضوا الاعتراف بهذا التتويج وحاولوا القيام بعمل عسكرى للاستيلاء على مصر .

من ناحية أخرى حاولت «شجر الدر» أن تحكم باعتبارها أم ولد ونسبت نفسها إلى زوجها الراحل السلطان الصالح نجم الدين أيوب والخليفة العباسى المستعصم بالله، ونقشت على العملة عبارة «المستعصية الصالحية، ملكة المسلمين ، والدة السلطان خليل أمير المؤمنين»[٢٠]. وقبضت السلطانة الجديدة على زمام الحكم بيد من حديد مما جعل مؤرخًا معاصراً يصفها بأنها «إمرأة صعبة الخلق ، شديدة الغيرة ، ذات شهامة زائدة ، وحُرمة وافرة ، سكرانة من خمر التيه والعجب ... ». وقد وجهت شجر الدر جهودها الأولى للتخلص من بقايا الحملة الصليبية السابعة. إذ كانت الملكة الفرنسية مارجريت ، زوجة لويس التاسع، تقيم فى دمياط مع الحامية على حين كان زوجها وكبار أمرائه رهن الأسر فى دار ابن لقمان بالمنصورة، ومعهم إثنى عشر ألفا ومائة وعشرة من الأسرى الفرنج. ودارت المفاوضات التى انتهت بالاتفاق على فدية قدرها ثمانمائة ألف دينار يدفع الملك الأسير نصفها قبل رحيله ، والباقى بعد وصوله إلى عكا. وجمعت الملكة مبلغ الفدية ثم رحلت إلى عكا ومعها ابنها. وتم تسليم دمياط للمصريين فى السادس من يونيو ١٢٥٠م وفى اليوم التالى أبحر لويس التاسع إلى عكا [٢١].

١٩- المقريزى، السلوك ، ج١، ص٣٦١ .

٢٠- المقريزى ، المصدر السابق، ج١ ، ص٣٦٢ .

٢١- Joinville, The Life of St. Louis, pp. 220-264 .

من رحم هذه النهاية التعسة للحملة الصليبية السابعة ولدت دولة سلاطين المماليك لكى تحكم المنطقة العربية وتدافع عنها طوال مايزيد على مائتين وسبعين عامًا. بيد أن الفترة التى امتدت من بداية سلطنة «شجر الدر» حتى نهاية سلطنة «السلطان سيف الدين قطز» كانت هى الفترة الانتقالية فى عمر هذه الدولة ؛ كما كانت إرهاصًا بالأساس السياسى الذى قامت عليه الدولة. فقد شهدت مصرع ثلاثة من السلاطين الخمسة الذين حكموا أثناءها ، ولم ينج الإثنان الآخران من القتل سوى لأنهما كانا فى سن الطفولة . ويحسن بنا أن نتناول هذه الأحداث بإيجاز .

أخذت السلطانة «شجر الدر» تتقرب إلى الخاصة والعامة من أهل الحكم والرعية. بيد أن الرأى العام المصرى ، بتراثه السياسى والاجتماعى الذى تشكل فى إطار الحضارة العربية الإسلامية ، صدمته حقيقة أن امرأة تجلس على عرش البلاد وتوجه شئون الحكم علنا وبصورة رسمية. وهو الأمر الذى كان يناقض اتجاهات الثقافة السائدة من ناحية والنظرية السياسية الإسلامية من ناحية أخرى. وعبَّر المصريون عن غضبهم من خلال المظاهرات والاضطرابات التى استشرت فى جميع أنحاء العاصمة مما اضطر السلطات إلى إغلاق بوابات القاهرة منعًا لامتداد مشاعر السخط والغضب إلى المناطق الريفية. وكان من الطبيعى أن يعارض المتعلمون والمثقفون، الذين كانت ثقافتهم قد تكونت داخل الإطار المعرفى للحضارة العربية الإسلامية، اعتلاء شجر الدر عرش البلاد. وألقيت الخطب فى المجالس والمحافل ومن فوق منابر المساجد، كما ألفت الرسائل (وهى نوع من الكتابة فى موضوع واحد كان يشبه الأعداد الخاصة التى تصدرها الدوريات حاليًا حول موضوع يشغل الرأى العام) حول المصائب والكوارث التى يمكن أن تحل بالمسلمين إذا حكمتهم امرأة. وكتب الشيخ عز الدين بن عبد السلام، أبرز قادة الرأى فى مصر آنذاك، رسالة تعتبر مثالاً صارخًا على اتجاهات الفكر والثقافة السائدة.

من ناحية ثانية ، رفض الخليفة العباسى المستعصم بالله المساندة الشرعية لشجر الدر ، ورد على طلب التفويض الذى وصله رداً يحمل من السخرية والحسم ما أنهى حكم السلطانة بسرعة ؛ إذ جاء فى رد الخليفة « ... إن كانت الرجال قد عدمت عندكم أعلمونا حتى نُسيِّر إليكم رجلاً ... » . وهكذا أدرك أمراء المماليك والسلطانة أنهم يحاولون السباحة ضد تيار جارف لابد وأن يغرقهم فى طياته. وبعد ثمانين يومًا تنازلت شجر الدر عن الحكم لواحد من أمراء المماليك الصالحية، هو عز الدين أيبك التركمانى الصالحى الذى تولى عرش البلاد تحت اسم «السلطان الملك المعز عز الدين أيبك».

الفصل السادس

دولة ســـلاطين الممـــاليـــك

الأسـاس السيـاسى - مـرحلة الانتـقـال

من هم المماليك؟ - التربية والتدريب- العلاقات داخل المؤسسة المملوكية - الوضع السياسى والاجتماعى للمماليك- وظائف الدولة- قطز: من المملوك إلى السلطان.

«المماليك»، مصطلح فرض نفسه على تاريخ مصر والمنطقة العربية طوال فترة تزيد على ثلاثة قرون من الزمان ، لاسيما بعد أن نجح أولئك المجلوبون عبيداً فى طفولتهم فى بناء دولة إقليمية عظمى حكمت مصر والشام والحجاز بشكل مباشر ، كما فرضت نفوذها السياسى وقيادتها للمنطقة العربية ومدت سطوتها إلى كافة مستويات العلاقات السياسية والدبوماسية فى عالم البحر المتوسط والبحر الأحمر وإفريقيا على السواء؛ فمن هم المماليك؟

يشى مصطلح «المماليك» (والمفرد مملوك) بالعبودية والرق ؛ لأنه يعنى أن «المملوك» ملكية خاصة لشخص آخر. وقد كان «المماليك» من الرقيق فعلا ؛ بيد أنهم كانوا من نوع خاص من الرقيق؛ إذ كانوا يجلبون أطفالاً من أسواق النخاسة ، ثم يتم تدريبهم عسكرياً ليكونوا عدة حكام المنطقة العربية من الأيوبيين المتنافسين فى غمرة الفوضى السياسية التى أعقبت وفاة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبى . فقد كان خلفاء هذا السلطان العظيم من أصحاب العروش الصغيرة المتنافسة فى بلاد الشام ومصر والجزيرة يشترون المماليك صغاراً فى سن الطفولة من تجار الرقيق، ويعهدون بهم إلى من يعلمهم اللغة العربية ويلقنهم مبادئ الدين الإسلامى، ثم يعهد بهم إلى من يتولى تدريبهم على فنون القتال والفروسية بحيث يحققون قدراً عاليًا من الكفاءة الحربية وبحيث يضمن قدراً عاليًا من الولاء الشخصى لسيدهم؛ وبهذا يكونون قوة وسنداً له فى الصراعات والمنافسات الداخلية بين أبناء الأسرة الأيوبية. وفى زمن كان للقوة العسكرية الدور الأكبر فى حسم مصائر الحكام والمحكومين ، زادت أعداد المماليك فى جيوش الحكام الأيوبيين من جهة، كما زادت أهميتهم فى الحياة السياسية الأيوبية ودوائر الحكم فى مصر والشام من جهة أخرى.

ويعتبر السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧- ٦٤٧هـ / ١٢٤٠-١٢٤٩م) المسئول عن ازدياد نفوذ المماليك على النحو الذى أدى إلى سيطرتهم على مقاليد الحكم فى خضم التطورات التى أعقبت وفاته. ذلك أن هذا السلطان كان قد جرب الاعتماد على الجنود المرتزقة من الخوارزمية والأكراد، وعلمته التجارب أن الاعتماد عليهم غير مأمون العاقبة. ويقول المؤرخ تقى الدين المقريزى فى هذا الصدد : «... والملك الصالح هو الذى أنشأ المماليك البحرية بديار مصر ؛ وذلك أنه لما مرَّ به ما تقدم، فى الليلة التى زال عنه ملكه ، بتفرق الأمراء وغيرهم من العسكر عنه حتى لم يثبت معه سوى مماليكه، رعى لهم ذلك. فلما استولى على مملكة مصر أكثر من شراء المماليك ، وجعل معظمهم عساكره ؛ وقبض على الأمراء الذين كانوا عند أبيه وأخيه ، واعتقلهم وقطع أخبازهم، وأعطى مماليكه الإمريات فصاروا بطانته والمحيطين بدهليزه وسماهم البحرية لسكناهم معه فى قلعة الروضة على بحر النيل...»[١].

كان أولئك المماليك من عناصر عرقية مختلفة من الترك والمغول والتتار والصقالبة والأسبان والألمان والجراكسة ... وغيرهم من العبيد البيض؛ بيد أن غالبيتهم فى عصر دولة المماليك الأولى (البحرية) كانوا من بلاد القفجاق والقوقاز ، على حين كان معظمهم فى دولة المماليك الثانية من الشراكسة (الچراكسة) .

وفى خضم الصراع ضد الصليبيين الذين ضمتهم الحملة الصليبية السابعة على مصر بقيادة لويس التاسع[٢] توفى السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وقامت زوجته «شجر الدر» بإدارة شئون الحكم والحرب بمساعدة كبار أمراء المماليك. وحين تولى «توران شاه» ، ابن الصالح نجم الدين أيوب، عرش البلاد اصطدم بطموح شجر الدر من ناحية ، وبقوة المماليك ونفوذهم المتصاعد من ناحية أخرى. وانتهى الصدام بمصرعه على نحو مأساوى مروع [٣]. ثم ارتقت

١- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٣٣٩؛ قاسم عبده قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، (دار الشروق ١٩٩٤)، ص٧-٨ .

٢- أفضل دراسة مفصلة عن هذه الحملة كتبها أستاذنا المرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة ، انظر: حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة (القاهرة ١٩٦١م) ، ص١٤٥ - ص٢٠١ .

٣- يذكر المقريزى أن المعظم توران شاه مات «جريحًا حريقًا ، غريقًا »، السلوك ، ج١ ، ص٢٥٩- ص٢٦٠ . أنظر ما سبق .

العرش «شجر الدر» لتكون أولى سلاطين المماليك فى مصر والشام(٤) وهكذا قامت دولة سلاطين المماليك لتحكم قرابة ثلاثة قرون من الزمان (٦٤٨-٩٢٢هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م) ومن المهم أن نشير هنا إلى أن ظروف قيام سلطنة المماليك من جهة ، والوضع القانونى لسلاطين المماليك من جهة ثانية، قد حددت أبعاد النظرية السياسية لتلك الدولة .

وتفسير ذلك أن المفاهيم السياسية لدولة السلاطين المماليك كانت نتاجًا لظروف قيام الدولة، كما كانت من نتائج الحقيقة القائلة بأن أولئك السلاطين المماليك لم يكونوا من سلالة حاكمة، كما أن أحداً لم ينتخبهم أو يفوض إليهم أمور الحكم، فضلا عن أنهم قد «مسَّهم الرق» بحيث ينتفى عنهم شرط الحرية الذى يعتبر من أهم الشروط التى يجب أن تتوفر فى الحاكم المسلم.

هذه المفاهيم السياسية التى حكمت دولة سلاطين المماليك منذ نشأتها يمكن بلورتها فى العقيدة السياسية التى جعلت أمراء المماليك يعتقدون أن عرش السلطنة حق لهم جميعًا بلا تفرقة؛ يفوز به أقواهم وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين. هذه المفاهيم السياسية تأكدت منذ البداية وتركت بصماتها على التاريخ السياسى طوال وجود الدولة؛ إذ كان الطريق إلى العرش مفروشًا بدماء الخاسرين فى الصراع. فقد حكم خمسة من السلاطين قبل الظاهر بيبرس البندقدارى ، لقى منهم ثلاثة مصرعهم فى مؤامرات سياسة هم : السلطانة شجر الدر وزوجها السلطان عز الدين أيبك ، ثم السلطان المظفر سيف الدين قطز . ونجا الإثنان الباقيان لكونهما طفلين لايشكلان خطراً . لقد تأكد منذ البداية مبدأ «الحكم لمن غلب» أساسًا لحكم سلاطين المماليك .

وقد أدى ذلك إلى اعتماد سلاطين المماليك فى حكمهم على قوة ذات جناحين : أحدهما يتمثل فى القوة العسكرية للسلطان والتى يجسدها مماليكه : وهو ما أدى إلى ازدياد أعداد المماليك باطراد طوال عصر سلاطين المماليك . ويتمثل الجناح الثانى لقوة السلاطين فى اعتمادهم على الواجهة الدينية التى حرصوا على التخفى وراءها طوال ذلك العصر(٥).

٤- راجع الفصل الخامس.

٥- تمثلت هذه الواجهة فى إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة زمن السلطان الظاهر بيبرس والنتائج السياسية والقانونية التى نجمت عنها ، أنظر:

المقريزى، السلوك، ج١ ، ص٤٥٣- ص٤٥٧ ؛ ابن أيبك الدوادارى، الدرة الزكية فى تاريخ الدولة =

ونتيجة لهذا كان لكل من السلطان والأمراء جيش من المماليك الذين يعتمد عليهم فى تدعيم سلطته ، أو فى صراعاته ضد الآخرين. وفى ظل هذا النظام كانت أقوى الروابط بين المماليك هى رابطة «الأستاذية» ؛ وهى أشبه ما تكون بالعلاقة بين السيد الإقطاعى وأتباعه فى النظام الإقطاعى الذى عرفته بعض مناطق أوربا فى العصور الوسطى ؛ فهى علاقة بين السيد (الأستاذ) ومماليكه الذين اشتراهم وأشرف على تربيتهم وتدريبهم ، كما كان يوليهم عناية كاملة. بل إن السيد كان يتناول طعامه مع مماليكه ويحرص على مجالستهم وزيادة أواصر العلاقة بينه وبينهم لكى يضمن ولاءهم .

ونظراً للأهمية العسكرية والسياسية للمماليك كان السلطان يرسل المماليك الجدد الذين يشتريهم إلى الأطباء لفحصهم ، وبعد الإطمئنان على سلامتهم البدنية يتم تسكينهم فى المعسكرات (الطباق) حسب جنسيتهم [٦]. وفى هذا الصدد يذكر المقريزى فى خططه ما نصه « ... (هذه الطباق) عمرها الملك الناصر محمد بن قلاوون، وأسكنها المماليك السلطانية، وعمّر حارة تختص بهم، وكانت الملوك تعنى بها غاية العناية حتى إن الملك المنصور قلاوون كان يخرج فى غالب أوقاته إلى الرحبة عند استحقاق حضور الطعام للمماليك، ويأمر بعرضه عليه، ويتفقد لحمهم ويختبر طعامهم فى جودته ورداءته ؛ فإن رأى فيه غريبًا اشتد على المشرف والاستادار، ونهرهما، وحل بهما منه أى مكروه . وكان يقول : كل الملوك عملوا شيئًا يذكرون به ما بين مال وعقار، وأنا عمرت أسواراً ، وعملت حصونًا مانعة لى ولأولادى وللمسلمين ، وهم المماليك . وكانت المماليك أبداً تقيم بهذه الطباق لاتبرح فيها .. »[٧].

هذا النص يكشف عن أحد أركان المؤسسة المملوكية والعلاقات داخلها ؛ فالسلطان – وهو مملوك فى الأصل– يدرك أهمية المماليك فى حماية عرشه وأسرته ويصفهم بأنهم مثل الأسوار والحصون المانعة، كما أنهم عمل يخلد إسمه بين الملوك والحكام. ومن ناحية أخرى يكشف هذا النص عن أسباب قوة رابطة «الأستاذية» التى ربطت برابطة الولاء الشخصى بين السيد

= التركية ، ص ٧٢– ص٨٠ ؛ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، ص٩٩– ص١١٠ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، ج١ ، ص٨٧ ؛ تاريخ الخلفاء، ص٣٢٨–٣٢٧ .

٦– سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك (الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦٣) ، ص١٤ .

ومماليكه ؛ فواجبه أن يرعاهم ويغدق عليهم ويعتنى بهم، وواجبهم أن يحموه وأن يصونوا عرشه ويدافعوا عن أسرته .

بعد ذلك يحدثنا المقريزى عن حياة المماليك بهذا الطباق (الثكنات العسكرية) فيقول : «وكانت للمماليك بهذه الطباق عادات جميلة ؛ أولها أنه إذا قدم بالمملوك تاجر عرضه على السلطان ، ونزّله فى طبق جنسه، وسلمه لطواشى برسم الكتابة. فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم. وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم ويأخذ فى تعليمها كتاب الله تعالى ومعرفة الخط والتمرين بآداب الشريعة وملازمة الصلوات والأذكار. وكان الرسم إذ ذاك أن لاتجلب التجار إلا المماليك الصغار فإذا شب الواحد من المماليك، علمه الفقيه شيئًا من الفقه، وأقرأه فيه مقدمة . فإذا صار إلى سن البلوغ أخذ فى تعليمه الغاية فى معرفة ما يحتاج إليه. وإذا ركبوا إلى لعب الرمح أو رمى النشاب لايجسر جندى ولا أمير أن يحدثهم، أو يدنو منهم. فينقل (الملوك) حينئذ إلى الخدمة وينتقل فى أطوارها رتبة بعد رتبة إلى أن يصير من الأمراء، فلايبلغ هذه الرتبة إلا وقد تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه، وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه واشتد ساعده فى رماية النشاب، وحسنُ لعبه بالرمح ، ومَرِن على ركوب الخيل . ومنهم من يصير فى رتبة فقيه عارف ، أو أديب شاعر، وحاسب ماهر. هذا ولهم أزمّة من الخدام وأكابر من رؤوس النوب يفحصون عن حال الواحد منهم الفحص الشافى، ويؤاخذونه أشد المؤاخذة، يناقشونه على حركاته وسكناته ، فإن عثر أحد من مؤدبيه الذى يعلمه القرآن، أو الطواشى الذى هو مسلم إليه، أو رأس النوبة الذى هو حاكم عليه، على أنه اقترف ذنبًا أو أخل برسم، أو ترك أدبًا من آداب الدين أو الدنيا ، قابله على ذلك بعقوبة مؤلمة شديدة يقدر جرمه ...»(٨).

هذا النص الذى أورده تقى الدين المقريزى يبين مراحل تربية المماليك وتدريبهم فى الفترة الباكرة من عمر دولة سلاطين المماليك ؛ وهو نظام يتسم بالصرامة والدقة الشديدة. إذ كان المماليك يجلبون صغاراً حتى يمكن تربيتهم وتدريبهم بسهولة (٩)، وكان توزيعهم فى الثكنات

٨- المصدر السابق، ج٢، ص٢١٣- ص٢١٤ .

٩- كان هذا النظام ساريًا حتى نهاية دولة المماليك البحرية وبداية عصر الجراكسة بسلطنة الظاهر برقوق فى بدايات القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى. وبدأ جلب المماليك من الرجال «... الذى كانوا فى بلادهم ما بين ملاح سفينة ، وقاد فى تنور خباز، ومحوّل ماء فى غيط أشجار ونحو ذلك. واستقر =

العسكرية بالقلعة يتم حسب جنسياتهم . ثم بعد ذلك يتولى الفقهاء تعليمهم أصول الدين الإسلامى ومبادئ اللغة العربية وأركان الشريعة حتى إذا ما تخطى الواحد منهم سن الطفولة بدأ تدريباته العسكرية على النحو الذى أوضحه المقريزى وغيره (١٠). فإذا ما أتم المملوك تدريبه صار من الفرسان ويتم منحه إقطاعًا من الأرض الزراعية فى احتفال كبير بموكب سلطانى يطوف شوارع القاهرة ثم يقوم الفارس بأداء يمين الولاء لسيده (١١).

على أية حال، فإن هذا النظام الصارم فى تربية المماليك نتجت عنه نتيجتان غاية فى الأهمية من حيث تأثيرهما على طبيعة الكيان السياسى لدولة سلاطين المماليك؛ أولاهما: أن الجمع بين التربية الدينية والتدريب العسكرى جعلا المماليك فى الفترة الأولى من ذلك العصر يتميزون بالحماسة والغيرة على البلاد والمقدسات الإسلامية؛ وهو الأمر الذى تجلى واضحًا فى موقف السلطان المظفر سيف الدين قطز ورفاقه من كبار أمراء المماليك من الغزو والتهديد التترى ضد العالم الإسلامى. والنتيجة الثانية تمثلت فى أن رابطة الخشداشية (أى الزمالة) التى كانت تربط بين المماليك كانت من أقوى الروابط القائمة على الولاء الشخصى فى الدولة. وتفسير ذلك أن هؤلاء الذين جلبوا أطفالاً ، ثم عزلوا عن المجتمع فى معسكرات صارمة القوانين، وعاشوا حياتهم الباكرة حتى سن الشباب سويًا ، لم يكونوا يجدون الأمان والطمأنينة سوى مع بعضهم البعض . ولهذا تميزت الفرق المملوكية بالطائفية القائمة على الولاء الشخصى. فالمماليك كانوا عادة ينسبون إلى السلطان الذى اشتراهم ؛ فالمماليك «الظاهرية» مثلا نسبة إلى الظاهر بيبرس، و«المعزية» نسبة إلى المعز أيبك، و«الناصرية» نسبة إلى

= رأى الناصر فرج بن برقوق على أن تسليم المماليك للفقيه يتلفهم ، بل يتركون وشأنهم ، فبدلت الأرض غير الأرض ، وصارت المماليك السلطانية أرذل الناس وأخسّهم قدراً، وأشحهم نفسًا ، وأجهلهم بأمر الدنيا، وأكثر إعراضًا عن الدين، ما فيهم إلا ما هو أزنى من قرد ، وألص من فأرة ، وأفسد من ذئب ...»

الخطط ، ج٢ ، ص٢١٤ . وعن تأثير ذلك على مصير دولة سلاطين المماليك أنظر: قاسم، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص١٧ وما بعدها.

١٠- انظر ما كتبه ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج٨ ، ص٢٣٨ ، ج٩ ، ص٧٣ ، ص٩٨ حول سلطة الطواشية على المماليك فى الطباق ومهابتهم - قارن : سعيد عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، ص١٤ - ص١٥ ، العمرى ، التعريف بالمصطلح الشريف ، ص١٤٦؛ عاشور ، المجتمع المصرى، ص١٩ ؛ قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، ص١٤ .

١١- عاشور ، المرجع السابق ، ص١٩ .

الناصر محمد بن قلاون ... وهكذا . ومن ناحية أخرى، أدى هذا إلى زيادة نسبة الصراعات الدموية فى سبيل الوصول إلى الحكم، وكان قطز ضحية انتمائه للمماليك المعزية من جهة ، وانتقام بيبرس لمصرع فارس الدين أقطاى والهوان الذى حل بالمماليك البحرية الصالحية من جهة أخرى .

بيد أن أهم نتائج هذه التربية المملوكية تجسدت فى الإحساس المتبادل بين المماليك والرعية فى مصر والشام بأن المماليك أغراب يحكمون البلاد على أساس من التفويض الشرعى(١٢) . وانعكس هذا التناقض على العلاقة بين الجانبين. فقد تركزت وظائف الحكم والإدارة العليا فى أيدى المماليك، كما امتلكوا زمام السلطة السياسية مما جعلهم يتصرفون باعتبارهم أقلية عسكرية تحكم على أساس من القوة والغلبة وتنأى بنفسها عن المشاركة فى حياة الرعية سوى من خلال المواكب السلطانية والأعياد والاحتفالات الدينية والعامة. كما أن المصريين ، من جهة أخرى، لم يروا فى المماليك سوى طائفة من الغرباء الذين يحكمونهم بتفويض من الخليفة العباسى فى القاهرة . ويغلب علىَّ الظن بأن مشاعر الرعية فى مصر وبلاد الشام تجاه المماليك كانت مزيجًا من الكراهية السياسية، والعداء الاجتماعى، والولاء الدينى بفضل الواجهة الدينية التى جعلت من المماليك حكامًا شرعيين مفوضين من الخليفة الذى كان دوره قاصراً على إسباغ الشرعية على حكم سلاطين المماليك، ولم يكن له من الخلافة سوى اللقب(١٣) .

واستمرت جموع المماليك الذين كان تجار الرقيق يجلبوهم من شتى بقاع الدنيا تغذى المؤسسة المملوكية بالعناصر البشرية من ناحية، وتغذى المشاعر الإنعزالية فى نفوس أبناء هذه المؤسسة من ناحية أخرى. وكانت هذه الطبقة تقوى نفسها دائمًا بما يجلبه تجار الرقيق إلى البلاد . وعلى أية حال ، كان لفرسان المماليك- وحدهم- حق الحكم فى مصر وبلاد الشام بناء على أنهم تحملوا عبء الدفاع عن البلاد ضد الأخطار الخارجية ، كما تولوا حماية عرش السلطان القائم ضد المطامع الداخلية . وقد استأثروا بالمراتب العليا فى الجيش والإدارة .

١٢- أنظر نص وثيقة تفويض الخليفة العباسى للسلطان الظاهر بيبرس فى : المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١ ، ص٤٥٣- ص٤٥٧ . انظر المناقشة الموسعة للموضوع : قاسم عبده قاسم، الأيوبيين والمماليك- التاريخ السياسى والعسكرى (عين للدراسات والبحوث ، ١٩٩٥م) ص١٥٠-١٥٣ .

١٣- ابن الصيرفى ، إنباء الهصر بأنباء العصر، (تحقيق الدكتور حسن حبشى، القاهرة ١٩٧٠م)، ص١١٥ .

وكـان السـلاطين يرون فى المـاليك حصـونهـم وأسوارهم المانعـة على حد تعـبـير السلطان المنصور قلاون فى النص الذى نقلناه عن المقريزى. ولذلك بلغت أعداد المماليك السلطانيـة أيام هذا السلطان (٦٧٨-٦٨٩هـ/ ١٢٧٩-١٢٩٠م) سـتـة آلاف وسـبـعـمـائـة مملوك، وأراد ابنه الأشرف خليل أن يكمل عددهم عشرة آلاف، كما اشتهر السلطان الناصر محمد بن قلاون بحبه لشـراء المـاليك « ... من بلاد أزبك وبلاد توريز وبلاد الروم وبغـداد . وبعث فى طلبـهم وبذل الرغائب للتجار فى حملهم إليه، ودفع فيهم الأموال العظيمة، ثم أفاض على من يشتريه منهم أنواع العطاء من عامة الأصناف دفعه واحدة فى يوم واحد... »[١٤] وكـان من الممكن أن تصل مشتروات السلطان فى عصر المـاليك البحرية إلى حوالى ثمانمائة مملوك، على حين أن عدد المماليك الذين كان يشتريهم السلاطين بعد النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى (ق ١٥م) لم تزد عن مـائتين أو ثلاثمـائة مملوك[١٥] بسبب التـدهور العـام الذى أصاب دولة المـماليك آنذاك.

كان مماليك السلطان يعسكرون بالقاهرة حيث تكون القوة الرئيسـية فى الجيش المملوكى، كما كانت أعداد أولئك المماليك السلطانيـة تتزايد حين يُضم إليهم مماليك السلاطين السابقين، أو مماليك الأمراء الذين يغضب عليهم السلطان . أمـا العـلاقـة بين السلطان ومماليكه الذين اشتراهم وأشرف على تربيتهم فعادة ما تكون أقوى من العلاقة بينه وبين غيرهم من المماليك. ولأن المماليك السلطانيـة كانت بمثابة الحرس السلطانى الخاص، كان السـلاطين يولونـهم عناية فائقة فى التعليم والتدريب على نحو ما أوضحنا . كذلك كان السـلاطين يختارون لمماليكهم أعلى الوظائف قدراً وأكبرها إقطاعًا؛ سواء فى دوائر البلاط أو فى إدارات الجهاز الحكومى. وفى البـداية كـان السلطان يقرر راتبًا نقديًا وعينيًا (من اللحوم والتـوابل والخبز والأعلاف والزيت وغيرها) لكل مملوك من مماليكه فى كل شـهر . وبعد أن يدخل الفارسى المملوكى فى زمرة الأمراء أصحاب الإقطاعات يمنحه السلطان إقطاعًا من الأرض الزراعية تزداد مساحته زيادة طردية مع صعود الأمير المملوكى وترقيه فى سلم الرتب العسكرية المملوكية[١٦].

١٤- المقريزى ، الخطط ، ج١ ، ص٢١٤ .

١٥- Ashtor E ., A Social and Economic History of the Near in the Middle Ages, (Collins , London 1976), p. 282 .

١٦- قاسم، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، ص١٤ .

أما الأمراء الكبار ، من ولاة الأقاليم وأصحاب الوظائف الكبرى. فكانت لهم جيوش صغيرة من المماليك تتراوح أعدادهم ما بين ثلاثمائة مملوك وثمانمائة مملوك. وتلك الجيوش كانت تشكل القسم الثانى من الجيش المملوكى العام؛ ولكنها غالبًا ما كانت تعسكر خارج القاهرة. وكان القسم الثالث من الجيش يتألف من أجناد الحلقة[١٧].

وقد احتكر الأمراء المماليك الرتب العسكرية ووظائف الإدارة العليا؛ فكانت أعلى درجات الأمراء العسكرية «أمير مائة مقدم ألف»، ثم يليه أمير طبلخاناه (أى يدق على أبوابه ثلاثة طبول ونفيران) وبعد ذلك رتبة أميرة عشرة، ثم رتبة أمير خمسة . وفى ذلك يقول القلقشندى: «واعلم أن كل أمير من أمراء المئين أو الطبلخانات سلطان مختصر فى غالب أحواله ... وتوصف البيوت فى دواوين الأمراء بالكريمة ، فيقال البيوت الكريمة ، كما يقال فى بيوت السلطان البيوت الشريفة»[١٨]. وتفسير هذا النص أن الوضع السياسى للأمراء المماليك كان ممتازاً بحيث كان كل منهم يشبه السلطان من حيث ما يتمتع به من مزايا ، وتمثل الفارق الوحيد بين السلطان والأمراء فى حجم الامتيازات من ناحية ، وفى خضوع الأمراء أنفسهم للسلطان من ناحية أخرى.

وكان طبيعيًا أن تكون وظائف الدولة حكراً على أمراء المماليك . وهنا ينبغى أن نشير إلى حقيقة أن نظام الحكم المملوكى فى مصر وبلاد الشام كان نظامًا طبقيًا فى علاقاته واتجاهاته . فقد قسم المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون المجتمع فى مصر فى عصر سلاطين المماليك إلى «سلطان ورعية»[١٩] وهو ما يصدق فى تقديرنا على بلاد الشام أيضًا. والراجح أن ابن خلدون يقصد «بالسلطان» الجهاز لمملوكى الحاكم والفئات التى تدور فى فلكه من المصريين، أما «الرعية» التى قصدها ابن خلدون فهم المصريون بجميع فئاتهم وطوائفهم. ولم تكن العلاقة بين السلطان والرعية قائمة على أساس من الحقوق والواجبات المتبادلة لأن ذلك كان أبعد ما يكون

١٧- هم المقاتلون الأحرار من أبناء المماليك الذين عرفوا باسم «أولاد الناس» فى مصطلح ذلك العصر، ومن البدو والتركمان وبعض فئات المصريين . أنظر:

ابن الصيرفى، إنباء الهصر ، صفحات ٢٣-٢٤، ٣٣-٣٤ ، ٤٣ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج٣ ، ص٢٠ ، ص٢٢ ، ص٢٣ ، ص٣٧ ،

١٨- القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ج٤ ، ص٦١-٦٣ .

١٩- ابن خلدون، المقدمة، ص١٨٣ .

عن مفاهيم أولئك الحكام المجلوبين عبيداً فى طفولتهم. وفى تصورنا أن المجتمع المصرى والمجتمع الشامى فى عصر سلاطين المماليك كانا مجتمعين يقومان على بناء طبقى حاد؛ فثمة طبقة من الحكام العسكريين لهم كافة الحقوق والامتيازات ولهم حق الإدارة والحكم فضلاً عن أن الموارد العامة (من الأراضى الزراعية والمراعى والمصايد والغابات والأحراش والمسطحات المائية) كانت بحوزتهم بحكم القوانين الإقطاعية التى نظمت العلاقات داخل الكيان الإقطاعى العسكرى الذى جسدته دولة سلاطين المماليك .

وقد ذكر القلقشندى الوظائف الكبرى فى دولة المماليك تحت عنوان دال ، وقسمهم إلى أربعة أقسام؛ إذ قال تحت عنوان «فى ذكر أعيان المملكة وأرباب المناصب الذين بهم انتظام المملكة وقيام الملك» إنهم أرباب السيوف (أى العسكريون من فرسان المماليك) وهم الأمراء الذى قسمهم إلى [٢٠]:

١- أمراء المئين مقدمو الألوف ، وعدة كل منهم مائة فارس؛ أى أن كلا منهم يحق له أن يكون جيشًا من مماليكه فى حدود مائة فارس من الفرسان ثقيلى العدة ، وربما زاد على ذلك عشرة أو عشرين فارسًا. ومن ناحية أخرى يكون له حق قيادة ألف فارس- من غير مماليكه - ممن هم دونه من الأمراء على نحو ما يذكر العمرى [٢١]. وأصحاب هذه الرتبة من الأمراء هم أعلى أمراء المماليك قدراً ، ومنهم يكون أصحاب الوظائف الكبرى ونواب السلطان.

٢- أمراء الطبلخاناه[٢٢] وعدة كل منهم فى الغالب أربعين فارسًا. ويذكر العمرى فى «مسالك الأبصار» أنه ربما كان من حق أمير الطبلخاناه أن يزيد عدد فرسانه إلى سبعين

٢٠- القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج٤ ، ص١٤ - ص٣٧ .

٢١- ابن فضل الله العمرى، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار- ممالك مصر والشام والحجاز واليمن ، (تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٨٥) ص٢٧- ص٢٨ .

٢٢- الطبلخاناه كلمة فارسية من جزئين ؛ طبل وخاناه ، ومعناه بيت الطبل ويقصد به الطبول والأبواق التى تدق على أبواب الأمراء ذوى الرتب العالية.

ويتولى أمرها أمير عشرة يكون مسئولاً عنها فى المخازن وفى السفر والحرب وتحت يديه عدد من ضاربى الطبول ونافخى النفير (البوق) وضاربى الصنوج النحاس وغيرهم . ويكون من حق أمراء المئين والأمراء الذين يحق لهم تكوين فرقة من أربعين فارسًا أن يكون لديهم طبلخاناه .

انظر القلقشندى ، صبح الأعشى، ج٤ ، ص١٣ .

أو ثمانين فارسًا[٢٣]، ولكن هذه الرتبة لاتعطى أبداً لأقل من أربعين فارسًا. ومن هذه الطائفة من الأمراء تكون الرتبة الثانية من أرباب الوظائف والكشاف بالأقاليم ، وأكابر الولاة حسبما يقول القلقشندى.

٣- أمراء العشرات ، ويكون لكل منهم إمرة عشرة من فرسان المماليك . وربما كان للواحد منهم عشرون فارسًا ولكنه يظل من أمراء العشرات. ومن هذه الفئة يكون صغار الولاة ومن كان مثلهم من أرباب الوظائف الصغرى .

٤- أمراء الخمسات ، وكانوا قلة خصوصًا في مصر، وربما كان أكثرهم من أولاد الأمراء الذين توفوا ومنُح الأبناء هذه الرتبة رعاية لآبائهم .

وهناك نص هام للعمرى[٢٤] عن الإقطاعات التى كانت تمنح لهؤلاء الأمراء من أرباب السيوف لقاء قيامهم بواجباتهم الوظيفية، يقول العمرى «ويبلغ بمصر إقطاع بعض أكابر الأمراء المقربين من السلطان مائتى ألف دينار جيشية ، وربما زادت على ذلك. وأما غيرهم فدون ذلك ودون دونه إلى ثمانين ألف دينار وحولها. وأما الطبلخانات فتبلغ الثلاثين ألف دينار وما يزيد ، وينقص عليها إلى ثلاثة وعشرين ألف دينار. أما العشرات فنهايتها سبعة آلاف دينار إلى ما دون ذلك . وأما إقطاعات جند الحلقة فمنه ما يبلغ الألف وخمسمائة دينار. ومن هذا المقدار وما حوله إقطاعات أعيان الحلقة المقدمين عليهم، ثم ما دون ذلك إلى مائتين وخمسين ديناراً. وأما إقطاعات جند الأمراء فإلى مايراه الأمير من زيادة بينهم ونقص.

«وأما إقطاعات الشام فلا تقارب هذا المقدار، بل تكون على الثلثين منها، خلا ما ذكرناه عن بعض أكابر أمراء المئين المقربين ...»[٢٥].

هذا النص الهام الذى نقلناه عن العمرى، بالإضافة إلى ما ذكرته المصادر التاريخية الأخرى[٢٦]، يوضح بجلاء أن المماليك ، بوصفهم الطبقة العسكرية الحاكمة، قد استأثروا

٢٣- العمرى، مسالك الأبصار، ص٢٨ .

٢٤- نفسه.

٢٥- نفسه، ص٢٩ .

٢٦- القلقشندى، صبح الأعشى، ج٤، ص٥٠ ؛ السيوطى، حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى ١٩٦٨م / ١٣٨٧هـ) ، ج٢، ص١٣٠- ١٣٤ ؛ المقريزى، الخطط ، ج٢ ، ص٢١٦ .

بوظائف القيادة فى الجيش، كما اختصوا أنفسهم بوظائف الإدارة العليا والوسطى والصغرى. ولما كانت الدولة قائمة على أساس من البناء الإقطاعى العسكرى؛ فقد تمتع أمراء المماليك وفرسانهم بكل ما يرتبط بالوظائف التى تولوها من مميزات مالية وعينية على النحو الذى اتفقت عليه مصادر عصر سلاطين المماليك.

وفى فلك هذه الطبقة العسكرية الحاكمة كان يدور بعض أهالى البلاد من المصريين والشوام الذين ارتبطوا بالمماليك بحكم خبراتهم المالية والإدارية المتوارثة . أولئك هم «أرباب الأقلام» من أصحاب الوظائف الديوانية الإدارية والقضائية . ولما كانت العلوم الدينية أساس التعليم فى تلك العصور، فقد كان أولئك النفر من المصريين والشوام من الفقهاء والعلماء على نحو خاص ، وهو ما جعل بعض مصادر عصر سلاطين المماليك تطلق عليهم مصطلح «المتعممون» أو «أهل العمامة»[٢٧] والواقع أن أبناء هذه الطائفة قد لعبوا دوراً هامًا فى مساندة سلاطين المماليك وحرصوا ، بشكل عام ، على تأكيد ولائهم للسلطان المملوكى الحاكم ؛ إذ كان من المعتاد آنذاك أن يصعد كبار القضاة والفقهاء مع بداية كل شهر لتهنئة السلطان بالشهر الجديد[٢٨]. وتشهد تلك الطائفة الكبيرة من الفتاوى التى وصلتنا من عصر سلاطين المماليك على أن السلاطين اعتمدوا كثيراً على هذه الفتاوى فى كافة تصرفاتهم السياسية والاقتصادية والمالية والإدارية [٢٩].

وهنا ينبغى أن نشير إلى أن سلاطين المماليك كانوا يقربون «أهل العمامة» إليهم ضمن سياسة الاهتمام بالمظهر الدينى التى حرصوا عليها . وسواء كان «أهل العمامة» من الفقهاء والقضاة يعملون فى الوظائف التى عينهم السلاطين فيها، أو كانوا يقومون بالتدريس فى مختلف المدارس المنتشرة فى أرجاء البلاد؛ فقد كان عليهم أن يتعاونوا مع المماليك . وكان كبار الفقهاء والقضاة يتقاضون مرتبات نقدية وعينية من السلطات ، ونعموا بمظاهر الحياة الناعمة المترفة كما كانوا يترددون على مجالس السلاطين والأمراء. أما صغار أهل العمامة فكانوا من ضمن الرعية التى حدثنا عنها عبد الرحمن بن خلدون .

٢٧- القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٤١- ص٤٢ .

٢٨- ابن الصيرفى، إنباء الهصر بأنباء العصر، ص٨- ص٩ ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٣، ص٢٤ .

٢٩- مجموعة وثائق دير سانت كاترين أرقام ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ . انظر أيضًا : المقريزى، السلوك ، ج٤ ، ص١١٨٩- ص١١٩٠ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج١٥ ، ص٣٣٨ .

هذه هى الطبقة الحاكمة فى عصر سلاطين المماليك، والفئات التى كانت تعيش فى جوارها وتدور فى فلكها من كبار الموظفين فى الجهاز الحاكم. أما الرعية فكانت تشمل بقية فئات الناس فى مصر والشام أثناء تلك الفترة.

وإذا كنا قد عرضنا للمؤسسة المملوكية؛ من حيث تربية المماليك وتدريبهم والعلاقات بين الزملاء فى رابطة الزمالة أو «الخشداشية» ، ثم العلاقة بين السيد ومماليكه داخل إطار رابطة «الأستاذية» ، وانتقلنا بعد ذلك لمناقشة مسألة الرتب العسكرية ووظائف الإدارة العليا وامتيازاتها- فإن هذا كله كان بقصد كشف الإطار الذى تدرج فيه سيف الدين قطز من مرتبة المملوك إلى عرش السلطان.

مثل غيره من المماليك الذين ارتقوا عرش السلطنة، تبدو السيرة الباكرة لسيف الدين قطز غامضة ضبابية. وتدور روايات مختلفة حول أصل ذلك المملوك الذى انتقل من إسار الرق إلى عرش سلطنة المماليك فى مصر والشام، والذى خرج من صفوف العبيد المعروضين فى سوق النخاسة ليقود صفوف المقاتلين ضد التتار فى عين جالوت ويلحق بهم هزيمة أطفأت نارهم التى كانت قد أحرقت مشرق العالم الإسلامى وأكل لهيبها خلافة المسلمين فى بغداد ودمرها شر تدمير . وربما يكون مناسبًا أن نعرض لروايات مختلف المؤرخين حول أصول المملوك قطز.

يقول المؤرخ ابن أيبك الدواداري [٣١]: « ... لما كان قطز فى رق ابن الزعيم بدمشق بالقصاعين اتفق أن أستاذه غضب عليه يومًا لشئ جرى منه فلطمه على وجهه، ولعن والديه وأباه وجده . ثم إنه جلس يبكى وينتحب ، وزاد فى بكائه عن حد القياس. وحضر الطعام فامتنع عن الأكل ، وظل طول اليوم يبكى. (وقال ابن أبى الفوارس الجزرى صاحب هذه الرواية) ثم إن أستاذه ركب إلىّ وضيّفته ، وكان قطز عنده عزيزاً بخلاف غيره من مماليكه ، فأوصى عليه الحاج على الفراش؛ وكان الحاج علىّ كبيراً فى بيت ابن الزعيم، فقال : «يا حاج استوصى بهذا المملوك ، ولاطفه ، وخذ بخاطره ، واطعمه ، واسقيه «قال الحاج على : فأتيته وهو يبكى بعد ركوب أستاذه . فقلت له : «ما هذا البكا العظيم، من لطشة تعمل هذه العمايل؟ فلو وقع فيك جرح سيف أو نشاب كيف كنت تصنع ؟ فقال : «والله يا حاج ما بكائى وغيظى من لطشة ، فإن السيوف والله ما تعمل فىّ، وإنما غيظى على لعنته لوالدى وأبى وجدى، وهم والله أخير من آبائه وجدوده » فقلت له : «ومن هو أبوك أنت، ومن جدك ،

٣٠- ابن حجر العسقلانى، إنباء الغُمر بأنباء العمر، ج٢ (تحقيق الدكتور حسن حبشى) ص٢٥٩ .

٣١- ابن أيبك الدوادارى ، الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية، ص٣٩-٤٠ .

وأنت مملوك تركي كافر ابن كافر » فقال : «لاتقل كذا يا حاج والله ما أنا إلامسلم ابن مسلم ابن مسلم إلى عشر جدود. أنا محمود بن ممدود ابن أخت خوارزم شاه السلجوقي ، ولابد ما أملك مصر وأكسر التتار «قال الحاج علي فضحكت من قوله وطايبته. وتقلبت الأحوال إلى أن ملك مصر وكسر التتار، ودخل قطز دمشق وطلبني، فأحضرني وأعطاني خمسمائة دينار، ورتب لي راتب جيد، رحمه الله.. ».

هذه هي الرواية الأولى عن أصل قطز ؛ وهي رواية أوردها مؤرخ من أصل مملوكي عارف بالكثير من خبايا المماليك. وعلى الرغم من النبوءة التى تحملها الرواية (وهي نبوءة كتبت بأثر رجعي أي بعد الأحداث وليس قبلها) فإن الرواية تنسب قطز إلى أسرة إسلامية حاكمة هي أسرة السلطان جلال الدين خوارزم شاه الذى استطاع التصدى للمغول واسترد منهم مدن «قُم» و «قاشان» و«همدان» في بلاد فارس . وكان هو الوحيد القادر على التصدى للتار آنذاك لولا أن الخليفة العباسى الناصر لدين الله (ت ٦٢٢هـ) استعان بالتتار ضده ، وارتكب ذلك الخطأ القاتل الذى يرتكبه عادة الحكام الذين تعميهم أحقادهم وأطماعهم الصغيرة عن رؤية الواقع السياسى . فقد قضى التتار سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م على مملكة جلال الدين خوارزم شاه التى كانت تقع فى إقليم كرمان الحالى في جنوب جمهورية إيران الإسلامية واختفى السلطان هربًا من سيوف التتار[٣٢].

على أية حال ، فإن المؤرخ أبا المحاسن يوسف بن تغرى بردى[٣٣] كرر الرواية نفسها نقلاً عن المصدر نفسه كما ذكر رواية أخرى هذا نصها : «قال ابن الجزرى فى تاريخه: حدثنى أبى قال حدثنى أبوبكر بن الدُريهم الإسعردى والزكى إبراهيم أستاذ الفارس أقطاى قالا: كنا عند سيف الدين قطز لما تسلطن أستاذه المعز أيبك التركمانى ، فأمر قطز بالقعود، ثم أمر المُنَجِّم فضرب الرمل، ثم قال قطز اضرب لمن يملك بعد أستاذى المعز أيبك، ومن يكسر التتار، فضرب وبقى زمانًا يحسب ، فقال : يطلع معى خمسُ حروف بلا نقط . فقال له قطز : لم لا تقول محمود بن ممدود، فقال : يا خوند لاينفع غير هذا الاسم، فقال أنا هو ، أنا محمود بن

٣٢- المقريزى، السلوك، ج١ ، ص١٨٥ ، ص٢٠٥ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بني أيوب، ج٤، (تحقيق د. حسنين ربيع ١٩٧٢م) ، ص٣١٤-٣٢٩ حيث ذكر أن التتار قتلوا جلال الدين خوارزم شاه ، انظر أيضًا :

Claude Cahen, " The Mongols and the Near East", in Setton (ed.), A History of the Crusades, vol . II, pp. 615-716 .

٣٣- ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧ ، ص٨٤ ، ص٨٥ .

محمود، وأنا أكسر التتار وآخذ بثأر خالي خوارزم شاه، فتعجبنا من كلامه ، وقلنا ياخوند يكون هذا هذا إن شاء الله، فقال : اكتموا ذلك، وأعطى المنجم ثلاثمائة درهم»(٣٤).

هذه هي الرواية الثانية في اتجاه تأكيد نسبة قطز إلى بيت خوارزم شاه في بلاد فارس. بيد أن المؤرخ نفسه يورد رواية تحمل النبوءة بسلطنة بيبرس ولكنها لاتشير إلى انتسابه إلى بيت ملكي. ومؤداها أن أحد أمراء المماليك واسمه «حسام الدين البركة خان » ذكر أن قطز كان مملوكًا لأحد الأمراء زمن السلطان الكامل الأيوبي وكان خشداشه (زميله) حسام الدين هذا الذي تنسب الرواية إليه أنه قال : «... والله هذا قطز خشداشي ، كنت أنا وإياه عند الهيجاري من أمراء مصر ونحن صبيان ، وكان عليه قمل كثير، فكنت أسرح رأسه على أنني كلما أخذت منه قملة أخذت منه فلسًا أو صفعته ، ثم قلت في غضون ذلك: والله ما اشتهي إلا أن يرزقني الله إمرة خمسين فارسًا ، فقال لي : طيّب قلبك ، أنا أعطيك إمرة خمسين فارسًا ، فصفعته وقلت : أنت تعطيني إمرة خمسين ! قال: نعم فصفعته ، فقال لي : وألك علة ! إيش يلزم لك إلا إمرة خمسين فارسًا !! أنا والله أعطيك ، قلت : ويلك كيف تعطيني؟ قال: أن أملك الديار المصرية وأكسر التتار وأعطيك الذي طلبت ، قلت : ويلك أنت مجنون ؟ أنت بقَمْلِك تملك الديار المصرية وتكسر التتار؟ قال : نعم رأيت النبي ﷺ في المنام قال لي : أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار ، وقول النبي ﷺ حق لاشك فيه، قال فسكتُّ وكنت أعرف منه الصدق في حديثه وعدم الكذب... »(٣٥).

وثمة رواية أخرى تحمل نبوءة بتولي قطز عرش مصر نقلها ابن تغري بردي عن القطب اليونيني في تاريخه الذي ذيّله على كتاب مرآة الزمان نصُّها : «حكى لي عز الدين محمد بن أبي الهيجاء ما معناه : أن سيف الدين بُلغاق حدثه أن الأمير بدر الدين بكتوت الأتابكي حكى لي قال : كنت أنا والملك المظفر قطز والملك الظاهر بيبرس- رحمهما الله تعالى - في حال الصبا كثيراً ما نكون مجتمعين في ركوبنا وغير ذلك ، فاتفق أن رأينا منجمًا في بعض الطريق بالديار المصرية، فقال له الملك المظفر قطز : أبصر نجمي ، فضرب بالرمل وحسب وقال: أنت تملك هذه البلاد وتكسر التتار. فشرعنا نهزأ به، ثم قال له الملك الظاهر بيبرس: أبصر نجمي ، فقال : وأنت أيضًا تملك الديار المصرية وغيرها ، تزايد استهزاؤنا به ، ثم قال لي : لابد أن تبصر ، فقلت له : أبصر نجمي، فحسب وقال: أنت تخلص لك إمرة مائة فارس،

٣٤- نفسه ، جـ٧ ، ص٨٥ - ٨٦ .

٣٥- نفسه، ج٧، ص٨٧ - ص٨٨ ؛ قارن : ابن أيبك الدواداري ، الدرة الزكية، ص٤١-٤٢ .

يعطيك هذا، وأشار إلى الملك الظاهر، فاتفق أن وقع الأمر كما قال، ولم يخرم منه شئ، وهذا من عجب الاتفاق»[٣٦].

هذه الرواية نفسها وردت عند ابن أيبك الدواداری[٣٧] إلا أنه زاد عليها نبوءة قتل قطز على يد بيبرس.

نحن، إذن أمام روايات تتحدث عن أصل «المملوك» قطز، وأخرى تتحدث عن النبوءة التى تنبأت باعتلائه العرش. هذا النمط من «النبوءة بأثر رجعى» متواتر فى مصادر عصر سلاطين المماليك بالنسبة لأولئك السلاطين الذين أنجزوا أعمالاً كبرى فى خدمة الأمة الإسلامية مثل سيف الدين قطز والظاهر بيبرس. هذه النبوءة، فيما أزعم، أقرب إلى الأدب الشعبى منها إلى التاريخ؛ فالناظر فى السيرة الشعبية للظاهر بيبرس سيجد النبوءة تتكرر بأشكال مختلفة تبشر بأن هذا الصبى سيكون صاحب عرش مصر وبلاد الشام. بيد أن ما يهمنا هنا هو التأكيد على أن «المملوك» قطز هذا كان من الخوارزمية، وتروى المصادر التاريخية أن اسمه الأصلى «محمود بن ممدود»، وأنه ابن أخت جلال الدين خوارزم شاه الذى قضى التتار على مملكته، وكان «قطز» من بين الأطفال الذين حملهم التتار إلى دمشق وباعوهم إلى تجار الرقيق. ومضت سيرة حياته داخل الإطار العام لحياة المماليك كما أوضحناها. ومعنى كلمة «قطز» الكلب الشرس، وهى كلمة مغولية أطلقها عليه من اختطفوه وباعوه، وربما يكون تجار الرقيق هم الذين أعطوه هذا الاسم.

هذه هى بداية المملوك، ويحسن بنا أن نتابع سيرته حتى جلوسه على عرش السلطان. يتضح من رواية مصادرنا التاريخية أن قطز كان مملوكًا فى دمشق ضمن مماليك ابن الزعيم، كما يتضح أنه مرَّ بالمراحل التى كان يمر بها أى مملوك فى تلك الفترة الباكرة من تاريخ دولة سلاطين المماليك. وقد ترقى فى الخدمة حتى صار أكبر مماليك الملك المعز أيبك التركمانى[٣٨]. وربما يكون أول ظهور له على صفحات التاريخ ما ذكرته المصادر عن اشتراكه فى قتل فارس الدين أقطاى الذى كان عز الدين أيبك التركمانى قد أعد المؤامرة للتخلص منه[٣٩]. وبعد ذلك

٣٦- نفسه، ج٧ ، ص٨٩ .

٣٧- ابن أيبك الدواداری ، الدرة الزكية، ص٤٣ .

٣٨- ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٨٤ .

٣٩- تخلص المعز أيبك من غريمه فارس الدين أقطاى الذى كان زعيمًا للمماليك البحرية، والذى بالغ فى =

بدأ قطز يشق طريقه على الطريقة المملوكية صوب العرش الذى جلس عليه سيده عز الدين أيبك.

كان مقتل فارس الدين أقطاى بمثابة علامة البداية لمسيرة قطز نحو عرش السلطنة من ناحية، كما كان إيذانًا بانقسام المماليك إلى حزبين متناوئين من ناحية أخرى. هذا الحزبان هما المماليك البحرية والمماليك المعزية مما عرض مصير الدولة الناشئة إلى خطر شديد [٤٠]. فقد هرب زعماء البحرية طلبًا لحماية أمراء الأيوبيين وملوكهم فى بلاد الشام وحماية سلاجقة الروم، وأخذ المماليك الهاربون يحرضون ملوك البيت الأيوبى على غزو مصر.

وكانت الخصومة ، التى تحولت إلى عداوة قاتلة بين المعز أيبك وزوجته شجر الدر ، بمثابة الفرصة التى سطع فيها نجم قطز ، وعلى الرغم من الدماء التى أريقت فإنها فتحت طريق العرش أمام الأمير الطموح ليصير سلطانًا على البلاد .

انتهى الحكم الأيوبى فى مصر مع تبدد دماء الملك المعظم «توران شاه» بن الصالح نجم الدين أيوب[٤١] واختار المماليك أرملة السلطان الصالح نجم الدين أيوب الأميرة «شجر الدر» لتولى عرش السلطنة الشاغر. ولما كانت هذه السيدة فى الأصل جارية تركية أو أرمينية، فقد اعتبرها بعض مؤرخى عصر سلاطين المماليك «... أول من ملك مصر من ملوك الترك

= احتقار أيبك والاستهانة به حيث كان يناديه باسمه مجرداً من أى ألقاب . ومن ناحية أخرى أنشأ فرقة خاصة من المماليك هم «المماليك المعزية»، وكان قطز كبيرهم ، لمواجهة نفوذ المماليك البحرية. وكشف أقطاى عن رعونة شديدة، وسعى إلى الزواج من إحدى أميرات البيت الأيوبى وفى يوم الأربعاء ٣ شعبان سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م طلب أيبك من أقطاى الحضور إلى القلعة لكى يستشيره فى بعض الأمور؛ وفى قاعة العواميد ، كبرى قاعات قلعة الجبل، تم اغتيال فارس الدين أقطاى على يد كل من قطز ، وبهادر ، وسنجر الغتمى «... فهبروه بالسيوف حتى مات....» المقريزى ، السلوك ، ج١ ص٣٩٠ .

٤٠- أحمد مختار العبادى، قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام، (دار النهضة العربية- بيروت ١٩٦٩م) ص١٣٤-١٣٥ .

٤١- كان تورانشاه إخفاقًا أيوبيًا جديداً، إذ فشل فى الاستجابة للتحديات التى فرضتها الظروف التاريخية وبدلاً من الانصراف لتوحيد المسلمين لمواجهة الفرنج الصليبيين بدأ يُدبر المؤامرات ضد زوجة أبيه «شجر الدر» وبقية زعماء المماليك. وانتهى الأمر بقتله وتولت شجر الدر عرش البلاد .

أنظر : أبوشامة الذيل على الروضتين، ص١٨٥ ؛ أبو الفداء، المختصر فى أخبار البشر، ج٣ ص١٨١- ص١٨٣ ؛ المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٣٥٩ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٣٧١ .

المماليك»[٤٢] على حين تجاهل المؤرخون من أبناء المماليك الذين عرفوا باسم «أولاد الناس» سلطنة هذه المرأة تماماً [٤٣].

على أية حال ، قبضت «شجر الدر» على زمام الحكم بيد من حديد ووجهت اهتمامها للتخلص من بقايا الحملة الصليبية السابعة . ثم أخذت تتقرب إلى العامة والخاصة من رعاياها. بيد أن الرأى العام صدمته حقيقة أن امرأة تجلس على عرش البلاد؛ وهو الأمر الذى كان يتنافى مع التراث السياسى الإسلامى من جهة ، ويتناقض مع النظرية السياسية الإسلامية من جهة ثانية، ويجافى الثقافة السائدة من جهة ثالثة [٤٤]. واضطربت الأمور على المستوى الشعبى العام، كما عارض الفقهاء والمتعلمون جلوس «شجر الدر» على عرش السلطنة ، ثم جاء رد الخليفة العباسى برفض المساندة الشرعية لحكم هذه السلطانة ساخراً حاسمًا تقول كلماته «... إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسيِّر إليكم رجلاً...» عندها أدركت السلطانة وأدرك زعماء المماليك أنهم يسبحون ضد تيار عارم لابد وأن يغرقهم فى موجاته .

وبعد ثمانين يومًا تنازلت «شجر الدر» عن الحكم لواحد اختارته بعناية من أمراء المماليك هو عز الدين أيبك التركمانى الصالحى الذى اشتهر بعزوفه عن الصراع حتى ظن الجميع أنه ضعيف. وقبل أمراء المماليك الأقوياء زواجه من شجر الدر وجلوسه على عرش السلطنة، بل إن بعضهم قال «... متى أردنا صرفه أمكننا ذلك لعدم شوكته ...». وتولى المعز أيبك الحكم فى يوم السبت آخر شهر ربيع الآخر سنة ٦٤٨هـ / يوليو ١٢٥٠م ليثبت من خلال تصرفاته فى مواجهة المشكلات والصعاب التى واجهته خارجيًا وداخليًا ، أن السلطانة «شجر الدر» وزعماء المماليك قد أسرفوا فى الاستهانة به .

كان قطز أحب مماليك المعز أيبك وأقربهم إلى قلبه. وكان اشتراكه فى التخلص من زعيم البحرية «فارس الدين أقطاى» - كما أشرنا- هو أول ظهور له على مسرح السياسة المملوكية، ثم كانت النهاية المأساوية لزواج سيده من شجر الدر فرصة كاملة لأن يتولى زمام الأمور ويوجهها بالشكل الذى يضمن له العرش ليقود المعركة ضد التتار ولتنتهى حياته على نحو مأساوى أيضًا .

٤٢- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٣٦١ .

٤٣- من هؤلاء ابن أيبك الدوادارى صاحب «كنز الدُرر وجامع الغُرر»؛ وابن تغرى بردى.

٤٤- قاسم ، الأيوبيون والمماليك ، ص١٢٧- ص١٢٩ راجع الفصل الخامس من هذه الدراسة .

لم تنته متاعب أيبك فى صراع السلطة بالتخلص من المماليك البحرية، وإنما انتهت بنهاية حياته فى مؤامرة دبرتها زوجته «شجر الدر» التى وصفها المعاصرون بأنها «... امرأة صعبة الخلق، شديدة الغيرة ، ذات شهامة زائدة ، وحُرمة وافرة ، سكرانة من خمر التيه والعجب..» فقد كان من الصعب عليها أن تتخلى عن سلطة الحكم ، وزاد من ضراوتها أن علمت أن زوجها يسعى إلى الزواج من إحدى أميرات البيت الأيوبى. ويدأ الزوجان يتسابقان فى نسج المؤامرات للتخلص من الآخر . وانتصرت المرأة فى هذا السباق ولقى السلطان مصرعه ، فقد أرسلت شجر الدر إلى أيبك تتلطف به وتدعوه إلى القصر السلطانى وحين دخل الحمام كان هناك مجموعة من الغُلمان تناولوه بسيوفهم حتى أردوه قتيلاً (٤٥).

وحين ذاع الخبر فى صباح اليوم التالى، وعلم ولده «نور الدين على» ومملوكه «سيف الدين قطز» وكان أكبر مماليكه، بما حدث أسرعا مع جماعة من المماليك المعزية إلى القصر السلطانى رغبة فى الانتقام من شجر الدُّر . وبالفعل تم القبض عليها وحملها المماليك المعزية إلى ضرتها ، زوجة المعز الأولى وأم ولده على؛ فأمرت جواريها «... فضربها الجوارى بالقباقيب إلى أن ماتت فى يوم السبت ، وألقوها من سور القلعة إلى الخندق ، وليس عليها سوى سراويل وقميص...» (٤٦).

هكذا كان العنف والدم هو الطريق إلى العرش منذ بداية عصر سلاطين المماليك. وعلى نفس هذا الطريق سار «سيف الدين قطز» ؛ إذ كان على رأس فرقة الانتقام التى قبضت على «شجر الدر» بعد أن اغتالت زوجها وسيدها عز الدين أيبك. وبصفته كبير المماليك المعزية بدأ ترتيب المسرح السياسى بالشكل الذى يلائم طموحاته وأحلامه، وسار الأمير خطوات أخرى صوب العرش.

فقد صمم المماليك المعزية، وعلى رأسهم سيف الدين قطز ، على أن يقيموا على العرش الذى بات شاغراً بمصرع أيبك صبيًا فى الخامسة عشرة من عمره هو «نور الدين على» ابن سيدهم المعز أيبك. وتم ذلك فى ربيع الأول سنة ٦٥هـ / ١٢٥٧م ولقبوه الملك المنصور على. وقد رفض المماليك البحرية الاعتراف بالسلطان الصبى، وتجسد رفضهم فى عدة اضطرابات

٤٥- عن قصة أيبك وشجر الدُّر ، انظر : المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٣٩٨-ص٤٠٤ ؛ ابن أيبك الدواداری ، الدُّرة الزكية فى أخبار الدولة التركية، ص٣٠- ص٦٥٥ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، ج٧، ص١٣ .

٤٦- المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٤٠٤ .

عاصفة. واستنجدت بعض الفئات المتنازعة بملوك بنى أيوب فى بلاد الشام ، وحاول المغيث عمر صاحب إمارة الكرك (فى الأردن حاليًا) غزو مصر مرتين لكن الفشل كان من نصيبه[٤٧].

بيد أن هذه الاضطرابات كانت فرصة جديدة لظهور نجم الأمير سيف الدين قطز . فقد قام قطز بالقبض على الأتابك سنجر الحلبى وحبسه فى الجُب بقلعة الجبل لأنه كان يطمع فى السلطنة بعد مقتل المعز أيبك ولأنه كان يتحين الفرصة للوثوب على العرش[٤٨]. وأدى ذلك إلى مزيد من الاضطراب والفوضى ؛ فقد هرب عدد من المماليك البحرية إلى جهة الشام وطاردهم المماليك المعزية وقبضوا على عدد منهم وأودعوهم سجون القلعة [٤٩]. وخلا الجو لسيف الدين قطز فصار نائب السلطان « ... وصار مدبر دولة الملك المنصور على»[٥٠].

كان جلوس السلطان الصبى على العرش مسألة قُصد بها كسب الوقت حتى يمكن لواحد من كبار أمراء المماليك الطامعين فى عرش السلطنة أن يحسم الصراع لصالحه . وكان هذا مشهداً تكرر كثيراً طوال عصر سلاطين المماليك؛ بل إننا لانبالغ إذا قلنا إن هذه كانت ممارسة سياسية حظيت باعتراف الجميع طوال ذلك العصر . ومن المهم أن نشير إلى أن المماليك لم يؤمنوا بنظام وراثة العرش؛ إذ إن طبيعتهم العسكرية من ناحية، وشعورهم بأنهم جميعًا سواء من ناحية أخرى، جعل كبار أمرائهم يعتقدون أنهم جميعًا يستحقون العرش الذى يفوز به أقواهم وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين تحقيقًا لمبدأ «الحكم لمن غلب» . وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن ظل عرش السلطنة على الدوام محل التنافس والمنازعات بين كبار الأمراء؛ لاسيما عندما يخلو العرش بسبب موت السلطان. وكان هذا هو الحال عندما مات عز الدين أيبك. ولم يشأ «سيف الدين قطز» أن يتعجل الأمور ويواجه المنافسين ، فأمسك بيده زمام السلطة الفعلية تاركًا للسلطان الصبى شعائر السلطنة ولقبها .. ولاشئ أكثر من ذلك .

٤٧– أقام المماليك البحرية اعتراضهم على أساس صغر سن السلطان الصبى واتفقوا على سلطنة أتابك العسكر علم الدين سنجر الحلبى وحلفوا له، ولكن المحاولة انتهت بقتله ، أنظر:

ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٦ ، ص٣٧٦ ؛ ج٧ ، ص٤٢ .

٤٨– المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٤٠٥ ؛ أحمد مختار العبادى، قيام دولة المماليك، ص١٤٠-١٤١ .

٤٩– ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧ ، ص٤٢ .

٥٠– المقريزى، السلوك، ج١ ، ص٤٠٥ ؛ ابن أيبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ص٣٣ .

وبات عرش مصر قاب قوسين أو أدنى، ثم جاءت الفرصة تسعى إلى قطز...

كان سيف الدين قطز مشغولاً بترتيب الأوضاع السياسية الداخلية لصالحه ، على حين كانت الشائعات تملأ سماء القاهرة بأن السلطان الصبى يريد خلع قطز ، مملوك أبيه وصاحب اليد البيضاء فى توليه عرش البلاد. واجتمع الأمراء فى بيت أحد كبارهم وتكلموا إلى أن نجحوا فى إصلاح الأمور بين الملك المنصور على وبين مملوك أبيه الأمير قطز «.. وخلع عليه وطيب قلبه» وهكذا توطدت مكانة سيف الدين قطز فى الدولة (٥١).

وفى الوقت نفسه كانت الأحوال متردية تمامًا بسبب الفتن التى أثارتها طوائف المماليك فى القاهرة ، كما كان خطر محاولات الغزو الفاشلة التى قام بها المغيث عمر فى ذى القعدة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م، وفى ربيع الأول سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م يقلق باله بحيث خرج فى المرتين للقاء المماليك البحرية وحليفهم الأيوبى. وبفضل شجاعة «سيف الدين قطز» تم القضاء على هذا الخطر الأيوبى (٥٢). بيد أنه كان على قطز أن يواصل ترتيب أمور المملكة فى الداخل بعد أن واجه الخطر الخارجي ؛ فقد قبض على جماعة من الأمراء لميلهم إلى «الملك المغيث عمر» فى هذا الشهر نفسه وهم : الأمير «عز الدين أيبك الرومى الصالحى»، والأمير «سيف الدين بلبان الكافورى الصالحى الأشرفى، والأمير «بدر الدين بكتوت الأشرفى»، والأمير «بدر الدين بلغان الأشرفى » وغيرهم . وضرب أعناقهم فى السادس والعشرين من ربيع الأول واستولى على أموالهم كلها (٥٣).

وبذلك ازدادت القامة السياسية لسيف الدين قطز طولاً . ولكن الدولة التى يحكمها سلطان فى سن الصبا بدت واهنة ضعيفة ، وغير قادرة على تحمل مؤامرات الصغار ولعبهم بأقدار البلاد والعباد. ثم بدأ صدى طبول الحرب التترية يتردد على حدود السلطنة الوليدة . ولم يكن بوسع السلطان الصبى «نور الدين على» أن يفعل شيئًا إزاء هذا الخطر الداهم . فقد كان يقضى وقته فى ركوب الحمير والتنزه فى القلعة «... ويلعب بالحمام مع الخدم »(٥٤) ومع كل خبر جديد عن وحشية التتار كانت الأحوال تزداد اضطرابًا والقلق يفترس نفوس الناس .

٥١- ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٤٣ .

٥٢- المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٤٠٩ / ص٤١١ .

٥٣- نفسه، ج١ ، ص٤١١ ؛ بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، ج٩ ، (تحقيق زبيدة عطا) ص٥٥ / ص٥٦ .

٥٤- ابن أيبك الدوادارى ، الدرة الزكية ، ص٣٣ . وقد وصفه بقوله «كان صبى قليل العقل ، ضعيف الرأى كثير اللعب».

فقد ملك هولاكو بغداد، وقتل الخليفة المستعصم ، وصار المسلمون بغير خليفة للمرة الأولى فى تاريخهم. وخرب التتار الجوامع والمساجد والمشاهد ، وسفكوا الدماء حتى جرت فى الطرقات واستمروا على ذلك أربعين يومًا (٥٥). ومع ذلك فإن بعض الذين وضعتهم الظروف على عروش بلاد المسلمين كانوا على قدر من الأنانية السياسية وضيق الأفق بحيث حاولوا أن يتفقوا مع هولاكو ضد إخوانهم . فقد أرسل الملك الناصر صاحب دمشق ابنه الملك العزيز إلى هولاكو ومعه هدايا وعدداً من الأمراء ليطلب منه على لسان أبيه قوات تساعده فى أن يأخذ مصر من المماليك (٥٦).

كانت الأحوال على هذا القدر من التردى والتمزق عندما تعين على الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة أن يخطو الخطوة الأخيرة نحو العرش من ناحية، وتدعيم نفوذه السياسى الداخلى من ناحية ثانية، والاستعداد لمواجهة التتار من ناحية ثالثة .

وفى بلاد الشام كانت الأمور تزداد سوءاً بسبب رعونة الأيوبيين الصغار. وكان المماليك البحرية بزعامة بيبرس يواصلون الهرب من مكان إلى مكان آخر. وأرسل الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى- الذى صار سلطانًا فيما بعد - إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف- حاكم دمشق يلتمس منه الأمان، ثم جاء بالفعل ومعه عدد من الأمراء حيث أكرمه الناصر وأعطاه إمرة مائة فارس وأقطعه نصف نابلس وجينين. وعبثًا حاول بيبرس إقناع الناصر بالصمود أمام أخطار التتار. ثم جاء الملك العزيز ، ابن الملك الناصر، من عند هولاكو ومعه رسالة كتبها رداً على خطابه الذى كان قد أرسله مع ابنه هذا نصها (٥٧):

«الذى يعلم به الملك الناصر صاحب حلب ، أنا قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى ، وقتلنا فرسانها وهدمنا بنيانها وأسرنا سكانها، كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز (قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) . واستحضرنا خليفتها وسألناه عن كلمات فكذب ، فواقعه الندم واستوجب منا العدم. وكان قد جمع ذخائر نفيسة ،

٥٥- انظر تفاصيل الغزو التترى فى الفصل السابع من هذه الدراسة.

٥٦- المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٤١١ . ويذكر المقريزى أن هولاكو أمر بأن يتوجه إليه بعسكر فيه قدر العشرين ألف فارس فطار هذا الخبر إلى دمشق ؛ فرحل من كان بها من المماليك البحرية، وساروا إلى الملك المغيث عمر بالكرك وحرضوه على أخذ مصر ، لكن سيف الدين قطز استطاع هزيمتهم. قارن رواية ابن تغرى بردى، النجوم ، ج٧ ، ص٤٥- ص٤٧ .

٥٧- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٤١٥ / ص٤١٦ .

وكانت نفسه خسيسة ، فجمع المال، ولم يعبأ بالرجال، وكان قد نمى ذكره وعظم قدره ، ونحن نعوذ بالله من التمام والكمال:

إذا تم أمـــر دنا نقـــصـــه ... تـــوقّ زوالا إذا قـــيـــل تم

إذا كنت فى نعـمـة فـارعـسهـا ... فـإن المعـاصى تزيـل النعـم

وكم من فـستى بات فى نعـمـة ... فلم يدرك بالموت حـتى هجـم

«إذا وقفت على كتابى هذا ، فسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض شاهنشاه روى زمين {أى ملك الملوك على وجه الأرض} تأمن شره ، وتنل خيره ، كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز : (وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزى الجزاء الأوفى) ، ولاتعوّق رسلنا عندك كما عوّقت رسلنا من قبل ، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بحريمهم إلى كروان سراى(٥٨) فإن كانوا فى الجبال نسفناها ، وإن كانوا فى الأرض خسفناها .

أين النجـــاة ولامناص لهـــارب ... ولّى البــســيطان الثـــرى والماء

ذُلّت لهـيبـتنا الأسـود وأصـبـحت ... فى قـبضـتى الأمـــراء والـــوزراء

هذا النص الذى أوردناه كاملاً يكشف طرفًا من الحرب النفسية التى كان التتار يشنونها ضد أعدائهم من ناحية ، كما يكشف عن فداحة الخطر الذى كان على سيف الدين قطز أن يستعد لمواجهته من ناحية أخرى . كذلك فإن هجرة الكثيرين من أهل الشام إلى مصر - على ما تشير رسالة هولاكو - قد سبب رعبًا وقلقًا شديداً فى البلاد المصرية . لقد خاف الناس بدمشق خوفًا كثيراً عندما علموا أن التتر قد قطعوا نهر الفرات فى طريقهم إلى الشام وسار كثيرون منهم صوب مصر ، وكان الوقت شتاء فمات منهم عدد كبير، ونهب البدو أمتعة كثيرين (٥٩).

وأفاق الملك الناصر بعد فوات الأوان. فأرسل المؤرخ والفقيه المعروف كمال الدين بن العديم إلى مصر يستنجد بعساكرها . وهكذا بدأت الحرب تطل بوجهها المرعب على الساحة السياسية

٥٨- كان هذا هو الإسم التترى لمصر ، وربما يكون السبب فى ذلك أن مصر كانت منتهى معظم الطرق التجارية العالمية شرقًا وغربًا . انظر:

المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٤١٦ ، هامش رقم ٣ .

٥٩- نفسه، ص٤١٦ .

في مصر. وكان نجم تلك الساحة الساطع آنذاك هو الأمير «سيف الدين قطز» . فلما قدم ابن العديم إلى القاهرة عُقد مجلس بالقلعة حضره السلطان الصبي الملك المنصور نور الدين علي، وحضره كبار أهل الرأي من الفقهاء والقضاة مثل قاضي القضاة بدر الدين حسن السنجاري، والشيخ عز الدين بن عبدالسلام وكان سيف الدين قطز بين الحاضرين. وسألهما الحاضرون عن أخذ الأموال من الناس لإنفاقها على الجنود فقال ابن عبدالسلام : «إذا لم يبق شئ في بيت المال، وأنفقتم الحوائص الذهب ونحوها من الزينة ، وساويتم العامة في الملابس سوى آلات الحرب، ولم يبق للجندي إلا فرسه التي يركبها ساغ أخذ شئ من أموال الناس في دفع الأعداء؛ إلا أنه إذا دهم العدو وجب على الناس كافة دفعه بأموالهم وأنفسهم...»(٦٠).

كان العز بن عبد السلام في هذا القول مثالاً للفقيه الذي يرضي الرعية والسلطان في آن واحد؛ إذ قال كلامٌ يدغدغ مشاعر الرعية بيد أنه نسفه في الجملة الأخيرة. وكان هذا الاجتماع من الأدوات السياسية التي أحسن سيف الدين قطز استغلالها للوصول إلى هدفه النهائي : عرش مصر وقتال التتار. وكان ذلك الاجتماع الذي عقد بحضور السلطان الصبي آخر خطواته صوب العرش. فقد زال خطر المماليك البحرية مؤقتًا بعد هزيمتهم أمام جيش مصر بقيادة قطز عندما تحالفوا مع المغيث عمر لغزو مصر ، وتأكد هذا عندما طاردهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام حتى حصن الكرك وصحبته الملك المنصور صاحب حماة، فأرسل الملك المغيث عمر بن العادل الكامل صاحب الكرك رُسُله إلى الناصر ومعهم عمته الدار القطبية ابنة الملك المفضل قطب الدين بن العادل . وتم الصلح على أساس أن يقبض المغيث على من عنده من المماليك البحرية، وتم ذلك بالفعل وتسلمهم الملك الناصر ماعدا ركن الدين بيبرس الذي دخل خدمته كما أسلفنا القول (٦١). وقد فرح الأمير سيف الدين قطز لذلك فرحًا زائداً «... وزينت مصر لذلك أياماً وصفا الوقت للأمير قطز ...»(٦٢) على حد تعبير المؤرخ جمال الدين أبي المحاسن بن تغري بردي .

وبينما كان هولاكو يجتاح أقاليم العالم الإسلامي الشرقية ، كان نجم سيف الدين قطز يزداد سطوعًا وتزداد قامته السياسية طولاً وكأنه على موعد مع التاريخ لكي ينجز مهمته

٦٠- المقريزي، السلوك ، ج١ ، ص٤١٦- ص٤١٧ .

٦١- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٥٣ .

٦٢- نفسه، ص٥٤ .

الكبرى في هزيمة الجحافل التترية الظالمة. ويقول المؤرخون المعاصرون فى هذا الصدد إن قطز صار هو المشار إليه بديار مصر لصغر سن سلطان المنصور على ولكثرة أتباع سيف الدين قطز.

لقد استغل قطز اجتماع القلعة لخلع السلطان الصبى فأخذ يتحدث عن مساوئ المنصور على وقال «لابد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو، والملك الصبى صغير لايعرف تدبير المملكة»(٦٣). كانت تلك هى الفرصة التى انتظرها قطز طويلاً فى رحلته من «المملوك» إلى «السلطان» ، وساعده على ذلك أن مفاسد الملك المنصور على كانت قد زادت حتى انفض الجميع من حوله « ... واستهتر فى اللعب وتحكمت أمه فاضطربت الأمور ... ». وجاءت الفرصة تسعى إلى سيف الدين قطز عندما خرج أمراء المماليك المعزية والبحرية إلى الصيد، فى منطقة العباسية بالشرقية وفى غزة ، وعلى رأسهم الأمير «سيف الدين بهادر» والأمير «علم الدين سنجر الغتمى» فى يوم السبت ٢٤ ذى القعدة سنة ٦٥٧هـ / ١٢٥٩م. وقبض قطز على الملك المنصور وعلى أخيه قاقان وأمهما واعتقلهم فى أحد أبراج القلعة . فكانت مدة حكم المنصور سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام (٦٤).

هكذا اكتملت رحلة المملوك صوب العرش وصار سلطانًا على الديار المصرية. وجلس على سرير الملك بقلعة الجبل فى نفس اليوم. واتفق الحاضرون على توليته « ... لأنه كبير البيت ونائب الملك وزعيم الجيش، وهو معروف بالشجاعة والفروسية، ورضى به الأمراء الكبار والخوشداشية ، وأجلسوه على سرير الملك ولقبوه بالمظفر... »(٦٥) ويعلق ابن تغرى بردى على ذلك بقوله :

«والملك المظفر قطز هذا هو أول من خلع ابن أستاذه من الملك وتسلطن عوضه، ولم يقع ذلك قبله من أحد من الملوك، وتمت هذه السُّنة السيئة فى حاصد إلى يوم القيامة ، وبهذه الواقعة فسدت أحوال مصر»(٦٦).

٦٣- بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج٩ ، ص٦٣ ؛ ابن أيبك الدوادارى ، الدرة الزكية، ص٢٩ ؛ المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٤١٧ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة، ج٧ ، ص٥٥ .

٦٤- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٤١٧ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم ، ج٧ ، ص٥٥ . ويرى ابن تغرى بردى أن مدة حكم المنصور كانت سنتين وسبعة أشهر واثنين وعشرين يومًا .

٦٥- بيبرس الدودار ، زبدة الفكرة ، ج٩ ، ص٦٣ .

٦٦- ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٥٦ .

لقد أوضح ابن تغرى بردى أن التنافس على العرش المملوكى لم يحترم مبدأ وراثة الحكم، وإنما أرسى مبدأ «الحكم لمن غلب» »؛ ولكنه رصد أعراض المرض السياسى الذى أودى بدولة سلاطين المماليك فى نهاية الأمر دون أن ينجح فى تشخيص المرض نفسه. ومن ناحية أخرى، كان ابن تغرى بردى يكتب فى الشطر الأخير من عصر سلاطين المماليك عندما تدهورت أحوال الدولة بسبب بذرة التنافس السياسى الدموى التى صاحبت قيام الدولة. لقد تمثل الداء الأساسى لدولة سلاطين المماليك فى أنها قامت على أساس القوة لا الشرعية . وصارت القوة هى الوسيلة المثلى للوثوب إلى العرش ، ولم يكن قطز هو المسئول عن هذا كما يزعم ابن تغرى بردى وإنما كانت التربية العسكرية للمماليك وظروف توليهم الحكم- بعد مصرع تورانشاه - هى السبب فى سيادة القوة . لقد كان كل من «شجر الدر» و «عز الدين أيبك» ضحية لسيادة مبدأ القوة، وسار قطز على طريق الدماء صوب العرش. ولكنه اكتفى بعزل السلطان الصبى.

على أية حال ، لم يكن جلوس قطز على عرش السلطنة نهاية لرحلة المملوك إلى عرش السلطان . إذ كان على السلطان المظفر سيف الدين قطز أن يوطد دعائم حكمه فى الداخل قبل أن يتوجه للقاء عدوه فى الخارج. فبدأ بتغيير الوزير ابن بنت الأعز وولى بدلاً منه زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع بن يزيد بن الزبير . ثم كان عليه أن يواجه معارضة كبار الأمراء الذين «... قدموا إلى قلعة الجبل، وأنكروا ما كان من قبض قطز على الملك المنصور ، وتوثبه على الملك فخافهم واعتذر إليهم بحركة التتار إلى جهة مصر والشام...»(٦٧) كان لابد للسلطان أن يميل مع الريح حتى لاتعصف به لاسيما وأنه كان لايزال على خوفه من تحرك الأيوبيين ببلاد الشام ضده وخوفه الشديد من الناصر يوسف صلاح الدين حاكم دمشق . وقال سيف الدين قطز فى سياق تبريره لما حدث «... وإنى ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتر. ولا يتأتى ذلك بغير ملك؛ فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو ، فالأمر لكم . وأقيموا فى السلطنة من شئتم...»(٦٨).

٦٧- المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٤١٧ / ص٤١٨ .

٦٨- نفسه ، ج١ ، ص٤١٨ .

هكذا مرّت العاصفة الأولى على عرش السلطان بسلام، وأخذ يرضى أمراء المماليك «حتى تمكن» على حد تعبير المقريزى . وما أن شعر أن سلطته قد رسخت حتى أخذ يتخلص من كل من يمكن أن يشكل تهديداً على عرشه. فأرسل المنصور على وأخاه وأمه إلى دمياط ، واعتقلهم فى برج بناه هناك وأطلق عليه اسم برج السلسلة، ثم نفاهم جميعًا إلى القسطنطينية(٦٩) بعد ذلك قبض السلطان سيف الدين قطز على الأمير علم الدين سنجر الغتمى، والأمير عز الدين أيدمر النجيبى الصغير ، والأمير شرف الدين قيران المعزى ، والأمير سيف الدين بهادر ، والأمير شمس الدين قرا سنقر ، والأمير عز الدين أيبك النجمى الصغير ، والأمير سيف الدين الدود خال الملك المنصور على بن المعز، والطواشى شبل الدولة كافور لا لا(٧٠) الملك المنصور ، والطواشى حسام الدين بلال المغيثى الجمدار واعتقلهم . وهكذا تمكن من التخلص من رؤوس المعارضة.

ومن ناحية أخرى، بدأ السلطان المظفر سيف الدين قطز يختار أركان دولته ويوطد دعائم حكمه ؛ فحلّف الأمراء والعسكر لنفسه. واستوزر الصاحب زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع. وأقرّ الأمير فارس الدين أقطاى الصغير الصالحى المعروف بالمستغرب أتابكًا. وفوض إليه وإلى الصاحب زين الدين تدبير العساكر واستخدام الأجناد، وسائر أمور الجهاد والاستعداد للحرب ضد التتار .

لقد ضمن سيف الدين قطز هدوء الأحوال داخل دولته ؛ بيد أنه كان ما يزال متوجسًا من ملوك الأيوبيين فى بلاد الشام خاصة الناصر يوسف صلاح الدين صاحب دمشق وحلب . وعندما علم بخبر قدوم نجدة من عند هولاكو إلى الملك الناصر بدمشق ، خاف من عاقبة ذلك وكتب إليه خطابًا رقيقًا يحاول فيه تجنب المواجهة . وأقسم قطز بالأيمان أنه لاينازع الملك الناصر فى الملك ولايقاومه ، وأكد له أنه نائب عنه بديار مصر و«متى حلّ بها أقعده على

٦٩- يذكر بيبرس الدوادار (ج٩، ص٦٣) أن المنصور على بن المعز وأخاه وأمه اعتقل مدة فى أيام المظفر قطز ، ثم اعتقلوا فى الاسكندرية أيام السلطان الظاهر بيبرس ، ومن هناك تم نفيهم إلى القسطنطينية ويتفق معه فى هذه الرواية ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٥٥ . أما ابن أيبك الدودارى (الدرة الزكية)، ص٣٩) فيذكر الروايتين دون أن يرجح أيًا منهما.

٧٠- «لا لا» لفظ فارسى معناه الشخص المكلف بالعناية بالأطفال. وكان هذا الطواشئ هو المسئول عن تربية المنصور على فى طفولته .

الكرسى ...» وقال قطز أيضًا : « ... وإن اخترتنى خدمتك، وإن اخترت قدمت ومن معى من العسكر نجدة لك على القادم عليك، فإن كنت لاتأمن حضورى سيِّرت لك العساكر صحبة من تختاره ...»[٧١] وهكذا، استطاع قطز أن يثبت الطمأنينة فى قلب خصمه اللدود. وكان عليه أن يتفرغ تمامًا لإنجاز مهمته التاريخية ضد التتار .

٧١- المقريزى، السلوك، ج١ .

الفصل السابع
الخطـر التتـــرى ومعركة عين جالوت

أصل التتـار- جنكيـز خان وأولاده- الصدام مع العـالم الإسلامى- سقوط الخلافة العباسيـة- التتـار فى العراق وشمـال الشام- وصول المماليك البحرية إلى مصر - رُسُل التتـار فى القاهرة - الاستـعداد للمـعركة- معـركة عين جالوت ونتائجها مقتل سيف الدين قطز.

قبل حوالى نصف قرن من الزمان سبق أحداث قصتنا ، كان جنكيز خان[1] (ومـعنى الإسم ملك ملوك العـالم) قد نجح فى بناء إمبراطورية متـراميـة الأطراف امتدت حدودها من شـواطئ بلاد الصين شرقًا حتى منطقة البحر الأسود وبحر قزوين غربًا. وكان اسمه الحقيقى تيموجين. وبرز اسم هذا القـائد المغـولى للمرة الأولى حين قـاتل التتـار على رأس كـتيـبة جـمعـهـا من أرستقراطيـة الرعاة وانتصر عليهم ثم أعلن جنوده زعيـمهم تيموجين خاقانًا ، وبذلك أحيا اسم أسرة المغول الذى كان قد اندثر فى منغوليا نفسها[2].

وتطلق الوثائق الرسمية الصينية اسم يوان Yuan على المغول والشعوب التى اندمجت فيهم داخل الصين اسم المغول (المنغول)، على حين أنهم عرفوا فى منغوليا نفسها باسم التتـار. وقد بذل جنكيـز خان جهداً كـبيـراً فى توحيـد منغـوليـا وأفـاد من بعض التـجار المسلمين الذين استخدمهم فى بلاطه والذين كانوا أول معلمى المغول فى مضمار الحضارة [3]. وكـانت ديانة

١- اسمه الحقيقى تيموجين (أى الصلب الخالص) ، وتمكن فى بداية القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى أن يفرض زعامته على المغول بعد معارك وحروب طاحنة . وتحت قيادته تحول المغول إلى قوة رهيبة اكتسحت كافة المناطق ما بين بحر الصين شرقًا والبحر الأسود غربًا. وتوفى سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م تاركًا لأولاده مهمة متابعة غزو العالم . أنظر:

Claude Cahen, " The Mongols and the Near East" , in Setton (ed.) , A History of the Crusades, vol . II, pp. 615-716 .

٢- فاسيلى فلاديميروفتش بارتولد ، تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، (نقله عن الروسية صلاح الدين هاشم، الكويت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م) ، ص٥٤٥ .

٣- نفسه، ص٥٤٦- ص٥٥٥ .

المغول خليطًا من عبادة الشمس والمسيحية والإسلام والبوذية- ويمكن القول إنهم تفرقوا بين كل الأديان باستثناء اليهودية. وكان التسامح الديني سائداً بينهم.

ومن الناحية العسكرية كانت جيوش جنكيز خان قد خرجت من موطنها بمناطق الاستبس بوسط آسيا، وأخذت تجتاح البلاد القريبة حتى تمكن من بناء إمبراطورية امتدت من كوريا إلى بولندا ، ومن تونكين إلى البحر المتوسط.

كان أول صدام بين المغول والعالم الإسلامي سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م عندما أغاروا على بلاد السلطان «علاء الدين محمد بن خوارزم شاه تكش»[٤] وكان سبب الاحتكاك هو أن الحدود بين المملكتين قد صارت مشتركة . وكان طبيعيًا أن يهتم كل من جنكيز خان وعلاء الدين محمد بتأمين حدود دولته . وعلى الرغم من محاولات الموادعة والمسالمة بين الجانبين فإن أسباب النزاع الكامنة لم تلبث أن فرضت نفسها. فقد أمر السلطان باعتقال قافلة من التجار قادمة من بلاد الخان المغولي على أنهم جواسيس ، وكان عددهم أربعمائة وخمسين رجلاً كلهم من المسلمين فقتلوا جميعًا. واتسم رد الفعل من جانب جنكيز خان بضبط النفس فقد أرسل يطلب تسليم المسئول عن قتلهم. وعلى الجانب الآخر رفض علاء الدين محمد طلب جنكيز خان وزاد على ذلك بقتل الرسول الموفد من قبله، وأهان رفيقيه بحلق لحية كل منهما ؛ وبذلك صارت الحرب واقعة لامحالة ، وكان لابد لجنكيز خان من قتال سلطان خوارزمشاه [٥].

وقد وصلت قوات جنكيز خان إلى بخارى فى فبراير سنة ١٢٢٠م ، ثم دخلوها بعد ثلاثة أيام من الحصار ، وأجبر أهالى المدينة على مغادرتها دون أن يحملوا معهم شيئًا من متاعهم ، وكان القتل مصير من بقى بالمدينة[٦] ثم زحف المغول صوب سمرقند، كبرى مدن ما وراء النهر، التى أسلمت مصيرها للمغول بسرعة مماثلة لما حدث فى بخارى[٧]. وقد انتهى ذلك النضال بهرب السلطان واختفائه فى جزيرة نائية بعد أن قتل الجانب الأكبر من جيشه على يد المغول .

٤- المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص١٨٥ حيث يذكر أن بداية خروج التتار «من بلادهم الجوانية إلى بلاد العجم ... » كان سنة ٦١٣هـ. ثم يذكر فى حوادث سنة ٦١٦ (ص٢٠٥) أنباء إغارتهم على بلاد السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه .

٥- بارتولد ، تركستان ، ص٥٦٤- ص٥٧٠ وعن الاستعداد للمعركة وتفاصيلها انظر ص٥٧١- ص٥٨٣ .

٦- نفسه، ص٥٨٤ .

٧- نفسه، ص٥٨٦- ص٥٨٨ .

وفى يناير من عام ١٢٢١م بدأ حصار المغول لعاصمة خوارزم[٨]. كانت مقاومة هذا السلطان للمغول واهنة متخاذلة لدرجة أن الكثيرين نسوه ولم يذكروا سوى اسم ابنه وخليفته جلال الدين الذى استطاع أن يسترد من المغول بعض المناطق التى احتلوها أيام أبيه ، واستطاع أن يلحق بهم عدداً من الهزائم . وظلت الحرب سجالاً دون نتيجة حاسمة حتى مات جنكيز خان فى أغسطس ١٢٢٧م وهو فى سن الثانية والسبعين تاركًا لخلفائه إمبراطورية مترامية الأطراف تم فتحها بحد السيف .

فى تلك الأثناء كان الخلاف قد دبَّ بين السلطان جلال الدين خوارزم شاه والخليفة العباسى الناصر لدين الله، وهاجم جلال الدين أراضى الخلافة العباسية . وفى الثانى من شهر شوال سنة ٦٢٢هـ توفى الخليفة العباسى ؛ ولكنه كان قد ارتكب خطأ فاحشًا قبل وفاته ؛ إذ استعان بالمغول ضد السلطان خوارزم شاه. ومن ناحية أخرى ، كان جنكيز خان قد قسَّم إمبراطوريته الشاسعة بين أبنائه الأربعة. وبعد هذا التاريخ بسنوات ثلاث كان المغول قد قضوا تمامًا على مملكة جلال الدين خوارزم شاه الذى اختفى هربًا من سيوفهم [٩].

كان سقوط هذه المملكة نذير شؤم بالنسبة للخلافة العباسية ، وأرسل الخليفة العباسى المستنصر بالله يستنجد بملوك الأيوبيين فى مصر والشام، كما بعث يطلب النجدة من القبائل العربية. بيد أن الظروف التاريخية السائدة فى المنطقة العربية كانت تبدو مواتية تمامًا للطموح المغولى ؛ فالخلافة العباسية أشبه بالرجل المريض الراقد على ضفاف الرافدين، كما أن سلاجقة فارس والعراق قد صاروا جزءاً من التاريخ ولم يعد لهم وجود حقيقى ، أما دولة سلاجقة الروم فكانت متاعبها الداخلية أكبر من قدراتها . كذلك فإن الأيوبيين الصغار فى بلاد الشام كانوا على حال من التشرذم والأنانية السياسية تمنعهم من أى جهد حقيقى . وتبقى دولة سلاطين المماليك التى كانت تعانى مشكلات الشرعية السياسية، وانتقال السلطة ، وترتيب الأوضاع فى الداخل وإتقاء الأخطار القادمة من الخارج . وكانت المواجهة مع المغول بمثابة الاختبار الحاسم لقدرات هذه الدولة الوليدة [١٠].

٨- نفسه، ويذكر المؤرخ النسوى (صاحب كتاب تاريخ السلطان جلال الدين منكوبرتى) أنه عند وفاة السلطان علاء الدين محمد لم يكن هناك ما يكفى لشراء كفن له، وأن أحد أتباعه كفنه بقميصه . راجع : بارتولد ، تركستان ، ص٦٠٤ .

٩- ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جـ٤ (تحقيق د. حسنين ربيع ، دار الكتب ١٩٧٣) ص٣١٤-٣٢٩ وقد ذكر أنهم قتلوا السلطان جلال الدين.

١٠- Claude Cahen, " The Mangols and the Near East " , pp. 717-718 .

ومن ناحية أخرى، كانت الجيوش المغولية أداة عسكرية ضخمة بالمقارنة مع الجيوش الصغيرة التى يمتلكها حكام المنطقة العربية وكان طبيعيًا أن تطوى بلدان المشرق الإسلامى فى سرعة هائلة . ويرجع السر فى تفوق المغول إلى سرعتهم وقدرتهم على شن الهجمات الخاطفة، وتطور فنون القتال والأسلحة فضلاً عن تنظيم الجيش نفسه .

على أية حال ، كانت الأحوال ما تزال تتدهور فى الخلافة العباسية . ومرة أخرى أرسل الخليفة يستنجد بالأيوبيين وكان المغول قد هاجموا بغداد للمرة الأولى سنة ٦٣٥هـ، ولكن الهزيمة لحقت بهم وهاهم الآن يعاودون المحاولة. ففى سنة ٦٤٩هـ / ١٢٥١م اجتمع مجلس رؤساء التتر (القوريلاى) فى عاصمتهم (قراقورم) ، وانتخبوا منكوخان بن تولاى بن جنكيز خان ليكون هو الخان الأعظم . وفى السنة التالية أرسل منكوخان حملتين ؛ إحداهما توجهت إلى الصين ، والأخرى توجهت غربًا صوب الأراضى الإسلامية. وكانت هذه الحملة تهدف إلى تحقيق هدفين رئيسيين : القضاء على معاقل طائفة الشيعة الإسماعيلية ، وتدمير الخلافة العباسية فى بغداد .

وتولى هولاكو قيادة الحملة الثانية وسار بنفسه حتى وصل إلى ديار بكر وميافارقين حيث ارتكب المغول مذابح مهولة راح ضحيتها آلاف السكان، وتركوا وراءهم من قصص الرعب والفزع ما جعل المعاصرين يصورونهم فى صورة وحش أسطورى لايمكن قهره . وهنا لابد أن نتابع القصة من بدايتها ؛ ففى فبراير سنة ٦٥٤هـ كان هولاكو قد دخل بقواته إلى أراضى فارس حيث قضى على قلاع الشيعة الإسماعيلية وأخذ يمهد للقضاء على الخلافة العباسية . وتشير بعض المصادر العربية إلى أنه أرسل عدداً من جواسيسه إلى بغداد حيث عقد اتفاقًا سريًا مع الوزير ابن العلقمى وغيره من الأمراء « ... والخليفة فى لهوه لا يعبأ بشئ... »[١٢]، ويقول ابن أيبك الدوادارى « ... فيها دخل هلاوون سلطان التتار إلى بغداد فى زى تاجر عجمى ، ومعه ماية حمل حرير واجتمع بالوزير مؤيد الدين، ضد لقبه ، وبابن الدرسوس نديم الخليفة، وأكابر الدولة . وكانوا قادرين على مسكه . ولكنهم خانوا الله ورسوله ودين الإسلام، قاتلهم الله، ثم خرج بعدما أتقن عمله معهم... » أما المؤرخ تقى الدين المقريزى فيذكر أن هولاكو أرسل جواسيسه فقط إلى الوزير ولم يدخل بغداد بنفسه .

١١- العبادى، قيام دولة المماليك، ص١٤٦- ص١٤٧ .

١٢- ابن أيبك الدودارى ، الدرة الذكية، ص٢٩ ؛ المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٤٠٠ .

وفى السنة التالية (٦٥٥هـ) قصد هولاكو بغداد وبعث يطلب الضيافة من الخليفة « ... فكثر الإرجاف ببغداد، وخرج الناس منها إلى الأقطار. ونزل هولاكو تجاه دار الخلافة، وملك ظاهر بغداد، وقتل من الناس عالمًا كبيراً ... »[١٣] ثم جاءت الصدمة العظمى فى العام التالى ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م عندما تزلزل العالم الإسلامى بسقوط الخلافة العباسية . فى أول شهر صفر من هذه السنة أمر هولاكو بالهجوم العام على بغداد . وفى اليوم الرابع من الهجوم استسلم الخليفة العباسى المستعصم بالله، وسلّم عاصمته للغزاة بدون شرط . وبعد التسليم بعشرة أيام قُتل الخليفة وآل بيته، « ... وقتل الناس ببغداد، وتمزقوا فى الأقطار ، وخرب التتار الجوامع والمساجد والمشاهد . وسفكوا الدماء حتى جرت فى الطرقات، واستمروا على ذلك أربعين يومًا ... »[١٤]. هكذا ظلت بغداد الجريحة نهبًا لكل الرغبات الوحشية والتدميرية على مدى هذه الأيام وصارت بعدها أطلالاً تشهد على عنف المغول الذى أحرقوا مبانى بغداد الجميلة ودمروا مكتبتها العامرة . وكانت تلك هى المرة الأولى التى تقع فيها عاصمة الخلافة أسيرة لغير المسلمين [١٥].

كان وقع الصدمة على نفوس المسلمين مريراً وعنيفًا ؛ لأنهم وجدوا أنفسهم بدون خليفة للمرة الأولى فى تاريخهم. وعلى الرغم من كل مظاهر الضعف التى بدت واضحة على الخلافة العباسية فإن مكانتها كانت راسخة فى وجدان المعاصرين بالقدر الذى جعلهم عاجزين عن تصور العالم بدونها. إذ كان العالم، فى نظرهم، مرادفًا للخلافة، وخُيِّل للمسلمين « ... أن العالم على وشك الإنحلال وأن الساعة آتية عن قريب ... ».

أخذ الزحف المغولى يطوى البلاد حتى وصل إلى أطراف بلاد الشام. وفى تلك الأثناء كان أمراء الأيوبيين فى الشام فريسة للعجز والذعر . وسارع الناصر يوسف حاكم دمشق وحلب إلى إرسال سفارة برئاسة ابنه إلى هولاكو معلنًا خضوعه الذى حاول أن يؤكده بالهدايا والتحف الفاخرة ، كما طلب مساعدة المغول فى أخذ مصر من أيدى المماليك. ولكن قائد المغول غضب

١٣- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٤٠٧- ص٤٠٨ .

١٤- نفسه ، ج١ ، ص٤٠٩ - ص٤١٠ .

١٥- بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، ج٩ ، ص٥٨- ص٦١ ؛ ابن أيبك الدوادارى، الدُّرة الزكية، ص٣٤- ص٣٧ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٤٨- ص٥٣ .

من السفارة التى اعتبرها غير لائقة بمقامه[١٦] وطلب من الناصر يوسف الخضوع دونما قيد أو شرط. وعندما أدرك الناصر أنه خسر احترام المسلمين بعث برسالة عنيفة ملؤها السباب إلى هولاكو الذى جعله يدفع ثمن السباب غاليًا عندما اقتحم أملاكه .

واستنجد بالمماليك ، ووعده قطز (الذى كان قد اعتلى عرش السلطنة آنذاك) بأن يساعده[١٧]. وفى شهر صفر سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م استولى هولاكو على حلب بعد سبعة أيام من الهول والتخريب وسفك الدماء [١٨]. وأعلن بعض ملوك الأيوبيين خضوعهم لهولاكو فى محاولة لتجنب الخراب الذى حلّ بمدينة حلب. أما الناصر يوسف فقد اضطرب وعزم على لقاء هولاكو ، وضرب معسكره ببرزة «قرية شمال دمشق» وطلب النجدة من الملك المغيث عمر صاحب إمارة الكرك، والسلطان المظفر قطز ، بيد أن الناصر يوسف قد استسلم للخوف ، كما تخاذل الأمراء من حوله بشكل أغضب الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى (الذى كان قد دخل فى خدمة الناصر) فقد أخذ الأمير زين الدين الحافظى يُعظم شأن هولاكو ويشير بألا يُقاتل ويُدارى بالدخول فى طاعته . فصاح به بيبرس وسبّه وضربه وقال: «أنت سبب هلاك المسلمين» . وفى الليل حاولت مجموعة من المماليك اغتيال الناصر يوسف ولكنه نجا من الموت. ثم توجه بيبرس إلى غزة ، ومن هناك أرسل يطلب الأمان من سيف الدين قطز الذى حلف له «... ووعده الوعود الجميلة». ووصل إلى مصر فعلاً ، فأنزله الملك المظفر سيف الدين قطز بدار الوزارة ، وأحسن معاملته ، ثم أقطعه قليوب ومناطق الريف المجاورة لها[١٩] . أما الناصر فقد سار باتجاه الحدود المصرية حتى غزة على أمل أن تصله النجدة فى وقت مناسب. وفى شهر ربيع الأول سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م استولى المغول على دمشق وتوسل

١٦- قاسم، الأيوبيون والمماليك، ص١٣٦ .

١٧- المقريزى، السلوك، ج١، ص٤١٩ .

١٨- ابن أيبك ، كنز الدرر، ج٨ ، ص٥٦-٥٨ ، المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٤٢٢- ص٤٢٣ ؛

M. Mustafa Ziada, " The Mamluk Sultans", in Setton (ed.) , A History of the Crusades, vol II, pp. 744-745 .

العبادى ، قيام دولة المماليك الأولى، ص١٥٦- ص١٥٨ ؛ قاسم ، الأيوبيون والمماليك ، ص١٢٦- ص١٣٧ .

١٩- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٤١٩ ، ص٤٢٠ .

أعيانها إلى هولاكو بعد أن قرروا تسليم المدينة «... فسير طائفة من التتر وأوصاهم بأهل دمشق ، ونهاهم أن يأخذوا لأحد درهمًا فما فوقه... »[٢٠].

وبينما كانت هذه الأحداث العنيفة تلهب المشهد فى المنطقة العربية ، مات «منكوخان» كبير المغول وكان لابد لهولاكو من العودة إلى بلاده للمشاركة فى اختيار الخان الأعظم الجديد. وعندما تم اختيار أخيه «قوبيلاى» تقبل الأمر ببساطة ولكنه لم يرجع إلى قيادة جيشه الذى تركه ببلاد الشام تحت قيادة قائد تترى مسيحى، على المذهب النسطورى ، هو كتبغا نوين[٢١]. وعلى الجانب الآخر كانت قوات الناصر يوسف الأيوبى المرابطة بالقرب من غزة قد آثرت الانضمام إلى الجيش المصرى بقيادة المظفر سيف الدين قطز ، سلطان الديار المصرية. وهرب الناصر فى قلة من أتباعه بحثًا عن ملجأ يحميه بعد أن خسر جيشه وعرشه [٢٢]. وعلم القائد المغولى بمكان الملك الناصر يوسف ؛ فأرسل مجموعة من فرسانه لتقبض على الملك الشريد، وأخذ أسيراً إلى هولاكو ومعه ولده الملك العزيز وأخوه غازى[٢٣].

فى تلك الأثناء كان السلطان سيف الدين قطز قد رجع إلى قلعة الجبل ليواصل التصفيات ضد خصومه السياسيين؛ فقبض على الأمير جمال الدين موسى بن يغمور واعتقله بقلعة الجبل. كما أنه صادر ممتلكات كل من وفد إلى القاهرة من حاشية الملك الناصر يوسف «... وألزم زوجة الناصر بإحضار ما عندها من الجواهر ، فأخذ منها جوهراً كثيراً ... »[٢٤] ثم وصلت رسل هولاكو إلى القاهرة ومعهم خطاب منه يفيض غطرسة تقول كلماته :

٢٠- نفسه، ج١ ، ص٤٢٣، ص٤٢٤ .

٢١- كان هولاكو يتصور أنه سوف يُعين خاقانًا للمغول بسبب أهمية فتوحاته وغزواته. ولكنه علم وهو فى تبريز ، التى حلت محل بغداد آنذاك وصارت مقر الحكم المغولى للعراق ، أن الاختيار وقع على أخيه قوبيلاى، وأن أمراء مغول الشرق قاموا بهذا الاختيار خلافًا لقواعد الحكم التى قررها جنكيز خان؛ بيد أن هولاكو تقبل النتيجة فى هدوء احترامًا لأخيه . انظر:

أحمد مختار العبادى، قيام دولة المماليك الأولى، ص١٥٥- ص١٥٦ .

٢٢- Ziada, Op. cit., p. 745 .

٢٣- المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٤٢٧ . ويقول المقريزى إن الذى قبض على الملك الناصر شخص من غلمانه يعرف بحسين الكردى الطبردار.

٢٤- نفسه .

«بسم اله السماء الواجب حقه، الذى ملكنا أرضه وسلطنا على خلقه، الذى يعلم به الملك المظفر صاحب مصر وأعمالها، وسائر أمرائها وجندها وكتابها وعمالها ، وباديها وحاضرها، وأكابرها وأصاغرها ، إنا جند الله فى أرضه، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من حلّ به غيظه، فلكم بجميع الأمصار معتبر، وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم ، وسلموا إلينا أمركم ، قبل أن ينكشف الغطاء، ويعود عليكم الخطأ ، فنحن ما نرحم من بكى، ولانرق لمن شكى ، فتحنا البلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد ، فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب ، فأى أرض تأويكم، وأى بلاد تحميكم ، وأى ذلك ترى، ولنا الماء والثرى، فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من أيدينا مناص ، فخيولنا سوابق، وسيوفنا صواعق ، ورماحنا خوارق، وسهامنا لواحق ، وقلوبنا كالجبال ، وعديدنا كالرمال . فالحصون لدينا لاتمنع ، والجيوش لقتالنا لاتنفع ، ودعاكم علينا لايسمع ، لأنكم أكلتم الحرام، وتعاظمتم عن ردّ السلام ، وخنتم الأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان، فأبشروا بالمذلة والهوان (فاليوم تجزون عذاب الهون) بما كنتم تعملون . (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) . وقد ثبت أن نحن الكفرة وأنتم الفجرة ، وقد سلطنا عليكم من بيده الأمور المدبرة ، والأحكام المقدرة ، فكثيركم عندنا قليل ، وعزيزكم لدينا ذليل ، وبغير المذلة ما لدنياكم علينا من سبيل ، فلاتطيلوا الخطاب ، وأسرعوا رد الجواب ، قبل أن تضرم الحرب نارها، وتورى شرارها، فلاتجدون منا جاهًا ولاعزاً ، ولاكتابًا ولاحرزاً ، إذ أزتكم رماحنا أزاً . وتدهون منا بأعظم داهية ، وتصبح بلادكم منكم خالية ، وعلى عروشها خاوية ، فقد أنصفناكم ، إذ أرسلنا إليكم ، ومننا برسلنا عليكم ، ثم كتب :

ألا قل لمصرها هلاوون قد أتى ... بحد سيوف تمتضى وبواتر

يصيرُ عزيز القوم فيها أذلة ... ونلحق أطفالاً لهم بالأكابر

٢٥- ابن أيبك الدوادارى ، الدرة الزكية، ص٤٧- ص٤٨ . وقد أورد المقريزى (السلوك ، ج١ ص٤٢٧-٤٢٨) نصًا يبدأ على النحو التالى «من ملك الملوك شرقًا وغربًا القان الأعظم. باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء. يعلم الملك المظفر قطز الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا ...» ثم ذكر مضمونًا قريبًا من مضمون النص الذى أوردناه فى المتن . وقد أورد القلقشندى (صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ج٨، ص٦٣- ص٦٤) نصًا ثالثًا يتطابق مع نص المقريزى

جمع قطز الأمراء وشاورهم فى الأمر، فاتفقوا على قتل الرسل المغول. وتم فعلاً القبض على الرسل واعتقلوا . وبدأ السلطان فى تحليف الأمراء الذين اختارهم. وأمر بأن يخرج الجيش إلى الصالحية (فى محافظة الشرقية حاليًا) . ولكن الأمراء كانوا يخشون لقاء المغول بعد أن سمعوا عن الأهوال والمذابح التى ارتكبوها ، وبعد أن شاعت حولهم حكايات وأخبار تقترب من الخرافات والأساطير . ثم أحضر السلطان قطز رُسُل التتر، وكانوا أربعة أفراد[٢٦] فتم توسيط أحدهم بسوق الخيل تحت قلعة الجبل ، ووسِّط آخر بظاهر باب زويلة ووسط الثالث ظاهر باب النصر، ووسط الرابع بالريدانية[٢٧] وعُلِّقت رؤوسهم على باب زويلة . وأبقى الملك المظفر قطز على صبى من الرسل وجعله من جملة مماليكه .

كان هذا التصرف من جانب سيف الدين قطز إعلان حرب، « ... ونودى فى القاهرة وسائر إقليم مصر بالخروج إلى الجهاد فى سبيل الله، ونصرة لدين رسول الله ﷺ ... »[٢٨] ويبدو أن الخوف من المغول كان بمثابة القيد الذى أقعد عدداً من الأمراء والجنود عن الخروج لملاقاة العدو، وهناك نص أورده تقى الدين المقريزى يؤكد هذا الاحتمال تقول كلماته [٢٩]:

« ... وتقدم الملك المظفر لسائر الولاة بإزعاج الأجناد للخروج للسفر، ومن وُجد منهم قد اختفى يُضرب بالمقارع . وسار حتى نزل الصالحية ، وتكامل عنده العسكر ، فطلب الأمراء وتكلم معهم فى الرحيل، فأبوا كلهم عليه وامتنعوا من الرحيل ، فقال لهم: يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون من بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون ، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبنى، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته ، فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين. فتكلم الأمراء الذين تخيرهم وحلفّهم فى موافقته على السير، فلم يسع البقية إلا الموافقة وانفض الجميع ... ».

٢٦- يذكر ابن أيبك الدواداري أنهم «كانوا نيف وأربعين نفراً»، انظر : الدرة الزكية ، ص٤٨ ؛ المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٤٢٩ .

٢٧- التوسيط وسيلة من وسائل الإعدام فى عصر سلاطين المماليك تتم عن طريق ضرب الشخص بالسيف عند الوسط لقطعه نصفين .

٢٨- المقريزى ، السلوك ، ج١، ص٤٢٩ .

٢٩- نفسه، ص٤٢٩- ص٤٣٠ .

هكذا، كان الخوف من التتر قد جعل مهمة سيف الدين قطز أكثر صعوبة ، لأن بعض الأمراء رأوا أن لا فائدة من محاربة العدو الرهيب وأرادوا النكوص على أعقابهم. وكان لخطبته الحماسية وإصراره على القتال أثره الواضح فى رفع الروح المعنوية لجنوده .

وفى الليل ركب السلطان وحرك كوساته وقال : «أنا ألقى التتار بنفسى». فلما رأى الأمراء مسير السلطان وعزمه على الحرب خرجوا وهم فى حال من التردد[٣٠] وخرج قطز بجيشه فى رمضان سنة ٦٥٨هـ / أغسطس ١٢٦٠م، وصحبته الملك المنصور صاحب حماة . وترك نائبًا عنه فى مصر الأتابك فارس الدين أقطاى المستعرب . وكان قد أرسل إلى المنصور صاحب حماة ، وهو ما يزال بالصالحية من الأراضى المصرية، رسالة يقول : «لاتحتفل فى مد سماط بل كل واحد من أصحابك يفطر على قطعة لحم فى صولقه » [٣١]. وأمر الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى أن يقود عساكره ليكونوا مقدمة الجيش إلى غزة لكى يعرف أخبار التتر. وعندما وصل بيبرس إلى غزة لقى طلائع المغول واستطاع أن يلحق بهم هزيمة غير حاسمة، بيد أنها كانت كافية لدفعهم إلى الرحيل من غزة ؛ وهكذا سيطرت قوات بيبرس على غزة .

فى الوقت نفسه وصلت قوات الجيش الرئيسى إلى غزة بقيادة السلطان المظفر سيف الدين قطز ، ولكنه لم يمكث سوى يومًا واحداً ، ثم رحل عن طريق الساحل على مدينة عكا التى كانت ما تزال تحت سيطرة الصليبيين. ويذكر المقريزى أن الفرنج خرجوا إليه بالهدايا

٣٠- يقول ابن تغرى بردى «فلما اجتمعت العساكر الإسلامية بالديار المصرية ألقى الله تعالى فى قلب الملك المظفر قطز الخروج لقتالهم بعد أن كانت القلوب قد أيست من النصرة على التتار وأجمعوا على حفظ مصر لاغير، لكثرة عددهم واستيلائهم على معظم بلاد المسلمين وأنهم ما قصدوا إقليمًا إلافتحوه ، ولا عسكراً إلا هزموه ، ولم يبق خارج حكمهم فى الجانب الشرقى إلا الديار المصرية والحجاز واليمن، وهرب جماعة من المغاربة الذين كانوا بمصر إلى الغرب، وهرب جماعة من الناس إلى اليمن والحجاز. والباقون بقوا فى وَجَل وخوف شديد يتوقعون دخول العدو وأخذ البلاد ..» انظر :

النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص٧٨ .

٣١- ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٧٨ . والصولق (الجمع صوالق) مخلاة من الجلد كان الجنود يضعونها فى الجهة اليمنى من أحزمتهم بحيث يضعون فيها طعامهم الخفيف وقت الحرب.

٣٢- السلوك، ج١، ض٤٣٠ .

وأرادوا أن يرسلوا معه قوات لمساعدته « ... فشكرهم وأخلع عليهم واستحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه، وأقسم لهم أنه متى تبعه منهم فارس أو راجل يريد أذى عسكر المسلمين رجع وقاتلهم قبل أن يلقى التتر ». ويذكر المؤرخ ستيفن رنسمان أن بارونات عكا الصليبيين اجتمعوا لمناقشة الموقف وأنهم كانوا يشعرون بالمرارة بسبب نهب المغول لصيدا ، كما أنهم كانوا يخشون هذه القوات الشرقية ذات السجل الحافل بالمذابح الجماعية . ومن ناحية أخرى ، كانت الحضارة الإسلامية مألوفة لديهم، ولذا كانت غالبيتهم تفضل المسلمين على التتار؛ بعكس المسيحيين المحليين الذين عاملهم المغول معاملة ودية. ويؤكد ما ذكره المقريزى من أنهم عرضوا على السلطان قطز إمداده بقوات مساعدة ، ولكنه يذكر أن مقدم الفرسان التيوتون المدعو آنو السانجرهازون Anno of Sangerhausen حذرهم من التمادى فى الثقة بالمسلمين إلى هذا الحد، لاسيما إذا ما انتصروا وشعروا بقوتهم. ومن ثم استبعدت فكرة التحالف العسكرى، وقدموا للسلطان وعداً بحرية المرور وتقديم التسهيلات اللازمة[٣٣].

فى الوقت نفسه أخذ الأمير ركن الدين بيبرس يناوش قوات المغول ويراوغها حتى يخفى تحركات الجيش الرئيسى. ثم انضمت قوات الجيش الرئيسى إلى القوة الاستطلاعية التى كان يقودها بيبرس عند عين جالوت على أرض الشام.

من ناحية أخرى، كان كتبغا وبيدرا نائبا هولاكو فى قيادة قوات الجيش المغولى قد جمعا شراذم القوات المغولية التى كانت قد تفرقت ببلاد الشام فى جيش موحد لمحاربة قوات سيف الدين قطز . وكان كتبغا نوين بالبقاع فى لبنان الحالى، فاستدعى الملك الأشرف موسى ابن المنصور صاحب حمص ، وقاضى القضاة محيى الدين واستشارهم فى ذلك؛ فمنهم من أشار بعدم الالتحام بقوات السلطان سيف الدين قطز حتى يجئ المدد من هولاكو ، ومنهم من أشار بغير ذلك[٣٤] . ولكن قائد المغول قرر التقدم . بجيشه لقتال المسلمين. وكان جيش سيف الدين قطز قد تكاثر بمن انضم إليه من جنود الشام والخوارزمية؛ فضلا عن أعداد كبيرة من المتطوعين الذين خرجوا من مصر وسائر بلاد المنطقة العربية للجهاد فى سبيل الله .

٣٣- Steven Runciman A History of the Crusades , (Harper Torch books, New York, 1967), vol . III , pp. 311-312 .

٣٤- ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٧٩ .

وهكذا ، باتت القوات الإسلامية والقوات المغولية على وشك الصدام. وتم فعلاً الصدام على أرض عين جالوت فى السادس والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م.

كانت معركة «عين جالوت» ، التى جرت يوم السادس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨هـ ٣ سبتمبر ١٢٦٠م، واحدة من المعارك الفاصلة فى تاريخ المنطقة العربية بأسرها من ناحية، كما كانت بمثابة تأكيد الوجود العسكرى والسياسى لدولة سلاطين المماليك من ناحية أخرى. وإذا كانت معركة المنصورة، قبل عشر سنوات ، بمثابة صرخة الميلاد التى أعلنت عن قيام دولة سلاطين المماليك ، فإن معركة عين جالوت كانت شهادة الميلاد الرسمية لهذه الدولة .

فقد كانت غاية ما يهدف إليه أمراء المماليك الذين تولوا قيادة الجيش المصرى أن يدفعوا خطر المغول بعيداً عن حدود دولتهم؛ بيد أن تداعيات الحرب جعلت الجنود المصريين والشوام، الذين صحبتهم أعداد هائلة من المتطوعين ، يستأصلون شأفة جيش المغول من بلاد الشام أيضًا. وقد أثبتت هذه المعركة أن الأمن المصرى يبدأ فى بلاد الشام عامة، وفى فلسطين على نحو خاص . وهو أمر تؤكده التجارب التى مرت على المنطقة طوال تاريخها . وكانت النتيجة النهائية لهذه المعركة الحاسمة توحيد مصر وبلاد الشام تحت حكم سلاطين المماليك على مدى مايزيد على مائتين وسبعين سنة.

كانت معركة عين جالوت واحدة من أكثر المعارك حسمًا فى التاريخ. صحيح أنه بسبب الأحداث التى حدثت على بعد أربعة آلاف ميل من ميدان المعركة كان الجيش المغولى أضعف من أن يستطيع إخضاع المماليك. ذلك أن هولاكو اضطر إلى أن يأخذ قسمًا كبيراً من جيشه عندما علم بموت أخيه الخان الأعظم منجو خان رحل مسرعًا صوب العاصمة قراقورم ليحضر اجتماع القورلتاى (أى مجمع زعماء التتار) ، ثم توقف فى تبريز من بلاد فارس عندما علم باختيار أخيه قوبيلاى فى منصب الخان الأعظم، على نحو ما ذكرنا من قبل . لكن الحقيقة أن انتصار عين جالوت أنقذ العالم الإسلامى من خطر فادح لم يواجه مثله من قبل. ذلك أن المغول إذا استولوا على مصر لم تكن هناك دولة إسلامية كبيرة أخرى يمكن أن تواجههم. حقيقة أن المسلمين فى آسيا كانوا من الكثرة بحيث لم يكن ممكنًا أن يقضى المغول عليهم؛ بيد أنهم لم يعودوا هم الحكام فى تلك المناطق. وعلى الرغم من أن المؤرخين الأوربيين ومنهم ستيفن رنسمان[٣٥] يسرفون فى تصوير ما كان سيحدث من تعاطف مغولى مع المسيحيين «لو»

٣٥- Steven Runciman, Op.cit, pp. 313-314 .

انتصر المغول بقيادة كتبغا نوين المسيحى النسطورى، فإن التاريخ لايعرف الاحتمالات ، ولايستخدم «لو» لأن مهمة المؤرخ أن يحكى ما حدث بالفعل ويقوم بتحليله

وما حدث بالفعل هو أن معركة عين جالوت أسفرت عن هزيمة ساحقة للمغول من ناحية، ومن ناحية أخرى جعلت سلطنة المماليك فى مصر وبلاد الشام القوة الرئيسية فى المنطقة على مدى القرنين التاليين على الأقل؛ أى حتى ظهور الإمبراطورية العثمانية فى القرن الخامس عشر الميلادى. وربما يكون من المناسب هنا أن نشير إلى أننا نرى أن الخطر المغولى على العالم الإسلامى لم يكن يمثل فداحة الخطر الصليبى عليه. حقيقة أن المغول قد زلزلوا أركان العالم الإسلامى بعنفهم المدمر؛ ولكنهم لم يلبثوا أن ذابوا فى خضم الحضارة العربية الإسلامية. بل إنهم صاروا بعد جيلين من المساهمين في بناء هذه الحضارة والحفاظ عليها. وكان خطرهم آنيًا مؤقتًا يكمن فى تفوقهم العسكرى الذى جعلهم يطوون البلاد بسرعة عجيبة. أما فرنج الغرب «الصليبيون» فكان لديهم مشروع لايتحقق سوى بالقضاء على الوجود الحضارى للمسلمين ، والعرب (مسلمين وغير مسلمين) . كما أن العنف المدمر لم يكن ينقصهم. وكانت الحروب الصليبية فى جوهرها حروبًا استيطانية توسعية تحت راية الصليب؛ ومن ثم كانت صراعًا بين الحضارة العربية الإسلامية صاحبة الأرض والحق، والحضارة الأوربية الكاثوليكية التى قامت بعدوانها على أرض تبعد ألف ومائتى ميل عن مركز الدعوة الصليبية . ولم يحدث من قبل ، أو من بعد، أن توحدت أوربا فى مشروع واحد مثلما توحدت تحت راية المشروع الصليبى، كذلك كان الصراع صراع وجود على الأرض العربية على الشواطئ الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط، وكان لابد لهذا الصراع أن يسفر عن بقاء أحد الطرفين، وتدمير الآخر. إذ كان الصليبيون يتحركون بدافع من أيديولوجية عنصرية تنكر حق الوجود على الآخرين، كما وجهوا اهتمامهم صوب تفريغ المناطق السكانية من أصحابها الأصليين لتوطين عناصر بديلة غريبة جاءت من أنحاء أوربا ؛ وهو ما تقوم به العصبة الصهيونية فى فلسطين حاليًا .

على أية حال، جاءت معركة عين جالوت يوم الجمعة بعد طلوع الشمس « ... وفى قلوب المسلمين وهم عظيم من التتر... »[٣٦].

٣٦- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٤٣٠- ص٤٣١ .

وعين جالوت إسم لبلدة صغيرة فى الريف الفلسطينى تقع بين بيسان ونابلس. واسمها يرتبط بالأسطورة التى تقول إن داود قتل جالوت فى هذا المكان . وقد أسماها الفرنج بعد احتلالهم فلسطين طوبانيا Tubanéa [٣٧]. وفى صباح يوم المعركة امتلأ الوادى بالجنود والناس الذين كانوا قد توافدوا متطوعين أو للقيام بالخدمات التى يحتاجها الجنود عادة، وهو أمر كان شائعًا فى تلك العصور التى لم تعرف جيوشها أسلحة الخدمات التى تعرفها الجيوش الحديثة. وكَثُر صياح أهل القرى من الفلاحين.

ثم بدأت الكوسات والطبول تدق لتجميع قوات جيش المماليك، وهى الموسيقى العسكرية التى تحمل أوامر يفهمها الجنود ، واتخذ جيش المغول موقعه صوب الجبل على حين كان جيش المسلمين بقيادة سيف الدين قطز ، سلطان الديار المصرية، فى الوادى.

ويرى بعض المؤرخين العسكريين أن «التجهيز القتالى لقرار قطز الذى اتخذه قبل المعركة، والذى يتخلص فى أن يزحف بجيوشه بواسطة مقدمة الجيش، وليس كما كان كالمعتاد بواسطة جواسيس أو طلائع محددة ، حينما أرسل بيبرس على رأس مقدمة الجيش لاستطلاع قوات التتار ودراسة مواقعهم وقواتهم وأسلحتهم وقيادتهم وخططهم . كان هو الشئ الجديد فى ذلك الزمن الذى لم يشاهد من قبل فى حروب العرب السابقة ، وهو التطبيق التكتيكى السليم؛ إذ يعنى ذلك دراسة العدو للوصول إلى أفضل أسلوب لتدميره بأقل خسائر ممكنة وهو الأسلوب الجديد، حيث كان كل أمراء المدن العربية يكتفون بتقوية الحصون عندما تصلهم تهديدات التتار ويؤثرون السلامة فى الدفاع من وراء الأسوار. أما قطز ، قائد الجيش المملوكى، فقد كشفت خطته عن فهمه الجيد لفنون القتال كما سبق مما تقدم ، والتى حقق بها بيبرس أول مرحلة قتالية من الخطة الاستراتيجية بتدمير الحرس الأمامى للمغول فى غزة ، وذلك قبل موقعة عين جالوت بقيادة «بيدرا » واسترد منهم غزة وطاردهم حتى نهر العاصى»[٣٨].

٣٧- Encyclopadia of Islam, Art . Ain Dgalut;

العبادى ، قيام دولة المماليك الأولى، ص١٦٤ .

٣٨- عميد أ. ح محمود نديم أحمد فهيم، الفن الحربى للجيش المصرى فى العصر المملوكى البحرى، (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣م) ، ص١٤٠ .

وعندما علم كتبغا نوين، قائد الجيش المغولى ، بهزيمة بيدرا قائد المقدمة ، تحول إلى كتلة متحركة من الغضب اللاهب. وأقبل بدافع الانتقام من جيش المماليك معتمداً على شهرة جنوده وفكرة الجيش المغولى الذى لايُهزم . ويمكن أن نستدل من أحداث المعركة[٣٩] على مدى الوعى فى التجهيز القتالى بكل عناصره ، وكيف طبق الجيش المصرى المبادئ الحربية السليمة حتى تحقق له النصر . فقد تجمع الجيش المصرى عند مدينة عكا حيث عقد السلطان سيف الدين قطز مؤتمراً حربيًا حضره رؤساء الفرق العسكرية لعرض خطة قرار المعركة. وهو أحدث ما وصل إليه الفن الحربى تكتيكيًا واستراتيجيا حيث يعرض القائد قراره على جنوده وضباطه ويستمع إلى آرائهم ويلقن كلاً منهم المهمة العسكرية المنوطة به .

ولم ينس السلطان قطز أن يلهب حماسة جنوده بخطبته التى أوردنا جزءاً منها فى الفصل السابق [٤٠]، وهذا ما يعرف فى عرف العسكريين بالتجهيز المعنوى للقتال .

وربما يكون مفيداً أن نورد وصفًا تفصيليًا للمعركة حسب شهادات المعاصرين وشهود العيان، ثم نستكمل العرض التحليلى لمعركة عين جالوت من وجهة نظر العسكريين المعاصرين. وهنا نعرض لرواية «صارم الدين أزبك بن عبدالله الأشرفى» الذى كان أسيراً لدى المغول عندما غزا هولاكو بلاد الشام ، ثم قبل الخدمة فى صفوف جيش المغول وحارب ضمن صفوف هذا الجيش فى معركة عين جالوت ؛ ففى هذا النص الهام رواية للمعركة من وجهة نظر المغول ستقابلها برواية من وجهة نظر المسلمين . تقول رواية صارم الدين أزبك[٤١] «... ولما قدمت الشام، وجدت التتار مجتمعين على نهر الأردن وقد خرجوا قاصدين الديار المصرية ، وقد خرج المسلمون للقائهم فلما علمت أن التتار لابد لهم من الديار المصرية، بعثت غلامًا لى فى

٣٩- سوف نعتمد فى هذا الجزء على التحليل العسكرى للمرحوم عميد أركان حرب محمود نديم باعتباره مؤرخًا عسكريًا عارفًا. انظر المرجع السابق ص١٤٠- ص١٤٨ .

٤٠- انظر : المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٤٢٩- ص٤٣٠ .

٤١- كان صارم الدين أزبك من مماليك الأشرف موسى حاكم حمص، وعمل فى وظائف الإدارة ببلاد الشام فترة من الزمن ، كما عاش فترة من حياته ببلاد المغول. وقد مكنه ذلك من أن يقدم معلومات دقيقة عن المغول وعاداتهم أملاها على موظف مملوكى آخر هو قرطاى العزى الخازندار (ت ٧٣٤هـ) وقد أورده ابن أيبك الدوادارى فى كتاب «كنز الدرر وجامع الغرر» ، ج٨، ص٥٣- ص٥٤ .

انظر أيضًا : أحمد مختار العبادى، قيام دولة المماليك الأولى، ص١٦٤- ص١٦٥ .

صفة جاسوس وأمرته أن يجتمع بالملك المظفر قطز، والأمير بيبرس البندقدارى وبلبان الرشيدى وسنقر الرومى، ويعرفهم أن التتار فى عسكر قليل. وأوصيته أن يراعى المسلمون أن يكون الملتقى عند طلوع الشمس . فلما وصل غلامى إلى عسكر المسلمين وجدهم خائفين من التتار خوفًا عظيمًا ، فاجتمع ببعض الأمراء الذين عرفته بهم، وعرفهم ما أوصيتهم به . وكنت قلت فى كلامى : قل للأمراء لاتخافوا ، ها أنا وأصحابى والملك الأشرف ، ننهزم بين أيديكم، والله وكذلك كان . فلما سمع الأمراء كلام غلامى ، قال بعضهم لبعض : «لايكون هذا معمولية على المسلمين». فلما كان ملتقى الجمعين على «عين جالوت» ، طلعت الشمس علينا، وطلت عساكر الإسلام ، كان أول سنجق سبق أحمر وأبيض ، وكانوا لابسين العدد المليحة، وأشرقت الشمس على تلك العدد ، فطلبنى كتبغا وقد بُهت هو والتتار الذين معه لكثرة تلك العساكر وحسن ما عليهم وجمالهم وهم ينحدرون من الجبل ، وقال لى «ياصارم هذا رَنْك من ؟ »[٤٢] قلت : «سنقر الرومى»، ثم ظهرت سناجق صفر، قال «هذا رنك من ؟ » قلت «بلبان الرشيدى» ثم تتابعت الأطلاب أولاً فأولاً وانحدروا من سفح الجبل ، ودقت الكوسات والطبلخانات وامتلأ الوادى والبر من العياط . وجاءت الفلاحين وأهل القرى والبلدان من كل جانب وكنت غراً لا أعرف رنوك المسلمين، فصار كتبغا يسألنى «هذا رنك من؟» فصرت أى شئ طلع على لسانى قلته. ثم إن التتار انحازوا إلى الجبل، وفتح الله ونصر هذه الملة المحمدية بالمماليك الترك البحرية ، ولم يسلم من التتر من يرد الخبر إلى هلاوون ، ولكن قتل الجميع ، ولم يرد خبرهم إلا من كان مقيمًا بدمشق أو حلب».

هذه الرواية من الجانب المغولى تقابلها رواية من الجانب الإسلامى أوجزها تقى الدين المقريزى على النحو التالى [٤٣]:

٤٢- «رُنك» كلمة فارسية معناها «لون» ، واستخدمت فى تلك الفترة بمعنى «الشعار» أو الرمز الدال على الأمير أو الأسرة أو الوظيفة . وفى دولة سلاطين المماليك كان لكل أمير رُنك خاص به يدل على وظيفته، وكان أمراء المماليك يرسمون هذه الرنوك على أبواب بيوتهم، ومطابخ السكر الخاضعة لهم، وشون الغلال والمراكب... وما إلى ذلك، كما كانوا يضعون رنوكهم على قماش خيولهم من جوخ ملون مقصوص، أو على قماش جمالهم من خيوط صوف ملونة ، وربما نقشوه على أسلحتهم وأسلحة مماليكهم .

انظر: القلقشندى، صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٦١- ص٦٢ .

٤٣- المقريزى ، السلوك، ج١ ، ص٤٣٠- ص٤٣١ .

« ... وقد امتلأ الوادى، وكثر صياح أهل القرى من الفلاحين ، وتتابع ضرب الكوسات للسلطان والأمراء؛ فتحيز التتر إلى الجبل. فعندما اصطدم العسكران اضطرب جناح عسكر السلطان ، وانتقض طرف منه ؛ فألقى الملك المظفر عند ذلك خوذته عن رأسه إلى الأرض، وصرخ بأعلى صوته : «وإسلاماه» وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة ، فأيده الله بنصره وقُتل كتبغا مقدم التتر، وقُتل بعده الملك السعيد حسن بن عبد العزيز وكان مع التتر، وانهزم باقيهم، ومنح الله ظهورهم للمسلمين يقتلون ويأسرون ، وأبلى الأمير بيبرس أيضًا بلاءً حسنًا بين يدى السلطان».

«ومما اتفق فى هذه الواقعة ، أن الصبى الذى أبقاه السلطان من رسل التتر وأضافه إلى مماليكه، كان راكبًا وراءه حال اللقاء. فلما التحم القتال فوّق سهمه نحو السلطان ، فبصر به بعض من كان حوله فأمسك وقتل مكانه وقيل بل رمى الصبى السلطان بسهمه فلم يخطئ فرسه وصرعه على الأرض، وصار السلطان على قدميه فنزل «فخر الدين ماما » وأركبه فرسه ، حتى حضرت الجنائب (أى الخيول الاحتياطية) فركب فخر الدين منها ».

«ومرّ العسكر فى أثر التتر إلى قريب بيسان فرجع التتر وصافوا مصافًا ثانيًا أعظم من الأول، فهزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهم. وكان قد تزلزل المسلمون زلزالاً شديداً فصرخ السلطان صرخة عظيمة ، سمعه معظم العسكر وهو يقول : «وإسلاماه» ثلاث مرات «يا الله، أنصر عبدك قطز على التتار». فلما انكسر التتار الكسرة الثانية، نزل السلطان عن فرسه، ومرّغ وجهه على الأرض وقبلها ، وصلى ركعتين شكراً لله تعالى ثم ركب، فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالغنائم»[٤٤].

هكذا ، اقتضى الأمر أن يخوض المصريون معركتين عند عين جالوت وبيسان لكى يجهزوا على القوات المغولية ، وعلى الرغم من شدة القتال فى الحالين فإن النصر حالف جيش المسلمين لأن الإعداد لهذه المعركة كان جيداً. ولقد طبقت القوات المصرية مبدأ المفاجأة على المستوى الاستراتيجى بنقل ميدان المعركة خارج الأرض المصرية، وتكتيكيًا بإخفاء القوات الرئيسية فى

٤٤- قارن هذه الرواية بروايات كل من :

ابن أيبك الدواداري ، كنز الدرر، ج٨ ، ص٤٩- ص٥٩ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، ج٧ ص٧٨- ص٨١ ؛ بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج٩ ، ص٦٩- ص٧٠ .

التلال والأحراش القريبة من عين جالوت. ولم يظهر للعدو إلا المقدمة التى قادها بيبرس ووقع كتبغانوين فى الفخ لأنه هاجم بكل قواته ضد قوات ركن الدين بيبرس الذى كان يقود طليعة جيش المماليك فقط. ولم يحتفظ القائد المغولى بأية احتياطيات مما ساهم فى التعقيدات العسكرية التى أدت إلى هزيمته (٤٥).

لقد هاجم كتبغا ميسرة الجيش المصرى بحيث تمكن جنوده المغول من تشتيت القوات المقاتلة فى هذا الجانب، ولكن شجاعة السلطان سيف الدين قطز وثباته على رأس جنوده أنقذت الموقف؛ إذ جعل صيحة الحرب التى أطلقها بنفسه «واإسلاماه» ، وسرعان ما انقض بجنوده على الجيش المغولى الذى ارتد مذعوراً، وفرَّ الجنود المغول إلى التلال المجاورة بحثًا عن ملاذ يحميهم بعد أن شاهدوا قائدهم كتبغا نوين يسقط سريعًا فى أرض المعركة ، وبعد أن تمكنت قوات المماليك من أسر ابنه(٤٦).

كانت تلك هى المرحلة الأولى من الحرب ضد المغول، وكانت نتائج تلك المعركة حاسمة على المدى البعيد، ولكن المعركة العسكرية كانت بحاجة إلى أن تحسم ضد فلول المغول الذين ما لبثوا أن تجمعوا عند «بيسان» القريبة من «عين جالوت» ، ثم اشتبك الجيشان فى معركة أشد وطأة من الأولى حسبما تذكر المصادر التاريخية العربية(٤٧) ولقى المغول هزيمة كاملة هذه المرة.

كانت تلك هى المرة الأولى التى يلقى فيها المغول هزيمة بهذه الفداحة وبهذا الحجم. وكان من أهم نتائج معركة عين جالوت أن تبدد الخوف منهم، وتلاشت الأسطورة القائلة بأنهم قوة لايمكن هزيمتها. ومن ناحية أخرى ، تغيرت موازين القوى السياسية والعسكرية فى المنطقة العربية بشكل كامل، وعلى مدى عدة قرون قادمة . فقد ذابت فى طيات الموجات المغولية القوة السياسية والعسكرية للخلافة العباسية من ناحية الشرق، كما اختفت التيجان الأيوبية الصغيرة ببلاد الشام فى خضم الصراع ضد المغول. أما أكثر النتائج السياسية والعسكرية أهمية على الإطلاق ، فقد تجسدت فى ظهور دولة سلاطين المماليك ، وريثًا شرعيًا لكل من

٤٥- محمود نديم، الفن الحربى، ص١٤١ .

٤٦- أبوشامة، الذيل على الروضتين ، ص٢٠٧ ؛ انظر : العبادى ، قيام دولة المماليك، ص١٦٦ ؛ محمود نديم ، المرجع السابق، ص١٤٧ . وكان الذى قتل كتبغانوين قائد المغول هو الأمير جمال الدين آقوش الشمسى . انظر : ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٧٩ .

٤٧- المقريزى ، السلوك، ج١، ص٤٣١ .

الأيوبيين والعباسيين على السواء. فبعد عين جالوت مباشرة، استولى السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز على بلاد الشام كلها «... من الفرات إلى حد مصر...»[٤٨] وكان قطز هو «... أول من ملك البلاد الشامية واستناب بها من ملوك الترك ...»[٤٩] وهكذا، توطدت أركان دولة سلاطين المماليك باعتبارها القوة الإقليمية الكبرى فى المنطقة العربية ، كما تم توحيد مصر والشام تحت حكمها فى خضم الصراع ضد المغول . ذلك أن انتصار الجيش المملوكى فى عين جالوت أنهى المقاومة الأيوبية لحكم سلاطين المماليك إلى الأبد، كذلك فإن السلطان الظاهر بيبرس البندقداري أعاد إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة مما جعل هذه المدينة العاصمة السياسية والعسكرية والثقافية للعالم العربى على ما يزيد على قرنين ونصف من الزمان.

كان انتصار المسلمين بقيادة سيف الدين قطز فى «عين جالوت» بمثابة المسمار الأخير فى نعش الوجود المغولى ببلاد الشام من ناحية ، كما كان نذير شؤم بالنسبة للوجود الصليبى فى هذه البلاد من ناحية أخرى[٥٠].

لقد وصل خبر هزيمة المغول إلى دمشق يوم الأحد السابع والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م. وبدأ النواب والولاة الذين كان التتار قد عينوهم لحكم بلاد الشام فى الفرار خوفًا من بطش الناس «... ففر الزين الحافظى ونواب التتار من دمشق وتبعهم أصحابهم فامتدت إليهم أيدى أهالى الضياع ونهبوهم، فكانت مدة استيلاء التتر على دمشق سبعة أشهر، وعشرة أيام » [٥١].

٤٨- المقريزى ، السلوك، ج١، ص٤٣٣ ؛ بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة، ج٩، ص٧٠ .

٤٩- ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة، ج٧ ، ص٨٣ .

٥٠- تولت دولة سلاطين المماليك، منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس- خليفة قطز - حتى عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاون ، مهمة القضاء على الكيان الصليبى فى فلسطين وكان الاستيلاء على عكا سنة ١٢٩١م هو الحدث الأخير فى هذا السبيل.

انظر : قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية (دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، القاهرة ١٩٩٣م) ، ص١٦٨- ص١٦٩ .

٥١- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٤٣٢ .

فى نفس هذا اليوم نزل السلطان سيف الدين قطز بجيشه على طبرية، وكتب رسالة يبشر الناس فى دمشق بالنصر الذى حققه المسلمون على المغول وهزيمتهم أمام بسالة جيشه «.. وهو أول كتاب ورد منه إلى دمشق...» ولدينا نص نقله القلقشندى (٥٢)، ربما كان من إنشاء القاضى الفاضل، جاء فيها :

«... أما النصر الذى شهد الضرب بصحته ، والطعن بنصيحته ، فهو أن التتر خذلهم الله تعالى، استطالوا على الأيام، وخاضوا بلاد الشام، واستنجدوا بقبائلهم على الإسلام:

سعى الطمع المردى بهم لحتوفهم ... ومن يسكن ذيل المطامع يعطب

فأقلعت بهم طرائق الضلال ، وسارت مراكب أمانيهم فى بحار الآمال ، فتلك آمال خائبة، ومراكب للظنون عاطبة ... هذا وعساكر المسلمين مستوطنة فى مواطنها ، جاذبة عقبانها فى وكور ظباها ، رابضة آسادها فى غيل أقناها ، ما تزلزل لمؤمن قدم إلاّ وقدم إيمانه راسخة ، ولاثبتت لأحد حجة إلا وكانت الجمعة ناسخة، ولاعقدت برجمة ناقوس إلاّ وحلّها الآذان ، ولا نطق كتاب إلا وأخرسه القرآن .

ولم تزلْ أخبار المسلمين تنتقل إلى الكفار ، وأخبار الكفار تنتقل إلى المسلمين، إلى أن خلط الصباح فضته بذهب الأصيل ، وصار اليوم كأمس ، ونُسخت آية الليل بسورة الشمس، واكتحلت الأعين بمرور السُّبات ، وخاف كل من المسلمين إصدار الأبيات :

ينام بإحدى مقلتيه ويتقى ... بأخرى الأعادى، فهو يقظان نائم

إلى أن تراءت العين بالعين، واضطرم نار الحرب بين الفريقين ، فلم ترْ إلا ضربًا يجعل البرق نضواً ، ويترك فى بطن كل من المشركين شلواً ... وقتل من المشركين كل جبار عنيد، ذلك بما قدمت أيديهم (وما ربك بظلام للعبيد) » .

هذا الكتاب الذى يحمل بشارة النصر على المغول كان له وقع إيجابى شديد على الناس فى بلاد الشام ، فقد سُرُّوا به سروراً كبيراً. وترجموا سرورهم إلى مجموعة أعمال انتقامية ضد نصارى بلاد الشام لأنهم «... فى مدة استيلاء التتر هموا مراراً بالثورة على المسلمين وخربوا مساجد ومآذن كانت بجوار كنائسهم، وأعلنوا بضرب الناقوس وركبوا الصليب، وشربوا الخمر

٥٢- صبح الأعشى، ج٧، ص٢٦٠- ص٢٦٢ .

في الطرقات ورشوه على المسلمين ... »[٥٣] وامتدت أيدي الانتقام إلى اليهود فنهب أهل دمشق ممتلكاتهم . وباتت الفوضى تهدد الحياة في بلاد الشام لولا أن بادر الجنود بمنعهم . ثم وصل الأمير جمال الدين المحمدي الصالحي بمرسوم السلطان قطز في نهار اليوم التاسع والعشرين من شهر رمضان بتأمين الناس وتوطينهم وبذلك هدأت الأحوال في دمشق التي صارت من أملاك سيف الدين قطز .

وفي يوم الأربعاء آخر شهر رمضان من تلك السنة وصل السلطان المظفر سيف الدين قطز إلى ضواحي دمشق حيث عسكر هناك حتى ثاني شوال، فدخل دمشق وأقام بقلعتها [٥٤].

وهكذا استولى المظفر قطز في غضون عدة أيام على عاصمة الشام واستتب الأمن والنظام بسرعة . وفي غضون أسابيع قليلة تمكن من الاستيلاء على سائر بلاد الشام حيث أقيمت له الخطبة في مساجد المدن الكبرى حتى حلب ومدن الفرات في أعالي بلاد الشام[٥٥] ويحكي ابن أيبك الدواداري[٥٦] نقلا عن القاضي عز الدين بن شداد أن الملك المظفر قطز ، عندما ملك دمشق كان عازمًا على التوجه إلى حلب ليكشف أحوالها ويصلح ما خرب منها على أيدي التتار « ... فوشي إليه واش أن الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري مع جماعة من الأمراء البحرية متنكرين له ومتغيرين عليه، فضرب وجهه إلى ناحية الديار المصرية... ».

على أية حال فإن السلطان سيف الدين قطز أخذ يعمل على إعادة الأمن إلى نصابه في جميع مدن بلاد الشام. ويبدو أنه لم يكن مطمئنًا تمامًا إلى أنه قد أمسك بزمام الأمور السياسية في يديه ؛ فعمل على ترتيب أحوال الشام بسرعة حتى يتمكن من العودة إلى مصر فأقطع الأمراء الصالحية والمعزية وأصحابه إقطاعات الشام. وجعل نائبه في دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي ومعه الأمير أبو الهيجاء بن عيسى بن خشتر الأزكشي الكردي [٥٧].

٥٣- ابن أيبك الدواداري ، كنز الدرر، ج٨ ، ص٥٢ ؛ المقريزي، السلوك ، ج١ ، ص٤٣٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٨١ ، وقد طالت هذه المذابح شراذم التتار الذين وجدهم التتار بالشام، كما راح ضحيتها أولئك النفر من المسلمين الذين كانوا يساعدون التتار أثناء فترة احتلالهم للمدينة .

٥٤- المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ص٤٣٢ .

٥٥- ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج٧، ص٨٢- ص٨٣ .

٥٦- ابن أيبك الدواداري ، كنز الدرر، ج٨ ، ص٦٠ .

٥٧- المقريزي، السلوك ، ج١ ، ص٤٣٣ .

ومن مفارقات التاريخ فى تلك الفترة أن السلطان المظفر سيف الدين قطز أعاد ملوك الأيوبيين أصحاب العروش الصغيرة إلى عروشهم ملوكًا تابعين لسلطان مصر المملوكى بعد أن كانوا يحاولون محاولات مستميتة عزل سلاطين المماليك. فقد بعث إليه الأشرف موسى، حاكم حمص ، والذى كان هولاكو قد عينه نائبًا له فى حكمها وفى بلاد الشام، يطلب الأمان فاستجاب قطز وأمنّه وأقره على عرشه. كذلك بعث بالملك المظفر علاء الدين على بن بدر الدين لؤلؤ ، صاحب سنجار ، ليكون نائبًا للسلطان فى مدينة حلب ، ووزع الإقطاعات فى المناطق الريفية المحيطة بحلب على الأمراء الموالين له . كذلك قام سيف الدين قطز ببعض التعديلات الإدارية البسيطة فى بلاد الشام ؛ فأقر الملك المنصور على حماة وبارين، وأعاد له المعرة التى كانت بيد حكام حلب منذ سنة ٦٣٥هـ . ومن ناحية أخرى ، أخذ منه سلمية وأعطاها الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العرب . وعين الأمير شمس الدين آقوش البرلى العزيزى أميراً بالساحل وغزة ومعه عدد من أمراء العزيزية. وكان هذا الأمير قد فارق الناصر يوسف ، صاحب دمشق وحلب ، وانضم إلى قوات السلطان قطز فى القاهرة ، ثم خرج فى جيش السلطان وحارب معه فى عين جالوت [٥٨].

هكذا قام السلطان قطز بترتيب حكم الشام، وأعاد إلى ربوعها الأمن والاستقرار الذى كان مفقوداً منذ غزاها المغول، وفى تلك الأثناء كان الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى يطارد شراذم المغول فى أعالى بلاد الشام حتى لحق بهم فى حمص ، وطلب المغول الفرار بحياتهم و «... ألقوا ما كان معهم من متاع وغيره ، وأطلقوا الأسرى وعرجوا نحو طريق الساحل فتخطف المسلمون منهم وقتلوا خلقًا كثيراً وأسروا أكثر، فلما بلغ هولاكو كسرة عسكره وقتل نائبه كتبغا عظم الأمر عليه، فإنه لم يكسر له عسكر قبل ذلك ورحل من يومه ...» [٥٩].

٥٨- نفسه، والمماليك العزيزية ، ومنهم شمس الدين آقوش ، هم مماليك الملك المعز محمد صاحب حلب، وبعد وفاته انتقلوا إلى خدمة ابنه الناصر يوسف . وقد غير هذا الأمير ولاءه عدة مرات حتى اعتقله الناصر يوسف بقلعة عجلون ، ثم أطلق سراحه عندما غزا التتار بلاد الشام . فلجأ البرلى وأصحابه إلى مصر حيث أكرم قطز وِفادتهم .

راجع : أبو الفداء، المختصر فى أخبار البشر، ج٣ ، ص٢١٥- ص٢١٦ ؛ العبادى، قيام دولة المماليك الأولى، ص١٧١ .

٥٩- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٤٣٤ .

وفى اليوم السادس والعشرين من شهر شوال توجه السلطان سيف الدين قطز بجيشه الظافر صوب مصر ، وبينما كانت القاهرة تتزين لاستقبال القائد المنتصر كان القدر يخبئ له مصيراً مأساويًا على يد أبرز قادة جيشه وغريمه الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى.

بينما كان السلطان سيف الدين قطز يستعد للعودة إلى مصر، التى أعدت زينتها لاستقبال البطل المنتصر بما يليق وما حققته جيوشه من انتصارات باهرة ضد عدو مخيف تطورت الأحداث بالشكل الذى جعل السلطان قطز يلقى حتفه قبل أن يرى الزينات التى أعدها رعاياه لاستقباله .

كان السلطان قد رتب الأمور فى بلاد الشام ، وعين النواب والولاة والشادين، ثم خرج من دمشق عائداً إلى مصر . وكان قد قرر التوجه إلى حلب ولكن بعض الوشاة أبلغوه أن الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى وجماعة من الأمراء البحرية قد تنكروا له وأنهم يضمرون شراً (٦٠).

ثم خرج المظفر قطز من دمشق عائداً إلى مصر حتى وصل إلى بلدة القصير (٦١). وبقى السلطان بهذه البلدة مع عدد من خواصه على حين رحل بقية الجيش إلى الصالحية بإقليم الشرقية فى مصر . وهناك أقيم الدهليز السلطانى (الخيمة السلطانية) . وفى الوقت نفسه بلغت مسامع الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى أنباء عن أن السلطان قطز يضمر له السوء فبالغ فى الحرص والحذر. وبات الغريمان يتربص كل منهما بالآخر. ولكن بيبرس البندقدارى بما عرف عنه من جسارة ودهاء بادر إلى العمل ضد السلطان « ... وحدث بيبرس جماعة من الأمراء فى قتل السلطان ؛ منهم الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى، والأمير سيف الدين بهادر المعزى، والأمير بكتوت الجوكندار المعزى والأمير بيدغان الركنى، والأمير بلبان الهارونى، والأمير بدر الدين أنس الأصبهانى »(٦٢) وأخذ أولئك الأمراء يتحينون الفرص لقتله إلى أن

٦٠- ابن أيبك الدواداري . كنز الدرر ، ج٨ ، ص٦٠ ؛ المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٣٤٣ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٨٢ .

٦١- هى اليوم قرية الجعافرة إحدى قرى مركز فاقوس بمحافظة الشرقية فى مصر . انظر هامش رقم ج٧ ، ص٨٣ من النجوم الزاهرة .

٦٢- المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٤٣٥ .

وصل إلى القصير «... وقالوا متى فاتتنا هذه المنزلة وصل إلى القلعة، وأعجزنا مرامه، ولم نأمن انتقامه...»[٦٣].

هكذا، عقد المتآمرون العزم على قتل السلطان سيف الدين قطز وحرمانه من التمتع بثمار النصر الكبير الذى أحرزه على جحافل المغول. وقد تنوعت روايات المؤرخين المعاصرين حول الأسباب التى أدت إلى هذا الموقف من جانب ركن الدين بيبرس البندقدارى ورفاقه، ويحسن بنا أن نحاول مناقشة هذه الأسباب:

يقول ابن أيبك الدوادارى [٦٤]: «وحكى لى والدى- رحمه الله- عن مخدومه الأمير سيف الدين بلبان الدوادار الرومى، قال: إن يوم المصاف هربت جماعة من الأمراء من خشداشية الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى. فلما انتصر الإسلام، تنمر عليهم السلطان المظفر، ووبخهم، وشتمهم، وتوعدهم، فاضمروا له السوء، وحصلت الوحشة منذ ذلك اليوم. ولم تزل الحقايد والضغائن تتراءى فى صفحات الوجوه وغمزات العيون، وكل منهم يترقب من صاحب الفرصة ...».

أما المؤرخ تقى الدين المقريزى[٦٥] فيقول إن سبب ذلك أن الأمير ركن الدين بيبرس طلب من السلطان المظفر قطز أن يوليه نيابة حلب، فلم يرض فأضمرها فى نفسه «... ليقضى الله أمراً كان مفعولا ..».

أما بيبرس الدوادارى، وهو أقربهم إلى الأحداث فيقول [٦٦]: «... وذلك أنه (قطز) رحل من دمشق عائداً إلى الديار المصرية وفى نفوس البحرية منه ومن أستاذه ما فيها لقتلهما الفارس أقطاى، واستبدادهما بالملك وإلجائهم إلى الهرب والهجاج، والتنقل فى الفجاج، إلى غير ذلك من أنواع الهوان التى قاسوها، والمشقات التى لبسوها. وإنما انحازوا إليه لما تعذر عليهم المقام بالشام، والتناصر على صيانة الإسلام، لا لأنهم أخلصوا له الولاء، أو رضوا له الاستيلاء.

٦٣- بيبرس الدوادارى، زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، ج٩، ص٧٣.

٦٤- كنز الدرر، ج٨، ص٦٠.

٦٥- السلوك، ج١، ص٤٣٤.

٦٦- زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، ج٩، ص٧٣.

وقد بنيت المرعى على دمن الثرى   وتبقى حزازات النفوس كما هي

هذه هى الأسباب الرئيسية الثلاثة التى ساقها مؤرخو عصر سلاطين المماليك [٦٧]، وربما اختلفت تفاصيل الروايات قليلاً أو كثيراً . والراجح عندى أن السبب الذى ساقه المؤرخ بيبرس الدوادارى هو الأقرب إلى منطق الأمور ومفاهيم ذلك العصر.

فربما تكون رواية ابن أيبك الدودارى عن هروب بعض الأمراء من خشداشية بيبرس (أى زملائه) صحيحة ، ولكن استقراء أحداث المعركة وما حدث أثناءها من تفكك قسم من الجيش المصرى تحت وطأة الهجوم المغولى تجعل مثل هذا الهروب أمراً مفهومًا . ومن ناحية أخرى، فإن عودة أولئك الأمراء إلى ميدان القتال كانت كفيلة بأن تهدئ من نفس السلطان المزهو بانتصاره . ومع التسليم بأن السلطان قد وبخ أولئك الأمراء وشتمهم وتوعدهم ، فإن رجلاً فى مثل شخصية ركن الدين بيبرس لايقبل على قتل السلطان لمثل هذا السبب .

أما نيابة حلب، التى كان السلطان كان قد وعد بها بيبرس ثم أعطاها لغيره، فإنها أيضًا لايمكن أن تكون السبب الأساس فى مصرع السلطان على هذا النحو المأساوى . وربما تكون هذه الحكاية من مظاهر العلاقة السيئة بين الغريمين، بيد أنها لم تكن فى تصورى سبب سوء هذه العلاقة . فحلب ذات موقع استراتيجى هام فى شمال الشام، وتتحكم فى طرق التجارة وممرات الجيوش. وفى هذا الصدد ينبغى أن نتذكر أن محرر الموصل / حلب تحت قيادة آل زنكى هو الذى نجح فى استرداد الرها من الصليبيين فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى . ومن ثم، فربما يكون بيبرس قد طلبها لتكون نقطة إنطلاق لتحقيق طموحاته السياسية ، وربما يكون قطز قد أدرك هذا فضّن بها عليه .

يبقى السبب الثالث الذى تحدث عنه بيبرس الدوادارى . وفى تصورى أنه السبب الرئيسى لما حدث. فقد كان سيف الدين قطز أكبر مماليك السلطان عز الدين أيبك وكان من أهم الذين شاركوا فى قتل الأمير فارس الدين أقطاى ومطاردة المماليك البحرية من خشداشيته . كما أن البحرية عاشوا سنوات منفيين فى بلاد الشام ، ولم يمر عليهم الوقت دون مشكلات وحروب وسجن ومطاردات ساهم فى بعضها سيف الدين قطز بشكل مباشر أو غير مباشر. ومن المهم

٦٧- يقول ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٨٢) إن السلطان المظفر قطز كان قد وعد ركن الدين بيبرس بنيابة حلب » . فلما انتصر على التتار انثنى عزمه عن إعطائه حلب، وولاها لعلاء الدين على بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل...».

هنا أن نتذكر أن رابطة الخشداشية ، التى كانت تجمع بين المماليك ، كانت رابطة قوية للغاية . ومن ثم فإن بيبرس ورفاقه من المماليك البحرية كانوا يحملون رغبة الثأر لزميلهم أقطاى من ناحية، ولزملائهم الآخرين الذين قتلوا على يد قطز، أو بسببه، من ناحيةٍ أخرى، فضلاً عما نالهم من الهوان والمذلة فى منفاهم من ناحية ثالثة .

ومن المهم أن نتذكر أيضًا أن الدم كان الطريق إلى عرش سلطنة المماليك منذ البداية ؛ فقد اعتلت شجر الدر العرش بعد اغتيال تورانشاه آخر سلاطين الأيوبيين فى مصر. كما أنها هى وزوجها عز الدين أيبك لقيا حتفهما بسبب الصراع على السلطة. وبسبب طبيعة الحكم العسكرى فى دولة سلاطين المماليك، وتطبيقًا لمبدأ «الحكم لمن غلب» الذى قام عليه البناء السياسى لهذه الدولة ، كان طبيعيًا أن يفكر الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى فى إزاحة السلطان سيف الدين قطز من طريقه صوب عرش سلطنة المماليك. والراجح عندى أن بيبرس ظن أنه أحق بالعرش من قطز لاسيما وأنه صاحب دور كبير فى هزيمة الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك لويس التاسع قبل عشر سنوات فى المنصورة، كما أنه لعب دوراً كبيراً فى هزيمة المغول فى عين جالوت ، كما أنه كان أول من يلحق بهم هزيمة عندما دمر طليعة الجيش المغولى، ثم طارد فلوله المنسحبة حتى أعالى بلاد الشام. لقد كان بيبرس ابن عصره وكانت تلك هى الأفكار السياسية السائدة آنذاك.

ولايجب أن يظن أحد أن هذا دفاع عن بيبرس؛ فالتاريخ لايجب أن يفسر على أساس من أحكام القيمة ، وإنما يجب دائمًا أن نبحث فى طيات أحداثه عن العلاقة السببية التى تربط بين هذه الأحداث. كما أننا لاينبغى أن نحاكم عصراً تاريخيًا ما بناءً على مفاهيمنا السياسية أو نظامنا القيمى والأخلاقى، لأن ذلك العصر التاريخيى الذى نتناوله فى هذه الدراسة لم يكن يحمل مثل هذه المفاهيم، ولم تكن تصرفات الناس فيه محكومة بمثل هذا النظام القيمى والأخلاقى .

ولايعنى هذا ، من ناحية أخرى، أننا نقول إن السلطان سيف الدين قطز كان يستحق هذا الغدر والاغتيال . فالرجل بطل من أبطال تاريخ المسلمين . وعلى الرغم من قصر المدة التى قضاها على عرش السلطنة ، فقد استطاع أن يحفر لنفسه مكانة فى تاريخ أمته عجز الكثيرون، مما قضوا سنوات طويلة فى الحكم، أن يحققوا لأنفسهم أى قدر منها. بل إن كثيرين من الحكام كانت سنوات حكمهم المديدة فراغًا فى تاريخ أمتهم .

ولنتابع الآن قصة النهاية لبطل عين جالوت .

ولنقرأ القصة كما ترويها المصادر التاريخية. يقول بيبرس الدواداري ، صاحب كتاب «زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة»:

«... واتفق أنه [أي السلطان سيف الدين قطز] انفرد عن المواكب لتصيد الأرانب، وساق خلف أرنب عرض له وهم يرمقونه ، فلما رأوه قد بعد عن الأطلاب ساقوا في أثره ركضًا وجاءوا يتلو بعضهم بعضًا ؛ فتقدم إليه أنص الأصبهاني كأنه يشفع عنده في إصلاح حال الركن البندقداري لأنه قام في خدمته مدة ولم تعين له، وخرج إلى الغزاة برمحه ، وبذل فيها غاية نصحه ، فأجابه المظفر إلى سؤاله ، ووعده بإصلاح حاله، ، فأهوى إلى يده كأنه يقبلها فأمسكها ، فضبطها ضبطًا شديداً ، وعلاه الأمير ركن الدين البندقداري بسيفه . ثم اجتمعوا على من يملك ، وأعرضوا ذلك على الأمراء، فاستعف كل منهم واستقال ، واحجم عن الموافقة وسماع المقال . فعند ذلك تقدم الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب وقال: من هو قتل المظفر بسيفه ؟ فقالوا الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري ؛ فقال هو أحق بالملك وأولى . فوافقه الأمراء على ذلك، وأجلسوا المشار إليه»(٦٨).

ويقدم لنا ابن أيبك الدواداري رواية ثانية تختلف تفاصيلها ؛ إذيقول:

«وذلك لما وصل السلطان المرحوم الشهيد، سيف الدنيا والدين، قطز إلى منزلة القصير ثار قدامه أرنب، فساق عليه، وأرماه ، وتبعوه الأمراء المذكورين . وسبق الأمير عز الدين أنس إلى الأرنب وحصلها ، فأعجب السلطان منه ذلك ، كون هذا الأمير سبق إلى صيده، وترجل عن فرسه وحصله. فقال له : «إسأل ما تريد يا بيك إذا دخلنا مصر» فقال: «يا خوند، الجارية التي أخذها السلطان من سبي التتار». فقال : «نعم وعليَّ جهازها». فباس الأرض ، وتقدم ليقبل يد السلطان فمسك قايم سيفه مع يده . وكانت هذه هي الإشارة بينهم فبادره بكتوت الجوكندار. وضربه على عاتقه حله، ثم ثنى عليه أنس، فأرماه عن فرسه، ثم رماه بهادر المعزي بسهم، فقتله ، وعجل الله بروحه إلى عليين، وعوضه عن ملكه بملك جوازه الحور العين. وذلك يوم السبت سادس عشر ذي القعدة . وقيل إن أول من ضربه كان الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري ، وهو الصحيح والله أعلم».

٦٨- بيبرس الدودار، زبدة الفكرة ، ج٩ ، ص٧٣-٧٤ .

«ثم توجهوا إلى الدهليز ، واجتمعوا ، فتقرر الأمر للأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى، بعد محاورات كثيرة. فكان أول من تقدم وبايعه الأمير فارس الدين أتابك ، ثم الأمراء على طبقاتهم . ولُقِّب الملك الظاهر»(٦٩).

أما رواية المؤرخ تقى الدين المقريزى فتقول : «... فلم يزل السلطان سائراً إلى أن خرج من الغرابى ، وقارب الصالحية ، فانحرف فى مسيرة عن الدرب للصيد ومعه الأمراء. فلما فرغ من صيده وعاد يريد الدهليز السلطانى طلب منه الأمير بيبرس إمرأة من سبى التتار فأنعم بها عليه. فأخذ بيبرس يد السلطان ليقبلها ، وكانت إشارة بينه وبين الأمراء؛ فبدره الأمير بدر الدين بكتوت بالسيف، وضرب به عاتقه ، واختطفه الأمير أنس وألقاه عن فرسه ، ورماه الأمير بهادر المعزى بسهم أتى على روحه ، وذلك يوم السبت الخامس عشر من ذى القعدة، ودفن بالقصير ، فكانت مدة ملكه أحد عشر شهراً وسبعة عشر يومًا .

«وحُمل قطز بعد ذلك إلى القاهرة ، فدفن بالقرب من زاوية الشيخ تقى الدين قبل أن تعمر، ثم نقله الحاج قطز الظاهرى إلى القرافة، ودفن قريبًا من زاوية ابن عبود ...»(٧٠).

هكذا كانت النهاية المأساوية للبطل الشهيد السلطان سيف الدين قطز . وبغض النظر عن التفاصيل الصغيرة التى اختلفت فيها المصادر التاريخية الأساسية التى اعتمدنا عليها، فالواضح أن فكرة اغتيال السلطان كانت فكرة الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى كما أن التنفيذ كان بيده وبأيدى رفاقه المقربين . ولكن الروايات كلها تجمع على أن القاتل حلّ محل القتيل ببساطة شديدة ، وانتقلت السلطة إلى القاتل قبل أن تجف دماء المقتول دون أن يرى كبار أمراء المماليك غضاضة فى ذلك . بل إن أتابك العسكر سأل عن القاتل وحينما علم أنه بيبرس قال له «يا خوند إجلس أنت فى مرتبة السلطنة» وكأن عرش الدولة «مكافأة» لمن تخلص من السلطان القتيل. وهكذا ، مرة أخرى ، ترسخ مبدأ «الحكم لمن غلب» .

أما النتائج التى ترتبت على هذه المأساة ؛ فكانت على الناحية السياسية تكريسًا للقوة والدماء سبيلاً إلى السلطة والعرش. وكانت تلك هى «سُنَّة المماليك فى دولتهم» ولم يحدث طوال مائتى وسبعين عامًا، هى عمر دولة سلاطين المماليك أن وجدنا لهذه السنة تبديلاً .

٦٩- ابن أيبك الدوادارى ، كنز الدرر، ج٨ ، ص٦١- ص٦٢ .

٧٠- المقريزى، السلوك، ج١ ، ص٤٣٥- ص٤٣٦ ويذكر ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ج٧ ، ص٨٥ - ص٨٦) رواية قريبة من رواية المقريزى .

لقد كانت المفاهيم السياسية للدولة المملوكية نتاجًا للظروف التاريخية التى خرجت هذه الدولة من رحمها إلى الوجود ، ويمكن بلورة هذه المفاهيم السياسية فى أن أمراء المماليك اعتقدوا منذ البداية أن عرش البلاد حق لهم جميعًا يفوز به أقواهم وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين. وهو الأمر الذى ظهر واضحًا منذ بداية الدولة سواء فى مصرع تورانشاه أو عز الدين أيبك وشجر الدر، ثم تأكد فيما قام به بيبرس عندما اغتال قطز ، كما تكرر فى سلسلة انقلابات القصر ومؤامرات الحكم طوال سنوات حكم دولة سلاطين المماليك .

أما النتيجة الثانية الهامة فتتمثل فى الحقيقة التاريخية القائلة بأن صعود بيبرس على عرش سلطنة المماليك كان بداية مرحلة مهمة فى تاريخ الدولة الناشئة جعلت من هذا الأمير الداهية ، بقسوته وجبروته وحنكته السياسية وبراعته العسكرية ، المؤسس الحقيقى لهذه الدولة بفضل إنجازاته السياسية والإدارية والعسكرية. فقد كانت السنوات العشر السابقة مرحلة سيولة سياسية حكم خلالها خمسة من السلاطين تم اغتيال ثلاثة منهم، ونجا الإثنان الآخران بسبب صغر سنهما وإنعدام خطورتهما ، ولكن بيبرس استمر يحكم سبعة عشر عامًا .ومن ناحية أخرى، كانت دولة سلاطين المماليك ، فى السنوات العشر الأولى من عمرها ، تفتقر إلى الشرعية وتبحث عن الأمن فى مواجهة تهديدات الأيوبيين، وجاء إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة بمثابة الحل السعيد لمشكلة الشرعية، على حين كانت معركة عين جالوت هى الحل السعيد أيضًا لمشكلة الأمن وتهديدات الأيوبيين .

وتجسدت النتيجة الثالثة لاغتيال قطز فى ازدياد اعتماد أمراء المماليك على مماليكهم بحيث يكونون عدتهم فى الصراع الذى يمكن أن يحدث فى أى وقت. فقد كان الأمراء الكبار وولاة الأقاليم يمتلكون جيوشًا صغيرة من المماليك تتراوح أعدادها ما بين ثلاثمائة وستمائة مملوك، وربما زادت الأعداد لتصل إلى ثمانمائة مملوك. أما السلاطين فكانت مماليكهم بمثابة الحرس السلطانى الخاص ومن ثم كان السلاطين يهتمون بشراء أكبر عدد ممكن منهم. وبعد عصر بيبرس كان من الممكن أن تصل مشتروات السلطان من المماليك إلى ثمانمائة مملوك بخلاف المماليك الذين ينتقلون إلى خدمته وراثة عن السلطان السابق ، أو من مماليك كبار الأمراء الذين يتركون الخدمة بالوفاة أو غيرها (٧١).

٧١- قاسم عبده قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى- عصر سلاطين المماليك، ص١٢ - ص١٣ .

وهكذا تكرست الطائفية بين العناصر المملوكية بالشكل الذى ترك آثاره السلبية على البناء السياسى لدولتهم على المدى الطويل ، وربما كانت بذرة هذه الطائفية العسكرية الخطرة قد بذرت فى حوادث الاغتيال الأولى التى شهدتها الدولة، ومنها بطبيعة الحال حادث اغتيال السلطان سيف الدين قطز.

لقد قتل السلطان وهو عائد بنصره الكبير، وتم تتويج قاتله خلفًا له فى مكان الاغتيال ولكن القاهرة عاصمة السلطان ، كانت تستعد للقائه . وربما تلخص لنا رواية تقى الدين المقريزى ما حدث : « ... وكانت القاهرة قد زينت لقدوم الملك المظفر قطز، والناس فى فرح ومسرات بقتل التتر. فلما طلع النهار نادى المنادى فى الناس: «ترحموا على الملك المظفر، وادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس » : ثم فى آخر النهار للملك الظاهر [٧٢]. فغمَّ الناس ذلك، وخافوا من عودة المماليك البحرية، وسوء مملكتهم وجورهم ... »[٧٣].

٧٢- اتخذ بيبرس لنفسه لقب «السلطان الملك القاهر» ، ولكنه تشاءم منه فغيره إلى السلطان الملك الظاهر».

٧٣- المقريزى ، السلوك، ج١، ص٤٣٧ .

الفصـل الثامن

بيبرس وتأسيس الدولة المملوكية

بيبرس- جهوده الداخلية (حركات التمرد: علم الدين سنجر في دمشق ، والكوراني في القاهرة) إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة ومغزاه- الواجهة الدينية- (أهل العمامة، حماية الحرمين الشريفين، الاهتمام بالقدس) - جهوده الخارجية (الأيوبيون- التتر- العلاقات مع الإمبراطورية البيزنطية وصقلية والأسبان)- الحرب ضد الصليبيين ببلاد الشام- الحرب ضد التتر- ما بعد بيبرس.

يُعتبر السلطان الظاهر بيبرس بحق هو المؤسس الفعلي لدولة سلاطين المماليك التي ظلت تقوم بدور القوة المدافعة عن الحضارة العربية الإسلامية على مدى ما يزيد على القرنين ونصف من الزمان . وإذا كان السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي هو مؤسس الدولة الأيوبية، فإن مبررات وجود هذه الدولة جاءت من خلال حقيقة أن صلاح الدين بدأ تاريخه السياسي بتوحيد الجبهة العربية الإسلامية لتنفيذ المشروع العربي الإسلامي للقضاء على الوجود الصليبي على تراب الأرض العربية. وقد كان خلفاء صلاح الدين، بشكل عام ، قد فقدوا كل مبررات وجودهم السياسي حين تخلّوا عن هذا الدور الذي أضفى الشرعية على دولتهم . من ناحية أخرى، يُعتبر بيبرس موسس الدولة المملوكية لأنه بدأ تاريخه السياسي، أيضًا ، بالعمل على توحيد الجبهة الداخلية في المنطقة العربية . وإذا كانت معركة المنصورة وفارسكور ضد الصليبيين، ثم معركة عين جالوت بعد عشر سنوات ضد المغول، قد أثبتتا قدرة فرسان المماليك في الدفاع عن دار الإسلام ، فإن ذلك وحده لم يكن كافيًا لإضفاء الشرعية على دولتهم. ومن ثم فإن جهود السلطان الظاهر بيبرس في توحيد المنطقة العربية هي التي جعلت دولته تحظى باحترام القوى العالمية المعاصرة على المستوى الخارجي، كما جعلته شخصيًا يحتل

مكانة بارزة فى وجدان المعاصرين بحيث نسج الخيال الشعبى «سيرة الظاهر بيبرس»، وفيها حَمّلُوه كل رموزهم وأخلاقياتهم ؛ بل جعلوه عربيًا مسلمًا فى المولد والنشأة[١].

فمن هو السلطان الظاهر بيبرس؟

على الرغم من أن «بيبرس» الفارس والأمير والسلطان ، كان شخصية ملء العين والوجدان، فإن بيبرس الطفل الصبى يتوه بين ضبابية الغموض وأستار الحكايات الأسطورية. ذلك أنه كان من آحاد الناس، وُلد لأن فقيراً بذات مساء أراد أن يطفئ نار أيامه القاسية فى حضن فقيرة . ولم يكن المؤرخون والتاريخ الرسمى فى تلك الأيام يهتم بالناس الفقراء أو العامة والبسطاء . إذ كان معظم المؤرخين فى معية السلاطين والملوك والحكام ؛ وكان التاريخ يسعى وراء أخبارهم ؛ مؤامراتهم ودسائسهم ، معاهداتهم وحروبهم ، أفراحهم وأتراحهم. أما آحاد الناس والبسطاء فلم يكن المؤرخون يهتمون بهم فى غالب الأحوال. كان الناس، وما يزالون ، يصنعون التاريخ ويسرقه الحكام .

ومن ثم كان من الطبيعى أن يهمل التاريخ شأن مولد طفل فقير يختطفه تجار الرقيق من حضن أمه ليباع فى أسواق النخاسة ، ولكنه حين يكبر ينتزع لنفسه دوراً يجعلة محور اهتمام التاريخ والمؤرخين .

وليست مشكلة غموض سيرة البطل التاريخى فى حياته الباكرة قاصرة على السلطان الظاهر بيبرس، وإنما يشاركه فيها الكثيرون ممن خرجوا من طيات المجهول؛ ليعتلوا العروش ويقودوا الجيوش. وربما يكون هذا سببًا كافيًا لتفسير ذلك التضارب بين روايات المؤرخين حول نشأة بيبرس [٢].

١- قاسم عبده قاسم، بين التاريخ والفولكلور، (عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٣م) ص١٢١- ص١٥٤ . حيث توجد دراسة متكاملة عن «الشخصيات التاريخية فى سيرة الظاهر بيبرس».

٢- أغفل محيى الدين بن عبد الظاهر ، صاحب سيرة السلطان الظاهر بيبرس المسماة «الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر» الحقائق الخاصة بطفولة السلطان. أنظر مقدمة الدكتور عبد العزيز الخويطر الذى نشر هذه السيرة ، ص٣٢ . وقد ذكر ابن أيبك الدواداری (كنز الدُرر، ج٨ ، ص٦١) قصة يُفهم منها أن أصله كان من الرقيق الذين باعهم التجار فى حلب . أما المقريزى (السلوك ، ج١ ، ص٤٣٦) فقد ذكر أنه كان تركى الجنس واشتراه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وترقى فى خدمته واستفاد من أخلاقه . ثم خدم فى جيش توران شاه إلى أن قتل، ثم خرج من مصر بعد مقتل فارس الدين أقطاى .

والراجح أنه تركى من قبائل التتر القفجاق فى مناطق الإستبس بوسط آسيا. وربما كانت طفولته الباكرة فى تلك الأنحاء، ثم خطفه تجار الرقيق وانتقل من تاجر إلى آخر حتى وصل إلى حماة ببلاد الشام حيث أراد صاحبها المنصور الأيوبى شراءه ؛ ولكن أمه حذرته من بيبرس بقولها : «لايكون بينك وبينه معاملة ، فإن شراً فى عينيه لائحًا »[٣]. فعدل عن شرائه واشتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار؛ ولهذا نُسب إليه بيبرس وعُرف بلقب البندقداري.

ثم انتقل بيبرس إلى خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى لم يلبث أن منحه حريته مما أعطاه الفرصة كاملة لإثبات شجاعته وفروسيته . ثم انتقل إلى خدمة ابنه تورانشاه بعد وفاته، ثم صار من زعماء البحرية بعد مصرع تورانشاه . وتقلبت أحوال بيبرس ففر إلى بلاد الشام بعد مقتل فارس الدين أقطاى، ثم عاد ليشارك فى القتال ضد التتر، وأسهم فى انتصار عين جالوت . وفى طريق العودة اغتال قطز وأعل نفسه سلطانًا كما أوضحنا من قبل.

كان طبيعيا ، بعد أن تولى بيبرس عرش السلطنة فى قلعة الجبل بالقاهرة، أن يبدأ فى تنظيم أحوال دولته ؛ داخليًا وخارجيًا . كانت أولى خطوات بيبرس فى هذا الصدد إلغاء كافة الضرائب التى كان سلفه سيف الدين قطز قد فرضها لتمويل حربه ضد التتر[٤]. وكانت تلك الضرائب بواقع دينار على كل فرد فى مصر، كما استولى على ثلث إيراد الزكاة ، وثلث قيمة التركات التى مات عنها أصحابها من غير المماليك. وكان صدى هذا الإجراء طيبا فى نفوس المصريين الذين زينوا الطرقات والأسواق ابتهاجا بذلك.

بيد أن حكم السلطان الجديد كان لابد وأن يتأثر بالمفاهيم السياسية التى نمت ورسخت فى غمار الظروف التى صاحبت قيام دولة سلاطين المماليك التى شهدت فى السنوات العشر الأولى من عمرها خمسة من السلاطين يتعاقبون فى إيقاع سريع راح ثلاثة منهم ضحايا الاغتيال ونجا السلطان الأيوبى الطفل الأشرف موسى (الذى شارك المعز أيبك العرش فترة من الوقت) لصغر سنه ، كما نجا المنصور على ابن أيبك لصغر سنه أيضا .

٣- ابن أيبك، كنز الدرر، ج٨ ، ص٦١ .

٤- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٤٣٨- ص٤٣٩ .

كان مبدأ «الحكم لمن غلب» هو الذى جاء بالسلطان الظاهر بيبرس إلى العرش ، وكان يحرك الطامعين فى العرش ؛ ومن ثم كان على بيبرس أن يعانى من هذا المبدأ أيضا فى بداية سلطنته .

فعندما تولى بيبرس العرش نشبت ثورتان داخليتان فى وقت واحد تقريبا . ففى أواخر سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م نشبت ثورة فى دمشق قادها الأمير سنجر الحلبى أحد أمراء المماليك ، ونائب دمشق الذى استاء كثيرا من اغتيال قطز ورفض الاعتراف بسلطنة بيبرس. ولم يكتف هذا الأمير المتمرد بالعصيان ، بل بادر بإعلان نفسه ملكًا على دمشق فى ذى الحجة سنة ٦٥٨هـ، واتخذ لنفسه لقب الملك المجاهد، وركب بشعار السلطنة، وضُربت السكة باسمه، ثم حصَّن قلعة دمشق استعداداً للقتال ، وأرسل يستعين ببقايا الأيوبيين ولكنهم رفضوا مساعدته.

لجأ بيبرس إلى استخدام المال لكى ينفض أنصار سنجر الحلبى من حوله ، ثم أرسل جيشًا قضى على التمرد وعاد بالأمير المتمرد إلى القاهرة مكبلاً فى الحديد [٥]. وقد تم القضاء على هذه الحركة فى مطلع سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١م.

ولم تكن تلك هى محاولة التمرد الوحيدة على سلطنة الظاهر بيبرس، فقد حاول شمس الدين البُرْلى الاستقلال بحلب [٦]، ولكن الفشل كان من نصيبه ، ولما أرسل يطلب عفو السلطان الظاهر بيبرس كان كريمًا معه. وفى القاهرة حاول بعض أمراء المماليك الإطاحة بالسلطان سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١م. وعلى الرغم من أنه تمكن من وأد هذه المؤامرة فى مهدها ، فإنه كان كريما معهم أيضا [٧].

ثم كان على بيبرس أن يواجه تمرد قوى أخرى كانت تنكر على المماليك أى حق فى ولاية العرش؛ إذ حدث تمرد بقيادة رجل شيعى اسمه الكورانى « ... أظهر الورع والتقوى والزهد»

٥- عن تفاصيل هذا التمرد أنظر: ابن عبدالظاهر ، الروض الزاهر ، ص٩٤-٩٥ ؛ ابن أيبك الدوادارى ، كنز الدرر، ج٨ ، ص٦٣-٦٤ ؛ ص٦٩- ص٧٠ ؛ المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٤٣٨- ص٤٣٩ ، ص٤٤٤- ص٤٤٥ .

٦- المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٤٦٥- ص٤٦٦ ، ص٤٧١، ص٤٧٦ .

٧- ابن أيبك الدوادارى ، كنز الدرر ، ج٨ ، ص٧٠ .

وسكن قبة جبل المقطم المتاخم للقاهرة ، وجمع حوله بقايا الجنود السود الذين كانوا موالين للشيعة ، وبقايا الشيعة. وأخذ يحرضهم على الإطاحة بحكم بيبرس وإقامة حكم شيعي. وفي أواخر سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠ انسابوا في شوارع القاهرة وهم يصيحون « يا آل علي »، وفتحوا حوانيت السيوفيين في بين القصرين بالقاهرة واستولوا على ما بها من أسلحة ، كما استولوا على عدد من الخيول من اسطبلات المدينة. وهنا لم يكن بيبرس حليمًا مثلما كان مع المتمردين من أمراء المماليك؛ إذ أنه صلب الكوراني والمتمردين على باب زويلة من أبواب مدينة القاهرة[٨].

كان القضاء على المشكلات والأخطار التي أثارتها حركات التمرد الداخلية الخطوة الأولى والمهمة في سياسة بيبرس لتوطيد سلطنته في الداخل، بيد أن هذه الأخطار كانت هينة بالقدر الذي لم يكلفه من الجهد إلا قليلا. وبقي عليه أن يضفي على حكمه رداء الشرعية ، ورأى الحل السعيد في إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة ، والحصول على تفويض من الخليفة بالحكم. وإذا كان إحياء الخلافة يأتي من جانب الدولة صاحبة الفضل في وقف الخطر التتري، وصاحبة القوة اللازمة لمواجهة الخطر الصليبي؛ فإن تأييد الناس لهذه الدولة سيكون بلا حدود . وكانت تلك مناورة سياسية ذكية من بيبرس ؛ إذ جعل الدولة المملوكية تبدو صاحبة الفضل على العالم الإسلامي بإحيائها الخلافة العباسية.

وعلى الرغم من أن بيبرس لم يكن أول من فكر في مشروع إحياء الخلافة العباسية [٩]، فإنه أول من نجح في تحقيق هذا المشروع . والتاريخ تصنعه الأفعال لا النيات . وكان قطز قد فكر في إحياء الخلافة العباسية سنة ٦٥٨هـ عندما أرسل يستدعي واحداً من سلالة العباسيين هو أبو العباس أحمد، بعد انتصار عين جالوت ، وجاء الأمير العباسي بالفعل إلى دمشق وبايعه قطز بالخلافة؛ ولكن مصرع قطز حال دون إعادة كرسي الخلافة إلى القاهرة.

٨- المقريزي ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٤٤٠ ؛ العبادي ، قيام دولة المماليك الأولى ، ص ١٧٨ - ص١٧٩ .

٩- عن محاولات نقل الخلافة العباسية إلى مصر منذ أيام أحمد بن طولون حتى السلطان سيف الدين قطز، أنظر : العبادي ، قيام دولة المماليك الأولى، ص١٨٠- ص١٨١ .

وحين جلس بيبرس على عرش السلطنة استدعى أميراً عباسيًا آخر هو أبو القاسم أحمد بن الخليفة الظاهر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضئ بالله (١٠)، وعلى مشارف القاهرة خرج السلطان الظاهر بيبرس للقاء أبي القاسم أحمد في شهر رجب سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م، ومعه الوزير بهاء الدين بن حنا، وقاضي القضاة ، والعلماء والشهود والأعيان والمؤذنون، كما خرج اليهود بتوراتهم والنصارى بأناجيلهم ومعهم الشموع الموقدة (١١). وبعد عدة أيام عقد السلطان الظاهر بيبرس مجلسًا عامًا في قاعة العواميد بالقلعة حضره القضاة والعلماء ورجال الدولة وكبار التجار ووجوه الناس . وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام من بين الحاضرين . وبعد أن شهد الشهود بنسب الأمير بويع خليفة واتخذ لقب المستنصر بالله(١٢). وعندما تمت مبايعة الخليفة العباسي الجديد قام هو بدوره بتفويض السلطان الظاهر بيبرس حكم البلاد الإسلامية، « ... وما يضاف إليه، وما سيفتحه الله عليه من بلاد الكفار... » كما حصل على لقب «قسيم أمير الدين» الذى لم يحصل عليه أحد قبله (١٣). وكان المعنى الواضح لهذا أن بيبرس قد كسب شرعية واضحة لحكمه ولدولته ولنفسه.

هكذا نالت دولة سلاطين المماليك البعد الديني الذى يؤكد شرعيتها في عيون المعاصرين. لقد كان البعد العسكرى هو الذى أفرز هذه الدولة باعتبارها القوة القادرة على حماية العالم الإسلامي، بيد أن هذا البعد لم يكن كافيًا وحده؛ بدليل تلك المصاعب التى واجهت المماليك منذ «شجر الدر» ، وحتى بيبرس ، من جانب الرعايا والقوى السياسية الأخرى.

١٠- المقريزي، السلوك ، ج١ ، ص٤٤٨ .

١١- ابن أيبك ، كنز الدرر، ج٨ ، ص٧٢- ص٧٣ .

١٢- كانت مبايعة الخليفة العباسي المستنصر بالله يوم الاثنين ١٣ رجب ٦٥٩هـ / يونيو ١٢٦١م المقريزي، السلوك، ج١ ، ص٤٤٨-- ص٤٤٩ ؛ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر، ص٩٩- ص١١٠ .

١٣- السيوطي ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (القاهرة ١٢٩٩هـ) ، ج١ ، ص٨٧ ؛ ابن أيبك الدواداري ، كنز الدرر، ج٨ ، ص٧٢-٧٩ ؛ النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة) ، ج٢٨ ، ق١٨ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ص٤٤٨- - ص٤٥٧ ؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٣٢٨- ص٣٢٩ ؛ أنظر أيضا :

Ziada, " The Mamluk Sultans", p. 747 .

على أية حال ، كان إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة خطوة هامة جعلت من الظاهر بيبرس حاكمًا شرعيًا يستمد سلطانه ونفوذه من تفويض الخليفة العباسى فى القاهرة . وقد أدرك بيبرس خطورة التفويض الذى أعطاه الخليفة له، وأراد أن يؤكد ذلك لسائر أمراء المملكة فجمعهم فى اجتماع عام بضاحية المطرية القريبة من القاهرة ؛ لكى يسمعوا جميعا تفويض الخليفة السلطان بحكم « ... الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية ، وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً ... ».

وهكذا ، حقق بيبرس هدفه بالحصول على السند الشرعى لحكمه ، وحصل على ما هو أكثر من ذلك : حكم المنطقة العربية بأسرها . وتعين عليه أن يحول هذه الولاية التى تضمنها تقليد الخليفة العباسى فى القاهرة إلى حقيقة. وبعبارة أخرى كان عليه أن ينقل سلطته الذى فرضها هذا المرسوم على هذه البلاد كلها من سطور الورق الذى كتبت عليه إلى أرض الواقع ... ولم تكن تلك مسألة سهلة .

عندما حقق بيبرس هدفه بإضفاء الصيغة الشرعية على حكمه ، بدأ يخطط للتخلص من الخليفة أبى القاسم أحمد (المستنصر الثانى) ، بيد أنه كان حريصًا على عدم القضاء على الخلافة نفسها . إذ أدرك بيبرس، بدهائه السياسى، أن قيام الخلافة العباسية فى القاهرة بشكل حقيقى سوف يحوله إلى مجرد تابع للخليفة . لقد كان يريد الخلافة إسما وواجهة تكسبه الشرعية . وهكذا أرسل الخليفة مع قوة عسكرية صغيرة لقتال المغول. وبالفعل أباد المغول جيش الخليفة العباسى الضئيل وقتلوه هو نفسه [١٤]. ولأن بيبرس ، الخبير بالتتر وأساليبهم فى القتال، أرسل هذا الجيش الهزيل مع الخليفة ، فإننا نرجح أن السلطان أرسل الخليفة فى مهمة بلا عودة ... إلى الموت .

أرسل بيبرس يستدعى أميراً عباسيًا آخر لتولى الخلافة ، وتمت مبايعته باسم الخليفة الحاكم بأمر الله العباسى [١٥]. وقلّص بيبرس نفوذ الخليفة الجديد وسلطاته على نحو جعله أشبه بمن

١٤- يذكر المقريزى (السلوك ، ج١ ، ص٤٦٢- ص٤٦٣) أن السلطان كان قد عزم على أن يبعث مع الخليفة عشرة آلاف فارس حتى يستقر ببغداد ... فخلا أحدهم بالسلطان وأشار عليه ألا يفعل ، فان الخليفة إذا استقر أمره ببغداد نازعك وأخرجك من مصر . فرجع إليه الوسواس ، ولم يبعث مع الخليفة سوى ثلاثمائة فارس».

١٥- ابن أيبك ، كنز الدرر، ج٨ ، ص٩٤-٩٥ .

يخضعون لأحكام تحديد الإقامة، على حد تعبيرنا المعاصر . فلم يكن مسموحًا للخليفة العباسي في القاهرة أن يتصل بأحد المسئولين فى الدولة، أو غيرهم، دون إذن من السلطان نفسه . وبذلك أرسى بيبرس أحد أهم الأسس السياسية التى قامت عليها دولة سلاطين المماليك ؛ أى الاستعانة بالخلافة العباسية واجهة دينية وشرعية دون أن يكون للخليفة سوى الدعاء على المنابر فى صلاة الجمعة . وكانت الخلافة العباسية خلافة صورية « ... ليس له منها أمر ولانهى، وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين » على حد تعبير المؤرخ تقى الدين المقريزى[١٦].

لم تكسب الخلافة العباسية من إحيائها فى القاهرة شيئا؛ إذ هانت مكانة الخلفاء الذين تعين عليهم أن يسعوا إلى حفلات تنصيب السلاطين وولاية العهد، كما كان عليهم أن يزينوا مجالس السلطان حين يستقبل وفود الدول المعاصرة وسفراءها . ولم يتدخل الخلفاء فى شئون السلطنة ، كما أن سلاطين المماليك لم يأمنوا لهم أبداً فأبقوهم بمنازلهم فى وضع أقرب ما يكون إلى السجن .

أما الفائدة الحقيقية فقد عادت على السلاطين وعاصمتهم القاهرة ؛ فقد صاروا هم حُماة الخلافة، ومن ثم حقٌ لهم أن يدعوا لأنفسهم مكانة سامية فى العالم الإسلامى. وكان ذلك تكريسًا لحقيقة توازن القوى فى تلك الفترة من تاريخ العالم الإسلامى؛ وتجسد هذا أيضا فى أنهم استأثروا بالحق فى لقب «السلطان» . يقول ابن شاهين الظاهرى : « ... ولايطلق لفظ سلطان إلا لصاحب مصر نصره الله، فإنه الآن أعلى الملوك وأشرفهم لرتبة سيد الاولين والآخرين، وتشرفه من أمير المؤمنين بتفويض السلطنة له على الوجه الشرعى لعقد الأئمة الأربعة... ».

هكذا ، صارت القاهرة بمثابة المعقل والحصن للحضارة العربية الإسلامية منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى/ السابع الهجرى، وقصدها الفنانون والعلماء والفقهاء ، كما جاء الصناع ورجال السياسة والباحثون عن الأمن والاستقرار من شتى أرجاء دنيا العرب والمسلمين ؛ ونتجت عن ذلك بالضرورة حركة علمية نشطة . وإلى جانب القاهرة نشطت دمشق وبيت

١٦- المقريزى، السلوك، ج١ ، ص٥٤٠ .

المقدس وغيرها من مدن بلاد الشام والمدن المصرية وزاد سكانها ، وانتعش اقتصادها ، وعمرت مدارسها .

ولكن إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة لم يكن كافيًا من وجهة نظر بيبرس لتأكيد زعامة دولته على الخلافة ، إذ كان البعد الدينى للدولة الناشئة ما يزال بحاجة إلى عناصر جديدة لاستكماله . والحقيقة التى تفرض نفسها باستمرار على تاريخ المنطقة العربية مؤداها ، أن كل دولة أرادت أن تبنى لنفسها القوة والزعامة كان لابد لها من أن تبسط سلطانها على البحر الأحمر والحجاز ؛ حيث يوجد الحرمان الشريفان فى مكة والمدينة . ولم يكن بيبرس ليشذّ عن هذا المنطق الذى يفرضه التاريخ وتحتمه الجغرافيا .

بدأ بيبرس خطته بالقيام بعدة إصلاحات بالحرم النبوى الشريف، وأرسل الكسوة إلى الكعبة[١٧]. وفى سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٩م قام بأداء فريضة الحج [١٨]. وانتهز الفرصة لكى يجعل الخطبة فى الحجاز للخليفة العباسي ثم سلطان مصر من بعده [١٩]. وهكذا إزداد البعد الدينى وضوحًا فى دولة سلاطين المماليك . ومن ناحية أخرى قام بيبرس بترميم قبة الصخرة والمسجد الأقصى، كما جدد بناء مسجد الخليل عليه السلام[٢٠].

وفى سبيل تأكيد البعد الدينى لدولته، قام السلطان الظاهر بيبرس بالتقرب إلى العلماء والقضاة والفقهاء ، الذين كانوا طليعة المثقفين وقادة الرأى العام آنذاك . فقد كان القرآن

١٧- ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر ، ص٨٩ ؛ المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٥١٢ .

١٨- المقريزى، السلوك ، ج١، ص٥٨٠- ص٥٨١ ،

١٩- النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب ، (ج٣٠، تحقيق محمد عبد الهادى شعيرة ، دار الكتب المصرية ١٩٩٠م)، ص١٦٦ . وقد ذكر النويرى أنه «بقى كأحد الناس بغير حاجب ، ثم غسل الكعبة، وبقى فى وسط البيت ، ومن رمى له إحرامه غسله بما ينصب من الماء فى الكعبة ورميه إلى صاحبه ، ثم جلس على باب الكعبة وأخذ بأيدى الناس ليطلع بهم إلى الكعبة...».

أنظر أيضا : العينى، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان (تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨) ، ج٢ ، ص٤٦- ص٤٧ .

٢٠- كان ترميم قبة الصخرة سنة ٦٦٠هجرية على أيدى صناع من دمشق ، كما أعاد أوقاف مسجد الخليل عليه السلام ، وأضاف إلى أوقافه قرية أذنه . أنظر : ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر ، ص٨٩ – ص٩٠ .

الكريم والحديث النبوى والعلوم المرتبطة بهما ركيزة التعليم والثقافة فى ظل الحضارة العربية الإسلامية إلى جانب العلوم الأخرى التى عرفت باسم العلوم العقلية. ومن ثم كان «أهل العمامة» فى ذلك العصر يمثلون عقل الأمة ووجدانها. كما كانوا يحتلون مكانة سامية لدى الحكام والمحكومين . وقد أعاد بيبرس للجامع الأزهر، أول مساجد القاهرة، مكانته عندما نزل ليصلى الجمعة فيه فى ١٨ ربيع الأول سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٧ م بعدما أمر بترميمه وعمارته ؛ وبذلك عادت الخطبة إلى الجامع الأزهر بعد أن كانت قد انقطعت فيه مدة تناهز مائة سنة [٢١].

كذلك قام الظاهر بيبرس ببناء المدارس والمساجد مثل «المدرسة الظاهرية» التى بناها بالقاهرة ورتب دروس أهل العلم بها فى صفر سنة ٦٦٢هـ وحضر السلطان حفل افتتاحها[٢٢] وبنى مسجدا بالقاهرة حمل اسمه[٢٣] كما زار كبار الصوفية مثل الشيخ القبارى والشيخ الشاطبى بالاسكندرية ، وقرب إليه واحداً من الدراويش هو الشيخ خضر الذى كانت له زاوية بميدان قراقوش بالحسينية [٢٤]. وبذلك مكّن بيبرس لدولته فى الداخل، وحاز مكانة واحترامًا وهيبة كفلت له أن ينصرف باهتمامه إلى إلى مواجهة الأخطار الخارجية .

وإذا كان بيبرس قد تسامح مع أمراء المماليك الذين خرجوا عليه وأعلنوا التمرد والعصيان ضده فى بداية حكمه ، فقد انتهج سياسة مخالفة تمامًا إزاء غيرهم من القوى التى كانت تشكل خطراً حقيقيًا على المماليك وسلطنتهم الوليدة .

كانت أولى هذه القوى تتمثل فى بقايا الملوك الأيوبيين الذين كانوا ما يزالون يحكمون فى بلاد الشام . وعلى الرغم من أن المنصور صاحب حماة ، والأشرف موسى صاحب حمص قد أعلنا ولاءهما للسلطان الظاهر بيبرس، كما أن الملك الصالح صاحب الموصل وصل إلى القاهرة فى شعبان سنة ٦٥٩هـ ، ولحق به أخوه الملك المجاهد صاحب الجزيرة ، ولقيهما السلطان بحفاوة

٢١- العينى، عقد الجمان، ج٢ ، ص٦ .

٢٢- النويرى ، نهاية الأرب ، ج٣٠ ، ص٩٣- ص٩٤ .

٢٣- نفسه ، ص١٣٣- ص١٣٤ .

٢٤- ابن أيبك الدواداري ، الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية، ص١٢٣ .

بالغة ثم كتب تقليداً للملك الصالح ركن الدين اسماعيل بالموصل وولاياتها ، ثم ولى الملك المجاهد سيف الدين اسحق ببلاد الجزيرة وأعمالها ، وكتب لأخيهما الملك المظفر بولاية سنجار وأعمالها [٢٥]- نقول إنه على الرغم من ذلك، فإن الملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل الأيوبى، صاحب الكرك الذى كان يرى فى المماليك مجرد دخلاء اغتصبوا العرش الأيوبى فى مصر ويجب القضاء عليهم ، ظل يحلم باليوم الذى ينتزع فيه مصر من الظاهر بيبرس . وبدأ يشن غاراته على المناطق الخاضعة لسلطان مصر ؛ بل إنه راسل هولاكو وحرضه على غزو مصر. وخرج بيبرس بجيش قوى من مصر سنة ١٢٦٢م / ٦٦١هـ بهدف القضاء على خطر هذا الملك الأيوبى ، ولكن أم المغيث عمر أسرعت لتقابل بيبرس عند غزة وتطلب منه الأمان لابنها ، وأحسن السلطان إليها . ثم خرج الملك المغيث من الكرك و« ... خدعه السلطان أعظم خديعة... » حتى قبض عليه وفضح مراسلاته مع العدو أمام من حضر من الملوك والأمراء ، وقاضى القضاة والشهود والأجناد ورسل الفرنج[٢٦] ثم أرسله إلى مصر حيث سجن بقلعة الجبل وأطلق حواشيه ، وبعث بحريمه إلى مصر «وأطلق لهم الرواتب»[٢٧] وفى السنة نفسها استولى بيبرس على حصن الكرك ؛ وبذلك تم القضاء على المقاومة الأيوبية بشكل نهائى .

على هذا النحو تحددت أبعاد السياسة المملوكية التى اتخذت مسارين أساسين : أحدهما عسكرى يعتمد على قوة الجيش المملوكى لفرض الأمر الواقع ، وثانيهما دينى يستند على قوة دينية عناصرها الخلافة العباسية فى القاهرة ، وأهل العمامة ، والمنشآت الدينية . لقد امتزجت الوحشية بالتقوى فى عصر سلاطين المماليك بشكل مثير ؛ إذ اشتهر أولئك المقاتلون الأفذاذ بقسوتهم فى التعامل مع خصومهم ولكنهم ، أيضا ، خلفوا تراثًا رائعًا من المنشآت ذات الوظيفة الدينية/ الاجتماعية التى ما تزال قائمة فى مدن مصر والشام تحكى عن عظمة ذلك العصر المظلوم. وهو ما نعتبره انعكاسا للبعد الدينى والبعد العسكرى فى سياسة هذه الدولة التى ظلت تقود العالم الإسلامى على مدى أكثر من قرنين ونصف قرن من الزمان .

٢٥- النويرى، نهاية الأرب، ج٣٠ ، ص٢٦-٢٧ .

٢٦- نفسه، ج٣٠ ، ص٧٦- ص٨١ .

٢٧- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٤٨٢ .

لقد كان المبرر الوحيد لقيام دولة سلاطين المماليك واستمرارها، هو قيامها بدور القوة المدافعة عن دار الإسلام . فقد ولدت هذه الدولة من رحم الصراع ضد الفرنج الصليبيين الذين كانوا ما يزالون يحتلون بعض أجزاء من الأرض العربية فى بلاد الشام ، وتأكد وجودها من خلال ذلك النصر المدوى الذى أحرزته ضد الفيالق المغولية فى عين جالوت . وعلى الرغم من كافة الجهود المضنية التى بذلها السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى على الصعيد السياسى والدينى والاجتماعى لتوطيد سلطته فى الداخل، فإن بقاء هذه الدولة التى كان يجلس على عرشها ظل رهينًا بأدائها للدور التاريخى المنوط بها ؛ أى بالقضاء على الأخطار الخارجية وحماية العالم الإسلامى.

وإذا كان الخطر المغولى هو الأعلى صوتًا والأكثر ضجيجًا فى صفحات المدونات التاريخية فقد كان الخطر الصليبى هو الأعمق أثراً والأكثر خطورة . وإذا كنا نقول إن السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى هو المؤسس الحقيقى لهذه الدولة فذلك لأنه فهم الدور التاريخى المنوط بها، وظلَّ طوال حياته يعمل على تحقيق المشروع الإسلامى الكبير، وهو طرد الصليبيين من أرض المسلمين . وقد قال عنه أحد الشعراء المعاصرين :[٢٨]-

يومًا بمصر ويومًا بالحجاز   وبالشام يومًا ويومًا فى قرى حلب

وعلى الرغم من ركاكة هذا البيت فإنه يلخص حياة السلطان الظاهر بيبرس الذى أحبه المصريون وجعلوه بطلاً شعبيًا ، وهو الأمر الذى اعترف به المؤرخون الرسميون أيضًا . بيد أن المصريين جعلوا بيبرس واحداً منهم ؛ شرب من ماء النيل وترعرع على أرض الكنانة وشب فى رعاية رموزها الدينية- على نحو ما تخبرنا السيرة الشعبية للظاهر بيبرس[٢٩].

وقد تميز بيبرس بحصافة وبعد نظر سياسى جعله جديراً بالمكانة التى احتلها فى صفحات التاريخ وفى قلوب أبناء مصر والمنطقة العربية. فقد كان يمهِّد لكل عملية من عملياته

٢٨- هو سيف الدولة المهمندار (أى المسئول عن استقبال الرسل والعربان والوافدين على السلطان)؛ أنظر : المقريزى، السلوك ج١، ص٦٣٧- ص٦٣٨ .

٢٩- سيرة الظاهر بيبرس، خمسة مجلدات، طبعة عبد الحميد أحمد حنفى (القاهرة د.ت) وهى تقع فى خمسين جزءاً ألحق بها سجل بسلاطين المماليك وسلاطين الدولة العثمانية وحكام أسرة محمد على حتى الثورة العرابية وما تلاها .

العسكرية باستمرار من خلال المعاهدات والاتفاقيات الدولية التى كان يعقدها مع القوى الدولية المعاصرة . وعندما قرر أن يبدأ الجهاد ضد الفرنج الصليبيين سعى إلى التحالف مع الإمبراطورية البيزنطية التى كانت قد صارت عدواً تقليديًا للمستوطنات الصليبية فى الشرق العربى ، لاسيما بعد تجربة الأسر المريرة التى عانتها بيزنطة منذ استيلاء الحملة الصليبية الرابعة عليها سنة ١٢٠٤م (٣٠). ولذلك تحالف مع مخيائيل باليولوجوس الثامن سنة ١٢٦٢م، وأرسل إليه سفارة على رأسها الأمير فارس الدين آقوش المسعودى، وتضم عدداً من الأساقفة المسيحيين من أتباع المذهب الملكانى (الروم الأثوذكس) الذى كان مذهب الإمبراطورية البيزنطية أيضا. وفى القسطنطينية رحب بهم الإمبراطور البيزنطى وأكرمهم، كما أطلع الأمير آقوش على مسجد القسطنطينية الذى جدده لكى يصلى فيه المسلمون من التجار وغيرهم من الوافدين على العاصمة البيزنطية أو المقيمين بها (٣١).

ولما كانت المحالفات مع القوى الأوربية المعاصرة مهمة بالنسبة لسياسة بيبرس الخارجية، لضمان حياد هذه القوى فى الصراع الوشيك ضد الكيان الصليبى، فقد عقد الظاهر بيبرس معاهدة مع الإمبراطور مانفرد، ابن الإمبراطور فردريك الثانى وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة وصقلية ونابولى، كذلك كانت له علاقات ودية مع ألفونسو العاشر ملك قشتالة الأسبانى بحيث عرض بيبرس الزواج من ابنة هذا الملك، ولكن طلبه لم يتحقق . وقد استخدم بيبرس كل إمكانياته الدبلوماسية لكى ينفرد بأمراء المستوطنات الصليبية فى بلاد الشام وفلسطين .

٣٠- عن الحملة الرابعة أنظر:

Villehardouin , The Conquest of Constantinople , in : Joinville and Villeherdouin, Chronicles of the Crusades (translated with an introducion by : M. R. B. shaw , Penguin Books , 1975), pp. 29-160 ; Mayer, H. E. The Crusades (translated by Gillingham , Oxford, 1972) , pp. 183-193 , Edgar H. McNeal and Robert Lee Wolff, " The Fourth Crusades", in Setton (ed.) Hist , of the Crusades, vol . II, pp. 155-186 .

٣١- الأسقف الكبير (البطريق) هو الرشيد الكحال . أنظر : العينى ، عقد الجمان، ج١ ، ص٣٣٢ ؛ ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص١٢٩ ؛ أحمد مختار العبادى، قيام دولة المماليك الأولى، ص٢٠٢- ص٢٠٣ .

٣٢- العبادى ، المرجع السابق ، ص٢٠٢- ص٢٠ .

كانت تلك هى جهود بيبرس الدبلوماسية فى الغرب ؛ أما فى الشرق فقد بسط يد التحالف والصداقة إلى بركة خان، زعيم القبيلة الذهبية من قبائل المغول، الذى كان أول من اعتنق الإسلام من أبناء جنكيز خان . وكانت بلاد هذا الخان المسلم تمتد من تركستان شرقا حتى شمال البحر الأسود غربًا ؛ وهى بلاد القفجاق وعاصمتها مدينة سراى. وقد تبودلت الرسل والسفارات بين بيبرس وبركه فيما بين سنتى ٦٥٩هـ و٦٦١هـ / ١٢٦١م - ١٢٦٣م . كما تزوج بيبرس من ابنته لكى يزيد من روابط الصداقة والود بينه وبين الخان المغولى بركة خان، وأمر بالدعاء له على منابر القاهرة والقدس والحرمين الشريفين بمكة والمدينة (٣٣). وبينما كانت تحالفات بيبرس على الجبهة الأوربية موجهة ضد الصليبيين ، كانت معاهداته ومحالفاته على الجبهة الشرقية موجهة ضد مغول فارس الخاضعين لهولاكو وبنيه .

هكذا كشف السلطان الظاهر بيبرس عن إدراكه لحقيقة الدور التاريخى المنوط بالدولة التى اعتلى عرشها ، وأدرك أن دولته تواجه خطراً مزدوجًا يمكن أن يؤدى إلى حلف بين اثنين من ألد أعدائه وأعداء المنطقة العربية الإسلامية وهم المغول فى فارس والصليبيون فى فلسطين وبلاد الشام. وقد سارت خطط بيبرس باتجاه القضاء على كل من هذين الخطرين على حدة . ولم يكن ممكنًا للسلطان الظاهر بيبرس أن يحقق هدفه بدون أن يكون لديه الجيش القادر على إحراز النصر. فقد عمد إلى ضم القبائل العربية القاطنة على حدود العراق إلى جيشه لتكون بمثابة قوات مساعدة ، أو حرس الحدود، وغمرهم بالأموال والمساعدات والهدايا ، فشنوا هجمات عنيفة ناجحة على قوات هولاكو ووصلت قواتهم إلى أبواب مدينة بغداد التى كان المغول يحكمونها آنذاك (٣٤). كما أعاد تحصين القلاع التى تحمى مناطق الحدود مع دولة مغول فارس، وشحنها بالذخيرة والأقوات، وتمركزت بها أعداد كافية من الجنود، وأقام سلسلة من نقاط المراقبة عُرفت باسم «المنائر» لرصد نشاط العدو فى تلك المناطق الحدودية، وكان تبادل

٣٣- ابن أيبك الدواداري ، الدرة الزكية ، ص٩٩، ص١٦٧ ؛ ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر ، ص١٣٩- ص١٤٠ ، ص٢١٤- ص٢١٨ ؛ المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٤٧٤- ص٤٧٥ ، ص٤٧٧ - ص٤٧٩- ص٤٨٠-٤٩٥ .

٣٤- يذكر المقريزى (السلوك ، جـ١ ، ص٤٧٦) فى حوادث سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م ما نصه : «وفيها وفد على السلطان بُعيد كسرة المستنصر شيوخ عبادة وخفاجة ، من هيت والأنبار إلى الحلة والكوفة... فأنعم السلطان عليهم وكانوا له عينا على التتار».

المعلومات بين نقاط المراقبة هذه يتم عن طريق الإشارات الضوئية بالنيران، أو إشارات الدخان[٣٥].

وفى مصر أعاد الظاهر بيبرس بناء حصن الجزيرة الذى كان الملك الصالح نجم الدين أيوب قد بناه لمماليكه، ثم هدمه الملك المعز أيبك «... لا لغرض ، ولا لمصلحة، وأباح رخامها وأصنافها للناس ...» على حد تعبير ابن عبد الظاهر[٣٦]. ولما كان ميناء دمياط قد تعرض للاحتلال الصليبى أثناء الحملة الصليبية الخامسة والحملة الصليبية السابعة، فقد رأى بيبرس ردم مصب فرع دمياط وتضييقه بالحجارة ووضع سلسلة عظيمة لمنع دخول السفن الكبيرة فى هذا الفرع [٣٧].

من ناحية أخرى، اهتم بيبرس بالتنظيم الإدارى الداخلى ؛ سواء من حيث تنظيم الإدارة المالية ، أو لشئون السياسية الداخلية، أو تنظيم القضاء . كما اهتم بوضع نظام فعال للمعلومات من خلال نظام البريد المتكامل الذى جعل مركزه قلعة الجبل بالقاهرة، واعتمد على الخيل ومحطاتها وعلى الحمام الزاجل [٣٨]. قد كان هذا التنظيم البريدى على درجة عالية من الكفاءة والفاعلية بحيث كانت الرسالة تصل من القاهرة إلى دمشق فى ثلاثة أيام فقط. وكانت النتائج الإيجابية لهذا البريد المتكامل أن توفرت للسلطان الظاهر بيبرس معلومات

٣٥- أحمد مختار العبادى، قيام دولة المماليك الأولى ، ص٢٠٩- ص٢١١ .

٣٦- ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر، ص٩٠ .

٣٧- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٤٤١ .

٣٨- فى سنة ٦٦٠هـ أعاد تعيين القاضى تاج الدين بن بنت الأعز على القضاء بمصر ، كما أمره أن يتخذ نوابًا من المذاهب الثلاثة الأخرى، الحنفى والملكى والحنبلى لأنه كان من الشافعية . أنظر:

العينى ، عقد الجمان ، جـ١ ، ص٣٣٢- ص٣٣٣ . وعن تنظيم البريد أنظر:

القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، (طبعة دار الكتب المصرية) ، ج١٤ ، ص٣٧٣- ص٣٨٣؛ أحمد مختار العبادى ، قيام دولة المماليك الأولى، ص٢١١- ص٢١٣ . أنظر أيضًا : ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر ، ص٩٥ ؛ إذ يقول عن تنظيم البريد «... وهذه همة عالية فإنه يرتب بذلك أمور الشام والقلاع وأكثر ممالكه فى كل جمعة مرتين، ويُقطع ويقطع ، ويولى ويعزل فى جميع الشام وحلب. وهو فى مصر لاتخفى عليه أخبار الشام وحلب، وغير ذلك من بلاد الفرنجة ...».

سريعة عن أحوال مملكته التى امتدت من الفرات إلى النوبة، وهو الأمر الذى انعكست نتائجه فى تحركات السلطان الكثيرة والسريعة فى أنحاء دولته على نحو ما أخبرتنا المصادر المعاصرة، ولاشك فى أن الأخبار العسكرية كانت أهم ما يصل السلطان عن طريق نظام البريد.

كذلك عمل بيبرس على إنشاء أسطول قوى لضمان النجاح لعملياته العسكرية البرية من ناحية، ولحماية شواطئ البلاد من غارات الصليبيين المحتملة من ناحية أخرى. وقد جاء فى التقليد الشريف الذى أعطاه الخليفة العباسى بالقاهرة ، المستنصر بالله، للسلطان الظاهر بيبرس، وفوضه فى حكم البلاد ، ما نصه « ... وكذلك الأسطول الذى ترى خيله كالأهله ، وركائبه سائقة بغير سائق مستقلة ، وهو أخو الجيش السليمانى ، فإن ذاك غدت الرياح له حاملة، وهذا تكفلت بحمله المياه السائلة ، وإذا لحظها الطرف جارية فى البحر كانت كالأعلام، وإذا شبهها قال: هذه ليال تقلع بالأيام ... » هذه العبارات المسجوعة تكشف عن توجه سياسة بيبرس منذ البداية للاهتمام بالأسطول .

وعلى أية حال ، فإن بيبرس يعتبر المؤسس الحقيقى للأسطول المملوكى ؛ فقد أولى اهتمامًا كبيراً بالأسطول ودور صناعة السفن المصرية فى الفسطاط وجزيرة الروضة فى نيل القاهرة، وفى الإسكندرية ودمياط . وكان يشرف بنفسه على بناء السفن العسكرية لأسطوله ، بل كان هو وأمراؤه يساعدون فى بنائها وتجهيزها وربما يستقبل بعض السفراء فى دار صناعة السفن وهو مشغول بتجهيز سفن أسطوله الحربى (٣٩).

كان الجيش يحتاج إلى رجال مثلما يحتاج إلى أسلحة وعتاد ، وقد حرص بيبرس على الإكثار من شراء المماليك من بنى جنسه القفجاق ، إذ « ... مالت الجنسية إلى الجنسية » على حد تعبير المؤرخ أبى العباس القلقشندى . وربما كانت العلاقات الودية الوطيدة بين بيبرس وبركة خان، حاكم القفجاق ، هى التى يسرت سبيل الحصول على المماليك القفجاق من ناحية، كما أن الهجرات المغولية الكثيرة إلى مصر كانت مورداً إضافيًا من ناحية أخرى. كذلك كانت علاقاته الودية مع الإمبراطور البيزنطى تسهل مرور السفن التى تحمل أولئك المماليك. ولما

٣٩- المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٥٧٧ ، ص٥٩٥ .

كانت بلاد القفجاق بلاداً رعوية شحيحة الموارد؛ فقد كان أهلها من الرعاة الرحل الذين يمضون الصيف في منطقة والشتاء في منطقة غيرها ، وكانت وطأة الفقر والحاجة تجعلهم يبيعون أبناءهم وبناتهم مقابل مبلغ من المال أو كمية من الغلال. ومن ناحية أخرى، كان أولئك الرعاة الفقراء محاربين جسورين ؛ فكانوا يغيرون على جيرانهم من الجراكسة والروس والمجر واللان ويسبون أعداداً منهم يبيعونهم في أسواق الرقيق العالمية .

على أية حال ، استطاع السلطان الظاهر بيبرس تكوين جيش قوي بلغت عدته أربعين ألف فارس، وهو رقم ضخم بمقاييس ذلك الزمان؛ لاسيما إذا عرفنا أن الفارس المدرع كان له تأثير نفسي على المشاه في ميدان القتال يشابه تأثير الدبابة في زماننا ، وقد تكون الجيش المملوكي من عدة أقسام على النحو التالي [٤٠]:

المماليك السلطانية : كانوا يعسكرون بالقاهرة ويصحبون السلطان في حروبه وأسفاره وكانوا يؤلفون القوة الرئيسية في جيش سلاطين المماليك. وعادة ما كانت المماليك السلطانية تتألف من مماليك السلطان الذين اشتراهم، وتتكاثر أعدادهم حين ينضم إليهم مماليك أسلافه من السلاطين ، أو من يقعون تحت طائلة غضب السلطان فيصادر ممتلكاتهم ويضم مماليكهم إلى المماليك السلطانية . بيد أن العلاقة بين السلطان والمماليك الذين اشتراهم وأشرف على تربيتهم كانت أقوى ، بطبيعة الحال، من العلاقة بينه وبين غيرهم من المماليك . من ناحية أخرى، كان السلاطين يولون عناية كبيرة لتربية مماليكهم وتدريبهم ؛ لأنهم كانوا بمثابة الحرس السلطاني الخاص. كما كان السلطان يختار لهم أعلى الوظائف قدرا وأكبرها إقطاعًا سواء في البلاط أو الجهاز الحكومي [٤١].

جيوش الأمراء : كانت تشكل الجزء الثاني من الجيش المملوكي العام. إذ كانت للأمراء الكبار وولاة الأقاليم جيوش صغيرة تتراوح أعدادها ما بين ثلاثمائة وثمانمائة مملوك . وغاليا ما كانت جيوش أمراء المماليك تتمركز خارج العاصمة [٤٢].

٤٠- عن هذا الموضوع بالتفصيل أنظر:

محمود نديم أحمد، الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري ، (الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٣)، ص٦٧- ص١٣٣ .

٤١- قاسم عبده قاسم ، دراسات في مصر الاجتماعي- عصر سلاطين المماليك، (طبعة دار الشروق ١٩٩٤)، ص١٣- ص١٤ .

أجناد الحلقة : هذا القسم الثالث من أقسام الجيش المصرى فى عصر سلاطين المماليك كان يتألف من المقاتلين الأحرار من أبناء المماليك، الذين عرفوا فى مصطلح ذلك العصر باسم «أولاد الناس» ، والأعراب والتركمان ، وبعض المصريين الذين انضموا للجيش. والجدير بالذكر أن أجناد الحلقة فقدوا أية أهمية عسكرية فى الشطر الأخير من عصر سلاطين المماليك؛ بل إن الكثيرين منهم تعرضوا لقطع إقطاعهم أو «جاميكتهم» (أى رواتبهم الشهرية) فى أواخر ذلك العصر [٤٣]. وقد كان أجناد الحلقة بمثابة قوات الحرس الوطنى فى عصرنا الحالى، كما كانوا أحيانا يقومون بدور قوات الاحتياط التى يتم تجنيدها واستدعاؤها للمعارك الكبرى.

هكذا ، أتم السلطان الظاهر بيبرس بناء الجيش والأسطول ، وتحصين مناطق الحدود ، وتنظيم وسائل الاتصال ونقل المعلومات من خلال نظام البريد، وبقى أن يبدأ العمل العسكرى ضد الصليبيين والمغول .

اتسمت سياسة بيبرس تجاه الصليبيين بالعنف والشدة. ويقول المؤرخ تقى الدين المقريزى: «لما خلا بال السلطان من هم الملك المغيث (صاحب الكرك) ، توجه بكليته إلى الفرنج...»[٤٤]. ولم يكن ممكنًا لبيبرس أن ينتهج سياسة المهادنة تجاه الفرنج الصليبيين وإلا فقدت دولته مبرر وجودها؛ فقد كان الصليبيون هم العدو الأشد خطراً على العالم العربى الإسلامى، كما أنهم ساعدوا المغول أحيانا ضد المسلمين وإذا كانوا قد ترددوا أحيانا ، ولم ينحازوا تمامًا للقوات المغولية ، فذلك لأن قواهم قد وهنت من ناحية ، ولأن محاولات الغرب الأوربى للتحالف مع المغول قد فشلت من ناحية أخرى. بيد أن هذا لم يمنع بعض الصليبيين من إنزال بعض القوات المغولية فى حصونهم ، ولكنهم ما لبثوا أن وجدوا أنفسهم خاضعين، فى حصونهم، لإرادة الخان المغولى [٤٥].

٤٢- ذكر المقريزى ، (السلوك ، ج١ ، ص٥١٩) أن رسل الملك بركة خان شاهدوا عرض الجيش المصرى سنة ٦٦٢هـ. وهالتهم كثرة العساكر ، فسألوا هل هى عساكر مصر والشام ، فقيل لهم: « هذا عسكر مصر فقط، غير من فى الثغور مثل اسكندرية ودمياط ورشيد وقوص، والمجرّدين والذين سافروا فى إقطاعاتهم فكثر تعجبهم من ذلك ».

٤٣- ابن الصيرفى، إنباء الهصر بأنباء العصر، صفحات ٢٣-٢٤ ، ٣٣-٣٤ ، ٤٣ ؛ ابن إياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، جـ٣ (طبعة محمد مصطفى) صفحات ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٧ .

٤٤- المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٤٨٣ .

٤٥- أحمد مختار العبادى، قيام دولة المماليك الأولى ، ص٢٢٢ .

في سنة ٦٦٣هـ / ١٢٦٥م بدأت عمليات الظاهر بيبرس العسكرية ضد الصليبيين ؛ ففي رابع ربيع الآخر من هذه السنة توجه إلى بلاد الشام، وهاجم قيسارية وحاصرها حتى تم فتحها عنوة في ٨ جمادى الأولى، ثم استولى على أرسوف في رجب من السنة نفسها (٤٦). وكانت تلك مجرد بداية لغارات بيبرس وحملاته ضد الصليبيين، فمنذ تلك السنة بدأ هجوم دولة سلاطين المماليك ضد الصليبيين ، ولم ينته إلا بالقضاء عليهم تماما بعد حوالي ثلاثين سنة في عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون. وكثيرا ما لجأ بيبرس إلى عقد المعاهدات والاتفاقيات مع بعض القوى الصليبية كي يضمن النجاح لعملياته العسكرية ضد البعض الآخر؛ بيد أنه كثيرا ما كان ينقض هذه المعاهدات والاتفاقيات .

وفي العام التالي مباشرة استولى على قلعة صفد ، معقل فرسان الداوية ، وكان بيبرس يقود جيوشه بنفسه في هذه العمليات. وفي أثناء القتال ضد صفد كان يقوم بالأعمال البدنية لاستثارة حماسة جنوده؛ إذ كان يجر الأخشاب « .. مع البقر» لبناء المجانيق اللازمة للحصار(٤٧) . وعندما تم الاستيلاء على صفد أمر السلطان بإعدام حاميتها من فرسان الداوية الذين ارتكبوا الكثير من المذابح والفظائع في حق المسلمين (٤٨)، وعاد بيبرس إلى القاهرة في أخريات عام ١٢٦٦م؛ لكنه ما لبث أن غادر العاصمة بعد أربعة شهور فحسب لكي يواصل القتال ضد الفرنج الذين باتوا يرتجفون هلعًا وخوفًا كلما سمعوا بقدوم الظاهر بيبرس وبجيشه إلى بلاد الشام. وفي هذه المرة سارعت رسلهم للقاء السلطان في غزة ، ومعهم الهدايا وعدد من أسرى المسلمين، في محاولات لاسترضائه ثم رحل إلى دمشق ليعود بسرعة إلى صفد من أجل تقوية دفاعاتها. ووصل رسل الفرنج إلى السلطان « ... وهو على صفد ، وشاهدوا من أمرها واهتمام السلطان بها... وأمر السلطان العساكر بالركوب خفية للغارة ،

٤٦- ابن أيبك الدوادارى ، الدرة الزكية ، ص١٠٧ ؛ العينى ، عقد الجمان ، ج١ ، ص٣٩٦- ص٣٩٨ .

٤٧- ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر ، ص٢٥٤- ص٢٦٣ .

٤٨- يقول ابن عبد الظاهر، كاتب سيرة الظاهر بيبرس : « ... وأحضرت خيالة الديوية والاسبتار، وجميع من أخرج من صفد من الفرنج ، فضربت رقابهم على تل قريب صفد ، في مكان كانوا يضربون فيه رقاب المسلمين، ولم يسلم منهم غير نفرين؛ أحدهما الرسول بحكم أن السلطان كان شرب قمزا في النقب وخرج إليه هذا الرسول فسقاه منه فعفى السلطان عنه ، وأسلم على يده ... ».

أنظر : الروض الزاهر، ص٢٦٠- ص٢٦٥ .

وركب السلطان. وكان الفرنج قد أطمأنوا بإرسال رسلهم إليه ، فما أحسوا إلا العساكر قد وصلت إليهم... »(٤٩).

هكذا بغت بيبرس الفرنج أمام عكا ، بعد أن تخفى جنوده فى زى فرسان الداوية والاسبتارية الصليبيين. ونتج عن هذا الهجوم توقيع بعض معاهدات الهدنة مع بعض زعماء الفرنج مثل أمير صور ، وأمير بيروت ، وفرسان الاسبتارية في كل من حصن الأكراد ، وحصن المرقب. وفى العام التالى ٦٦٦هـ / ١٢٦٨م غادر بيبرس القاهرة مرة أخرى لقتال الفرنج حيث تمكن من الاستيلاء على مدينة يافا بفلسطين ، ثم استولى على حصن منيع آخر هو حصن الشقيف أرنون (٥٠)، الذى أسلم قياده لبيبرس بعد حصار استمر طوال فترة لاتقل عن شهرين.

كانت سياسة بيبرس تجاه الصليبيين فى فلسطين وبلاد الشام تقوم على محاولة الإفادة من منازعاتهم وخلافاتهم الداخلية؛ ولذا فإنه كان يهادن بعض أمرائهم دون البعض الآخر حتى تتوفر له حرية الحركة ضدهم جميعًا. وفى البداية ، ركز الظاهر بيبرس جهوده العسكرية ضد الفرنج ومستوطناتهم وحصونهم على سواحل بلاد الشام الشمالية والجنوبية . وبعد مناورة كبيرة قامت بها جيوش هذا السلطان الداهية ، والقائد العسكرى الفذ ، فوجئ الفرنج الصليبيون بالقوات المصرية تفرض حصارها على مدينة أنطاكية الحصينة تعاونها الجيوش الشامية.

كانت هذه المدينة تحتل مكانة خاصة لدى الصليبيين بسبب مناعة حصونها ، وبسبب تحكمها فى الطرق الواقعة فى مناطق شمال الشام. وقد فشل البيزنطيون فى انتزاعها من الصليبيين الذين استولى عليها فى خضم أحداث الحملة الصليبية الأولى. وربما يكون من المهم هنا أن نشير إلى أن قوات الفرنج لم تتمكن من أخذ المدينة الحصينة فى الحملة الأولى سنة ١٠٩٨م بالقوة العسكرية ، وإنما فتح أحد الخونة من حراس أبوابها- بعد أن جنده بوهيموند - أبواب واحد من أبراج المدينة للقوات الفرنجية قبل فجر يوم اقتحامها .

٤٩- المصدر نفسه، ص٢٨١- ص٢٨٢ .

٥٠- العينى، عقد الجمان، جـ٢ ، ص١٩- ص٢١ ؛ ابن أيبك الدوادارى ، الدرة الزكية ، ص١٢٤ - ص١٢٦ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص٥٦٤- ص٥٦٦ .

على أية حال، تمكنت الجيوش المصرية والشامية ، بقيادة الظاهر بيبرس، من اقتحام المدينة سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٨م [٥١]. وفرت حاميتها إلى القلعة حيث طلب الصليبيون الأمان من السلطان، واستولى المسلمون على المدينة التى ظلت رهن الأسر الصليبى منذ الحملة الصليبية الأولى؛ أى على مدى أكثر من مائة وخمسين سنة . ويبدو من كلام المصادر التاريخية أن الغنائم كانت وفيرة جدا، إذ يذكر المقريزى أن غنائم المسلمين فى أنطاكية بلغت من الكثرة أن « ... قُسمت النقود بالطاسات ... » وكان الأسرى كثيرون لدرجة أنه « ... لم يبقْ غلام إلاّ وله غلام... وبيع الصغير بإثنى عشر درهما ، والجارية بخمسة دراهم... »[٥٢].

وعلى صعيد المواجهة بين المسلمين والفرنج كان سقوط أنطاكية بأيدى قوات مصر والشام بقيادة السلطان الظاهر بيبرس أعظم فتح حققه المسلمون على حساب المستوطنين الفرنج منذ استرداد صلاح الدين الأيوبى لبيت المقدس سنة ١١٨٧م. وهكذا أكد بيبرس جدارته وجدارة دولته بالدور التاريخى الذى تعلق بهما؛ فقد نجحت دولة سلاطين المماليك فى أول اختبار لجدارتها بدور القوة المدافعة عن العالم الإسلامى. لقد كان فرح المسلمين عظيما باسترداد أنطاكية من أسر الفرنج، وكتبت البشائر إلى بلاد الشام ومصر بهذا الفتح ، وتلقاه سكان هذه البلاد بالأفراح والزينات التى أقاموها فى الشوارع والأسواق . كانت أنطاكية التى استولى عليها الفرنج سنة ١٠٩٨م، واستردها المسلمون سنة ١٢٦٨م، هى المسمار الذى دقه المسلمون فى نعش الوجود الصليبى على الأرض العربية . كذلك كان سقوط أنطاكية بمثابة إعلان جديد لحركة الجهاد الكبرى، التى كانت المنازعات الأيوبية الداخلية قد تسببت فى توقفها ، ثم جاءت دولة سلاطين المماليك بقيادة السلطان الظاهر بيبرس لتعاود القيام بها. وهى الحركة التى لم تنته سوى ١٢٩١م عندما نجحت القوات المصرية تحت قيادة السلطان الأشرف خليل بن قلاون فى القضاء على بقايا الفرنج الذين كانوا قد تجمعوا فى عكا .

أما الفرنج ، فقد جاءت أنباء سقوط أنطاكية بأيدى المسلمين بمثابة الكارثة على رؤوسهم . ونظراً للوحدة التى تمتعت بها الجبهة العربية الإسلامية آنذاك ، والتى جعلت الجهود الإسلامية بقيادة بيبرس تتسم بالجسارة والإقدام، فقد كان من الطبيعى أن يشعر الفرنج بالضعف

٥١- المقريزى، السلوك ، ج١، ص٥٦٧- ص٥٦٨ .

٥٢- نفسه، ج١ ، ص٥٦٨ .

والخوف فى مواجهة المسلمين. ومن ثم ، سارع بعض حكام المستوطنات الصليبية إلى تقديم فروض الطاعة والولاء للسلطان المملوكى فى محاولة واضحة لاسترضائه . إذ إن حاكم عكا أرسل يطلب عقد هدنة مع السلطان بيبرس مقابل أن يتنازل عن نصف أملاك التاج الصليبى فى عكا [٥٣]. وعلى الرغم من أن الملك الصليبى لم يُقر هذه المعاهدة بشكل نهائى، فإن سكون الحال بسببها أطلق يد السلطان بيبرس ضد بعض القوى الصليبية الأخرى؛ فهاجم إمارة طرابلس الصليبية ؛ فاستولى على كافة المنافذ المؤدية إلى مدينة طرابلس نفسها . ولكن الأنباء التى جاءت بخروج حملة صليبية جديدة من فرنسا جعلت السلطان يعود مسرعًا إلى القاهرة لكى يستعد لمواجهة الفرنج الذين أحرز النصر عليهم فى المنصورة وفارسكور قبل عشرين عامًا . بيد أن الحملة توجهت إلى تونس حيث مات زعيمها لويس التاسع الذى كان المصريون قد أسروه فى مدينة المنصورة من قبل [٥٤].

وهكذا عاد بيبرس، مرة أخرى، إلى بلاد الشام بعد أن انتهت حملة لويس التاسع على تونس بالفشل الذريع. وفى سنة ١٢٧١م كانت قوات بيبرس تقاتل إمارة طرابلس الصليبية من جديد، وإزاء تطور الأحوال السياسية بوصول الأمير إدوارد الإنجليزى إلى عكا على رأس قوة صليبية جديدة قوامها ثلاثمائة فارس وثلاثمائة سفينة، غير القوات التى كانت قد سبقته إلى بلاد الشام، شدد بيبرس هجومه على طرابلس حتى طلب أميرها الصليبى عقد هدنة مع السلطان ، وتم الاتفاق على ذلك [٥٥] بين السلطان الظاهر بيبرس والأمير بوهيموند السادس أمير طرابلس. وتذكر المصادر التاريخية أن بيبرس سخر من جبن الأمير الصليبى وأمره أن

٥٣- ذكر ابن عبد الظاهر (الروض الزاهر ، ص٣٣١- ص٣٣) ما نصه :

«... وحصل الاتفاق بين السلطان وبين هذا الملك على شئ يسير، وهو مدينة عكا وبلادها ، وهى إحدى وثلاثون ضيعة ، وتقرر أن تكون صيدا للفرنج ، ولها ثلاث ضياع ، وبقية بلادها مناصفة ، وبلاد الكرمل تكون مناصفة ، وعثليث يكون لها خمس قرى والباقى مناصفة ، والقرين عشر قرايا، والباقى للسلطان ، وبلاد صيدا ، الوطأة للفرنج والجبليات للسلطان ، واتفق الصلح على مملكة قبرص ...».

٥٤- Joseph R. Strayer, " The Crusades of Louis IX ", in Setton A History of the Crusades, vol . II, pp. 509-518 .

٥٥- كتبت الهدنة لمدة عشر سنين ؛ انظر : ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص٣٨٣؛ المقريزى ، السلوك، ج١ ، ص٥٩٢- ص٥٩٣ ؛ النويرى، نهاية الأرب، ، ج٣٠ ، ص٣٣١- ص٣٣٣٢ .

يدفع نفقات الحملة التى جردها ، ورفض بوهيموند مما كاد أن يؤدى إلى فشل مفاوضات الهدنة(٥٦).

بعدها ، لم تعد بيد الفرنج فى بلاد الشام أية قلاع أو حصون فى الداخل. ثم أرسل بيبرس حملة بحرية على قبرص ولكنها فشلت بسبب سوء أحوال البحر(٥٧).

وإذا كانت حملة الأمير إدوارد الإنجليزى تعتبر آخر حملة صليبية يقودها أمير أوربى صوب فلسطين (٥٨)، فإن اتفاقية بيبرس مع أمير طرابلس كانت خاتمة لجهوده الكبيرة ضد الفرنج الصليبيين ، ففى سنة ٦٧٣هـ / ١٢٧٥م تم عقد هدنة عامة مع الصليبيين الذين سعوا إلى هذه الهدنة وألحوا فى طلبها (٥٩). وبعد ذلك كانت المعارك التى خاضها بيبرس ضد الفرنج فى بلاد الشام وفلسطين ذات طابع محلى محدود مما جعلها قليلة الأثر والأهمية فى الصراع المستمر بين المسلمين وأعدائهم الفرنج.

ولنتحدث الآن بشئ من التفاصيل عن الحملة البحرية التى جردها السلطان بيبرس ضد قبرص ، والتى أشرنا إليها باختصار. فقد أدرك بيبرس مدى أهمية قبرص بالنسبة للصليبيين فى جبهة أخرى غير بلاد الشام. ففى سنة ١٢٦٩م كان هيو الثالث لوزينيان قد صار ، عن طريق المصاهرة ، ملكًا على مملكة بيت المقدس الصليبية فى عكا (٦٠). إذ كان هيو الثالث هذا يرى نفسه جديراً بزعامة الصليبيين ؛ ومن ثم قرر أن يضع هذه الزعامة موضع التنفيذ . ففى سنة ١٢٦٥م، عندما كان مايزال وصيًا على عرش المملكة، أرسل قوة كبيرة لمساندة الصليبيين بالشام فى مواجهة هجمات جيوش السلطان الظاهر بيبرس؛ ولكن هذه القوة التى قدرها المؤرخ تقى الدين المقريزى بألف وخمسمائة فارس لم تتمكن من فعل شئ لنجدة قيسارية وحيفا وأرسوف التى استولى عليها الجيش المصرى، كما أوضحنا من قبل. ومن

٥٦- S. Runciman, " The Crusader States 1243-1291", in : Setton , A Hist . of the Crusades, vol . II., pp. 580-582 .

٥٧- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٥٩٣- ص٥٩٤ .

٥٨- S. Runciman, Op. cit., pp. 582-583 .

٥٩- النويرى ، نهاية الأرب ، ج٣٠ ، ص٣٤٣- ص٣٤٤ .

٦٠- Elizabeth Chopin Furber, " The Kingdom of Cyprus 1191-1291 ", in : Setton (ed.) , A Hist. of Crusades, vol . II, pp. 613-616 .

ناحية أخرى ظلت السفن القبرصية تقوم بأعمال القرصنة ضد سفن المسلمين على نحو هدد حركة التجارة والسفر فى البحر المتوسط بشكل خطير.

وبعد أن جمع هيو الثالث لوزينيان بين عرش قبرص وعرش مملكة بيت المقدس اللاتينية سنة ١٢٦٩م، تصاعد نشاطه العدوانى ضد المسلمين تصاعداً خطيراً. ولم تكن قوات بيبرس فى تلك السنة على استعداد للقيام بأى عمل عسكرى ضد هذا الملك، فاكتفى بأن وجه نقداً مريراً لسياسة هيو الغادرة ، وهدد زعماء الفرنج فى الشام بتأديب هيو بما يستحق .

فى سنة ١٢٧٠م شن الأسطول المصرى غارة على سواحل قبرص . وكانت القوات المشتركة فى هذه الغارة مكونة من سبع عشرة سفينة بقيادة ابن حسّون ، وعلى الرغم من أن السفن الإسلامية قد عمدت إلى الخداع عندما طلاها قائدها بالقار ورسم عليها الصلبان لتضليل أهل قبرص ، فإن عاصفة شديدة دمرت إحدى عشرة سفينة من الأسطول ، وتم أسر من كان على متنها من الجنود والملاحين والقادة على حين عادت السفن الست الباقيات ، بقيادة ابن حسون، إلى الموانئ المصرية (٦١).

وعندما علم هيو بنبأ الغارة البحرية الفاشلة أرسل رسالة شامتة إلى السلطان بيبرس . وجاء فى رد بيبرس على ملك قبرص وبيت المقدس «... وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب، والاستيلاء على الحصون المنيعة هو العجب ... وما النصر بالهواء مليح، وإنما النصر بالسيف هو المليح ... ونحن نُنشى فى يوم واحد عدة قطايع {سفن} ، ولاينشأ لكم من حصن قطعة ... وما كلُّ ما أعطى مقذافًا قذف ، وما كل من أعطى السيف أحسن الضرب به أو عرف ... »(٦٢) ومع ذلك فإن بيبرس تمكن من تهريب قادة حملته البحرية التى حطمتها العاصفة من داخل سجن قلعة عكا حيث كان الملك الصليبى قد أمر بسجنهم .

كانت جبهة القتال الثانية التى تولى السلطان بيبرس قيادة جيوش مصر والشام فيها هى جبهة الحرب ضد المغول. وعلى الرغم من أننا نعتقد أن المغول الوثنيين لم يكونوا خطراً حقيقيًا على العالم الإسلامى فى المدى الطويل، بسبب وثنيتهم وبداوتهم التى لم تكن لتصمد أمام

٦١- ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر ، ص٣٨٧- ص٣٨٨ .

٦٢- المقريزى، السلوك، ج١ ، ص٥٩٤ . أنظر هامش ٣ فى نفس الصفحة حيث أورد الدكتور محمد مصطفى زيادة نص رسالة بيبرس. أنظر أيضا : العينى ، عقد الجمان، ج٢ ، ص٧٤- ص٧٦ .

الدين الإسلامى والحضارة العربية الإسلامية ، فإن وحشيتهم وروحهم العسكرية كانت بالفعل خطراً ذاهمًا على المسلمين فى حينها . ومن ناحية ثانية كان الغزو والحرب محور الحياة المغولية منذ جنكيز خان، كما أن هزيمتهم فى عين جالوت لم تنه خطرهم على حدود دولة سلاطين المماليك الناشئة . والأمر الثالث يتمثل فى حقيقة مؤداها أن سلاطين المماليك، منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس ، قد باتوا مسئولين عن حماية العالم الإسلامى؛ ألم يأخذ بيبرس تفويضًا من الخليفة العباسى فى القاهرة بحكم بلاد المسلمين ؟ ومن ثم صارت دولته هى المسئولة عن حماية هذه البلاد ؟ هذه المسئولية هى التى جعلت بيبرس يهتم بمحاربة المغول الذين كان الحال قد استقر بهم فى بلاد فارس والعراق .

من ناحية أخرى، كان هناك خطر محتمل يخشاه بيبرس. ذلك أن محاولات كانت قد جرت بالفعل للتحالف بين المغول والصليبيين. فقد أرسل أبغا بن هولاكو (١٢٦٥ - ١٢٨٢م) سفراء إلى البابا كليمنت الرابع سنة ١٢٦٧م، وإلى الملك جيمس الأول ملك أراجون بعدها بسنتين وإلى مجمع ليون سنة ١٢٧٤م يقترح القيام بحملات مشتركة ضد سلطنة المماليك وعدوهم المشترك. كما أن البابا نيكولاس الرابع التقط الفكرة وخاطب المغول فى شأن التحالف، بيد أن الأمر لم يتعد حدود تبادل السفارات والمفاوضات [٦٣].

ولمجابهة هذا الخطر الماثل قام بيبرس بالتحالف مع بركة خان زعيم قبيلة الذهبية كما أشرنا من قبل ، وتزوج إبنة هذا الزعيم المغولى المسلم لتقوية أواصر التحالف بينهما . هذا الحلف المملوكى/ المغولى آتى ثماره عندما أخذ بركة خان يحارب بقية المغول الوثنيين. وفى سنة ٦٦١هـ / ١٢٦٣م وردت رسالة من بركة خان إلى السلطان الظاهر بيبرس جاء فيها طلب المساعدة ضد هولاكو « ... وأننى قد قمت أنا وأخوتى الأربعة لحربه من سائر الجهات ، لإقامة منار الإسلام ، وإعادة مواطن الهدى إلى ما كانت عليه من العمارة ، وذكر الله والآذان والقراءة والصلاة وأخذ ثأر الأئمة والأمة ... »[٦٤]. وقد ردّ بيبرس على رسالة بركة خان بسفارة تحمل خطابات الود والهدايا الثمينة . وقد حكى سفراء بيبرس، عند عودتهم إلى

٦٣- Clude Cahen , " The Mongols and the Near East", in : Setton : A Hist of the Cruades, vol . II, pp. 722-723 .

٦٤- ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر، ص١٧٠- ص١٧١ .

مصـر، أنهم شـاهدوا فى بلاط بركة خـان إمامًـا ومؤذنًا خـاصًـا لكل أمـيـر، أو أمـيـرة ، وأنهم شاهدوا الأطفال يحفظون القرآن ببلاد القفجاق (٦٥).

كان هذا التحالف بمثابة خط الدفاع الأول لدولة سلاطين المماليك ضد هجمات مغول فارس الوثنيين؛ ولهذا السبب اتسمت هجمات مغول فارس ضد بلاد الشام بالسرعة والرعونة كما افتقرت إلى الشمول والعنف الذى ميز الهجمات المغولية التى سبقت معركة عين جالوت .

فى سنة ٦٦٣هـ / ١٢٦٥م أغار مغول فارس على قلعة ألبيرة الهامة الواقعة على ضفاف نهر الفرات ، وحاصرت قوات المغول حاميتها بغية الاستيلاء عليها؛ فجهز السلطان من فوره الأمـيـر بدر الدين الخـازندار على البـريد ليـخـرج أربعـة آلاف فـارس من بلاد الشـام. وركب السلطان بيبرس بنفسه متوجهًا إلى القلعة (٦٦). ولكن رسالة وردت إليه لتخبره بفرار المغول عندما شاهدوا القوات التى أرسلها. وعلى الرغم من دلك، أمر بيبرس بتدعيم التحصينات فى هذه القلعة الهامة بحيث تصمد للحصار حتى لو امتد عشر سنوات . وعندما أرسل الأمراء يصفون ما تكبدوه من مشقة لتحصين قلعة ألبيرة. كان هو يعمل فى هدم أسوار قيسارية التى استولى عليها من الصليبيين كما ذكرنا من قبل ، فبعث إليهم برسالة تقول « ... إنا بحمد الله ما تخصصنا عنكم براحة ولا دعة ، ولا أنتم فى ضيق ونحن فى سعة. ما هنا إلا من هو مباشر الحروب الليل والنهار، وناقل الأحجار ومرابط الكفار. وقد تساوينا فى هذه الأمور، وما ثم ما تضيق به الصدور »(٦٧).

وفى السنة نفسـهـا مـات هولاكـو زعـيم فـارس ، ولكن وفـاته لم توقف تيـار المشاعـر العدائية المتبادل بين سلطنة المماليك فى مصر والشـام وبين مغول فـارس. ذلك أن ابن هولاكو وخليفته المدعو أبغا كان حريصا على دعم صلاته بالقوى المسيحية، سواء فى الدولة البيزنطية أو البابوية ودول غرب أوربا، بقصد تطويق العالم الإسلامى عامة، ومحاربة دولة سلاطين المماليك على نحو خاص . وفى عهده كثرت السفارات بين المغول والبابوية التى رأت فى

٦٥- العينى ، عقد الجمان جـ١ (عصر سلاطين المماليك) ، ص٣٦٠- ص٣٦٣ ؛ النويرى، نهاية الأرب، ج٣٠ ، ص١٠٥- ص١٠٦ ؛ ابن أيبك الدوادارى ، كنز الدرر، ج٨ ، ص٩٧- ص١٠١ .

٦٦- المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٥٢٣- ص٥٢٥ .

٦٧- نفسه ، ج١ ، ص٥٢٤- ص٥٢٥ .

المغول أداة تمكنها من تحقيق مآربها وأهدافها التى فشلت الحملات الصليبية فى تحقيقها ، كما شهدت بلاطات ملوك الغرب الأوربى سفراء المغول بملابس وملامحهم الصارمة . وكانت أنباء هذه السفارات والاتصالات ، التى كانت مملكة أرمينيا الصغرى طرفًا فيها، تصل إلى السلطان بيبرس فيأخذ حذره ويُعد نفسه لمواجهة هذه المخاطر مجتمعة أو فرادى .

وقد حاول أبغا بن هولاكو نفسه أن يعقد صلحًا أو هدنة مع بيبرس مرتين، ولكن بيبرس رفض [٦٨]. ثم استأنف أبغا سياسته العدوانية تجاه دولة سلاطين المماليك مرة ثانية ؛ ففى سنة ١٢٦٩ م اتفق المغول مع الصليبيين وشنَّت قوات أبغا هجومًا على المناطق القريبة من حلب، وحين أسرعت القوات المصرية تحت قيادة السلطان إلى بلاد الشام انهزم المغول وارتدوا عن هذه المناطق . وفى سنة ١٢٧١م عاودت القوات المغولية الهجوم ضد المسلمين فى بلاد الشام، ولكن الهزيمة كانت من نصيب المغول فى هذه المنطقة القريبة من حران على الرغم من أن الصليبيين حاولوا تخفيف العبء عن حلفائهم المغول بالهجوم على بعض المناطق العربية ولكن الهزيمة كانت من نصيبهم أيضًا [٦٩].

فى تلك الأثناء كانت أحوال الصليبيين متدهورة إلى أدنى حد، وقد ردَّ المسلمون على فعلة الفرنج بمهاجمة عكا، وسارع الفرنج إلى طلب الهدنة ووافق بيبرس على طلبهم بعقد هدنة لمدة عشر سنوات وعشرة شهور وعشرة أيام - كما أوضحنا من قبل- لكى يحرم المغول من حليفهم الصليبى. ولذلك بعث أبغا بن هولاكو رسله يحملون عرضًا جديداً بالصلح. وبعد مفاوضات ومناوشات عسكرية لاستعراض القوة بحيث يتم التأثير على شروط الصلح، فشلت هذه المحاولة[٧٠]

وفى سنة ٥٧١هـ / ١٢٧٣م هاجم التتار ألبيرة والرحبة ؛ فخرج السلطان للقائهم حتى وصل الفرات عند مخاضة تُعرف باسم «مخاضة الحمام» وجرت معركة عنيفة انكسر بعدها جيش التتار شر كسرة [٧١].

٦٨- نفسه، ج١ ، ص٥٤ .

٦٩- نفسه .

٧٠- ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر، ص٤٠٤ .

٧١- نفسه، ص٤٠٥- ص٤١١ ؛ ابن أيبك الدوادارى ، كنز الدّر، ج٨ ، ص١٦٩- ص١٧١ .

أدت هزيمة المغول على هذا النحو المشين إلى موقف سياسى وعسكرى جديد؛ فقد أخذ أبغا يبحث لنفسه عن حليف جديد، ووجد ضالته فى سلاجقة الروم بآسيا الصغرى . وهكذا انتقل الصراع الإسلامى/ المغولى إلى جبهة جديدة فى الشمال حيث قامت مملكة سلاجقة الروم التى كانت تابعة للمغول وتحت حمايتهم منذ أيام هولاكو ، والحاكم فيها هو الوزير معين الدين سليمان البرواناه (أى الحاجب) .

فى سنة ٦٧٥هـ / ١٢٧٧ م وَفَد على السلطان الظاهر بيبرس وهو بدمشق عدة من أمراء سلاجقة الروم مغاضبين للبرواناه ، وأكرمهم السلطان . ثم شرع السلطان فى تجهيز جيشه للاستيلاء على مملكة سلاجقة الروم. وورد الخبر على بيبرس بأن عساكر التتار ومقدمهم تتاوون، وعسكر السلاجقة ومقدمهم معين الدين البرواناه . قد جمعوا جيشًا لمهاجمة أراضى السلطنة ؛ فخرج إليهم بيبرس بجيشه ودارت معركة عنيفة قرب أبلستين، وهرب البرواناه بجنوده ، وهُزِم التتار شر هزيمة (٧٢). ثم دخل بيبرس إلى قيسارية عاصمة سلاجقة الروم وجلس على عرشها حيث استقبله الناس بحفاوة بالغة . ولما علم أبغا بالكارثة أسرع إلى الأناضول حيث شاهد جثث الآلاف من جنوده طريحة فى أرض المعركة ، ولم يتمالك نفسه وبكى بمرارة. ثم أمر بنهب تلك البلاد وقتل عدداً كبيراً من سكانها المسلمين لأنهم رحبوا بالسلطان بيبرس الذى قضى على جيشه، كما قتل وزير البرواناه استجابة لرغبة نساء جنوده القتلى .

كانت هذه هى آخر أعمال السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، فبعد هذه الأحداث بوقت قصير توفى السلطان وهو فى قمة حياته الحافلة بالنشاط السياسى والعسكرى، فى الثامن والعشرين من شهر المحرم سنة ٦٧٦هـ / ٣٠ يونيو ١٢٧٧ م، بعد أن تجاوز الخمسين عن عمره بعد فترة حكم طالت إلى سبع عشرة سنة وشهرين وإثنى عشر يومًا . وكانت وفاته بدمشق فدفن قرب داريا ببلاد الشام حسب وصيته .

هكذا جاءت نهاية بطل من أبطال تاريخ المسلمين، كان ملء العين والقلب، أحبه الناس ولهجوا بسيرته ، وأضافوا إليها الكثير من خيالهم لأنه كان يسير على طريق تحقيق أمانى الأمة ومحاربة أعدائها . وقد لخص المقريزى موقف المعاصرين من السلطان الظاهر بيبرس

٧٢- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٦٢٧- ص٦٣٠ .

بعبارة بليغة ؛ إذ يقول : « ... وبالجملة ، فقد كان من خير ملوك الإسلام »[٧٣] كما رثاه محيى الدين بن عبد الظاهر الذى كتب سيرته تحت عنوان «الروض الزاهر فى سيرة الملك الناصر» بقصيدة طويلة جاء فيها[٧٤]:

لهفى على الملك الذى كانت به　　الدنيا تطيب فكل قفر منزل

الظاهر السلطان من كانت له　　منن على كل الورى وتطور

لهفى على تلك العزائم كيف قد　　غفلت وكانت قبل ذا لاتغفل

سهم أصاب ومارئى من قبله　　سهم له فى كل قلب مقتل

ولاشك فى أن اهتمامنا بهذا السلطان الفذ له ما يبرره ؛ فقد تمكن بإصلاحاته الإدارية وحكمته السياسية أن ينتزع لنفسه الدور الأساسى فى بناء دولة سلاطين المماليك. فقد مرت قبله سنوات عشر تقلبت فيها أحوال الدولة الناشئة التى كان نفوذها قاصراً على مصر ينازعها فيها الأيوبيون . ومات بعد سبع عشرة سنة فإذا سلطان دولة المماليك ممتد على كل المنطقة العربية، وصوتها مسموع فى كافة أنحاء العالم المعروف آنذاك . لقد رسم أبعاد السياسة الداخلية والخارجية لدولة سلاطين المماليك؛ وهى السياسة التى سار عليها خلفاؤه حتى تم القضاء على خطر المغول من ناحية، واستئصال شأفة الوجود الصليبى على الأرض العربية من ناحية أخرى كما سنرى فى الصفحات القادمة .

لهذا أحبه المصريون وأهل الشام ، واشتهرت سيرته فى مجالسهم ومسامراتهم دون سائر السلاطين ؛ فصاغ الوجدان الشعبى سيرة رائعة لهذا السلطان أحلوه فيها منزلة مهمة ورائعة وجعلوا كافة شخصيات تلك الفترة التاريخية ، وما سبقها ، شخوصًا ثانوية فى خدمة البطل الظاهر بيبرس[٧٥] لقد صوّر الوجدان الشعبى الظاهر بيبرس فى هذه السيرة الشعبية كأنه عصر

٧٣- المقريزى ، السلوك، ج١ ، ص٦٤١ . وقد أورد بيتا قاله أحد الأدباء فى بيبرس :

يوما بمصر ويوما بالحجاز　　وبالشام يوما ويوما فى قرى حلب

وقال شاعر آخر:

تدبر الملك من مصر إلى يمن　　إلى العراق وأرض الروم والنوبى

٧٤- العينى، عقد الجمان، ج٢ ، ص١٨٤ .

٧٥- أنظر: سيرة بيبرس التى سبقت الإشارة إليها .

بأكمله ، وليس مجرد إنسان فرد. وهكذا الشعوب ... تمنح حبها وتمجيدها بلاد حدود لمن أعطى وبذل فى سبيل تحقيق أهدافها ومصالحها بلاحدود .

بعد بيبرس، تولى العرش ابنه «بركة خان» ؛ بيد أن هذه الولاية لم تكن عن إيمان من جانب أمراء المماليك بمبدأ وراثة الحكم . إذ إن نشأتهم العسكرية من ناحية، والظروف التى ولدت فى غمارها دولتهم من ناحية أخرى، جعلت المبدأ السياسى الذى يؤمن به الجميع هو «الحكم لمن غلب». ومن ثم، لم تكن ولاية الملك السعيد بركة خان ابن السلطان الظاهر بيبرس أكثر من مرحلة انتقالية ريثما يتم حسم الصراع لصالح أحد أمراء المماليك الكبار .

وكان السلطان الظاهر بيبرس قد سعى فى حياته لتوريث السلطنة لابنه الملك السعيد بركة[٧٦]، وفى سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٤م، ركب بيبرس وابنه بشعار السلطنة فى احتفال كبير حضره الأمراء والقضاة والفقهاء. وفى سنة ٦٧٣هـ / ١٢٧٥م زوج بيبرس ابنه الملك السعيد بركة من ابنة الأمير سيف الدين قلاون لكي يضمن له ولاء هذا الأمير وبقية المماليك بالشكل الذى يؤمن له عرش سلطنة المماليك .

على أية حال تولى ابنه عرش السلطنة ، بعد وفاته ، تحت اسم «السلطان الملك السعيد ناصر الدين بركة خان» فى شهر ربيع الأول سنة ٦٧٦هـ. وخُطب له فى جميع الجوامع بالديار المصرية[٧٧] ومن خلال الوصية التى تركها بيبرس لابنه قبل وفاته ندرك أنه لم يكن واثقًا من أن أمر وراثة العرش سوف يتم فى سهولة. فقد أوصاه بالعنف ضد كل من يحاول أن يقف فى طريقه، أو يعارض سلطته ، إذ قال فى وصيته : «... إنك صبى ، وهؤلاء الأمراء الكبار يرونك بعين الصبى، فمن بلغت عنه أن يشوش عليك ملكك ، وتحققت ذلك، فاضرب عنقه فى وقته، ولاتعتقله ، ولاتستشر أحداً ، وافعل ما أمرتك به وإلاَّ ضاعت مصلحتك».

٧٦- فى شوال سنة ٦٦٢هـ وردت الأخبار بقدوم جماعة من التتار المستأمنين، وجماعة من الأتراك وأهل بغداد ، قاصدين باب السلطان الظاهر بيبرس. وقد خاف السلطان من أن تكون فى الأمر مكيدة، فخرج بفرسانه للقائهم. وأشار بعض الأمراء بسلطنة الملك السعيد، ابن السلطان ليكون بالديار المصرية.

أنظر:

ابن عبد الظاهر ، الروض الزاهر، ص٢٠٣- ص٢٠٩ .

٧٧- العينى ، عقد الجمان، ج٢ ، ص١٨٥ .

كان عمر الملك السعيد بركة خان، عندما اعتلى عرش السلطنة سبعة عشر عامًا. ولكن ابن السلطان بيبرس كان على النقيض من أبيه ؛ إذ كان مستهتراً يميل إلى اللهو والشراب. وتغير السلطان الصبى على أمراء المماليك فنفرت منه قلوب الأمراء لاسيما الصالحية رفاق أبيه[٧٨]؛ مثل الأمير سيف الدين قلاون والأمير شمس الدين سنقر الأشرف، والأمير علم الدين سنجر الحلبي وأقرانهم لأنهم كانوا يأنفون من سلطنة الملك الظاهر بيبرس عليهم «... ويرون أنه أحق منه بالملك...» فصار ابنه الملك السعيد يحط من أقدارهم ، وقبض على عدد من كبارهم . ويقول المقريزى «... واستغرق السلطان فى لذاته ، وبسط يده بعطاء الأموال الكثيرة لخاصكيته، وخرج عن طريقة أبيه ...»[٧٩].

ثم تطورت الأمور بالشكل الذى أدى إلى حصار السلطان فى قعة الجبل بالقاهرة لمدة أسبوع، وأصر الأمراء المتمردون على أن يخلع السلطان نفسه، فأذعن لطلبهم وحلف له الأمراء. وكانت مدة ملكه سنتين وشهرين وثمانية أيام [٨٠].

ورفض الأمير سيف الدين قلاون عرش السلطنة حين عُرض عليه خشية من مماليك السلطان بيبرس الذين كانوا يشكلون غالبية فرسان الجيش المصرى آنذاك، وتظاهر بالزهد وقال: «أنا لم أخلع الملك السعيد شرها فى السلطنة وحرصًا على المملكة، ولكن حفاظًا للنظام ، وأنفة لجيوش الإسلام أن يتقدم عليها الأصاغر ، والأولى ألا يخرج الأمر من ذرية الملك الظاهر». ومن ثم اختير الإبن الثانى لبيبرس ، وهو بدر الدين سلامش، الذى كان فى السابعة من عمره فقط. وكان صغر سن السلطان الطفل هو الستار المناسب لتحركات الأمير سيف الدين قلاون صوب العرش . فبدأ يعيد ترتيب الساحة السياسية ، وتخلص من أعدائه الفعليين والمحتملين بالسجن . وتقاسم عرش دولة سلاطين المماليك مع السلطان الطفل ، ثم ما لبث أن عزله لينفرد بالحكم تحت دعوى أن حكم البلاد لايستقيم إلا برجل كامل[٨١].

٧٨- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٦٤٥ .

٧٩- نفسه ، ج١ ، ص٦٥١ .

٨٠- ابن أيبك الدوادارى ، كنز الدرر، جـ٨، ص٢٢٨-- ص٢٢٩ .

٨١- العينى ، عقد الجمان ، جـ٢ ، ص ٢٢٥ - ص ٢٢٦ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٣٠ ، ص٤٠٠ .

هكذا كان حكم بدر الدين سلامش، الذى استمر مائة يوم، مجرد توطئة لحكم السلطان سيف الدين قلاون الذى جاء تأكيداً جديداً لمبدأ «الحكم لمن غلب». ولم يكن من المنتظر أن يخلص الحكم، بطريق الوراثة، لأبناء الظاهر بيبرس الذى انتزع الحكم بجسارته العسكرية وحنكته السياسية. وهكذا مضت دولة سلاطين المماليك على طريق الحكم العسكرى القائم على القوة، وكان عليها فى الوقت نفسه أن تواصل الاضطلاع بدورها التاريخى فى التصدى للفرنج والمغول تحت زعامة السلطان المنصور سيف الدين قلاوون وابنه الأشرف خليل .

الفصل التاسع

المنصور قلاون وتأسيس أسرة حاكمة

المنصور سيف الدين قلاون الألفي ما بين الأتابكية والسلطنة - متاعب البداية (تمرد سنقر الأشقر - غارات البدو) - تأكيد الواجهة الدينية- اعلان ولاية العرش- النضال ضد التتر والصليبيين- العلاقات مع النوبة- فكرة الوراثة ومبدأ الحكم لمن غلب.

لم تكن سيرة «السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاون الألفي الصالحي النجمي العلائي» لتشذ عن سير أقرانه من أمراء وسلاطين المماليك؛ سواء من سبقوه أو من جاءوا بعده . فقد كان من مغول القبچاك (القفجاق) ، وهم فرع من الترك مساكنهم الأصلية حول نهر إتش، وهم شعب رعوي تقلبت بهم الأحوال حتى استقروا في حوض نهر الڤولجا جنوب روسيا الحالية. وكان الطفل التترى المنتمى إلى قبيلة «بُرج أوغلى» في تلك الأنحاء يلعب مع رفاقه الصغار حينما خطفه صائدو الرقيق ليبيعوه في أسواق النخاسة في مصر . وكان صبيًا قوى البنية فاشتراه الأمير علاء الدين آقسنقر الساقي ، أحد مماليك السلطان الملك العادل أبى بكر الأيوبى، بألف دينار ذهبًا . وذلك عرف بالألفي، كما أخذ لقب العلائي من سيده الأول علاء الدين آقسنقر . فلما مات أستاذه (سيده) هذا انتقل إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب ضمن مجموعة من المماليك عرفوا بالعلائية ، وضمه الصالح نجم الدين أيوب إلى المماليك البحرية ليضيف إلى ألقابه «الصالحي النجمي» [1]. وظل كذلك حتى هرب من مصر ضمن الهاربين بعد مقتل الأمير فارس الدين أقطاى على نحو ما أشرنا في الفصل الخامس من هذه الدراسة.

١- النويرى ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج٣١ (تحقيق الدكتور الباز العريني، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٢م) ، ص٧ ؛ ابن حبيب ، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه (تحقيق الدكتور محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م) ج١ ، ص٤٨؛ المقريزى، السلوك ، ج١، ص٦٦٣-٦٧٣ .

وتنقلت به الأحوال ليعود إلى مصر بعد معركة عين جالوت، ثم خدم السلطان الظاهر بيبرس

حتى وفاته، وزوج ابنته لابنه الأكبر « الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة قان». ولكن الفتى أثبت أنه غير أهل للحكم ، فتم عزله ، وتولى قلاوون الوصاية على السلطان الجديد الذى كان عمره سبع سنوات ، وفى أثناء المائة يوم التى قضاها فى هذا المنصب كان قد رتب الأمور بحيث ينفرد بالحكم دون منازع . فبعد تولى «بدر الدين سُلامش» العرش بأيام قليلة، شرع قلاون فى تنفيذ خطته ؛ فقبض على كبار الأمراء الظاهرية (مماليك الظاهر بيبرس) ونفاهم إلى الثغور « ... وأعطى قلاون ومنع ، وقطع ووصل، واستخدم وعزل؛ فكان صورة أتابك ، وتصرفه تصرف الملوك ... » واستعان بالمماليك الصالحية (مماليك الصالح نجم الدين أيوب) والمماليك البحرية « ... وقوى بهم جانبه، وتمكنت أسبابه ... »[٢].

نحن، إذن ، أمام سيرة نمطية لسلطان مملوكى يرتقى من المملوك إلى السلطان، ويسير فى الطريق المفروش بالدماء الذى حدده مبدأ «الحكم لمن غلب» . فما إن تولى قلاون العرش فى العشرين من شهر رجب ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م، ليكون السابع من سلاطين المماليك الترك فى الديار المصرية ، حتى عاد المبدأ البغيض يطل على الساحة السياسية الداخلية ، ويصبغ الأحداث بلونه الدامى الملتهب. إذ كان كبار الأمراء من المماليك البحرية يرون أنهم أحق بعرش السلطنة من سيف الدين قلاون لأن تاريخهم العسكرى لم يكن أقل تألقا من تاريخه . ومن ناحية أخرى ، أظهر المماليك الظاهرية غضبهم مما حاق بابن استاذهم «الظاهر بيبرس» الذى خُلع عن العرش، ومما حاق بهم من سجن وتشريد على يد السلطان الجديد.

وتجسدت متاعب البداية فى التمرد الذى قاده الأمير «سنقر الأسقر» ، نائب السلطان بدمشق ، والذى رفض الاعتراف بقلاون سلطانًا ، ورفض أن يحلف له يمين الولاء . بل إنه أعلن نفسه سلطانًا باسم «الملك الكامل» ، وركب بشعار السلطنة من دمشق . وحلف له عدد من الأمراء بحيث ظن أن الأمر قد استتب له وحاول مهاجمة غزة ولكن قواته انهزمت . ثم جاءته إمدادات من حلب وحماة ومن جبال بعلبك ، وراجت شائعات بأن الجيش فى مصر قد انحاز إليه؛ ولكن الجيش الضخم الذى أرسله المنصور قلاون بدد هذه الشائعات كما بدد أحلام سنقر الأشقر فى الاستيلاء على الحكم . وعاد سنقر إلى دمشق ، وحاصرها جيش قلاون وانضم عدد كبير من أمراء المماليك إلى الجيش القادم من القاهرة ، وتم تسليم المدينة العريقة بالأمان. ولم يكن ضحايا هذا التمرد سوى إثنى عشر فارسًا من الجانبين.

٢- المقريزى ، السلوك، ج١ ، ص٦٥٨ .

وقد تعامل المنصور قلاون مع هذه المشكلة التى واجهته فى بداية حكمه بقدر كبير من الحنكة السياسية والحسم العسكرى؛ فقد استمال سنقر الأشقر ابنى السلطان الظاهر بيبرس ؛ بدر الدين سُلامش ، الذى خُلع من السلطنة وأخاه خضر، كما حاول سنقر الأشقر الاستنجاد بالمغول فى فارس والعراق وحاكمهم «أبغا بن هولاكو» ، وكتب إليه ببغداد «يحثه على الحضور لأخذ البلاد الشامية...» ولكن هذه المحاولة لم تأت بنتيجة ملموسة (٣). وظلت مشكلة سنقر الأشقر بين شد وجذب حتى تم حلها بشكل نهائى سنة ٦٧٩هجرية ، عندما وافق السلطان المنصور قلاون على أن يعطيه إمرة ستمائة فارس ؛ وهو ما يعنى أن يأخذ إقطاعًا يساوى إقطاعات ستة من كبار الأمراء(٤).

وهكذا تم توحيد الشام ومصر مرة أخرى تحت حكم المنصور قلاون، ولكن طبيعة الفترة الانتقالية شهدت بعض المتاعب التى أثارها البدو فى بلاد الشام وفى مصر؛ ففى سنة ٦٨٠هجرية هاجم البدو غزة ونهبوها وقتلوا عدداً من أهلها كما تكررت المسألة فى نابلس، ثم حدثت اضطرابات بين قبائل البدو فى الصحراء الشرقية المصرية، وفى إقليم المنوفية (٥). ولكن المنصور قلاون لم يجد صعوبة كبيرة فى إخماد هذه الحركات من جانب قبائل البدو.

ومن ناحية أخرى ، وجد السلطان المنصور قلاون فى سياسة سلفه الكبير الظاهر بيبرس نوعا من الإرشاد والهداية لسياسته فى الحكم؛ فقد اهتم تمامًا بالتقرب إلى رعاياه من المصريين والشوام بإظهار الاهتمام بمشاركتهم أعيادهم واحتفالاتهم ، وإظهار نفسه فى صورة حامى الحرمين الشريفين . ففى شعبان سنة ٦٨١هـ حلف الشريف أبونمى، أمير مكة، للسلطان وولده بالطاعة ، وأنه التزم تعليق الكسوة الواصلة من مصر على الكعبة فى كل موسم «... وأنه لايعلق عليها كسوة غيرها، وأن يقدم علم الملك المنصور على كل علم فى كل موسم ، وألا

٣- ذكر ابن أيبك الدوادارى (كنز الدرر، ج٨ ، ص٢٣٧) أن سنقر الأشقر قد أرسل كتابه هذا إلى الأمير علاء الدين الجوينى، صاحب الديوان فى بغداد ، أى المسئول عن ديوان أبغا بن هولاكو حاكم العراق، وقد أرسل الجوينى رسالة سنقر إلى أبغا وطلب من سنقر أن ينتظر جواب القان. قارن المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٦٧٤-ص٦٧٨ .

٤- المقريزى ، المصدر السابق، ج١ ص٦٨٧ . ولكن سنقر الأشقر لم يف تمامًا ببنود الاتفاق وتقاعس عن نصرة السلطان وهو على حصن المرقب ، ثم بدأ يظهر دلائل العصيان من حكمه فى قلعة صهيون حتى استولى عليها مماليك قلاون وعادوا بسنقر الأشقر إلى السلطان الذى أكرمه طوال حياته، ثم انقض عليه الأشرف خليل بعد وفاة أبيه وولايته العرش. أنظر: بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج٩ ، ص٢٧٥-ص٢٧٦ .

٥- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٦٨٩- ص٧٠٠ .

يتقدمه علم غيره، وأن يسهّل زيارة البيت الحرام أيام مواسم الحج وغيرها للزائرين والطائفين والبادين والعاكفين والآمّين، وأن يحرس الحجاج فى سربهم ، وأن يستمر بإفراد الخطبة والسكة بالاسم الشريف المنصورى ، وأن يفعل فى الخدمة فعل المخلص الولى للسلطان ، ويمتثل أوامره امتثال النائب للمستنيب ... »[٦] كما خرج المحمل من القاهرة ومعه كسوة الكعبة[٧].

لقد حرص قلاون على الواجهة الدينية لحكمه ، وحرص على تأكيد أنه حامى الحرمين الشريفين فى الحجاز . وقد كانت هذه المسألة ، وما تزال ، محوراً أساسيًا من محاور سياسة الحكام المسلمين عموما وحكام المنطقة العربية بشكل عام. ولأن هذه المسألة كانت تمنح قوة معنوية إضافية للحكام، كان التنافس على الاستئثار بها شديداً، وعنيفا فى بعض الأحيان بين حكام المنطقة . وقد كان السلطان المنصور قلاون حاكما لأقوى دولة إقليمية فى ذلك الزمان؛ ومن ثم كان اضطلاعه بدور حامى الحرمين الشريفين دون سواه أمراً منطقيًا . ولكن قلاون لم يكتف بهذا وإنما اهتم بسائر المقدسات الإسلامية؛ ففى السنة التالية أمر بأن تخصص إيرادات ضريبة الجوالى التى كانت تستخرج من اليهود والنصارى فى القدس وبلد الخليل لحفر بركة ماء فى بلد الخليل[٨].

ولم يكتف قلاون بهذا ؛ وإنما كان يتدخل عند الضرورة لتأكيد حمايته للحجاج فى الحجاز. ففى سنة ٦٨٣هجرية جاءت الأخبار بأن الشريف أبانمى أمير مكة طرد جند اليمن واستبد بها وفرض رسومًا باهظة على الحجاج بشكل مزعج . فأمر السلطان المنصور قلاون بسفر ثلاثمائة فارس تحت قيادة الأمير «علاء الدين سنجر الباشقردى»، ومائتى فارس من الشام . وعندما وصلوا الأراضى الحجازية فى العام التالى دارت بينهم وبين أمير مكة حرب عنيفة انتهت بهزيمة الأخير «وإخماد الفتنة»، وعادت السيادة مرة ثانية إلى السلطان قلاون [٩].

٦- نفسه ، ج١، ص٧٠٦- ص٧٠٧ .

٧- نفسه، ص٧٠ .

٨- المقريزى ، السلوك، ج١ ، ص٧٢٤- ص٧٢٥ .

٩- الجوالى جمع «جالية» تطلق على أهل الذمة؛ وذلك لأن عمر بن الخطاب أجلاهم عن شبه الجزيرة العربية. ثم لزم هذا الاسم كل من لزمته الجزية ، وإن لم يجلوا عن أوطانهم. وقد عرفها القلقشندى بأنها «ما يؤخذ من أهل الذمة عن الجزية المقررة على رقابهم فى كل سنة ...» أنظر: القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ج٣ ، ص٤٦٢؛ قاسم عبده قاسم، أهل الذمة فى مصر- من الفتح الإسلامى حتى نهاية المماليك (دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية،) القاهرة ٢٠٠٣م، ص٦٤- ص٦٥ . انظر : المقريزى، السلوك، ج١ ، ص٧٠٦- ص٧٠٧ .

أما على مستوى السياسة الخارجية، فكان على السلطان المنصور قلاون أن يواجه الخطرين اللذين خرجت دولة سلاطين المماليك من غبار المعارك ضدهما ؛ وهما التتار والفرنج . وبالنسبة للتتار كانت الموجة العاتية التى أطاحت بالخلافة العباسية قد تكسرت على صخور المقاومة الإسلامية الإيجابية فى عين جالوت وما أعقبها من عمليات عسكرية طوال عهد قطز وبيبرس كما رأينا ؛ بيد أن الخطر كان ما يزال ماثلاً وإن كان هناك قدر من التحول الإيجابى لصالح المسلمين على جبهة التتار كما سنرى فى السطور القادمة. ولم يكن السلطان المنصور قلاون ليغفل عن خطورة هذه الجبهة من ناحية، كما أن هجمات التتار أنفسهم لم تترك له فرصة الهدوء من ناحية أخرى.

إذ إن التتار انتهزوا فرصة الاضطراب الداخلى الذى أعقب وفاة السلطان الظاهر بيبرس، وبدأوا فى شن هجماتهم على المناطق الخاضعة لحكم دولة سلاطين المماليك. ففى سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨٠م جاءت الأخبار بهجوم التتار على بلاد الشام على ثلاثة محاور، وكانت إحداها تحت قيادة «بيدو بن طوغاى بن هولاكو» و«... فرقة فيها معظم العسكر وشرار المغُل مع «منكوتمر بن هولاكو». وقد هاجموا ضواحى حلب وملكوا عينتاب وبغراص ، ودربساك . ودخلوا حلب نفسها حيث عاثوا فساداً وقتلاً ونهبًا. على مدى يومين ، ثم قفلوا عائدين إلى بلادهم قبل أن يصل السلطان بجيوشه التى خرج بها من القاهرة ؛ وتكرر الأمر بعد عدة شهور حين وردت الأخبار بأن التتار وصلوا إلى أطراف حلب وحماة ، وأن منكوتمر يقود جيشًا من خمسين ألف مقاتل من المغول « ... وثلاثين ألفا من الكرج والروم والأرمن والفرنج... » وبعد عدة أيام دارت معركة عنيفة لقى فيها التتار هزيمة كاملة، واختبأ الفارون منهم فى الحلفاء والقصب على ضفتى نهر الفرات « ... فأمر السلطان بإحراقها ... » ومات منهم عدد كبير ، كما أسرت أعداداً غفيرة (١٠).

بيد أن العلاقات مع التتار أخذت اتجاهًا آخر بعد أن اعتنق تكُدار بن هولاكو الدين الإسلامى؛ فقد تولى هذا الرجل حكم مغول فارس وسمى نفسه «أحمد أغا سلطان بن هولاكو» عندما اعتنق الإسلام قبل أن يعتلى عرش مملكة إيلخانات المغول فى فارس خلفًا لشقيقه

١٠- المقريزى ، السلوك، ج١، ص٦٨١- ص٧٠٠ ؛ بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، ج٩ (تحقيق الدكتورة زبيدة محمد عطا ، دار عين للدراسات والبحوث، القاهرة ٢٠٠١م) ص٢٠٢-٢١٠ . وقد أورد بيبرس الدوادار عدة قصائد قيلت فى هذه المناسبة ؛ أنظر ص٢١٠- ص٢١٧ .

أبغـا(١١). وقد أرسل إلى السلطان المنصور سيف الدين قلاون رسالة يعلن فيها اعتناقه الدين الإسلامى ووصلت إلى مصر فى سنة ٦٨٣هجرية ، وجاء فيها «... فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته، ونور هدايته ، كان قد أرشدنا فى عنفوان الصبا وريعان الحداثة إلى الإقرار بربوبيته ، والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة بمحمد عليه أفضل الصلوات والسلام، وبصدق نبوته ... وتقدمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المشاهد والمساجد والمدارس... وأمرنا بتعظيم أمر الحاج ، وتجهيز وفدها ، وتأمين سبلها، وتسيير قوافلها ، وإنا أطلقنا سبيل التجار المترددين إلى تلك البلاد، ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم ... »(١٢) وقد أكرم المنصور قلاون رسل أحمد تكدار وأعادهم برسالة منه إلى الحاكم المغولى، وخرجوا من القاهرة سراً كما دخلوها فى السر. كانت هذه الواقعة تأكيداً لما ذهبنا إليه من قبل حينما رأينا أن المغول لم يكونوا خطراً حقيقيًا على العالم الإسلامى لأنهم لم يحملوا مشروعاً حضاريًا بديلاً من ناحية ، كما أنهم اعتنقوا الإسلام وصاروا جزءاً عضويًا من العالم الإسلامى والحضارة العربية الإسلامية فى غضون عقدين من الزمان من ناحية أخرى.

بيد أن مشكلات وراثة العرش فى مملكة إيلخانات فارس تسببت فى تطور الأمور على النحو الذى أدى إلى خروج أرغون بن أبغا ، الذى كان أبوه قد عهد بالعرش إليه، ضد عمه تكُدار من خراسان. ودارت الدائرة على أرغون فأخذه أحمد أسيراً «... وعاد طالبًا تبريز ، فحضرت زوجة أرغون ووالدته ، وخواتين كثيرة من الستات التى لهم منزلة للدخول على الملك أحمد والسؤال فى العفو عن أرغون وإطلاق سبيله ، والاقتصار به على خراسان كما كان... »(١٣) ولكن المغول كانوا قد حقدوا على أحمد تكُدار عندما رفض إطلاق سراح أرغون، وقبض على عدد من كبار المغول، فضلاً عن إلزامه لهم باعتناق الدين الإسلامى، وثاروا جميعًا وأطلقوا سراح أرغون بن أبغا من سجنه ثم طاردوا أحمد تكدار وقتلوه . واعتلى أرغون عرش

١١- ابن حبيب ، تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، ج١ ، ص٧٢ ؛ رشيد الدين الهمذانى، جامع التواريخ ، ج٢ ، ص٧ حيث يورد مزيداً من التفاصيل عن المنافسة على العرش .

١٢- انظر النص الكامل لرسالة أحمد تكدار فى : بيبرس الدوادار ، المصدر السابق، ج٩ ، ص٢٣٥- ص٢٣٧ ، قارن المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٧٠٧- ص٧٠٨ . وقد ذكر نص الرسالة أنها كتبت فى واسط فى جمادى الأولى سنة ٦٨١هـ .

١٣- بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة، ج٩، ص٢٥٤- ص٢٥٥ .

المملكة واتخذ لنفسه «سعد الدولة» وزيراً [١٤]. وقد وصلت الرسل إلى مصر تحمل رسالة ثانية من أحمد تكُدار ، ولكن بعد أن كان صاحب الرسالة قد قُتل فأحسن إليهم السلطان وأعلمهم بموت سلطانهم[١٥].

وفى سنة ٦٨٢هـ أيضا وصلت رسل «تدان منكو بن طوغان بن دوشى بن جنكيزخان» ، ملك القبچاق ، يحملون رسالة تقول إنه أسلم «... ويريد أن يُنعت نعتًا من نعوت أهل الإسلام، ويُجهز له علم خليفتى، وعلم يقاتل بهما أعداء الدين...» وأكرم السلطان الرسل وسافروا إلى الحجاز ، ومن هناك سافروا إلى بلادهم ومعهم ما طلبوه[١٦] . ويبدو أن هذا الملك المغولى كان قد سئم مسئوليات الحكم، فتخلى عن كرسى العرش لابن أخيه «تلابغا بن منكوتمر» بعد حكم استمر خمس سنين تقريبًا [١٧]. وقد استمرت العلاقات بين المغول والمماليك فى تحسن مطرد كما سنرى.

أما على الجبهة الصليبية التى كانت تشكل خطراً دائمًا ؛ فإن تأثير الضربات التى وجهها بيبرس إلى المعاقل الصليبية أضعف الصليبيين كثيراً ، كما أن مشكلاتهم الداخلية جعلتهم يحاولون تهدئة دولة سلاطين المماليك القوية. بيد أن السلطان المنصور قلاون واصل سياسة سلفه الكبير التى جمعت بين الهجوم النشط وعقد اتفاقات الهدنة التى تتيح له حرية الحركة الداخلية . فبعد عدة شهور من اعتلاء العرش أمر قلاون نائبه على حصن الأكراد ، الأمير «سيف الدين بلبان الطباخى» ، بمهاجمة الفرنج الذين فى حصن المرقب لأنهم ساعدوا التتار

١٤- رشيد الدين الهمذانى، جامع التواريخ ، ج٢ ، ص٩٢ - ص١٠٠ ؛ بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج٩ ، ص٢٥٥ ؛ المقريزى، السلوك، ج١ ، ص٧١٤ .

١٥- بيبرس الدوادار ، المصدر السابق، ج٩، ص٢٦٢ .

١٦- المقريزى، السلوك، ج١ ، ص٧١٦ .

١٧- بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة، ج٩، ص٢٧٧؛ المقريزى ، السلوك ،، ج١ ص٧٣٨ . وقد حدث هذا التغيير فى حكم مغول فارس سنة ٦٨٦هجرية ، بعد أن كان السلطان المنصور قلاون قد جهز هدية إلى هذا الفرع من مغول القفجاق ، وأرسل لهم مبلغًا من المال لعمارة جامع قرم ، واشترط أن تكتب عليه ألقاب السلطان . وقد أسلم خان مغول فارس «غازان بن أرغون بن أبغا بن هولاكو» سنة ٦٩٣هـ ١٢٩٢م على يد الشيخ «صدر الدين بن حمويه الجوينى». وبعدها ظل المغول على الإسلام، وإن كانت علاقاتهم مع دولة سلاطين المماليك لم تخل من الشد والجذب. أنظر : المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٨٠٥ .

عندما هاجموا حلب . وعندما هزمت قوات المماليك خرج المنصور قلاون بنفسه على رأس الجيش من القاهرة سنة ٦٨٠هـ ١٢٨١م. ووصلت رسل الفرنج إلى معسكر السلطان عند ضواحي حلب يطلبون إقرار الهدنة التى كانت بينهم وبين السلطان الظاهر بيبرس، ووافق السلطان على أن تكون الهدنة عشر سنوات بشرط إطلاق سراح أسرى المسلمين لديهم [١٨]. وربما كانت موافقة السلطان تحت وطأة رغبته فى إخماد فتنة «سنقر الأشقر» بالشام، وترتيب أوضاع المملكة الداخلية . وقد عقدت معاهدتان مماثلتان مع الاسبتارية بعكا ، وبوهيموند السابع أمير طرابلس . وفى السنة التالية (٦٨١هـ / ١٢٦٢م) عقدت هدنة بين السلطان المنصور قلاون ومقدم فرسان الداوية بعكا والساحل وأنطرسوس . وكانت مدة هذه الهدنة أيضا عشر سنوات كاملة[١٩]. بيد أن هذه المعاهدات لم تكن قيداً على حركة المنصور قلاون ضد الفرنج فى فلسطين وبلاد الشام والذين تركزت بقاياهم فى إمارة طرابلس التى كان يحكمها الأمراء النورمان بزعامة بوهيموند السابع، وبقايا مملكة بيت المقدس اللاتينية فى عكا التى صارت العاصمة بعد تحرير بيت المقدس زمن صلاح الدين الأيوبى، كما كان فرسان الاسبتارية يحكمون حصن المرقب على حين كان فرسان الداوية يحكمون أنطرسوس .

وإذا كان صلاح الدين الأيوبى قد استحق مكانته فى التاريخ بعد الهزيمة التى ألحقها بالفرنج فى حطين ، والقضاء على زهرة الجيوش الصليبية فى هذه المعركة، ثم تحرير بيت المقدس؛ فإن قلاون وابنه الأشرف خليل قد دخلا التاريخ من أوسع أبوابه لأن الأب قاد عملية تحرير طرابلس، ثم أنهى ابنه الوجود الصليبى تماماً بعد تحرير عكا.

وما كاد السلطان المنصور قلاون ينتهى من متاعبه مع المغول بوفاة أبغا بن هولاكو، ودخول مغول القبچاق فى دين الإسلام ، حتى بادر بالهجوم على حصن المرقب الذى كان يحمى الحدود الشمالية لكونتية طرابلس والذى كان بأيدى طائفة الفرسان الاسبتارية. وقد سارت جيوش قلاون لحصار حصن المرقب فى شهر ربيع الأول سنة ٦٨٤هـ / أبريل ١٢٨٥م للاستيلاء عليه لأن الاسبتارية « ... لم يقفوا عند أيمانهم، ولارجعوا عن طغيانهم وعدوانهم ، فلم يرْ السلطان

١٨- بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج٩ ، ص١٩٦-١٩٨ ، (ص٢٢١- ص٢٢٥ نص الهدنة) ؛ المقريزى ، السلوك، ج١، ص٦٤٨- ص٦٤٩ ؛ النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب، ج٣١، ص٧٣- ص٧٧ .

١٩- بيبرس الدوادار، المصدر السابق، ج٩ ، ص٢٤٥- ص٢٤٦ .

كف عاديتهم سوى باستئصال شأفتهم...» وكان هجوم الجيش المصرى على هذا الحصن مباغتًا وسريعًا بحيث استسلمت الحامية ورحلت بسرعة فى الشهر التالى بعد حصار دام ثمانية وثلاثين يومـا(٢٠). بعد سقوط هذا الحصن وتوابعه ، ورحيل فرسان الاسبتارية إلى طرابلس، سارع أمراء الصليبيين إلى طلب السلام من السلطان المنصور سيف الدين قلاون؛ إذ طلب بوهميوند السابع أمير أنطاكية عقد الهدنة كما أوردنا فى السطور السابقة ، وكذلك فعلت مارجريت أميرة صور التى نالت الهدنة بشروط مهينة، وكذلك فعل بقية الصليبيين(٢١). لقد كانت هذه الأحداث والاتفاقيات انعكاسًا واضحًا لموازين القوى فى المنطقة العربية. إذ كانت الشواهد تدل على أن الكيان الصليبى قد دخل مرحلة الاحتضار ، ومن ناحية أخرى، كانت أوربا منغمسة فى مشكلاتها الداخلية بالشكل الذى حال بين حكامها وبين نجدة الكيان الصليبى المحتضر. وعلى الرغم من أن سقوط حصن المرقب فى أيدى المسلمين كان نذير شؤم للصليبيين فى عكا ، فإن وفاة شارل أنجو واندلاع الحرب فى صقلية (صلوات المساء الصقلية)(٢٢) أوضح للمستوطنين الصليبيين فى المنطقة العربية ضرورة الاعتماد على أنفسهم ولذلك وصل المتنافسون على العرش فى عكا إلى حل وسط ، وتناسوا خلافاتهم ومن قبرص جاء الملك الشاب هنرى ملك قبرص إلى عكا فى ٤ يونيو ١٢٨٦م . وفى ١٥ أغسطس تم تتويجه فى صور على أيدى كبير الأساقفة ، ثم تحرك الجميع إلى عكا حيث أقيمت احتفالات صاخبة على مدى أسبوعين دليلاً على شعبية الملك ذى الخمسة عشر عامًا .

٢٠- بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة، ج٩ ، ص٢٧٠ - ص٢٧١ ؛ المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص ٧٢٧-ص٧٢٨ ؛ ابن حبيب ، تذكرة النبيه، ج١ ، ص٩٦ . أنظر أيضا:
Ziada, " The Mamluk Sultans to 1293", in Setton A History of the Grusades, vol . II, p. 725 .

٢١- Runciman , S., " The Crusader States 1243- 91", in Setton (ed.) , Op. cit. cit., vol . II, pp. 589-590 .

٢٢- صلوات المساء الصقلية Sicilian Vespers ، اسم يطلق على حركة ثورية مضادة لشارل آنجو والفرنسيين فى صقلية فى عيد الفصح سنة ١٢٨٢م، بمجرد أن دقت الكنائس أجراسها تعلن عن بدء صلوات المساء هاجم الصقليون من بها من أتباع شارل آنجو، وبشروق شمس الصباح كان جميع الفرنسيين الذين لم يهربوا من الجزيرة قد لقوا حتفهم، وانتهت الحركة بسقوط حكم آل آنجو الفرنسيين ، وتم إعلان بطرس الثانى ملك آراجون ملكًا على صقلية بشرط أن يحكمها وفق قوانينها الخاصة أنظر:

نورمان كانتور ، التاريخ الوسيط- قصة حضارة (دار المعارف ١٩٨٦م) ج٢، ص٦٣٧ ؛ Runsiman, S. The Sicilian Vespers (1957) .

وسرعان ما عاد إلى قبرص . ولكن الحكم الجديد خيب الآمال التى انعقدت عليه ، إذ اندلعت الحرب فى السنة التالية بين مستعمرات جنوة وبيزا ، وخطط الجنوية بعد انتصارهم على البيازنة والبنادقة الذين انضموا إليهم ، لاقتحام عكا(٢٣). ولم ينسحبوا سوى بعد إلحاح زعماء الداوية والاسبتارية وعادوا إلى صور .

وفى تلك الاثناء ضم السلطان المنصور قلاون آخر بقايا إمارة أنطاكية التى كان السلطان الظاهر بيبرس قد حررها. فقد تم الهجوم على اللاذقية بسبب شكاوى التجار فى حلب من اضطرارهم لإرسال بضائعهم عن طريق اللاذقية التى كانت بأيدى الفرنج، وقد انتهز قلاون فرصة أن الزلزال الذى ضربها سنة ١٢٨٧م دمر تحصيناتها بشكل كبير. وبرر السلطان حملته بأن اللاذقية ، باعتبارها جزءاً من إمارة زنطاكية لم تكن داخلة ضمن الهدنة.

ولم يعمر بوهيموند السابع طويلاً بعد سقوط اللاذقية بأيدى المسلمين . وخلفته أخته «لوسى» على عرش إمارة طرابلس ، وتزوجت قائداً بحريًا إيطاليا سابقا وعاشت فى أبوليا ولم تكن معروفة للصليبيين فى طرابلس، فقرروا دعوة أمها سيبيل الأرمنية لتولى الحكم . ولكن فكرتها الوحيدة كانت استعادة السلطة لأسقف طرطوس المخلوع . وأدت تصرفاتها إلى اتفاق نبلاء طرابلس الصليبيين وتجارها على إنهاء حكم هذه الأسرة، وأقاموا نوعًا من الحكومة الجماعية. وعادت سيبيل إلى أرمينية ، ولكن لوسى وصلت عكا فى أوائل سنة ١٢٨٨م بقصد أخذ ميراثها . واستقبلها الاسبتارية استقبالاً مشرفًا . وبعد ذلك أصدرت إعلانًا بحقوقها . وتصاعدت حدة الخلافات داخل طرابلس، واستعان بعض الفرقاء بالسلطان المنصور قلاون فى القاهرة ، وكانت تلك فرصة سارة للسلطان للتدخل . وفى سنة ٦٨٧هـ / ١٢٨٩م ، حرك السلطان جيشًا ضخمًا من مصر إلى بلاد الشام. وبعد ذلك فرض السلطان حصاراً على أسوار طرابلس، ثم استولى عليها بعد حصار استمر أربعة وثلاثين يومًا فى شهر ربيع الآخر سنة ٦٨٨هـ / أبريل ١٢٨٩م (٢٤). ولم يبق من كونتية طرابلس سوى جبيل الذى سمح السلطان لحاكمها بيتر إمبرياكو بأن يحكمها لمدة ثمانى أو تسع سنوات أخرى تحت الإشراف المملوكى الصارم(٢٥). وانحصر الصليبيون فى عكا، وصيدا، وعثليث ، وصور بعد أن كانت

٢٣- Runciman, " The Cusader States", pp. 589-591 .

٢٤- المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٧٤٦ ؛ Runciman , " The Crusader States pp. 592-93 .

٢٥- Ibid , p. 593 .

مستوطناتهم قد امتدت لتشمل كل فلسطين والساحل السورى اللبنانى ووصلت إلى تخوم الأراضى المصرية حتى خليج العقبة.

وفى السنة التالية؛ أى بعد سنة ٦٨٩هـ ، جاء بعض الصليبيين من إيطاليا إلى ميناء عكا ، ولكى يعبروا عن حماستهم الصليبية شنوا هجمات خرقاء على المسلمين وقتلوا عددا من التجار المسلمين الذين كانوا قد اعتادوا الدخول إلى عكا لأغراض تجارية منذ زمن بعيد (وهو ما لفت نظر الرحالة ابن جبير زمن صلاح الدين) . وقد تسببت الهمجية الحمقاء للصليبيين الإيطاليين فى انهيار فترة السلام القلق بين بقايا الكيان الصليبى وسلطنة المماليك القوية تحت زعامة السلطان المنصور قلاون . وكان على الصليبيين أن يسددوا كافة ديونهم ، وأن يدفعوا الثمن فادحًا هذه المرة. ورفض المنصور قلاون الأعذار التى تعلل بها الفرنج حول هذه الاعتداءات ، وقرر القضاء على عكا آخر المعاقل الصليبية على الأرض العربية. وكتب إلى أمراء المماليك ببلاد الشام بتجهيز الجيوش وأدوات الحصار للهجوم على عكا(٢٦).وخرج المنصور قلاون بنفسه على رأس الجيش لقتال الفرنج فى عكا، ولكن المرض هاجم السلطان فى معسكره بمسجد التبر خارج القاهرة، وظل طريح الفراش لمدة شهر حتى توفى فى ذى القعدة من سنة ٦٨٩هـ / نوفمبر ١٢٩٠م(٢٧) وهكذا ، كان لابد من تأجيل الفصل النهائى من قصة العدوان الصليبى عدة شهور أخرى.

وفى هذا الدور التأسيسى من عمر دولة سلاطين المماليك استطاع قلاون أن يواصل سياسة سلفه بيبرس فى التصدى للمخاطر التى أحاطت بالعالم المسلم عموما، والمنطقة العربية منه بشكل خاص. فقد استمرت سياسة الدولة تجاه المغول على نفس خطوط سياسة الظاهر بيبرس بحيث ذاب المغول فى العالم الإسلامى وباتوا جزءا عضويًا منه، ونشروا الإسلام فى مناطق جديدة من آسيا ، ثم أقاموا دولهم التى بسطت سلطانها على أجزاء من العراق وفارس ، ثم شبه القارة الهندية. وصاروا قوة نشطة فى خدمة الحضارة العربية الإسلامية فيما بعد. وكان للسلطان المنصور قلاون وسياسته الذكية تجاههم أثر حاسم فى هذا التحول التاريخى.

٢٦- بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج٩ ، ص٢٨٦ ؛ المقريزى، السلوك، ج١ ، ص٧٤٧ - ص٧٤٨؛ العينى، عقد الجمان ، ج٢ ، ص٣٨٠- ص٣٨١ ؛ ابن حبيب ، تذكرة النبيه، ج١، ص١٢٢- ص١٢٤ .

٢٧- بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج٩ ، ص٢٨٦ ؛ ابن حبيب ، تذكرة النبيه، ج١، ص١٣٥ ؛ النويرى، عقد الجمان، ج٣، ص١٢- ص٢٤ ؛ المقريزى، السلوك، ج١ ، ص٧٥٤ .

ومن ناحية أخرى، استطاع المنصور قلاون الحفاظ على سياسة الهجوم النشط تجاه الصليبيين بحيث قلص من مساحة اللون الصليبى على خارطة المنطقة العربية عندما استرد طرابلس، وكان الجيش الذى أعده لاسترداد عكا هو الذى نال شرف القضاء على آخر معاقل الصليبيين فى فلسطين والمنطقة العربية بقيادة ابنه الأشرف خليل بعد وفاته بشهور قليلة.

وعلى حدود مصر الجنوبية كانت مملكة النوبة تسبب إزعاجًا مستمراً . وعلى الرغم من كل الجهود السابقة ، منذ الفتح الإسلامى لمصر، فإن تتويج هذه الجهود جاء فى عهد السلطان المنصور قلاون الذى ضم هذه المملكة إلى مصر بشكل نهائى من ناحية، كما حولها إلى منطقة إسلامية خالصة من ناحية أخرى. ومن المعروف تاريخيا أن عمرو بن العاص، وخلفاءه ، قد حاولوا فتح مملكة دنقله المسيحية التى كانت تمتد فوق تراب المنطقة الواقعة من جنوب أسوان حتى المناطق الشمالية من السودان الحديث؛ بيد أن محاولة «عقبة بن نافع الفهرى» ، ثم محاولة «عبدالله بن سعد بن أبى السرح» ، لم تسفرا سوى عن عقد معاهدة بين مصر والنوبة عُرفت تاريخيًا باسم «معاهد البقط» ، ألزمت النوبة بتقديم ضريبة عينية سنوية؛ ولكنها لم تحقق لمصر أية سيطرة سياسية أو عسكرية حقيقية على بلاد النوبة . وفى عصر الدولة الأموية جرت محاولة جديدة زمن «هشام بن عبدالملك بن مروان» لغزو النوبة، دونما نجاح يذكر. وتكررت محاولات غزو النوبة على أيدى كل من «يزيد بن أبى صفر»، و«أبى منصور تكين التركى» ، وكان آخر من غزاها هو «شاهنشاه بن أيوب» أخو السلطان صلاح الدين الأيوبى.

ومنذ ذلك التاريخ ، حتى عصر سلاطين المماليك ، ظلت العلاقات بين مصر والنوبة قائمة على أساس معاهدة البقط، كما ظلت تتراوح بين الشد أحيانا والجذب أحيانا أخرى . ولأن دولة سلاطين المماليك اتخذت طابعًا دينيًا من ناحية، وكان مبرر وجودها التاريخى قائما على أساس الدفاع عن العالم الإسلامى من ناحية أخرى، فإن العلاقات بين هذه الدولة والنوبة أخذت اتجاها جديداً . وكان من الطبيعى أن تمتد الحماسة الدينية لدولة سلاطين المماليك التى صاحبت قيامها تلك الانتصارات المذهلة التى حققتها ضد المغول والصليبيين إلى القوة المسيحية الموجودة على حدود مصر الجنوبية مجسدة فى مملكة دنقلة المسيحية.

وقد تطوع النوبيون بتقديم المبرر العسكرى للسلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى لكى يشن حملة عسكرية ضدهم. إذ إن «داود» ملك النوبة انتهز فرصة إنشغال الجيش المصرى فى حروبه ضد المغول ، والفرنج الصليبيين، والأرمن ليشن هجومًا عنيفًا على المناطق الجنوبية فى أعالى صعيد مصر . وفى سنة ٦٧٤هـ / ١٢٧٢م حضر إلى مصر ابن أخت ملك النوبة

واسمه «شكد» أو «شكندة»[٢٨] لكى يطلب مساعدة السلطان الظاهر بيبرس ضد الملك الذى اغتصب حقه فى ملك بلاد النوبة؛ فأرسل بيبرس حملة ضخمة ، برية ونهرية ، بقيادة الأمير آقسنقر الفارقانى والأمير عز الدين الأفرم ومعها الأمير النوبى المطالب بعرش النوبة ومعهم تعليمات من السلطان الذى «... أمرهم إن فتحوا البلاد أن يسلموها له على أن يكون لشكندة النصف والربع من البلاد، والربع يكون خالصًا للسلطان...». وهكذا انتهز بيبرس فرصة النزاع داخل السلالة النوبية الحاكمة لكى يحكم سيطرته عليها. وفى شهر شوال من سنة ٦٧٤هـ وصل الجيش المصرى إلى دنقلة ليحقق انتصاراً سهلاً بعد معركة سريعة انتهت بهزيمة الملك النوبى الذى اضطر إلى الهرب بعد أن فقد عدداً كبيراً من جنوده بين أسير وقتيل .

كانت أهم نتائج هذه الحملة خضوع النوبة لدولة سلاطين المماليك تمامًا ، وتعين على ملكها أن يرسل جزية سنوية إلى القاهرة [٢٩]. وهكذا حققت الحملة التى أرسلها السلطان الظاهر بيبرس على النوبة ما لم تستطع أية حملة أخرى أن تحققه منذ زمن عمرو بن العاص. ولكن شكندة لم يلبث أن لقى مصرعه عندما قتله أحد «الفداوية الباطنية» .

وبعد وفاة السلطان الظاهر بيبرس، وتولى المنصور قلاون عرش السلطنة، واصل الأخير سياسة سلفه لتأمين الحدود الجنوبية وقطع شوطًا أكبر لتحقيق الضم النهائى لمملكة النوبة إلى السلطنة. وكانت سياسة المماليك منذ البداية تهدف إلى السيطرة على البحر الأحمر الذى كان الشريان الحيوى لتجارة مصر الشرقية من ناحية ، كما كان بحراً مغلقًا أمام السفن غير الإسلامية لتأمين الأماكن المقدسة فى الحجاز من ناحية أخرى. ومن ثم فإن تصرفات المنصور قلاون السياسية والعسكرية تجاه النوبة لم تكن خارجة عن السياق العام للسياسة المصرية فى أفريقيا والبحر الأحمر بشكل عام .

وفى ٦ ذى الحجة سنة ٦٨٦هجرية / ١٢٨٧م ، أرسل السلطان المنصور قلاون حملة لغزو بلاد النوبة بقيادة الأمير «علم الدين سنجر المسرورى المعروف بالخياط»، متولى القاهرة،

٢٨- ورد إسم «مشكد» عند المقريزى (السلوك، ج١ ، ص٦٢١- ص٦٢٣) بينما ورد اسم «شكندة» عند ابن أيبك الدوادارى (كنز الدرر، ج٨ ، ص١٨٣) الذى يذكر أن شكندة هو ابن عم ملك النوبة .

٢٩- انظر نص المعاهدة التى حلف عليها شكندة، ملك النوبة الجديد؛ ابن أيبك الدوادارى ، كنز الدرر، ج٨ ، ص١٨٥-١٨٦ .

والأمير «عز الدين أيدمر السيفى» . وسار الخياط فى البر الغربى بنصف العسكر على حين سار أيدمر بالنصف الثانى فى البر الشرقى للنيل الذى تقع فيه مدينة دنقلة . فلما وصل الجيش المملوكى الكبير أطراف بلاد النوبة أخلى ملك النوبة «سمامون» البلاد وأرسل إلى نائبه «جريس» فى جزر ميكائيل والدُّو يأمره بإخلاء البلاد... وفى المعركة هُزم النوبيون ، وابن خالة الملك سمامون . وقام الأمير عز الدين أيدمر بتنصيب ابن أخت «سمامون» ملكًا وجعل جريس نائبًا له، ثم عاد محملاً بغنائم كثيرة إلى القاهرة . ولكن «سمامون» عاد إلى دنقلة بعد رحيل الجيش المملوكى، وحارب من بها وهزمهم واستعاد مملكته . فأمر السلطان المنصور قلاون بتجهيز حملة جديدة لغزو النوبة. وفى سنة ٦٨٨هـ خرجت الحملة بقيادة الأمير «عز الدين أيبك الأفرم» إلى بلاد النوبة ، وكان عدد جنودها كبيراً «... وصحبتهم خمسمائة مركب ما بين حراريق ومراكب كبار وصغار تحمل الزاد والسلاح والأثقال ...» ومات الملك الذى كان قد تم تنصيبه على النوبة ؛ فأرسل السلطان من أولاد أخت الملك داود رجلاً «... كان بالقاهرة ليملكه ...» وزحف الجيش باتجاه النوبة، وتقدمهم جريس نائب ملك النوبة ومعه أولاد الكنز ليؤمن أهل البلاد ويجهز الإقامات «... فكان العسكر إذا خرج إلى بلد خرج إليه المشايخ والأعيان ، وقبلوا الأرض ، وأخذوا الأمان وعادوا ...» حتى وصل إلى جزر ميكائيل التى كانت خاضعة لجريس. أما المناطق التى تقع إلى الجنوب فيما بين هذه الجزر إلى دنقلة ، فكانت خاضعة لسمامون ، وقد هرب سكانها تلبية لأمر ملكهم الذى كان قد تحصن فى جزيرة بمنطقة الجنادل ولم تستطع السفن الوصول إليها.

وفى جمادى الآخرة من السنة التالية (٦٨٩هـ) وصلت قوات والى قوص إلى قبالة الجزيرة التى بها «سمامون» ورفض الاستسلام ، ثم هرب إلى الأبواب. وقد انفض عنه الأمراء (السواكرة ومفردها سوكرى) ، والأسقف والقساوسة وطلبوا الأمان فأمنهم والى قوص وخلع على أكابرهم . وفى دنقلة أقيم احتفال كبير بأكبر كنائس النوبة، وتم تنصيب الملك الجديد، ثم عاد الجيش إلى أسوان ثم القاهرة، بعد أن تركوا حامية صغيرة. ولكن القصة لم تنته عند هذا الحد؛ فقد عاد سمامون متخفيًا إلى دنقلة ، وأخذ يستدعى الأمراء (السواكرة) حتى جمعهم كلهم بعد رحيل جيش قلاون، ثم طرد الحامية المملوكية بقيادة بيبرس العربى إلى قبرص، وقبض على الملك الذى جلس على عرش النوبة «... وعراه من ثيابه ، وألبسه جلد ثور كما ذُبح بعد ما قدَّه سيورا ولفها عليه، ثم أقامه مع خشبة وتركه حتى مات ...». كما قتل جريس . وكتب سمامون إلى السلطان المنصور قلاون يسأله العفو ، ويعلن التزامه بشروط

اتفاقية البقط وزيادة ، ثم أرسل هدية إلى القاهرة من ضمنها عدد من العبيد ، فأقره السلطان على حكم بلاد النوبة (٣٠).

بعد ذلك استمر ملوك النوبة ، بصفة عامة، على ولائهم طوال عصر السلطان الناصر محمد بن قلاون، الذى تولى العرش ثلاث مرات وحكم حوالى أربعين سنة دون أن يحدث ما يعكر صفو هذه العلاقة. ولكن سلاطين المماليك، بعد ذلك ، اتجهوا اتجاها جديدا فى سياستهم نحو النوبة ؛ وكان هدفهم من ذلك نشر الإسلام فى هذه البلاد . ورأوا أن الوسيلة المثلى لذلك هى أن يتولى حكم النوبة ملوك تربوا فى مصر واعتنقوا الإسلام وذابوا فى الهوية العربية الإلامية ؛ مما أدى فى النهاية إلى اندماج النوبة تمامًا فى مصر بحيث صارت جزءاً عضويًا من مصر . هذا التغيير الحاسم فى العلاقات المصرية النوبية أدى إلى نتائج حاسمة فى مصير البلاد . وبعد أن تولى كنز الدولة حكم بلاد النوبة بدأت هذه البلاد تصطبغ بالصبغة العربية الإسلامية منذ القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى . وزاد من سرعة هذا التحول أن بعض القبائل العربية هاجرت إلى بلاد النوبة واستقرت بها . وإذ صارت هذه المنطقة ، منذ ذلك الحين فصاعداً ، منطقة عربية إسلامية، وتخلت عن المسيحية ، باتت جزءا عضويًا من الكل المصرى يخضع لكل التطورات التاريخية ؛ سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا التى مرت بها مصر منذ تلك الفترة حتى الوقت الحالى.

وكانت السياسة التى اتبعها بيبرس، وواصل قلاون انتهاجها ، هى التى أدت فى النهاية إلى هذه النتائج الحاسمة.

وعلى صعيد السياسة الخارجية ، مارس السلطان المنصور قلاون سياسة ناجحة عززت الدور المصرى على الصعيد العالمى؛ فقد أقام علاقات ودية مع اليمن فى ظل حكم الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر بن على بن رسول، كما وصلت إلى القاهرة فى نهاية شهر المحرم سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م، رسل الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الثامن باليولوجوس ؛ لأن السلطان المنصور قلاون « ... كان قد أرسل إليه وإلى غيره من ملوك الدول المجاورة يمد يد الصداقة والحلف ... ». وفى السنة التالية وصلت رسل جديدة من القسطنطينية ، ورسل ألفونسو ملك

٣٠- المقريزى ، السلوك، ج١ ، ص٧٣٧- ص٧٥٣ ؛ ابن أيبك الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج٩ ، ص٢٧٨ ؛ وأنظر نص نسخة اليمين التى حلف عليها متملك النوبة للسلطان المنصور قلاون بعد أن عينه نائبًا عنه فى حكم النوبة، القلقشندى ، صبح الأعشى، ج١٣ ، ص٢٩٠- ص٢٩١ .

قشتالة بهدية تتكون من عدد كبير من الخيل والبغال «... فأكرمهما السلطان وأعادهما مشمولين بالإحسان...»[٣١]. وفي سنة ٦٨٢هـ / ١٢٨٢م ، وصلت رسل حاكم سيلان من أرض الهند ومعهم كتاب موجه إلى السلطان «... وهو صحيفة ذهب، عرض ثلاثة أصابع في طول نصف ذراع، بداخلها شئ أخضر يشبه الخوص، مكتوب فيه بقلم لم يوجد في القاهرة من يحسن قراءته؛ فسئل الرسل عنه فقالوا إنه يتضمن السلام والمحبة ، وإنه ترك صحبة صاحب اليمن وتعلق بمحبة السلطان ، ويريد أن يتوجه إليه رسول. وذكر أن عنده أشياء عدَّها من الجواهر والفيلة والتحف ونحوها .. وأنه عبَّا تقدمة إلى أبواب السلطان وأن في مملكته سبعًا وعشرين قلعة ، وبها معادن الياقوت والجواهر، وأن خزائنه ملآنة من الجواهر...»[٣٢].

ويكشف هذا النص عن أن المنصور قلاون اجتهد في إنشاء العلاقات الدبلوماسية الطيبة مع الشرق بغرض تشجيع التبادل التجاري، كما يكشف عن أن حاكم اليمن من بني رسول عرض إنشاء حلف تجاري مع سيلان، ولكن حاكمها رأى أن يستفيد من دولة سلاطين المماليك التي كانت تتمتع بمهابة كبيرة آنذاك[٣٣].

وتواصلت رسل حكام الدول الأجنبية في القدوم إلى القاهرة طوال عهد السلطان المنصور قلاون، ومن ناحية أخرى كتب السلطان «... إلى الأكابر ببلاد السند والهند والصين واليمن ، صورة أمان لمن اختار الحضور إلى ديار مصر وبلاد الشام...»[٣٤] وكانت تلك الرسائل تشجيعًا للتجار من هذه البلاد للمتاجرة مع مصر .

ومن ناحية أخرى، حاول السلطان المنصور قلاون تأسيس أسرة حاكمة تتوارث الحكم من بعده، وأثبت بذلك أنه لم يتعلم شيئًا من دروس التاريخ القريب وما فعله هو نفسه مع أبناء السلطان الظاهر بيبرس من ناحية ، كما أنه لم يفهم حقيقة الإيديولوچية التي حكمت توجهات

٣١- بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج٩ ، ص٢٢٠- ص٢٢١ ، ص٢٣٠ ؛ المقريزي ، السلوك، ج١ ، ص٧٠٢-٧٠٦ .

٣٢- المقريزي ، السلوك، ج١ ، ص٧١٢- ص٧١٣ .

٣٣- وقد ذكر بيبرس الدوادار (زبدة الفكرة ، ج٩، ص٢٥١- ص٢٥٤)، هذا الخبر وقال إن الرسول كان اسمه «الحاج أبوعثمان» ، وأن ملك سيلان إسمه «آبونكبا» .

٣٤- المقريزي، السلوك، ج١، ص٧٤٢ .

السياسة الداخلية فى الدولة التى كان واحداً من أبرز حكامها من ناحية أخرى. بيد أن حظ أبناء قلاون وأحفاده فى الحكم كان أفضل كثيراً من حظ أبناء السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى .

كانت المحاولة الأولى من جانب السلطان المنصور قلاون لتوريث أبنائه عندما قام بتفويض السلطنة وولاية العهد للملك الصالح علاء الدين أبى الفتح على، الذى كان هو الابن الأكبر للسلطان[٣٥] ولكن ولى العهد مات سنة ٦٨٧هـ، فنقل السلطان ولاية العهد لابنه الملك الأشرف صلاح الدين خليل[٣٦] ثم إن السلطان توفى وهو فى معسكره مع الجيش الذى أعده لفتح عكا فى شهر شوال سنة ٦٨٩هـ بعد أن حكم إحدى عشرة سنة وشهرين وأربعة وعشرين شهراً . وبقى الأشرف ليحكم بعد أبيه.

ولم تكن دولة سلاطين المماليك قائمة على مبدأ الوراثة نظراً للطبيعة العسكرية التى ميزت تلك الدولة منذ نشأتها حتى نهاية وجودها بعد مائتين وسبعين سنة تقريبًا . وسبق أن أوردنا عدة أمثلة دالة على أن المماليك الذين ورثوا الحكم عن سادتهم الأيوبيين وورثوا عنهم أيضًا مبدأ «الحكم لمن غلب» . بل إنهم، بسبب نشأتهم الواحدة فى طباق المماليك ، ورابطة الخشداشية ورابطة الأستاذية التى جمعتهم ببعضهم أو بسادتهم من السلاطين والأمراء، كانوا يؤمنون بالمساواة فيما بينهم بالأحقية بالعرش الذى يفوز به أقواهم وأقدرهم على التغلب على المنافسين .

ومن ناحية أخرى ، كانت المفاهيم السياسية لدولة سلاطين المماليك نتاجًا لظروف قيام تلك الدولة من رحم المعارك العسكرية ضد الصليبيين والمغول ، فضلاً عن أنهم ، جميعًا ، كانوا رقيقًا فى الأصل. وقد تبلورت هذه المفاهيم السياسية فى الحقيقة القائلة بأن العرش حق لمن يقدر على انتزاعه بالقوة . ومنذ البداية تأكدت هذه الحقيقة ؛ سواء فى مصرع عز الدين أيبك وزوجته شجر الدر ، أو فى اغتيال السلطان قطز ، وهو عائد بنصره الكبير على المغول فى معركة عين جالوت على يد بيبرس الذى حل محله على العرش.

٣٥- ابن أيبك الدوادار ، زبدة الفكرة، ج٩ ، ص١٩٠- ص١٩٤ حيث أورد وثيقة ولاية العهد.

٣٦- المقريزى ، السلوك ، ج١ ص٧٤٥ . ويذكر المقريزى أن السلطان رفض التوقيع على ولاية العهد لابنه الأشرف خليل .

ومرة أخرى ، تبلورت هذه الحقيقة عندما أخذ السلطان المنصور قلاون العرش من ولدى السلطان الظاهر بيبرس ، ثم نفاهما إلى القسطنطينية . وعلى الرغم من ذلك حاول قلاون توريث الحكم فى سلالته . وقد حكم قلاون وأبناؤه وأحفاده فترة تزيد على قرن من الزمان تخللها جلوس عدة سلاطين على العرش من خارج أسرة قلاون. فهل كانت أسرة قلاون أسرة وراثية بالفعل ؟ وهل يمكن اعتبار تاريخ هذه الأسرة ، التى حكم أحد أفرادها (وهو الناصر محمد بن قلاون) فترة تزيد على الفترة التى حكم فيها باقى أفراد الأسرة دليلاً على أن المماليك رضخوا لمبدأ الوراثة؟ ! أم أن الظروف التاريخية جعلت حكم أبناء هذه الأسرة على فترات متقطعة يبدو استثناء يؤكد القاعدة؟

لقد حكم أبناء أسرة قلاون مملكة تشمل مصر والشام والحجاز بصورة متقطعة منذ سنة ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م إلى سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م ، كان نصيب الرجل الذى أسسها إحدى عشرة سنة وحوالى ثلاثة شهور ، على حين حكم ابنه الناصر محمد منذ سلطنته الأولى ٦٩٣هـ / ١٢٩٣م حتى نهاية سلطنته الثالثة ووفاته سنة ٧٤١هـ / ١٣٤١م فترة تزيد على أربعين عامًا. تخللها حكم أفراد من خارج الأسرة مرتين. ثم جاءت فترة حكم بقية أفراد هذه الأسرة موزعة على ثلاث وأربعين سنة تخللها حكم أفراد من خارج الأسرة أيضا .

وفى رأيى أن حكم السلاطين من أسرة قلاون بالذات، يمكن أن يكون دليلاً على عدم إيمان المماليك بمبدأ وراثة الحكم. ذلك أن استمرار هذه الأسرة التى لم يبرز منها سلاطين أقوياء ، باستثناء مؤسسها المنصور قلاون، وابنه الأشرف خليل الذى اغتاله كبار الأمراء بعدما حقق النصر النهائى على بقايا الصليبيين فى عكا ، ثم ابنه الأصغر الناصر محمد الذى تولى عرش السلطنة ثلاث مرات ، خلع فى اثنتين منها بسبب تعاظم نفوذ الأمراء الكبار الطامعين فى العرش- نقول إن استمرار بقاء أفراد هذه الأسرة فى الحكم كان فى كثير من الأحيان ناتجًا عن تساوى الأمراء المتصارعين على العرش والنفوذ فى المقدرة والقوة وغياب الشخصية القوية التى يمكن أن تحسم الأمر لصالحها . ففى بعض الحالات كانت التوازنات السياسية والعسكرية بين أمراء المماليك المتنافسين تفرض بقاء أحد أفراد أسرة قلاون على العرش؛ على الرغم من ضعفه وعدم أهليته، وعلى الرغم من وقوعه تحت السيطرة المطلقة للأمراء.

ومن ناحية أخرى ، كان للإجراء الذى اتخذه السلطان الناصر محمد بن قلاون، فى سلطنته الثالثة للحد من نفوذ الأمراء فى الروك الناصرى أثره السلبى على قوة الأمراء وقدراتهم العسكرية بالشكل الذى أدى إلى عدم بروز شخصية قوية من بينهم. فقد بدأ عمل الروك (أى

فك زمام القرى وتعديلها) فى أواخر شهر شعبان سنة ٧١٥هـ « ... وسبب ذلك أن السلطان استكثر أخباز المماليك أصحاب بيبرس الجاشنكير وسلار النائب ، وكان الخبز الواحد ما بين ألف مثقال إلى ثمانمائة مثقال ، وخشى السلطان من وقوع الفتنة بأخذ أخبازهم... » . وكان الهدف هو التقليل من نفوذ الأمراء وثرواتهم ، وإعادة توزيع إقطاعاتهم (أخبازهم) . وقد حقق السلطان هدفه تمامًا من ناحية ، ولكنه خلخل أسس النظام الإقطاعى الذى قامت عليه دولة سلاطين المماليك من ناحية أخرى.

بيد أن النتيجة المباشرة تمثلت فى عدم قدرة أمراء المماليك على حسم الصراع لصالح أى منهم مما تسبب فى بقاء أفراد أسرة قلاون على العرش ، دونما سلطة حقيقية فى أغلب الأحيان؛ وهذا هو موضوع الفصل التالى من هذه الدراسة .

الفصل العاشر

أسرة قلاون وطبيعة السلطة

الأشرف خليل بن قلاون وفتح عكا- سلطنة الناصر محمد الأولى وصراع الأمراء- العادل زين الدين كتبغا والمنصور لاچين- سلطنة الناصر محمد الثانية- بيبرس الجاشنكير على العرش- السلطنة الثالثة للناصر محمد وتقليص سلطة كبار الأمراء- عصر أبناء الناصر محمد وأحفاده- الوباء وتأثيراته السلبية على المجتمع والدولة- دلائل الضعف وسقوط أسرة قلاون.

كانت آخر أعمال السلطان المنصور قلاون إعداد حملة لفتح عكا ؛ وفي آخر شهر شوال سنة ٦٨٨هـ ، خرج السلطان على رأس جيشه إلى المعسكر ونزل في مخيمه بمسجد تبر على أطراف مدينة القاهرة. ولكن المرض القاتل هاجم السلطان الغازي الذي مات في السادس من شهر ذي القعدة من السنة نفسها كما ذكرنا من قبل.

ترك السلطان الراحل ثلاثة أولاد ذكوراً؛ وهم الأشرف خليل ابنه الأكبر الذي تولى ولاية العهد دون أن يوقع أبوه على التقليد بولاية العهد ، والناصر محمد الذي تولى السلطنة مرات ثلاث، ثم الأمير أحمد الذي توفي إبان سلطنة أخيه السلطان الأشرف خليل.

وتم تتويج الأشرف في اليوم التالي لوفاة أبيه ، أي في ٧ ذي القعدة ، وحلف له الأمراء والفرسان والجنود يمين الولاء والطاعة يوم ٨ ذي القعدة . وعندما طلب من القاضي «فتح الدين بن عبد الظاهر» تقليد ولاية العهد، أخرجه إليه خاليًا من توقيع السلطان. وتذكر المصادر التاريخية أن المنصور قلاون رفض التوقيع عدة مرات، ثم قال للقاضي «ابن عبد الظاهر» : «... يا فتح الدين أنا ما أولي خليلاً على المسلمين»، فلما رأى الأشرف التوقيع بغير علامة أبيه، قال للقاضي : «يا فتح الدين إن السلطان امتنع أن يعطيني ، وقد أعطاني الله». ورمى التقليد لابن عبد الظاهر الذي احتفظ به [1].

١- المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ص٧٥٦ ؛ ابن تغردي بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٨، ص٤ . ولم يذكر بيبرس الدوادار ، الذي كان معاصراً هذه القصة.

هذه الرواية تؤكد أن الشرعية القائمة على توريث الحكم لم تكن مبدأ راسخًا لدى سلاطين المماليك منذ البداية. صحيح أن قلاون حاول توريث الحكم لابنه المتوفى الذى عينه وليًا للعهد ثم مات فى حياته، ولكن رفضه التوقيع على ولاية العهد للأشرف لم يغير فى الأمرشيئًا . فقد اعتمد السلطان الجديد على «شرعية» الأمر الواقع والقوة العسكرية التى تؤيده ، وكان هذا تجليًا لمبدأ «الحكم لمن غلب». بل إن الأيام الأولى من حكم السلطان الجديد أكدت أن كبار الأمراء كانوا بالمرصاد للسلطان الجديد وحاولوا اغتياله، ثم كان مصيره القتل غدراً بعد ذلك فى مؤامرة دبرها الأمراء، تأكيداً إضافيا لمبدأ الحكم لمن غلب.

فقد اختصر السلطان الجديد موكب السلطنة بعد أن كاد يتعرض للاغتيال على يد الأمير «حسام الدين طرنطاى» ولكنه عاد مسرعًا إلى القلعة . وكان أول أعماله قتل طرنطاى وكتبغا لعداء قديم منذ سلطنة أبيه ، ولأنهما دبرا مؤامرة قتله أثناء موكب السلطنة [٢]. وباستثناء هذه الحادثة فإن الأشرف خليل وطد دعائم حكمه دون أن تمر البلاد بالاضطرابات المعتادة التى كانت تحدث بين نهاية عهد سلطان راحل وبداية عهد سلطان جديد. وبعد أن عين السلطان أركان دولته تفرغ لاستكمال المهمة التى كان أبوه قد عزم على تنفيذها؛ أى القضاء على بقايا الكيان الصليبى فوق الأرض العربية.

وفى السنة التالية قدمت رُسل الفرنج يطلبون عفو السلطان عن الاعتداءات التى كانت قد استفزت المنصور قلاون، ولكن السلطان الأشرف رفض طلبهم. وأمر بالاستعداد للمسير إلى عكا ، وتم تجهيز عدد كبير من المجانيق، واستنفر الأمراء وفرق الجيش المملوكى فى بلاد الشام لتكون جاهزة عندما يخرج السلطان بجيش مصر. وعندما اكتملت الاستعدادات للتوجه إلى عكا جمع السلطان الأشرف خليل العلماء والأعيان، والقضاة بالقبة المنصورية بالقرب من بين القصرين فى القاهرة فى شهر صفر عند قبر أبيه ؛ وهناك تصدق بمبلغ كبير من المال وكمية كبيرة من الكساوى « ... وفرق على الفقراء والقراء مالاً كثيراً، وفرق فى أهل المدارس، والزوايا والخوانك والربط مالاً وثيابًا ... »[٣].

٢- بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج٩ ، ص٢٨٨- ص٢٩١ . وهو لايذكر شيئًا عن مؤامرة طرنطاى ، ولكن المقريزى (السلوك ، ج١ ، ص٧٥٦- ص٧٥٧) يؤكدها ، بينما تجاهلها المؤرخ ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة ، ج٨ ، ص٤ ، ص٥) .

٣- المقريزى، السلوك ، ج١، ص٧٦٢- ص٧٦٤ .

هذه الظاهرة الدينية التى قام بها الأشرف خليل بن قلاون قبل خروجه إلى قتال الصليبيين كانت من خصائص دولة سلاطين المماليك التى حرصت على الواجهة الدينية سنداً للقوة العسكرية من جهة، كما كشفت عن أن السلطان الذى أجمعت المصادر التاريخية على شراسته كان حريصًا على الظهور بهذا المظهر المتدين من جهة أخرى. وقد آتت هذه المظاهرة الدينية ثمارها ؛ فعندما خرج بجيشه من القاهرة فى ثالث ربيع الأول من سنة ٦٩٠هـ « ... كانت المطوعة أكثر من الجند ومن فى الخدمة ... » (٤). فقد خرجت جموع المصريين بأعداد هائلة للمشاركة فى الجهاد ضد الصليبيين ، وربما كانت الحماسة الدينية والروح المعنوية الهائلة - بعد انتصارات المماليك على الفرنج منذ بداية عصر المماليك حتى نهاية عهد المنصور قلاون- وراء تدفق هذه الأعداد الكبيرة من المصريين وأهل فلسطين وأهل الشام لقتال العدو الصليبى.

ووصل الجيش تحت أسوار عكا فى ثالث شهر ربيع الآخر، ووصلت المجانيق فى اليوم التالى لوصوله وعددها إثنان وتسعون منجنيقًا . وقيل إن جيش السلطان الأشرف خليل كان يتألف من ستين ألف فارس ومائة وستين ألفا من المشاة(٥) ومهما كانت المبالغة فى هذا الرقم فلابد أن المسلمين كانوا أكثر عدداً من الصليبيين بعشرة أمثال، وربما كانت الأعداد الكبيرة من المتطوعين وراء هذه الأعداد الضخمة التى أرعبت الفرنج.

وقد كان المؤرخ والأمير المملوكى بيبرس الدوادار صاحب «زبدة الفكرة» ضمن المقاتلين فى هذه المعركة وقدم لنا وصفًا تفصيليًا لأحداثها (٦). ومن ناحية أخرى، استدعت النظم الرهبانية العسكرية الصليبية كل ما أمكنها من أعضاء فى أوربا للمشاركة فى المعركة، وكانت دفاعات المدينة فى حالة جيدة، كذلك كان الصليبيون يسيطرون على ميناء عكا، وتم نقل أعداد كبيرة بالفعل من النساء والأطفال إلى قبرص على ظهور السفن التى عادت تحمل المؤن والإمدادات(٧). كما جاء هنرى الثانى ملك قبرص بنجدة قوامها مائة فارس وحوالى ألف من المشاة لمحاولة إنقاذ عكا يوم ٤ مايو ، أى قبل الهجوم النهائى بحوالى أسبوعين ، وفرح به

٤- ابن تغرى بردى، النجوم، ج٨، ص٥ .

٥- S. Runciman, " The Crusader States 1243 - 1291" in Setton (ed.), A History of the Crusades, vol . II, p. 595 .

٦- بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج٩، ص٢٩٤ ، ص٣٠٠ .

٧- S. Runciman, Op. cit, pp. 5965-6 .

الصليبيون فرحًا شديداً . ومع ذلك فقد أرسل الصليبيون الرسل إلى السلطان فى محاولة أخيرة لفك الحصار الذى بدأ منذ حوالى شهر (٤ جمادى الآخرة ٦٩٠هـ / ٥ أبريل ١٢٩٠م) ولكن السلطان الأشرف خليل سألهم عما إذا كانوا قد أحضروا مفاتيح المدينة . وفى يوم الجمعة (١٦ جمادى الآخرة ١٨ مايو) أمر السلطان بشن الهجوم النهائى . وكان من أبرز المدافعين عن المدينة الملك هنري الثانى وشقيقه أماليك ، وغرق البطريرك الكاثوليكى أثناء محاولته الهرب عن طريق البحر[٨]. وتم تحرير عكا قبل انتصاف النهار؛ إذ يقول المقريزى: «... فلم ترتفع الشمس حتى علت الصناجق الإسلامية على أسوار عكا ، وهرب الفرنج فى البحر ، وهلك منهم خلق كثير فى الازدحام ، والمسلمون يقتلون ويأسرون وينهبون ، فقتلوا ما لايحصى عدة كثرة، وأخذوا من النساء والصبيان ما يتجاوز الوصف ...»[٩]. ولكن مبنى فرسان الداوية الذى كان يطل علي البحر جنوب غرب المدينة لم يسقط. وهناك لجأ عدد من غير المقاتلين ، كما عادت السفن التى نقلت اللاجئين إلى قبرص لمساعدة الشرذمة الباقية من الصليبيين، وفى اليوم التالى لفتح المدينة[١٠] طلب فرسان الداوية الأمان، وأمنهم السلطان «... وسيَّر إليهم صنجقًا، فأخذوه ورفعوه على برجهم ، وفتحوا الأبواب؛ فطلع إليهم جماعة كثيرة من الجند وغيرهم . فلما صاروا عندهم تعرض بعض الجند والعوام للنهب، ومدوا أيديهم إلى من عندهم من النساء والأصاغر. فغلق الفرنج الأبواب ووضعوا فيهم السيف ؛ فقتلوا جماعة من المسلمين، ورموا الصنجق ، وتمسكوا بالعصيان ، وعاد الحصار عليهم...» وبعد ذلك تم الاستيلاء على الحصن وأنزل من فيه بالأمان ولكنهم قتلوا عن بكرة أبيهم[١١].

٨- H.E. Mayer, The Crusades (Oxford University Press, 1965), pp. 273-274 .

٩- المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٧٦٥- ص٧٦٧ .

١٠- ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٨ ، ص٥-٦ ، ويقول رنسيمان إن ذلك حدث بعد أسبوع من الهجمات الإسلامية على المبنى دونما نتيجة . أنظر :

Runciman, Op. cit., pp. 597-8 .

١١- ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٥ ، ص١٠ . وقد وردت هذه الرواية لدى كل من بيبرس الدوادار (زبدة الفكرة ، ج٩ ، ص٣٠٠؛ والمقريزى ، السلوك، ج١ ، ص٧٦٧ . ويعلق ابن تغرى بردى على هذا بقوله : «... والعجب أن الله سبحانه وتعالى قدَّر فتح عكا فى مثل اليوم الذى أخذها الفرنج فيه ، ومثل الساعة التى أخذوها فيها ... وكان الفرنج قد أمنوا من فيها من المسلمين ، ثم قتلوهم غدراً ... فانتقم الله من عاقبتهم...» .

واحتفل السلطان الأشرف خليل بن قلاون بنصره الكبير فى مدينة دمشق التى أخذت زينتها بهذه المناسبة (١٢).

بعد ذلك تم فتح صور وعثليث وصيدا ، واستغرقت فترة الإجهاز على بقايا الفرنج ، بعد فتح عكا ، ستة أشهر، وسقطت بقية المدن والمعاقل الصليبية تباعًا . وبذلك خلصت بلاد الشام وفلسطين لأصحابها العرب المسلمين والمسيحيين مرة أخرى . ودالت دولة الفرنج فى تلك الأنحاء بعد أن استمرت فى الوجود مائتى سنة تقريبا . بيد أن هذا الانتصار النهائى الذى أحرزته القوات الإسلامية لم يكن يمثل النهاية الفعلية لقصة «الحروب الصليبية» . فقد لجأت فلول الهاربين إلى جزيرة قبرص وجزيرة رودس فى محاولة يائسة لبعث الحياة فى جسد الحركة الصليبية الميت من خلال شن غارات على المدن والسواحل العربية، وعمليات القرصنة ضد السفن العربية فوق مياه البحر المتوسط طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. ومن ناحية أخرى، لم تكف البابوية ، التى حققت زعامة سياسية فعلية فى الغرب الأوربى بفضل الحركة الصليبية ، عن صياغة «مشروعات صليبية» جديدة بهدف السيطرة على المنطقة العربية ، والتحكم فى طرق التجارة العالمية. أما دولة سلاطين المماليك ، فقد اكتسبت أهمية متزايدة بفضل انتصارها النهائى على الفرنج الصليبيين، واستمرت تواصل دورها التاريخى فى مواجهة القوى الأوربية الصليبية، ولكن القضاء على الكيان الصليبى فى فلسطين وبلاد الشام خفف من وطأة الضغط على سلاطين المماليك ، ولم يعد الأمر يتطلب حشد كافة موارد المنطقة السياسية والاقتصادية والعسكرية وإمكانياتها البشرية والثقافية كما كان الحال طوال فترة الوجود الصليبى على الأرض العربية.

على أية حال ، فإن السلطان الأشرف خليل بن قلاون عاد إلى القاهرة من دمشق فى أوائل ذى القعدة سنة ٦٩١هـ «... ودخل من باب النصر، وصعد إلى القلعة من باب زويلة ؛ وقد عُمل من الزينة والقلاع والتهانى شئ كثير، وأوقد من الشموع ما يجل وصفه ، فإن الناس احتفلوا بذلك احتفالاً كبيراً فاق جميع ما تقدم فى معناه ...»(١٣) وفى مصر مارس السلطان

١٢- بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج٩ ، ص٣٠٠ ؛ ابن أيبك الدواداری ، كنز الدرر، ج٨، ص٣٠٨- ص٣١٠ ؛ ابن حبيب ، تذكرة النبيه، ج١ ، ص١٣٧-١٣٨ ؛ المقريزى، السلوك، ج١، ص٧٦٧ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ج٨ ، ص٨- ص١٠ ؛ العينى، عقد الجمان، ج٣، ص٥٦- - ص٥٧ ؛ النويرى ، نهاية الأرب، ج٣١ ، ص١٩٧- ص١٩٩ .

١٣- المقريزى، السلوك، ج١ ، ص٧٨٠- ص٧٨١ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٨ ، ص١٣

مهامه بشكل عادى، ولم يحدث حدث ذو أهمية خاصة، وفى أثناء رحلة صيد نفذ كبار الأمراء مؤامراتهم لاغتيال السلطان الشاب على النحو الذى يؤكد أن الصراع الدموى كان آفة نظام الحكم فى دولة سلاطين المماليك من ناحية ، وينفى ما ظنه البعض انصياعًا لفكرة وراثة الحكم فى أسرة قلاون من ناحية أخرى. فقد قاد «بيدرا» و«حسام الدين لاجين» جماعة الاغتيال التى نفذت العملية بوحشية وقسوة، وتركوا جثة السلطان المغدور مطروحة مكانها يومين، حتى جاء من يحملها ويغسلها ويكفنها لتدفن فى مقبرته بالقرب من مشهد السيدة نفيسة. وكانت مدة سلطنته ثلاث سنين وشهرين وأربعة أيام، وقُتل وعمره حوالى ثلاثين سنة (١٤).

فى اليوم التالى لمقتل السلطان الأشرف خليل تسلطن قاتله تحت إسم «الملك الأوحد» لكن دماء السلطان المغدور، التى كانت لم تجف بعد، طلبت ثأرها. وانتقم المماليك الأشرفية بقيادة الأمير «زين الدين كتبغا» والأمير «حسام الدين الاستادار» لقتل أستاذهم السلطان الأشرف خليل، وقطعوا يد بيدرا ثم فصلوا رأسه(١٥). وهكذا تلطخت السلطة بدماء القتلى مرة أخرى، وليست أخيرة، لتعلى من شأن مذهب «الحكم لمن غلب» على حساب مبدأ الوراثة الذى توارى خلف عباءات المماليك المتصارعين ثم أطل على استحياء ليبرر جلوس طفل فى التاسعة من عمره على العرش ليكون سلطانًا بلا سلطة.

تولى السلطان الناصر «محمد بن قلاون» الحكم فى أواسط شهر المحرم سنة ٦٩٣هـ ليكون له إسم السلطنة دون أى صلاحية من صلاحيات الحكم؛ وتولى الأمير زين الدين كتبغا نيابة السلطنة، والأمير «علم الدين سنجر الشجاعى» «... وزيراً ومدبراً للمملكة ...» وفى هذه الفترة بدأ «الشجاعى» يحكم قبضته على الأمور «... فاشتدت مهابة الناس له وقويت نفسه، وأحب أن يستبد بالأمور...» على حد تعبير المقريزى. وهكذا بدأ الصراع مبكراً فى ظل السلطان الطفل بين الأميرين الكبيرين ، وانقسم المماليك فرقتين تناصر كل منهما أحد المتنافسين على الحكم، وعاشت القاهرة أيامًا عاصفة وليالى سوداء بسبب الحروب الصغيرة والاقتتال فى ميادينها وشوارعها . وحاصر كتبغا القلعة برجاله «... إلى أن طلعت إليهم

١٤- بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج٩ ، ص٣١٢- ص٣١٣ ؛ ابن أيبك الدوادارى ، كنز الدرر، ج٨، ص٣٤٥- ص٣٤٨ ؛ المقريزى ، السلوك، ج١ ، ص٧٨٢- ص٧٩١ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ج٨، ص١٧- ص١٨ .

١٥- بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة ، ج٩ ، ص٣١٤- ص٣١٥ ؛ المقريزى، السلوك ، ج١ ، ص٧٩١- ص٧٩٣ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٢١، ص٢٣ .

الست خوند، والدة السلطان محمد، إلى أعلى السور وكلمتهم بأن قالت لهم: إيش هو غرضكم حتى إننا نفعله لكم؟ فقالوا : ما لنا غرض إلا مسك الشجاعى وإخماد الفتنة ، ونحن لو بقيت بنت عمياء من بنات أستاذنا الملك المنصور قلاون كنا مماليكها ، ولاسيما ولده الناصر محمد حاضر وفيه الكفاية ... » فى هذه المناورة استخدم «حق التوريث» وسيلة للوثوب إلى العرش «بحق الغلبة »؛ فالعسكر لا يعرفون إلا لغة القوة.

وعلى أية حال ، انتهى أمر الشجاعي بقتله . وكان الرجل مكروها بسبب ظلمه « ... وأخذوا رأسه، وجعلوه على رمح ، وأعطوه للمشاعلية ... فحصَّل المشاعلية مالاً كثيراً لبغض الناس قاطبة فى الشجاعى ؛ فقيل إنهم كانوا يأخذون الرأس من المشاعلية ، ويدخلونه بينهم فتضربه النسوة بالمداسات ؛ لما في نفوسهم منه... »[١٦] وأغلقت القاهرة خمسة أيام انتهت بموكب للسلطان الطفل الذى جلس متفرجًا على عرش لايعنى شيئًا . ثم انتهت سلطنته الأولى بعد سنة تنقص أيامًا ثلاثة عندما حدثت اضطرابات جديدة اتخذها كتبغا مبررا للإطاحة بالسلطان الطفل ومبدأ التوريث . فقد قال كتبغا للأمراء : «قد انحرف ناموس المملكة والحرمة لاتتم بسلطنة الناصر لصغر سنه... »[١٧].

تولى «زين الدين كتبغا المنصورى» عرش سلطنة المماليك في يوم الأربعاء ٩ محرم سنة ٦٩٤هـ. وكان أصله من أسرى المغول فى معركة حمص الأولى فى عهد السلطان الظاهر بيبرس حوالى سنة ٦٦٠هـ . وكان من المغول الأويراتية (وهم طائفة من التتر). وقد أخذه المنصور قلاون ورباه ثم اعتقه وجعله من ضمن مماليكه ، ورقاه حتى صار من كبار الأمراء[١٩]. ويقول بيبرس الدوادار إن العادل كتبغا « ... ودخل من باب القلعة راكبًا وكان ذلك الرأى منكوسًا والطالع منحوسًا ، ومست الناس فى هذه السنة ضراء وبؤس. ولما جلس فى المملكة على زعمه، وخلع الملك الناصر من محله وحكمه ، أسكنه فى قاعة من الدور، وحجبه فى أمنع الخدور ،

١٦- بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج٩ ، ص٣١٥- ص٣٢٣ . والجدير بالذكر أنه كان من كبار موظفى الدولة الذين عينهم السلطان الطفل وكان شاهد عيان لهذه الأحداث . أنظر أيضًا: المقريزى ، السلوك، ج١ ، ص٧٩٨- ص٨٠٥ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ج٨ ، ص٤١- ص٥٠ .

١٧- المقريزى ، السلوك، ج١، ص٨٠٦ .

١٩- ابن بهادر ، فتوح النصر، ج٢ ، ص١٨٢ ؛ ابن الفرات، حوادث سنة ٦٩٤ هجرية ، ص١٩٢ ؛ النويرى ، نهاية الأرب، ج٣١ ، ص٢٨٢ .

فقضى الله له عليه ، وأخذ حقه منه ، ورده إليه ...»[٢٠] ويقول النويرى إن كتبغا حجب السلطان الطفل وأمه فى بعض القاعات بالقلعة «وعامله بما لايليق ...»[٢١].

هكذا انتهت سلطنة الناصر محمد بن قلاون بانقلاب من انقلابات القصر المعتادة فى عصر سلاطين المماليك فى تأكيد جديد لمبدأ «الحكم لمن غلب» . وقد عين السلطان المغتصب زميله «حسام الدين لاجين» نائبًا للسلطنة [٢٢]. ولم يحدث فى مدى السنتين اللتين حكم فيهما السلطان العادل كتبغا أمر مهم سوى المجاعة التى نجمت عن هبوط مستوى الفيضان فى نهر النيل؛ مما أدى إلى عدم زراعة مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية. وقد أدى هذا إلى اشتداد وطأة المجاعة وانتشار الوباء فى أنحاء البلاد المصرية ، ومات عدد كبير من الناس ضحايا لتلك المجاعة المقرونة بانتشار الوباء. وزاد من وطأة الأزمة أن «... أجدب الوجه الغربى من برقة، فلم يصبها شئ من الوبل ولا الطل، ولم تزرع بها ما جل ولا ما قلّ ؛ فهلك أهلها جوعًا وعدما وعطشًا من ماء السماء ... فساقهم القحط والحصر إلى الاتجاه إلى ديار مصر، فورد منهم إلى الاسكندرية والبحيرة أمم تتجاوز الإحصاء ، وانبثوا فى البلاد وامتدوا فى الربى والوهاد، وجلبوا الوخم إلى العباد ، ففشت الأمراض العامة ...»[٢٣].

ويبدو أن المجاعة شملت كل أنحاء سلطنة المماليك، إذ إن المؤرخ تقى الدين المقريزى يذكر أن بلاد الشام والحجاز عانت من الجدب والغلاء سنة ٦٩٥هـ أيضًا [٢٤].

وفى سنة ٦٩٥هـ أيضا قدمت إلى بلاد الشام ومصر هجرية مغولية كبيرة بقيادة «طوغاى» زوج بنت «هولاكو» ، وهم من طائفة الأويراتية التى كان منها السلطان كتبغا نفسه. وكان عددهم حوالى ثمانية عشر ألف بيت هربوا من غازان ملك التتار متوجهين إلى بلاد الشام عبر نهر الفرات ، وقد جاءت منهم أعداد كبيرة إلى القاهرة تسببت فى زيادة سخط الناس على السلطان. ويقول المقريزى: «... فلما وصلوا بالغ السلطان فى إكرامهم والإحسان إليهم، وأمّر

٢٠- بيبرس الدوادار، زبدة الفكرة ، ج٩ ، ص٣٢٣-٣٢٤ .

٢١- النويرى، نهاية الأرب، ج٣١ ، ص٢٨٢ .

٢٢- بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة، ج٩، ص٣٢٤ .

٢٣- بيبرس الدودار ، زبدة الفكرة، ج٩ ، ص٣٢٥ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم ، ج٨، ص٦٠ .

٢٤- المقريزى ، السلوك، ج١ ، ص٨١٣-٨١٥ .

عدة منهم. ويقوا على كفرهم، ودخل شهر رمضان فلم يصم منهم أحد، وصاروا يأكلون الخيل من غير ذبحها ، بل يُربط الفرس ويُضرب على وجهه حتى يموت فيؤكل. فأنف الأمراء من جلوسهم معهم بباب القلة في الخدمة، وعظم على الناس إكرامهم، وتزايد بُغضهم في السلطان، وانطلقت الألسنة بذمه، حتى أوجب ذلك خلع السلطان فيما بعد ...»[٢٥].

وفي شهر المحرم سنة ٦٩٦هـ ، اتفق الأمراء مع نائب السلطنة الأمير «حسام الدين لاجين» على «... الوثوب على السلطان الملك العادل كتبغا هذا والفتك به ...» وهرب كتبغا إلى دمشق ، ثم اضطر إلى التنازل عن العرش حينما علم أن حسام الدين لاجين قد أعلن نفسه سلطانًا وخضعت له سائر البلاد المصرية والشامية . وكانت مدة سلطنة العادل كتبغا سنتين وسبعة عشر يوما[٢٦]. وفي هذا الشهر نفسه اتفق أمراء المماليك على إقامة «حسام الدين لاجين المنصوري» في السلطنة تحت اسم السلطان الملك المنصور «... وشرطوا عليه شروطا فالتزمها ؛ منها أن يكون أحدهم ، ولاينفرد برأى عنهم...»[٢٧] وكان «حسام الدين لاجين» من مماليك السلطان المنصور علي بن المعز أيبك ثم اشتراه السلطان المنصور قلاون؛ ثم اتضح له أن شراءه غير صحيح لأنه اشتراه من غائب، وهو ما لايصح من حاكم شرعي، فاشتراه مرة أخرى من قاضي القضاة «ابن بنت الأعز» . وكان يعرف باسم «شقير» ، و«لاجين الصغير» وترقى في خدمة قلاون وهو ما يزال أميراً، وعندما صار قلاون سلطانًا جعله نائبه في دمشق ثم تقلبت به الأحوال حتى اعتلى عرش السلطنة[٢٨].

ويبدو أن السلطان الجديد قد أطلق يد مملوكه منكوتمر بشكل تسبب في كراهية الناس للسلطان؛ فإن هذا المملوك «... كان صبيا مذموم السيرة...» على حد تعبير المؤرخ جمال الدين أبو المحاسن بن تغري بردي. على أن أهم أحداث فترة حكم السلطان المنصور حسام الدين

٢٥- نفسه، ج١، ص٨١٢ .

٢٦- المقريزي، السلوك، ج١ ، ص٨٢٠؛ ابن تغري بردي، النجوم، ج٨ ، ص٦٦- ص٦٧ .

٢٧- بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة، ج٩ ، ص٣٣٤ .

٢٨- المقريزي ، السلوك، ج١ ، ص٨٢٠- ص٨٢١ ؛ وقد عين كتبغا في نيابة صرخد. وفي هذا يقول ابن تغري بردي (النجوم ، ج٨ ، ص٦٨- ص٦٩) «... وأمر كتبغا هذا هو خرق العادة من كونه كان ولي سلطنة مصر أكثر من سنتين ، وصار له شوكة ومماليك وحاشية ، ثم يُخلع ويصير من جملة نواب السلطان بالبلاد الشامية، فهذا شئ لم يقع لغيره من الملوك . وأعجب من هذا أنه لما قتل الملك المنصور لاچين وتحير أمراء مصر فيمن يولونه السلطنة من بعده لم يتعرض أحد لذكره، ولا رُشح للعود البتة....».

لاجين كان هو «الروك الحسامى» ؛ والروك هو مسح الأراضى الزراعية لتقدير الخراج المستحق عليه لبيت المال. وكان الخراج من أهم موارد الدولة فمنه كانت تُصرف رواتب الجيش والولاة وموظفي دواوين الدولة « ... وذلك أن أرض مصر كانت قد قُسِّمت أربعة وعشرين قيراطًا، أفرد منها للسلطان أربعة قراريط ، وجُعل للأمراء وبرسم الاطلاقات والزيادات عشرة قراريط، وجُعل لأجناد الحلقة عشرة قراريط ... »[٢٩]. وكان هدف السلطان لاچين تغيير ذلك النظام بحيث يجعل نصيب الأمراء وأجناد الحلقة، مجتمعين ، أحد عشر قيراطًا ، ويستغل الفارق (تسعة قراريط) فى إنشاء جيش خاص به . وتولى نائبه «منكوتمر» توزيع الأرض على الأمراء. وقد أدى هذا الروك إلى إضعاف الجند من ناحية وزيادة كراهيتهم للسلطان ونائبه من ناحية أخرى[٣٠].

وأخذ السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين يقبض على الأمراء الذين شك في غضبهم وعدم ولائهم ، وكانت وشايات مملوكه منكوتمر الذى استبد بأمور الدولة وراء تلك التصرفات التى عجلت بنهايتهما معًا . وفى شهر ربيع الأول سنة ٦٩٨هـ دخل مجموعة من الأمراء إلى السلطان وقتلوه ، ثم قتلوا منكوتمر [٣١]. وكانت مدة حكم لاچين سنتين وثلاثة شهور . ولما قُتل هو ونائبه اتفق الأمراء على مكاتبة الناصر محمد بن قلاون وإحضاره من الكرك وإقامته فى السلطنة. وظل عرش السلطنة شاغراً مدة خمسة وعشرين يوما كان أمراء المماليك أثناءها يديرون الأمور فى البلاد بشكل جماعى. ووصل الناصر محمد إلى القلعة يوم السبت ١٤ جمادى الأولى سنة ٦٩٨هـ / ١٢٩٩م[٣٢] لتبدأ سلطنته الثانية . وكان اختياره هذه المرة أيضا يرجع لسبب واضح هو أن أحداً من كبار المتنازعين حول العرش لم يستطع أن يحسم النزاع والمنافسة لصالحه . واتفق الأمراء على أن يتولى الأمير «سيف الدين سلار» وظيفة نائب السلطنة، والأمير «ركن الدين بيبرس الجاشنكير» وظيفة الاستادار[٣٣] وكانت أهم أحداث

٢٩- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٨٤١- ص٨٤٢ .

٣٠- بيبرس الدوادار ؛ زبدة الفكرة، ج٩ ، ص٣٣٤-٣٤٧ ؛ المقريزى ، السلوك، ج١، ص٨٤١ - ص٨٤٦ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، ج٨ ، ص٩٠-٩٥ .

٣١- المقريزى ، السلوك ، ج١ ص٨٥٧- ص٨٥٩ ؛ ابن تغرى بردى، النجوم، ج٨، ص١٠١- ص١٠٣ .

٣٢- بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج٩ ، ص٣٥٢ ؛ المقريزى، السلوك، ج١ ، ص٨٧٢ ، وقد فرح الناس بعودة السلطان الناصر محمد بن قلاون إلى عرشه فرحًا كبيراً .

٣٣- بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة، ج٩ ، ص٣٥٣ .

سلطنة الناصر محمد بن قلاون الثانية هو ذلك المرسوم الذى أصدره سنة ٧٠٠هجرية / ١٣٠١م الذى ألزم «... جميع طوائف اليهود والنصارى والسامرة بالديار المصرية والبلاد الإسلامية المحروسة وأعمالها حكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه، لما مضى من أهل ملتهم...» وذكرت هذه الوثيقة أن السبب فى إصدار المرسوم أن أهل الذمة «... لما طال عليهم الأمر ، تمادوا على الاغترار ، وتعادوا إلى الضر والاضرار، وتدرجوا بالكبر والاستكبار ، إلى أن أظهروا التزين أعظم إظهار ، وخرجوا عن المعهود فى تحسين الزنار والشعار، وعتوا فى البلاد والأقطار ، وأتوا من الفساد بأمور لاتطاق كبار...»[٣٤] وكان السبب فى ذلك أن وزيراً مغربيا (هو وزير أبى فارس المتوكل حاكم مراكش فى ذلك الحين) زار مصر فى تلك السنة وهو فى طريقه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وهاله ما وجد عليه أهل الذمة فى مصر من حرية وعدم تمييز. وعندما قابل السلطان الصبى والأمير «سيف الدين سلار» نائب السلطنة ، والأمير «ركن الدين بيبرس الجاشنكير» الاستادار ؛ وهما صاحبى السلطة الفعلية آذاك، أعلن الوزير المغربى احتجاجه الشديد على أسلوب معاملة أهل الذمة المصريين وما ينعمون به «... من النعمة ، وكونهم يلبسون أفخر الملابس ، ويركبون الخيل والبغال ، وكون أنهم يُستخدمون فى أجل المناصب، ويحكمونهم على رقاب المسلمين...» وأخذ يقارن بين أحوالهم فى المغرب وأحوالهم فى مصر. فتحمس السلطان والأمراء وصدر هذا المرسوم [٣٥]. كما أغلقت الكنائس والمعابد فترة من الزمن.

على أية حال ، كانت سلطنة الناصر محمد الثانية سلطنة إسمية لم يكن له فيها من الأمر شئ ؛ بل إن سلار وبيبرس الجاشنكير تحكما فى كل شئ حتى طعام السلطان الصبى وشرابه. ومع ذلك فإن هذه الفترة شهدت هزيمة كبيرة للتتار على يد الجيش المملوكى سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٣م عندما حاول غازان أن يرسل جيشًا لمهاجمة بلاد الشام[٣٦]. وفى هذه السنة أيضًا

٣٤- ابن فضل العمرى، التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٤٤- ص١٤٥ ؛ ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور، ص٢١٧ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى ، ج١١ ، ص٣٩٢ .

٣٥- المقريزى ، السلوك، ج١ ، ص٩١١ - ص٩١٢ ؛ ابن أيبك الدودار ، الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر، ص٤٧- ص٥٠ ؛ قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر - من الفتح الإسلامى حتى نهاية المماليك، ص١٧٤ .

٣٦- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٩٣٠- ص٩٣٩ .

تعرضت مصر لزلزال شديد «... وتساقطت الدور وتشققت الجدران، وتهدمت مآذن الجوامع والمدارس ، ووضع كثير من النساء الحوامل ما في بطونهن ، وخرجت رياح عاصفة ، ففاض النيل حتى ألقى المراكب التي كانت بالشاطئ قدر رمية سهم... » ويبدو أن الخسائر كانت كبيرة فى شتى أرجاء البلاد [٣٧].

ومضت سنوات حكم الناصر محمد بن قلاون فى سلطنته الثانية دونما حدث مهم إلى أن بدأ النزاع والتخاصم بين الأميرين بيبرس وسلار، وأخذ كل منهما يبتعد عن الآخر « ... وترقب الناس الشر في كل يوم ... ». وبدأ السلطان يضجر من تحكم الأميرين بيبرس وسلار عليه ، ومنعه من التصرف وضيق يده . وكاد الأميران أن يفتكا بالسلطان ولكن العامة تجمهروا وهاجموا الأمراء أمام القلعة ، ورجموهم بالحجارة ، فتراجعوا عما كانوا ينوونه . وطلب أمراء المماليك من السلطان أن يخرج فى موكب مع أمرائه « ... حتى تطمئن قلوب العامة... » [٣٨].

ولكن السلطان الناصر محمد بن قلاون خلع نفسه من السلطنة بعدما أظهر أنه يريد الحج. ورحل وقد خرج العامة حوله « ... وحاذوا بينه وبين الأمراء ، وهم يتباكون حوله ويتأسفون على فراقه ، ويدعون له إلى أن نزل بركة الحجاج... » ولما وصل السلطان إلى قلعة الكرك أمر بإحضار آلة الملك « ... مثل العصائب والسناجق والكوسات والهُجن ، وكل ما كان معه من آلة الملك وسلمها إلى البرواني، وقال له: قل لسلار ما أخذت لكم شيئا من بيت المال، وهذا الذى أخذته قد سيرته لكم ، وانظروا فى حالكم فأنا ما بقيت أعمل سلطانًا ، وأنتم على هذه الصورة. فدعوني أنا في هذه القلعة منعزلاً عنكم إلى أن يفرج الله تعالى إما بالموت وإما بغيره ... » [٣٩] وهكذا خلع السلطان الناصر محمد نفسه من السلطنة الثانية بعد عشر سنين وخمسة أشهر وتسعة عشر يوما وكان هذا تأكيداً إضافيًا لمبدأ «الحكم لمن غلب» . وتجمعت نُذر الحرب بين الأميرين بيبرس الجاشنكير وسلار ، ولكن المماليك البرجية فرضوا مرشحهم بيبرس الجاشنكير وجلس على تخت الملك فى يوم السبت ٢٣ شوال ٧٠٨هـ [٤٠].

٣٧- نفسه، ج١ ، ص٩٤٢-٩٤٥ .

٣٨- نفسه ، ج٢، ص٣٦ .

٣٩- ابن تغرى بردى، النجوم، ، ج٨ ، ص١٧٦- ص١٧٧ .

٤٠- المقريزى ، السلوك ، ج٢ ، ص٤٥ - ص٤٦ .

ولكن الناس فى مصر لم يحبوا بيبرس الجاشنكير، وسخروا منه فى أغانيهم وأشعارهم الشعبية. وفي الوقت نفسه كان الناصر محمد يُعد العدة لاسترداد عرشه بالاتفاق مع كبار الأمراء والنواب في بلاد الشام ومن يثق بهم من أمراء مصر، ثم خطب له فى مدينة دمشق، واضطربت أحوال بيبرس الجاشنكير . وزادت مقاومة الناس للسلطان المظفر بيبرس الجاشنكير؛ ففي أحد الأيام من شهر رمضان ٧٠٩هـ « ... قبض على جماعة من العوام، وضربوا وشهّروا لإعلانهم بسبِّ الملك المظفر ، فما زادهم ذلك إلاّ طغيانًا . ولم يجد السلطان بدًا من الهرب. ولكن العامة طاردوه واشتبكوا مع مماليكه وانتهت سلطنته بهذا المشهد عندما خُطب على منابر القاهرة ومصر باسم الملك الناصر محمد بن قلاون الذى عاد إلى عرشه مرة أخرى. وقبض على السلطان المخلوع وتم قتله (٤١).

هكذا عاد السلطان الناصر محمد بن قلاون إلى عرش السلطنة للمرة الثالثة التى طالت على مدى إثنتين وثلاثين سنة ٧٠٩هـ / ٧٤١هـ / ١٣٠٩-١٣٤٠م) . ولم يحدث طوال ذلك العصر أن اعتلى العرش سلطان على مدى هذه السنوات الطوال؛ وهو الأمر الذى أضفى على عصر السلطان الناصر محمد طابعًا فريداً فى ذلك العصر. وكان الناصر قد تعلم الدرس ووعاه بشكل جيد من ولايتيه السابقتين؛ فأخذ ينتهج سياسة صارمة عمادها الانتقام ممن تسببوا فى خلعه مرتين عن عرشه. وبدأ يتخلص من خصومه السابقين؛ فقتل بيبرس الجاشنكير ، وسجن سلار ثم قتله ، كما أنه قضى على عدد كبير من الأمراء الكبار من مماليك المظفر بيبرس الجاشنكير.

ومن ناحية أخرى اهتم السلطان بزيادة رقعة الأرض الزراعية وشق الخليج إلى الاسكندرية بحيث تم استصلاح وزراعة مائة ألف فدان حسبما يقول المقريزى ، كما أنه اهتم « ... بعمارة جسور نواحى أرض مصر وترعها ... »(٤٢) ولكن أهم أعمال الناصر مخمد بن قلاون تمثلت فى « الروك الناصرى » ؛ ففى أواخر شهر شعبان سنة ٧١٥هـ بدأت عمليات مسح أرض مصر الزراعية « ... وسبب ذلك أن السلطان استكثر أخباز المماليك أصحاب ببيرس الجاشنكير وسلار النائب ، وبقية البرجية ... » وقد قام عدة أمراء بالتوجه إلى مختلف مناطق مصر،

٤١- نفسه ، ج٢ ، ص٧٣ وما بعدها؛ وكانت مدة حكمه عشرة أشهر وأربعة وعشرين يومًا « ... لم يتهن فيها من الفتنة والحركة... » انظر : ابن تغرى بردى، النجوم ، ج٨ ، ص٢٤٠ وما بعدها .

٤٢- المقريزى ، السلوك، ج٢، ص١٣٧- ص١٣٨.

وعندما نزل كل منهم فى الجهة المخصصة له استدعى مشايخ البلاد والعارفين بأحوالها ، وقيّاسها وسجلات كل بلد «... وعرف متحصلها ، ومقدار فدنها، ومبلغ عبرتها ، وما يتحصل للجندى من العين والغلة والدجاج والخراف والبرسيم ... » أى العائد النقدى والعينى لكل إقطاع من الأرض الزراعية . وتم قياس كل ناحية، وكتبت بذلك عدة نسخ . وعاد الأمراء بعد خمسة وسبعين يوما بالأوراق وسلموها لناظر الجيش.

كما أن السلطان ألغى عدداً من الضرائب ، وأعاد توزيع الإقطاعات فى السنة التالية، وقد اهتم السلطان في هذا الروك بإحكام سيطرته على الأمراء من خلال إضعاف مراكزهم وتوزيع إقطاعاتهم فى بلاد متفرقة ، كما أرسى مبدأ تغيير الإقطاع ما بين أمير وآخر. وقد حقق هذا للسلطان الناصر محمد غرضه فى السيطرة ولكنه أدى- فيما بعد- إلى تدهور الإنتاج الزراعى بسبب رغبة أصحاب الإقطاعات فى الإفادة منها قدر الإمكان وعدم إقبالهم على العناية بالأرض الزراعية ، والمرافق اللازمة لخدمتها مثل الجسور والترع وهو ما أدى فى النهاية إلى تخريب الأساس الاقتصادى لنظام الإقطاع العسكرى الذى قامت عليه دولة سلاطين المماليك.

وعلى الرغم من طول مدة حكم السلطان الناصر محمد بن قلاون، فإن عهده لم يشهد حدثا تاريخيا مهمًا . وكان اهتمامه بنفسه وأملاكه السمة المميزة لحكمه الذى شهد الكثير من حوادث تصفية من يخشاهم من الأمراء الكبار «... وأوقع مهابته فى القلوب وأخذ الأموال فمنهم من قتله جوعًا وعطشًا ، ومنهم من أتلفه بالخنق ، ومنهم من غرّقه، ومنهم من نفاه ، ومنهم من سجنه فأقام مسجونًا العشرين سنة فما دونها »[٤٣]. وكان عمره يوم مات سبعًا وخمسين سنة وأحد عشر شهرا وخمسة أيام. وحكم اثنتين وثلاثين سنة وشهرين، وخمسة وعشرين يومًا .

وعلى أية حال، فإن قصة السلطان الناصر محمد بن قلاون لاتعنى أن مبدأ وراثة العرش قد استقر فى زمن أسرة قلاون، أو أن المماليك قد أخذوه به، بل العكس هو الصحيح . ذلك أن فترة حكم الناصر محمد ، وأولاده وأحفاده ، تقوم دليلاً على أن المماليك لم يؤمنوا بمبدأ الوراثة فى تداول السلطة . فقد تعاقب على عرش سلطنة المماليك ثمانية من أبنائه فى مدى إحدى وعشرين سنة (١٣٤٠- ١٣٦١م) مما يكشف عن مدى الاضطراب وعدم الاستقرار السياسى، كما أن حكم الكثير منهم انتهى بقتلهم ، أو سجنهم، على أيدى أمراء المماليك

٤٣- المقريزى ، السلوك، ج٢، ص٥٤٤ .

الذين كانوا هم أصحاب السلطة الفعلية في البلاد آنذاك. وكان أشهر أولئك الأبناء هو السلطان «الناصر حسن بن محمد بن قلاون» ، الذى تولى عرش البلاد مرتين، انتهت سلطنته الثانية بقتله. فقد تولى الحكم بعد عزل أخيه السلطان المظفر حاجى الذى حكم سنة واحدة وتسعة أشهر وإثنى عشر يوما [٤٤]. وحكم من شهر رمضان سنة ٧٤٨هـ على مدى ثلاث سنين وتسعة أشهر، وأربعة عشر يومًا « ... منها مدة الحجر عليه ثلاث سنين ، ومدة استبداده تسعة أشهر... »[٤٥]. وتولى بعده أخوه «الملك الصالح صلاح الدين صالح» بن الناصر محمد بن قلاون ليحكم ثلاث سنين وثلاثة أيام، وخلعه الأمراء المماليك من السلطنة وأعادوا الناصر حسن إلى العرش مرة ثانية بعد أن كان محبوسًا طوال هذه المدة. وفى هذه المرة طالت مدة السلطنة ست سنين ، وسبعة أشهر، وسبعة أيام لتنتهى على نحو مأساوى غامض. وكانت نهاية سلطنة الناصر حسن الثانية تأكيداً على نفوذ كبار أمراء المماليك من ناحية ، وتأكيداً على إيمانهم بمبدأ «الحكم لمن غلب» ، وعدم إيمانهم بمبدأ وراثة العرش من ناحية أخرى. فقد قبض الأمير يلبغا على السلطان الذى اختفى ولم يعرف له قبر، ولم يُعثر له على أثر. وكانت نهايته فى شهر جمادى الأولى سنة ٧٦٢ هجرية.

وفى هذه السنة بدأ عصر أحفاد السلطان الناصر محمد بن قلاون الذى شهد المزيد من سيطرة أمراء المماليك على العرش السلطانى وعلى السلاطين الصغار الذين باتوا مجموعة من الدمى التى يحركها أمراء المماليك الكبار. ومنذ سنة ٧٦٢هـ إلى سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م لم يكن هناك شئ يميز الحياة السياسية فى سلطنة المماليك سوى منافسات كبار أمراء المماليك ومنازعاتهم وحروب الشوارع التى شنوها ضد بعضهم البعض. وكان آخر من حكم من بيت قلاون هو «الملك الصالح حاجى» الذى كان طفلاً خلعه الأمير الكبير برقوق (الذى اعتلى العرش فيما بعد) وأدخله إلى دور الحريم لينهى بذلك حكم سلالة قلاون الذى كان فى أغلب الأحوال بأيدى كبار الأمراء ، ولم يكن لأبناء الناصر محمد وأحفاده سوى لقب السلطنة الذى لم يكن يعنى شيئًا .

وهنا لا يمكن القول بأن استمرار وجود لقب السلطنة فى سلالة السلطان المنصور قلاون الألفى كان يعنى القبول بمبدأ الحق الوراثى فى الحكم لأبناء هذه الأسرة ؛ ولكن الصحيح فى

٤٤- نفسه، ج٢ ، ص٧٤٤ .

٤٥- نفسه، ج٢، ص٨٤٢ .

تصورنا أنه كان يعنى أن الأمراء المماليك الكبار الذين كان يحكمهم غط بدائى من توازن القوى السياسية والعسكرية كانوا يرون فى أولئك السلاطين الأطفال ستاراً مناسبًا لتنفيذ كل رغباتهم ... حتى الدنيئة منها . فقد كان أكبر أحفاد الناصر محمد سنًا هو «السلطان المنصور صلاح الدين محمد» (١٣٦١- ١٣٦٣م) ، الذى كان عمره حينما تولى العرش أربعة عشر عامًا فقط، على حين أن الثلاثة الآخرين كانت أعمارهم تتراوح بين ست سنوات ، وإحدى عشرة سنة وهو ما سهل للأمراء المماليك أن يتلاعبوا بهم كيفما شاءوا.

ومن ناحية أخرى ، كان من السهل على كبار الأمراء أن يفسدوا السلاطين الأطفال من ناحية، وأن يفسدوا الحياة السياسية، والإدارية فى الدولة من ناحية أخرى. ومن هذه القمم السياسية الفاسدة تسرب الفساد إلى المجتمع ليشمل كل مظاهر الحياة فى مصر وبلاد الشام ؛ بحيث باتت مظاهر الفساد السياسى والاجتماعى سمة ظاهرة من سمات هذه المرحلة المتأخرة من حكم دولة سلاطين المماليك البحرية فى مصر والشام مما أدى إلى سقوطها ، وقيام دولة المماليك البرجية .

بيد أن أهم نتائج حكم السلاطين الأطفال من أحفاد الناصر محمد بن قلاون، تمثلت فى احتدام الصراع بين طوائف المماليك المختلفة. ذلك أن عدم وجود سلطان قوى وقادر على إدارة أمور السلطنة ، وفقا لمفاهيم تلك العصور، جعل مقدرات البلاد نهبًا لأطماع أمراء المماليك المتصارعين على السلطة والنفوذ والثروة . ولما كان كل أمير من هؤلاء يمتلك جيشه الخاص؛ أى أنه كان «سلطانًا مختصراً» على حد تعبير المصادر التاريخية المعاصرة ، فقد كان طبيعيًا أن تصطدم مصالح الأمراء وطموحاتهم ببعضها البعض. وكانت الترجمة العملية لذلك الصراع هى حروب الشوارع بين مختلف الطوائف المملوكية وحوادث العنف الدامية التى باتت بمثابة النغمة الدالة فى الحياة بالمدن المصرية والشامية ولاسيما القاهرة على نحو خاص .

وفى تصورنا أن نجاح المماليك فى القضاء على الفرنج الصليبيين، وطردهم من المنطقة العربية سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م ، ثم أنتهاء الخطر المغولى وتلاشيه تدريجيا بسبب اندماج المغول فى العالم الإسلامى بعد أن اعتنقوا الإسلام ، قد سلب دولة سلاطين المماليك وظيفتها التاريخية الأساسية باعتبارها دولة عسكرية جاءت إفرازاً سياسيًا عسكريًا للتحدى الذى فرضه الخطر الذى تعرضت له المنطقة العربية منذ أخريات القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى، وحينما ساد السلام النسبى ولم يعد هناك خطر فى حجم الخطر المغولى أو الصليبى، فشلت الدولة المملوكية التى بزغت من طيات القتال وتمت صياغتها على أسس

عسكرية خالصة فى التكيف مع متطلبات الحياة المدنية فى مصر وبلاد الشام . وأثبت تاريخ هذه الدولة– مرة أخرى– أن العسكريين الذين قد ينجحون فى ميادين القتال، غالبًا ما يفشلون فى إدارة مجتمعاتهم على أسس من آليات المجتمع المدنى. وقد أدى وجود العسكريين على رأس الدولة إلى تكريس مبدأ «يالحكم لمن غلب» الذى أدى بدوره إلى تفرغ الأمراء المماليك للصراع الداخلى من أجل السلطة والنفوذ والثروة . وبدأت بذرة الفناء الكامنة فى طبيعة البنية السياسية للدولة المملوكية تنخر فى كيان الدولة الذى بدأ يترهل منذ ستينيات القرن الرابع عشر الميلادى فصاعدا . وزاد من وطأة هذا الترهل – وربما كان من مظاهره – عدم وجود سلطان قوى من طراز الظاهر بيبرس، أو المنصور قلاون، أو الناصر محمد، يتولى السيطرة على أولئك العسكريين الجامحين .

وكانت هناك عوامل أخرى أسهمت فى زيادة منحنى التدهور فى دولة سلاطين المماليك آنذاك . فقد شهد عصر أولاد الناصر محمد بن قلاون كارثة طبيعية مخيفة كانت جزءاً من ذلك الوباء الغامض الذى اجتاح العالم المعروف آنذاك فى منتصف القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى. ويبدو من أوصاف المصادر التاريخية المعاصرة أنه كان نوعًا من الطواعين الوبائية انتشر على طول طرق التجارة البرية قادمًا من مناطق شرق آسيا ليضرب المنطقة العربية ثم يعبر إلى أوربا عن طريق آسيا الصغرى والدولة البيزنطية. وقد عرف المؤرخون المسلمون هذا الوباء المرعب باسم «الفناء الكبير» ، على حين عرفه المؤرخون الأوربيون فى العصور الوسطى باسم «الموت الأسود Black Death».

نتج ذلك الوباء المهلك نتيجة انتشار بعض الطواعين الوبائية من شبه القارة الهندية، ومن مناطق وسط آسيا عموما ، إلى المنطقة المحيطة بالبحر المتوسط مروراً بالهضبة الإيرانية والمنطقة العربية. وقد أفاض المؤرخون الذين كتبوا بالعربية فى وصف أهوال ذلك الوباء ، أو «الفناء الكبير» (٤٦). وكان من أعراض ذلك الطاعون أن المصاب به يبصق دمًا ، ثم يصرخ ويموت فى الحال.

٤٦– المقريزى، إغاثة الأمة بكشف الغمة (نشره محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٤٠م) ، ص٣٧ – ص٣٨ ؛ ابن أيبك الدوادارى ، كنز الدرر وجامع الغرر، ج٩ ، ص٣٥٨– ص٣٨٩ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج١٠ ، ص٢٠٤ ؛ السيوطى، حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، ج٢ ، ص٢٩٧– ص٢٩٨ ، أنظر أيضا : قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، ص١٤٩– ص١٥١ .

وقد بدأ يتسرب إلى مصر والشام فى خريف سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م لكى تشتد وطأته مع بداية العام التالى. وبقى يفتك بكل مظاهر الحياة قرابة عامين، وقدَّرت المصادر التاريخية عدد الضحايا يوميًا ، فى مصر، ما بين عشرة آلاف فى تقدير المقل وعشرين ألف فى تقدير المكثر. ويبدو أن كثرة الضحايا وسرعة سقوطهم قد أربكت الناس فى القاهرة بحيث لم يعودوا قادرين على دفن الموتى بطريقة مناسبة « ... وعُملت الدكك والتوابيت لتغسيل الموتى للسبيل بغير أجرة ... » ثم زادت أعداد الضحايا حتى صار الأحياء يحملونهم جملة على السلالم وألواح الخشب والأبواب، وما إلى ذلك. كما تفرغ بعض الناس لتغسيل الموتى، على حين تفرغ البعض الآخر للصلاة على الضحايا الذين كانوا يدفنون سويًا فى مقابر جماعية.

من ناحية أخرى، أصاب هذا الوباء القاتل جميع الكائنات الحية حسبما يروى المؤرخون ؛ إذ طالت مخالبه « ... حيتان البحر، وطير السماء، ووحش البر... » كما انتشرت الديدان فى المزروعات بسبب تلوث الأرض والجو من عفن الجثث ، وتسممت الأسماك فى نهر النيل والترع والبحيرات بشكل غير مسبوق. وترسم المصادر التاريخية صورة حزينة قاتمة بطبيعة الحال: فقد كان طبيعيا أن ينشغل الناس بهذا الوباء عن كل شئ سواه . فلم يكن أحد قادراً على ممارسة حياته العادية ؛ إذ إن الناس تركوا أعمالهم لانشغالهم بالمرضى والموتى. ولم تجد الأرض الزراعية من يهتم بزراعتها أو حصاد المحاصيل التى نضجت بسبب كثرة الضحايا بين الفلاحين وأطلت المجاعة بوجهها المرعب إلى جانب الوباء الفتاك.

بل إن أعمال الصيد فى النهر والبحيرات والسواحل البحرية توقفت أيضا؛ إذ كان الصيادون يخرجون بمراكبهم للصيد ؛ فيموت بعضهم أثناء الرحلة ويموت الباقون بعد العودة . واختفت البضائع من شوارع القاهرة وأسواقها التى انكمشت لأنها لم تجد بائعًا ولامشتريًا إلا فى حالات نادرة . وركدت الحياة تمامًا وتعطلت مظاهر الحياة اليومية . ومن الطريف أن الولاة والقضاة الذين نجوا من الموت عانوا من البطالة ولم يجدوا لأنفسهم عملاً؛ فقد كف الناس عن مقاضاة بعضهم بعضًا بل إن المؤسسات التجارية ؛ مثل الوكالات والقياسر والخانات وفنادق التجار الأجانب ، لم تجد من يسكنها وبقيت خاوية تلفها رائحة الموت الذى انتشر فى كل مكان . بل إن المؤرخين يحكون أن الأغنياء زهدوا فى أموالهم، وبذلوها للفقراء...

هذا المشهد الكئيب ، بملامحه العابسة المرعبة ، كان متكرراً فى كل أنحاء البلاد المصرية والشامية تقريبًا ؛ بل إنه تكرر فى كل أرجاء العالم المعروف آنذاك بحيث فقدت الكثير من البلاد معظم سكانها . وكانت الخسارة السكانية فى مصر فادحة بكل المقاييس . فقد انخفض

السكان بمقدار الثلثين تقريبا ، وتقلصت أعداد القرى فى الريف المصرى ، كما انكمشت مساحة القاهرة والمدن الأخرى واختفت أعداد كبيرة من الأسواق فى هذه المدن. ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد قضى الوباء على الكثير من « أجناد الحلقة » ، الذين كانت غالبيتهم من المصريين وأبناء المماليك المتمصرين وكانوا بمثابة الحرس الوطنى فى مصطلحنا المعاصر ، كما لعبوا دوراً أشبه بدور قوات الاحتياط فى الجيش المملوكى آنذاك. كما مات عدد كبير من المماليك الذين كان يجرى تدريبهم وتعليمهم فى الطباق «الثكنات العسكرية » الموجود فى قلعة الجبل.

هذا المرض الوبائى المرعب قضى على حوالى الثلثين من جمهرة السكان فى مصر فى منتصف القرن الثامن الهجرى / الثالث عشر الميلادى؛ بحيث أقفرت المدن والقرى فى سائر أنحاء البلاد ، ونقص سكان القاهرة بشكل مخيف . وهرب السلطان ومن استطاع أن يلحق به من أبناء الطبقة الحاكمة والأعيان إلى ناحية سرياقوس بالقرب من القاهرة حيث كانت الأحوال أفضل منها فى القاهرة المزدحمة . وباتت الأملاك والعقارات تنتقل عن طريق الوراثة ما بين خمسة أشخاص أو ستة فى اليوم الواحد بسبب سرعة موت الذين يصابون بالطاعون.

وأدى الوباء إلى مظهر آخر من مظاهر الخلل فى البناء السياسى / الاقتصادى للنظام الإقطاعى الذى قامت عليه دولة سلاطين المماليك ؛ إذْ استولى كثير من عامة الناس على الإقطاعات التى كانت مخصصة لجنود الجيش المملوكى. ومن ناحية أخرى انخفضت الأسعار بدرجة كبيرة، ولم تجد الغلال من يطحنها . بل إن كتب العلم رخصت لدرجة أنه كان كان ينادى عليها بالأحمال « ... ويباع الحمل منها بأرخص ثمن». كما هبطت أسعار الذهب والفضة.

ثم بدأت حدة الوباء تتناقص فى سنة ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م ، ثم ارتفع نهائيًّا فى السنة نفسها. بيد أن آثاره السلبية ظلت قائمة لفترة طويلة ، إذ كان على مصر أن تنتظر حوالى نصف قرن لكى تعوض خسارتها البشرية والاقتصادية الناجمة عن «الفناء الكبير» . كما أن البنية الاجتماعية اهتزت بشكل حاد لم تفق منه مصر حتى نهاية عصر سلاطين المماليك. ففى تلك السنة نفسها حاولت الدولة حصر الأملاك التى مات أصحابها فى غمار أحداث الوباء ؛ فوجد المسئولون أعداداً هائلة من المنازل والعقارات والفنادق والخانات التى مات أصحابها ووارثوها دون أن تجد من يرثها ولم تعد ملكًا لأحد. وقد ذكر المؤرخ تقي الدين المقريزى أنه كانت توجد بالحارة الواحدة من حوارى القاهرة أكثر من عشرين داراً خالية لايُعرف أصحابها . لقد كانت النتائج والآثار السلبية لذلك الوباء ، وسلسلة المجاعات التى ارتبطت به وأعقبته،

خطيرة على كافة مستويات الدولة والمجتمع ؛ سكانيا واجتماعيا، سياسيا واقتصاديا ، وعسكريًا وثقافيًا، فمن الناحية الاجتماعية والسكانية تجلّت هذه التأثيرات السلبية فى تدهور أعداد السكان بشكل رهيب ؛ وهو الأمر الذى انعكس على انخفاض أعداد القرى، وتقلص مساحات المدن، واختفاء عدد كبير من الأسواق [٤٧]. أما فى الريف ، حيث تقلصت أعداد القرى نتيجة موت عدد كبير من الفلاحين وهروب عدد كبير من الناجين إلى المدن وإلى البلاد المجاورة ، فقد تحولت مساحات كبيرة من الأرض الزراعية إلى أرض بور بسبب قلة الأيدى العاملة من ناحية، وبسبب عدم رغبة الفلاحين فى تحمل أعباء الزراعة فى ظل عائدها الاقتصادى الذى يساوى صفراً ، فضلاً عن ظلم الحكام وفداحة الضرائب التى يفرضونها عليهم[٤٨] من ناحية أخرى .

أما النتائج والآثار الاقتصادية الناجمة عن «الفناء الكبير»؛ فكان بعضها فوريا مباشراً، على حين كان بعضها الآخر على شكل تيار تحتى أخذ يقوض أركان الدولة على مدى سنوات طوال. إذ تدهور الإنتاج الزراعى نتيجة لموت الفلاحين أو هجرتهم ، وبوار مساحات كبيرة من الأرض الزراعية ، وانخفض الإنتاج الصناعى الذى كان يعتمد على القوة العاملة البشرية التى راح جزء كبير منها نتيجة الطاعون الوبائى . ولما كانت الأيدى العاملة ، سواء فى ميدان الزراعة أو فى مجال الصناعة ، هى التى عانت الخسارة الأكبر بسبب فقرها وقلة وسائل مقاومة الوباء . التى فى حوزتها ، فإن النتيجة النهائية تمثلت فى انكماش النشاط الاقتصادى وقلة عدد الأسواق ، كما انهار النظام النقدى وفقد الدينار الذهبى والدرهم الفضى، اللذان كانت دولة سلاطين المماليك تصدرهما قوتهما فى أسواق التجارة الخارجية، والداخلية على السواء نتيجة لتخفيض قيمتها بوسائل الغش «والزغل» التى مارسها الحكام والمحكومين وبدأت عملات المدن الإيطالية تفرض سيطرتها على السوق المحلية نفسها [٤٨]. وعلى المستوى الثقافى نتجت بعض الآثار السلبية الخطيرة التى شابت النظام الأخلاقى ومنظومة القيم الاجتماعية ؛ فقد أدت التغيرات الاقتصادية إلى ازدياد قاعدة الطبقة الدنيا فى المجتمع، وتجلت ظاهرة الاستقطاب الاجتماعى الحاد ما بين الطبقة الحاكمة الثرية، والطبقة

٤٧- قاسم عبده قاسم، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، ص٤٦- ص٤٧ .

٤٨- المقريزى ، إغاثة الأمة، ص٣٣- ص٣٥ ؛ ابن الصيرفى، نزهة النفوس والأبدان، ج٣، ص٢٤١ .

٤٩- المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص٩٤١- ص٩٤٤ ؛ قاسم ، دراسات ، ص٥٥- ص٥٩ .

المحكومة التى عرفت باسم «العامة» ، وزادت شريحة ما عرف باسم «سواد العامة» (أى المعدمين الذين يعيشون على ما يكسبونه بجسدهم يوما بيوم من الأجراء والفاعلية) بينما تقلصت شريحة «بياض العامة (أى الأعيان وكبار التجار وأصحاب المحلات التجارية والورش والمصانع الصغيرة) . ومن ناحية أخرى، حلَّ البخل والشح محل الكرم، وتجلت الفردية والأنانية فى سلوك الناس الذين سقط عنهم رداء الأمن الاجتماعى.

هكذا ، كان «الفناء الكبير» كارثة متعددة التأثيرات أضيفت إلى مصائب البلاد فى عصر أولاد الناصر محمد بن قلاون الذى شهد سيطرة الأمراء الكبار على مقاليد الحكم ومنافساتهم الدامية فى هذا السبيل . وإذا كان عصر أولاد الناصر محمد قد شهد كارثة طبيعية أضافت المزيد إلى متاعب البلاد والعباد ، فإن عصر الأحفاد من السلاطين الأطفال شهد كارثة عسكرية برهنت على مدى تدنى الهيبة العسكرية لدولة سلاطين المماليك عندما تفرغ الحكام والأمراء لممارسة لعبتهم المفضلة فى التآمر والنزاع .

هذه الكارثة العسكرية تجسدت فى الحملة الصليبية المباغتة التى قادها ملك قبرص الصليبى بطرس الأول لوزنيان ضد الاسكندرية ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م[٥٠]. فعلى الرغم من أن الوجود الصليبى انتهى بهزيمة فلول الصليبيين أمام الجيش الإسلامى بقيادة الأشرف خليل بن قلاون ، وطرد الصليبيين من المنطقة العربية سنة ١٢٩١م ، فإن ذلك لم يكن نهاية للصراع الإسلامى/ الصليبى بأى حال من الأحوال . إذ استمرت فلول القوى الصليبية فى جزيرة قبرص وجزيرة رودس ، وبعض مناطق أوربا ، تحت تأثير رغبة العودة إلى المنطقة العربية، تخطط وتستعد لشن الحملات العسكرية لإحياء المشروع الصليبى. وكان طبيعيًا أن يستمر الصراع طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر؛ وإن اتخذ شكل الغارات وعمليات القرصنة والنهب قليلة الأهمية . ولم تكن حملة بطرس لوزنيان ، ملك قبرص الصليبى ، على الاسكندرية ، سوى أحد مظاهر المرحلة المتأخرة من تاريخ الحروب الصليبية . وعلى الرغم من تفاهة نتائجها العسكرية ، وتأثيراتها السياسية ، فإنها كانت بمثابة جرس الإنذار المبكر الذى ينبه إلى خطورة منحني التدهور السياسى والعسكرى الذى عانت منه دولة سلاطين المماليك فى عصر أحفاد

٥٠- عن هذه الحملة وتفاصيلها ، أنظر : سهير محمد نعينع ، الحروب الصليبية المتأخرة حملة بطرس لوسنيان على الاسكندرية ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م (دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، سنة ٢٠٠٢م) .

السلطان الناصر محمد بن قلاون. ومن ناحية أخرى، كانت تلك الغارة المباغتة ، وما صحبها من مظاهر الغدر والوحشية الصليبية المشهورة ، بمثابة المسمار الأخير فى نعش دولة أحفاد قلاون ، ونهاية العبث واللامعقول السياسى الذى ميز السنوات الأخيرة من دولة المماليك البحرية ، وقيام دولة المماليك الجراكسة (البرجية) .

كان القضاء على الكيان الفرنجى الصليبى ببلاد الشام ضربة قاصمة نزلت بالغرب الأوربى ومشروعاته التوسعية على الرغم من أن مشكلات الغرب أوربا آنذاك قد استنفدت جهود الرؤوس المتوجة فى أوربا بحيث انصرف الغرب عن مشكلات مملكة بيت المقدس الصليبية فى المراحل الأخيرة من وجودها لكى يحاول حل التعقيدات الناجمة عن تفاعلات التحول والتطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية الداخلية[٥١]. ومن ناحية أخرى، أسرفت البابوية فى الاستخدام السياسى لنموذج الحملة الصليبية ضد خصومها السياسيين فى الغرب الأوربى بالشكل الذى أدى إلى انطفاء جذوة الحماسة الصليبية بين الأوربيين. وعلى الرغم من هذا كله فإن «الحلم الصليبى» كان ما يزال يداعب خيال أبناء الغرب الكاثوليكى؛ حكامًا ومحكومين .

فقد كانت الثروات الطائلة التى يمكن جنيها من التجارة العالمية، التى يسيطر المسلمون عليها ، ما تزال تجتذب الأنظار والعقول بحيث أنتجت القرائح الأوربية مشروعات عديدة لإعادة بعث الجسد الصليبى الميت . كذلك فإنه على الرغم من حقيقة أن الملوك والأمراء ورجال الدين فى أوربا الغربية كانوا مهمومين بمشكلاتهم السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية داخل أوربا نفسها ، فقد كان الناس هناك يحملون مشاعر عاطفية جارفة تجاه الكيان الصليبى الذى قام وانتهى فوق الأرض العربية كما كانت البابوية الكاثوليكية ترى فى «الحملة الصليبية» أداة قوية من أدوات السياسة الداخلية والخارجية يمكن توظيفها لخدمة المصالح البابوية . وعلى الرغم من كل المساعدات التى حاول البابوات والمتحمسون من الأوربيين إرسالها إلى الفرنج الصليبيين فى المنطقة العربية، فقد كان توحيد المنطقة العربية تحت حكم سلاطين المماليك ؛ منذ السلطان سيف الدين قطز ، والسلطان بيبرس، والسلطان المنصور قلاون وابنه السلطان الأشرف خليل، العامل الحاسم فى ضمان النصر النهائى للمسلمين

٥١- نورمان كانتور ، التاريخ الوسيط: قصة حضارة - البداية والنهاية (ترجمة قاسم عبده قاسم، ط.٢ دار المعارف ١٩٨٦م) ج٢ ، ص٤٠٨- ص٤٠٩ .

فى هذا الصراع . ومنذ معركة حطين ، بات الغرب الأوربى على قناعة تامة بأن طريق العودة إلى فلسطين وإعادة احتلالها يمُر عبر مصر ؛ وأنه لابد من هزيمة مصر وإخضاعها ، أو إضعافها على الأقل، حتى يمكن لأى مشروع صليبى جديد أن ينجح فى العودة إلى فلسطين .

من ناحية أخرى ، كانت التجارة تمثل مورداً مهمًا من موارد الدخل والثروة لدولة سلاطين المماليك ؛ وإن لم تكن المصدر الأساسى للدخل . وقد حاولت البابوية فرض نوع من الحصار الاقتصادى على مصر؛ فأصدرت مجموعة من المراسيم تحرِّم على التجار الأوربيين التبادل التجارى مع مصر أو غيرها من البلاد العربية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط. بيد أن إغراء الربح بالنسبة لأولئك التجار كان أقوى من تهديد قرارات الحرمان ، أو إغراء صكوك الغفران الذى تعدهم به البابوية التى لايحترمونها كثيراً . فقد رفض التجار الأوربيون ، والإيطاليون منهم بصفة خاصة هم وتجار مملكة أرغون فى شبه القارة الايبيرية، أن يضحوا بمصالحهم التجارية فى سبيل أهداف السياسة البابوية. وظلت سفنهم ، وبعثاتهم التجارية، وقناصلهم ، وفنادقهم، من معالم حوض البحر المتوسط الشرقى، كما كانوا من ضمن أجزاء الصورة المألوفة فى الموانئ البحرية فى مصر وفلسطين وبلاد الشام.

بيد أن البحر المتوسط ، عامة كان يعانى من مشكلة القرصنة التى صارت جزيرة قبرص من أهم مراكزها تحت حكم آل لوزنيان ؛ لاسيما وأن الجزيرة ازدهرت تجاريًا بعد قرارات المقاطعة البابوية ضد التجارة مع المسلمين. وعندما تولى بطرس الأول عرش قبرص سنة ١٣٥٩م واصل سياسة أسلافه فى جعل قبرص قوة بحرية ضخمة تتحكم فى الملاحة بالحوض الشرقى للبحر المتوسط على حساب القوى العربية الإسلامية[٥٢]. وقد سعى بطرس لوزنيان جاهداً للحصول على مساعدة الغرب الأوربى للقيام بحملة صليبية جديدة ضد المسلمين فى المنطقة العربية دونما نجاح . وقد كان بطرس هو وريث مملكة بيت المقدس الصليبية التى لم يعد لها وجود سوى فى ذهنه هو وأتباعه ؛ وكان ذلك من أهم الأسباب التى كانت تحركه لإعداد حملة صليبية تعاود الاستيلاء على الأراضى التى حررها المسلمون بالتنسيق مع البابوية [٥٣]. وربما تنوعت الأسباب والدوافع التى جعلت بطرس لوزنيان يقوم بغارته على مدينة الاسكندرية ، ولكن الواضح أن تراخى السلطات المملوكية فى الدفاع عن مياه الاسكندرية فى زمن السلطان الناصر حسن بن قلاون، وعدم التصدى لحوادث القرصنة والسلب والنهب التى وقعت على شواطئ

٥٢- سهير نعينع ، الحروب الصليبية المتأخرة ، ص٧٥- ص٧٧ .

٥٣- نفسه، ص١٠٧ ، وما بعدها .

رشيد وأبي قير بالقرب من الاسكندرية ، قد جعل الملك الصليبي بطرس لوزنيان على قناعة كاملة بعدم قدرة المماليك على الدفاع عن مدينة الاسكندرية [٥٤].

جاءت الغارة التي شنها بطرس لوزينان على الاسكندرية في شهر المحرم من سنة ٧٦٧هـ / أكتوبر ١٣٦٥م انعكاساً لقناعات بطرس آل لوزنيان من ناحية وسياسات قبرص تحت حكم أسلافه من ناحية أخرى. فقد مهد لغارته بجولة زار فيها المقر البابوي في روما، وبلاطات ملوك الغرب الأوربي ، حيث جمع قدراً كبيراً من المساعدات بهدف ضمان النجاح لحملته . كانت قبرص قد صارت تقليديا مركز تجمع الحملات الصليبية القادمة عن طريق البحر، ولم تكن هذه المرة استثناء ؛ فقد كان تجمع القوات الرئيسية في قبرص على حين تجمعت بعض القوات في جزيرة رودس . بيد أن الصليبيين ظلوا بعض الوقت مترددين في تحديد هدف الحملة، وربما كان السبب في ذلك هو رغبة بطرس لوزنيان في إخفاء هدفه الحقيقي من ناحية، ورغبة البنادقة في مراقبة تصرفات قوات قبرص وكتابة التقارير عنها من ناحية أخرى: وكان حكام البندقية يريدون منع أي هجوم على الأراضي المصرية قبل شهر أكتوبر عندما تكون مراكبهم قد انتهت من تحميل البضائع في ميناء الاسكندرية[٥٥]. ثم انضم الأسطول القبرصي إلى أسطول بطرس لوزنيان الذى كان راسيًا في رودس ، وبلغت سفن ذلك الأسطول المشترك أكثر من ألف سفينة.

أما على الجبهة المصرية، فكانت الظروف مواتية تمامًا لشن هذه الغارة على مدينة الاسكندرية ؛ إذ كان الجالس على عرش سلطنة المماليك طفلاً في الثانية عشرة من عمره هو «السلطان الملك الأشرف شعبان» حفيد الناصر محمد بن قلاون وحوله مجموعة من الأمراء المتنازعين المتنافسين على رأسهم الوصي على السلطان الطفل وعرشه الأمير «يلبغا الخاصكى» الذى اشتهر بظلمه وغطرسته التى جلبت كراهية الناس له [٥٥]. وفي ظل هذه

٥٤- نفسه، ص١١١ .

٥٥- عفاف صبرة، العلاقات بين الشرق والغرب- علاقة البندقية بمصر والشام من ١١٠٠- إلى ١٤٠٠م، (النهضة العربية، ١٩٨٣م) ، ص٦٨ .

٥٦- تولى السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاون العرش سنة ٧٦٤ (أى قبل الغارة بثلاث سنوات) وكان عمره عشر سنوات. وكان يلبغا الخاصكي قد أقنع الأمراء بخلع سلفه السلطان الملك المنصور محمد بن حاجي بن الناصر محمد بن قلاون بحجة «... اختلال عقله ...» انظر المقريزي، السلوك، ج٣ ، ص٨٣-٨٤ .

الظروف ، لم يكن غريبًا أن تلعب الخيانة دورها؛ إذ تذكر المصادر التاريخية أن «شمس الدين بن غراب» (الموظف المسئول عن الديوان بالجمرك) قد أغلق باب الديوان من ناحية المدينة حتى لايهرب التجار ببضائعهم دون أن يدفعوا الرسوم المستحقة عليها؛ وهو ما جعل هذه النقطة الأضعف في الدفاع عن المدينة، ومنها دخل الصليبيون. وهكذا تسببت عقلية «الموظفين» في ضياع المدينة بسبب حرصهم على جباية أموال الديوان. وقد اتهمت المصادر التاريخية المعاصرة «شمس الدين بن غراب» بأنه كان جاسوسًا يعمل لصالح الملك الصليبي بطرس الأول لوزنيان، وأنه بفعلته هذه كان يقصد تسهيل دخول المدينة أمام العدو[٥٧]. وأثناء صلاة الجمعة في الثاني والعشرين من شهر المحرم سنة ٧٦٧هـ / العاشر من أكتوبر سنة ١٣٦٥م، فوجئ السكندريون بالجنود الفرنج الصليبيين في شوارع المدينة التي ظلوا يدافعون عنها ببسالة عدة أيام دون أن يتمكنوا من صدهم عندما دخلوا من باب الديوان الذي أغلقه ابن غراب في وجه المدافعين عن المدينة !!

ولم يخيب الصليبيون ظنون المعاصرين في وحشيتهم المعتادة ؛ فقد قاموا بعملية تدمير شامل للمدينة ومبانيها وأسواقها ، وقتلوا ونهبوا وسلبوا وأحرقوا ودمروا كل ما وقعت عليه عيونهم . وقد أورد النويري السكندري وصفًا مرعبًا لكل ما اقترفه الفرنج من فظائع على مدى ثلاثة أيام كانت تجسيداً للرعب ، كما كانت شديدة الوطأة على المدينة وأهلها .

وبدا وكأن المدينة قد صارت ملكًا للغزاة الصليبيين؛ ولكن الجيش الذي ضم خليطًا من الأجناس الأوربية لم يكن يريد سوى الاحتفاظ بما نهبه وسلبه من المدينة ولهذا فشل بطرس لوزنيان والمندوب البابوي في إقناع الآخرين بالبقاء في الاسكندرية والاحتفاظ بها ، على حين

٥٧- أمر شمس الدين بن غراب بإغلاق باب الديوان مما يلي المدينة بحجة منع التجار من أخذ بضائعهم من الديوان، فتضيع الحقوق التي عليها «... فلذلك امتنعت الرماة من تلك الجهة من السور، وبذلك تُرك للعدو ثغرة خالية دخل منها إلى مدينة الاسكندرية ؛ وقيل إن ابن غراب المذكور كان متعاملاً مع صاحب قبرص عليها ، وأن صاحب قبرص أتاها قبل الوقعة في زي تاجر آواه ابن غراب...» أنظر: محمد بن قاسم بن محمد النويري السكندري، الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في واقعة الاسكندرية(مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم٤١٩٢ تاريخ) ملحق بالجزء الثالث من كتاب السلوك للمقريزي، ص٤١٣- ص٤٣٢ .

قارن ، سهير نعينع ، المرجع السابق، ص١٧٤- ص١٨١ .

تعالت أصوات المطالبين بالرحيل. وفى تلك الأثناء كان والى مدينة الاسكندرية الأمير صلاح الدين بن عرام قد عاد من رحلة الحج التى قام بها إلى الحجاز وتوجه إلى الاسكندرية فى الحال حيث نزع الأعلام الصليبية من فوق أسوار المدينة ووضع الأعلام الإسلامية ، على حين قبع الصليبيون فى سفنهم مذعورين عندما أيقنوا أن النجدة العسكرية وصلت إلى المدينة. وعلى الرغم من أن «ابن عرام» تفاوض مع الفرنج من أجل تبادل الأسرى ، فإن ظهور الجيش المصرى القادم من القاهرة يوم الخميس ٢٨ المحرم / ١٦ أكتوبر ، جعل الفرنج يبادرون إلى الهرب بعد أن أخذوا معهم عدداً كبيراً من الأسرى منهم «... المسلم والمسلمة، واليهودى واليهودية، والنصرانى والنصرانية ...» ويبدو أن ما سلبوه ونهبوه كان أكبر من قدرة سفنهم على حمله ؛ بحيث اضطروا إلى إلقاء بعض حمولاتهم فى البحر حتى يسارعوا بالهرب[٥٨] .

كانت تلك غارة من إغارات القراصنة، ولم تكن حملة عسكرية من النوع الذى عرفته المنطقة أثناء الدور النشط من أدوار الحركة الصليبية، ولم تحقق شيئًا يذكر لصالح الصليبيين فى قبرص ، وإنما جلبت عليهم المذلة والعار فيما بعد على أيدى الأسطول المصرى. وقد أدرك المؤرخون المسلمون طبيعة هذه الغارة فذكروا أن ملك قبرص ، بطرس الأول لوزنيان ، تصرف كما يتصرف اللصوص؛ إذ إنه لم يستمر فى احتلال المدينة على نحو ما حدث فى الحملة الصليبية الخامسة، والحملة الصليبية السابعة اللتين هاجمتا دمياط من قبل ، كما أنه لم يستطع البقاء لمواجهة الجيش المصرى فى هذه الغارة التى استمرت أسبوعًا واحداً؛ فقد هاجم المدينة وخرّبها ولكنه «... دخلها لصًا وخرج منها لصًا ...» عل حد تعبير المقريزى.

ومن ناحية أخرى، كانت تلك الغارة بمثابة المسمار الأخير فى نعش دولة سلاطين المماليك الأولى (البحرية) ، وإيذانًا بنهاية ذلك النمط من الحكم المتهافت للسلاطين الأطفال من أحفاد الناصر محمد بن قلاون، فبعد سبعة عشر عامًا فقط من هذه الغارة سقطت دولة بنى قلاون، وانطوت صفحة دولة سلاطين المماليك الأولى، لتقوم دولة جديدة هى دولة المماليك الثانية (الجراكسة أو البرجية). والحقيقة أنها لم تكن دولة جديدة تمامًا ، وإنما كانت هى نفس الدولة وإن غلب على سلاطينها العرق الجركسى. كما أن الخط القلاونى انتهى بصيغته السياسية

٥٧- المقريزى، السلوك ، ج٣ ، ص١٠٥- ص١٠٨ ؛ سهير نعينع ، المرجع السابق ، ص١٩٤- ص١٩٨ .

التى ميزت عصر أبناء الناصر محمد بن قلاون وأحفاده التى جعلت السلاطين الأطفال أدوات فى أيدى كبار الأمراء المتصارعين المتنافسين . فقد عاد ظهور السلاطين الأقوياء، ولكن الأسس التى قامت عليها علاقات المماليك ببعضهم البعض من ناحية، وبالسلطان من ناحية أخرى، اختلفت بشكل جذرى.

وهذا هو موضوع الفصل التالى...

الفصل الحادى عشر

دولة المماليك الجراكسة

من هم المماليك الجراكسة؟ ظهورهم على مسرح السياسة- السلطان الظاهر برقوق وبداية حكم الجراكسة - خصائص دولة المماليك الجراكسة- أهم الأحداث التاريخية فى هذه الدولة- السلطان قنصوة الغورى ونهاية الدولة- تأملات ختامية.

كانت أقوى الروابط التى تجمع بين المماليك هى رابطة «الأستاذية» التى تربط الأستاذ (أى السيد أو الأمير) بمماليكه ، ورابطة الخشداشية (الخجداشية) التى كانت رابطة الزمالة التى تجمع بين المماليك فى طائفة واحدة. ولاغرو فإن أبناء هذه الطبقة المجلوبين عبيدا فى طفولتهم قد تربوا معًا ونشأوا فى نفس الظروف . كما أنهم ، من ناحية أخرى ، كانوا غرباء على المجتمع الذين تعين عليهم أن يحاربوا دفاعًا عنه . ولما كانت جذورهم تمتد فى تربة أخرى بعيدة انتزعوا منها، فقد افتقروا إلى الإحساس بانتمائهم إلى المجتمع الذى عاشوا على هامشه ولم يشعروا بأية وشائج تربطهم به . وقد أدى هذا إلى عدم شعورهم بالأمن فى رحاب هذا المجتمع ، وعوضوا ذلك بالأمن الذى أحسوه فى زمالتهم ورفقتهم التى فرضت عليهم أن ينشأوا فى ظروف واحدة. وكان الأمراء يولون عنايتهم ورعايتهم الكاملة لمماليكهم فى ظل علاقة «الأستاذية» ؛ لأنهم كانوا هم القوة الذاتية للأمير- أو السلطان - وسنده فى الصراع الذى كان يمكن أن ينشب فى أى وقت بين المتصارعين على الحكم والسطوة والنفوذ . ولم يكن السلطان ، والأمراء ، يتناولون طعامهم سوى مع مماليكهم ؛ بل إن السلطان كان يغضب من المملوك الذى لايأكل عنده .

كذلك ظلت جموع المماليك، الذين كان تجار الرقيق يجلبونهم من شتى الأرجاء باستمرار ، تغذى المشاعر الإنعزالية فى نفوس المماليك. فقد أحس المماليك أنهم أغراب عن البلاد ولم يحاولوا الاندماج فى المجتمع لفترة طويلة . بل إن منهم من لم يتعلم اللغة العربية على

الإطلاق . وثمة لهجة تركية كانت سائدة فى أوساط البلاط المملوكى، وهى لغة القفجاق ، أو القبيلة الذهبية (القرن الذهبى) . وعلى الرغم من أن المماليك بدأوا ينزلون من طباق القلعة ؛ أى الثكنات العسكرية ، ليسكنوا القاهرة ويتزوجون من المصريات فى عهد السلطان الظاهر برقوق ، فقد ظلوا على عزلتهم الاجتماعية .

ذلك أن تركز وظائف الحكم الإدارة العليا فى أيديهم ، وكونهم أصحاب السلطة السياسية والقوة العسكرية فى بلد غريب عنهم ، جعلهم يتصرفون بوصفهم أقلية عسكرية تنأى بنفسها عن المشاركة فى الحياة المصرية سوى من خلال المواكب السلطانية، والأعياد الدينية والعامة.

لاعجب ، إذن ، أن نجد إنتماءات المماليك شخصية وخاصة . فنحن نقرأ فى المصادر التاريخية المعاصرة عن طوائف شتى من المماليك تنتمى كل منها إلى شخص بعينه ؛ فها هى طائفة «المماليك الصالحية» - نسبة إلى الصالح نجم الدين أيوب، وها هى طائفة أخرى هم «المماليك الظاهرية» نسبة إلى الظاهر بيبرس، و«المنصورية» نسبة إلى المنصور قلاون، والأشرفية نسبة إلى السلطان الأشرف خليل بن قلاون . ذلك هذه الرابطة الخاصة كانت هى الوسيلة المثلى لتحقيق الشعور بالأمن للمماليك فى ظل حياتهم التى كانت تحكمها المنافسة الدموية طريقًا يعترف به الجميع للوصول إلى العرش.

وكان حصاد هذه الروح التنافسية القائمة على القوة والدم والمستندة إلى الروابط الخاصة سلسلة من المتاعب والمنازعات كانت تفرض نفسها على الحياة المصرية، كلما جلس على العرش سلطان ضعيف أو سلطان طفل ، على نحو ما حدث فى عصر أولاد الناصر محمد وأحفاده . ومن ناحية أخرى كان كل أمير، أو سلطان ، يريد تدعيم سلطته وقوته ، يشترى أعدادا متزايدة من المماليك . وكان من الممكن أن تصل مشتروات السلطان من المماليك ، فى عصر المماليك البحرية إلى حوال ثمانمائة مملوك. وكان مماليك السلطان يعسكرون بالقاهرة حيث تكون القوة الرئيسية فى الجيش المملوكى. وكانت أعداد هذه المماليك السلطانية تتكاثر حين ينضم إليهم مماليك أسلافه من السلاطين أو مماليك من يغضب عليهم من كبار الأمراء الذين يسجنون أو يقتلون ، ويستولى السلطان على مماليكهم [١]. ولكن العلاقة بين السلطان والمماليك الذين اشتراهم ورباهم عادة ما تكون أقوى من العلاقة بينه وبين غيرهم من المماليك .

١- العمرى، التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٤٦ ومابعدها .

وكان السلاطين يولون عناية كبيرة لتربية مماليكهم وتدريبهم ، لأنهم كانوا بمثابة الحرس السلطاني الخاص. كما كان السلطان يختار لهم أعلى الوظائف قدرا وأكبرها اقطاعا . حتى يضمن رضاهم وولاءهم على الدوام ...

وهذ هو ما فعله السلطان المنصور قلاون بالنسبة لمماليكه من الجراكسة. فقد اختار قلاون أن ينشئ فرقة مملوكية من الجراكسة الذين كانوا يستوطنون المناطق الواقعة إلى الشمال من بحر قزوين وشرق البحر الأسود. وفى تلك الفترة كانت أعداد كبيرة من المماليك الجراكسة متوفرة فى أسواق الرقيق بحيث كان سعرهم هو الأرخص على الرغم من شهرتهم الفائقة بالشجاعة والقوة.

وقد أسكن السلطان المنصور قلاون مماليكه الجراكسة فى أبراج القلعة مما جعل البعض يطلقون عليهم اسم «المماليك البرجية»، وتحكى المصادر أن عددهم قد وصل إلى نحو ثلاثة آلاف مملوك فى السنوات الأخيرة من عصر قلاون الذى حرص على عزلهم عن غيرهم من طوائف المماليك كما اهتم بتدريبهم العسكرى وحباهم بعطفه وأغدق عليهم من هباته وأمواله الكثير... »[٢].

وقد سار أبناء قلاون على سياسته فى الاهتمام بطائفة المماليك الجراكسة . فقد اشترى الأشرف خليل - على الرغم من قصر مدة حكمه- حوالى ألفين من المماليك الجراكسة[٣]. ولكن زيادة أعداد المماليك من هذه الطائفة فرضت أوضاعا جديدة لم يألفها المماليك من قبل، فلأول مرة يسمح السلطان خليل بن قلاون للماليك بالنزول من ثكناتهم العسكرية بالقلعة إلى القاهرة والفسطاط ليتجولوا فيها نهاراً ، ثم يعودون للمبيت فى القلعة ليلا. وكان طبيعيا أن يؤدى هذا إلى ازدياد انغماس المماليك البرجية فى الحياة المصرية، كما بدأوا يختلطون بغيرهم من طوائف المماليك . ومن ناحية أخرى ، بدأت طوائف المماليك الأخرى تحس مشاعر الحقد والغيرة من المكانة والنعمة التى يحظى بها الجراكسة ...

وكان طبيعيا أن تزداد مكانة المماليك الجراكسة بازدياد اعتماد السلاطين من ذرية قلاون عليهم. وقد ظهر دورهم السياسي واضحا عندما قتلوا الأمير بيدرا الذى دبر مؤامرة لقتل

٢- المقريزى ، السلوك ، ج، ص٧٥٥- ص٧٥٦ .

٣- المقريزى، الخطط، ج٢ ، ص٢٤١ .

أستاذهم الأشرف خليل بن قلاون . وكانوا هم الذين اختاروا الناصر محمد سلطانا على البلاد في سلطنته الأولى سنة ٦٩٣هـ / ١٢٩٣ م على الرغم من أنه كان ما يزال طفلا صغيراً [٤]. وفى خضم الصراع الذى احتدم بين كتبغا وسنجر الشجاعى، اللذين حكما باسم السلطان الطفل، ظهرت أهمية البرجية الذين ساندوا سنجر الشجاعى وهزموا كتبغا وأنصاره من المماليك البحرية [٥]. وكان لانفضاض الجراكسة عن سنجر فيما بعد أكبر الأثر فى هزيمته ومصرعه على يد كتبغا الذى اتخذ عدة اجراءات لتشتيت شمل الجراكسة . فأنزلهم من ثكانتهم فى القلعة ، وشتتهم فى أحياء القاهرة فثاروا وتسببوا فى سلسلة من الاضطرابات العنيفة لأن المسألة بالنسبة لهم كانت مسألة حياة أو موت [٦].

وساءت أحوال المماليك الجراكسة فى عهد كل من السلطان كتبغا (١٢٩٤- ١٢٩٦م) وسلفه السلطان لاجين (١٢٩٦- ١٢٩٩م) اللذين اغتصبا العرش من الناصر محمد، ثم نجح الجراكسة بزعامة الأمير سيف الدين كرجى فى قتل السلطان لاجين [٧]. وعاد السلطان الناصر محمد مرة ثانية إلى عرش السلطنة . وبعدها بدأ نفوذ المماليك والجراكسة يتصاعد ، وربما كانت شجاعة البرجية فى القتال ضد المغول فى بلاد الشام سنة ١٣٠٢م من أسباب زيادة نفوذهم السياسى، فقد كانت لهم اليد الطولى فى تحقيق النصر على قوات المغول فى معركة شقحب بالقرب من دمشق فى سنة ٧٠٠هـ [٨].

وفى سلطنة الناصر محمد الثانية زاد نفوذ المماليك الجراكسة ، وتبلورت زعامتهم فى الأمير بيبرس الجاشنكير[٩] الذى جعل عدداً كبيراً منهم يرتقون إلى مرتبة الإمارة. ولما كان

٤- ابن أيبك الدوادارى ، كنز الدرر، ج٨ ، ص٣٥٢- ص٣٥٣ ؛ ابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ج١ ، ص١٦٩ . وكان عمر الناصر محمد بن قلاون عندما تولى العرش للمرة الأولى تسع سنين.

٥- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٧٩٨- ص٨٠٠ .

٦- نفسه ، ج١ ، ص٨٠٤- ص٨٠٦ .

٧- ابن أيبك الدوادارى ، كنز الدرر، ج٨ ، ص٣٧٠- ص٣٨٠ . وكان ذلك سنة ٦٩٨هـ .

٨- المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٩٣١- ص٩٣٧ .

٩- كانت سلطنة الناصر محمد بن قلاون الثانية ابتداء من جمادى الأولى سنة ٦٩٨هـ . وقد عين الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير استادارا (أى المسئول عن البيوت السلطانية) . أنظر:

ابن أيبك الدوادارى، الدرر الفاخر فى سيرة الملك الناصر، ص٦- ص٧ .

الناصر محمد فى سلطنته الثانية مايزال ضعيفًا وغير قادر على التحكم فى أمرائه ، فإن بيبرس الجاشنكير وزملاءه من الجراكسة بدأوا يفكرون فى مصالحهم على حساب السلطان الناصر محمد بن قلاون. ولكن الجراكسة لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى المرحلة التى تمكنهم من الإنفراد فى مواجهة نفوذ الجراكسة المتصاعد وكان على رأسهم الأمير سلار [١٠]. وعبثا حاول السلطان الناصر محمد أن يتخلص من نفوذهما ، وحين فشل تنازل عن العرش وآثر أن يهرب إلى حصن الكرك [١١].

وكانت فرصة للأمراء الجراكسة حين اعتلى كبيرهم بيبرس الجاشكنير عرش السلطنة ليكون بذلك أول سلاطين الجراكسة . ولكن المماليك الأتراك رفضوا قبول الأمر الواقع وأبدوا معارضة عنيفة لحكم الجراكسة وهرب المظفر بيبرس الجاشنكير من سلطنته التى مكث فيها عامين أو أقل ٧٠٨هـ- ٧٠٩هـ / ١٣٠٨- ١٣٠٩م [١٢]. واسترد السلطان محمد عرشه فى سلطنته الثالثة، وقد علمته خبرته ومعاناته الطويلة أن الإسراف فى الاعتماد على البرجية خطر يجب تحاشيه فأخذ يلجأ إلى انتزاع بعض إقطاعاتهم ، وأغرق من يخشى خطره منهم فى نهر النيل[١٣]. وإذا كان السلطان الناصر محمد قد حكم البلاد بيد من حديد فى سلطنته الثالثة، فإن أبناءه وأحفاده - كانوا فى الغالب حفنة من الأطفال بحيث صار كبار الأمراء الجراكسة يحركونهم وفق هواهم . ومرة أخرى عادت قوة الجراكسة للظهور على مسرح الأحداث السياسية.

وفى خضم الحوادث التى انتهت بمصرع السلطان الأشرف شعبان ، سنة ١٣٧٦م [١٤]. ظهر الأمير برقوق واحداً من الجراكسة الكبار. وتروى المصادر التاريخية أن هذا الأمير الذى أسس

١٠- يذكر ابن حبيب (تذكرة النبيه ، ج١ ، ص٢٨١- ص٢٨٢) فى حوادث سنة ٧٠٧هـ / ١٣٠٦م ما نصه «... وفيها ظهرت الوحشة بين السلطان أيده الله وبين الأمير سيف الدين سلار المنصورى، والأمير ركن الدين بيبرس المنصورى ... وتنكر لهما وسبهما ...».

١١- ابن أيبك الدوادارى ، الدر الفاخر ، ص١٥٥- ص١٥٦ .

١٢- نفسه، ص١٥٦- ص١٧٦ .

١٣- المقريزى ، السلوك ، ج٢ ، ص٧٨- ص٨٤ .

١٤- نفسه، ج٣ ، ص٤٧٦- ص٤٧٧ .

دولة المماليك الجراكسة قد جلبه تجار الرقيق إلى مصر حيث اشتراه الأمير يلبغا الخاصكى حوالى سنة ١٣٦٣م، ثم اعتقه وترقى فى خدمته . ولكن مصرع سيده عرضه للسجن فى الكرك حتى سنة ١٣٧١م، ولم يسمح له بالعودة سوى بعد عامين من الإفراج عنه ، وقد أسهم بقدر كبير فى المؤامرة التى انتهت بمصرع السلطان الأشرف شعبان . وعلى العرش جلس طفل آخر تحت اسم السلطان المنصور علي، وكان فى السادسة من عمره . وهو ما كان يعنى أن تدور حلقة أخرى من حلقات الصراع [١٥].

وأفاد برقوق كثيرا من هذا الصراع، إذ سرعان ما تمت ترقيته من أمير صغير، برتبة أمير عشرة، إلى قائد كبير فى الجيش المملوكى، ثم رقى إلى رتبة عليا فى جيش المماليك وهى أمير مائة مقدم ألف . وكان عليه أن يواجه خصوما ومنافسين آخرين فى الطريق إلى العرش، ولكنه استطاع التخلص من الجميع . واقتسم السلطة والنفوذ مع أمير آخر اسمه بركة [١٦]. حتى أن المصريين بسخريتهم اللاذعة كانوا يقولون : «برقوق وبركة نصبا على الدنيا الشبكة» وكانت الخطوة الأخيرة نحو العرش تستوجب التخلص من بركة . وهنا تجلى ذكاء برقوق ومكره السياسى، كما ظهرت معرفته بطبائع المصريين ومواقفهم السياسية. إذ إنه حرض بركة على انتزاع بعض أراضى الأوقاف الإسلامية وتوزيعها على أتباعه ، على حين أخذ برقوق يتقرب إلى المصريين بالافراج عن بعض الذين حبسهم بركة وقد ثار المصريون على بركة وتزعمهم الشيخ سراج الدين البلقينى وعدد من العلماء وأهل العمامة. ثم حدث الصدام المرتقب بين قوات الجراكسة بزعامة برقوق، وقوات الأتراك بزعامة بركة، وكانت الهزيمة من نصيب الأخير الذى كان مصيره السجن ثم القتل .

ولكن برقوق لم يستول على العرش بسرعة . وأقام على العرش صبيا آخر بدلا من الطفل المنصور على الذى توفى سنة ١٣٨١م. ولأن السلطان الجديد كان فى الحادية عشرة من عمره[١٧] ، فقد شاركه برقوق فى العرش وساعده هذا على التمهيد لحكم الجراكسة، فعين رفاقه فى المناصب الكبرى، وبدأ سياسة عامة للتقرب من الناس لكسب رضاهم ، فأخذ يلغى

١٥- نفسه، ج٣ ، ص٢٨٤- ص٢٨٥ .

١٦- نفسه ، ج٣ ، ص٣٠٨- ص٣١٦ .

١٧- نفسه، ج٣، ص٤٣٩ .

الضرائب والمكوس، وسك عمله جديدة قوية وخالية من الغش والتزوير، مما أدي إلى انتعاش اقتصادى محدود. وعلى صعيد السياسة الخارجية استطاعت قواته صد الهجوم الذى قام به التركمان على حلب سنة ١٣٨١م، فأعطاه النصر مزيدا من التأييد من جانب الناس.

ولم يكن الأتراك ليسلمون مقاليد الحكم للجراكسة بهذه السهولة، ومن ثم فإنهم دبروا مؤامرة للإطاحة ببرقوق. ولكن المؤامرة فشلت، وتم القبض على المتآمرين ونفيهم [١٨]. وكان ذلك آخر العهد بالنفوذ التركى وبداية لصعود نجم المملوكية الجركسية.

وفى سنة ١٣٨٢م صعد اثنان من الأمراء الجراكسة، من أعوان برقوق، إلى القلعة حيث اقتادا السلطان الطفل ليسلماه إلى أهله. وارتقى برقوق عرش السلطنة تحت إسم السلطان الظاهر برقوق [١٩]، وقد ظل الجراكسة فى حكم البلاد حتى سقوطها تحت السيطرة العثمانية سنة ١٥١٧م. وبصعود برقوق على عرش السلطنة بدأ تاريخ سلطنة المماليك الجراكسة. وكانت أهم خصائص هذه الدولة هى تلك الخاصية التى استمدت منها اسمها، ذلك أن معظم سلاطينها كانوا من الجراكسة، ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى إثنين من السلاطين هما خشقدم وتمربغا اللذان كانا من أصل يونانى [٢٠].

هذه الدولة التى استمرت فى حكم البلاد مائة وأربعة وثلاثين عاما توالى فيها على عرش البلاد خمسة وعشرون سلطانا منهم ستة عشر سلطانا تولوا العرش فى تعاقب سريع بحيث اهتزت مكانة السلطان، ولم يعد أكثر من «الأول بين أقرانه»، فقد كان الأمراء هم الذين يولون السلاطين ويعزلونهم، أو يقتلونهم فى غالب الأحوال. وتجلى فى عصر الجراكسة فساد النظام السياسى الذى حكمه تماما مبدأ «الحكم لمن غلب».

ذلك إن تطورا حدث فى نظام تربية المماليك فى عصر الجراكسة أدى إلى ضعف الأسس التى قام عليها النظام السياسى المملوكى. فقد استعاض السلاطين والأمراء عن المماليك

١٨- نفسه، ج٣، ص٤٧٣- ص٤٧٤.

١٩- نفسه، ج٣، ص٤٧٦.

٢٠- ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ج١٦، ص٢٥٣. وقد اعتلى الملك الظاهر خشقدم عرش السلطنة سنة ٨٦٥هـ، وهو الأول من الأروام، بعد أن تسلطن من الجراكسة وأولادهم ثلاثة عشر سلطانا. وقد حكم ست سنين وستة أشهر وعشرين يومًا ومات سنة ٨٧٢هـ. أما تمربغا فقد تولى الحكم سنة ٨٧٢هـ ليستمر من جمادى الأولى إلى شهر رجب فقط عندما خلفه قايتباى.

الأطفال الذين كانوا يخضعون لنظام صارم من التربية والتدريب بالمماليك من الشباب اليافع الذين تخطوا سن البلوغ وقد عرف هؤلاء باسم «الجلبان» أو «الأجلاب» . وكانت النتيجة الطبيعية لهذا التطور أن ضعفت رابطة «الأستاذية» التى كانت تربط بين المماليك وسيدهم الذى كان له الفضل فى تربيتهم وتدريبهم منذ نعومة أظفارهم ، كما تخلخلت أواصر رابطة «الخشداشية» التى تجمع بين المماليك فى إطار زمالتهم فى طائفة بعينها من طوائف المماليك. ومن ناحية أخرى ، ضعفت سيطرة الأمراء والسلاطين على أولئك المماليك الجلبان مما أدى إلى كثير من حوادث الشغب والاضطراب وحروب الشوارع التى كانت طرقات القاهرة وأزقتها مسرحا لها.

وقد زاد معدل الحوادث العنيفة فى عصر المماليك الجراكسة. حقيقة أن عصر المماليك البحرية قد شهد مثل هذه الحوادث والحروب الداخلية بين طوائف المماليك ، ولكن ذلك كان مرهونا بتصارع الأمراء الكبار حول العرش فى غالب الأحوال. ولكن نظام تربية المماليك الصارم فى عصر المماليك البحرية كان يكفل للسلاطين والأمراء السيطرة على مماليكهم، وساعدهم على ذلك مواردهم التى وفرتها الزراعة المزدهرة والتجارة المربحة. ولكن شراء الجلبان من ناحية ، والسماح للمماليك بالنزول من القلعة وسكنى القاهرة منذ عهد الظاهر برقوق من ناحية أخرى ، أضعف الرقابة عليهم كما قلل من فرصة السيطرة على حركتهم . وأدى ذلك إلى ازدياد منحنى التدهور السياسى والأمنى ، كما زاد نفوذ المماليك الجلبان الذين عجز السلاطين والأمراء عن ردعهم. ومن ثم تكررت حوادث الشغب التى كانوا يثيرونها ، فضلا عن حوادث نهب الأسواق وخطف البضائع والاعتداء على الناس فى الشوارع والأسواق حتى أمست تلك الحوادث العنيفة بمثابة النغمة الدالة فى حياة المصريين آنذاك .

والحوادث التى أثارها الجلبان كثيرة ومتعددة . وفى سنة ٨٧٧هـ هاجموا أحد كبار موظفى الدولة وأهانوه [٢١]. ولما وجدوا أن الحادث مر دون عقاب تعددت حوادثهم وكثرت اعتداءاتهم على الأمراء وكبار موظفى الدولة دون أن يجدوا قوة تردعهم أو تقف فى طريقهم . بل إن واحداً من كبار سلاطين ذلك العصر ، هو السلطان «قايتباى» ، لم يستطيع أن يفعل شيئًا سوى أن يحتجب بالقلعة احتجاجا على تصرفات المماليك الذين أشاعوا الذعر بين الأمراء

٢١- ابن إياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج٣، ص٨٢ .

بحيث امتنعوا عن الصعود إلى القلعة لمباشرة مهام الحكم فترة من الزمان. وفى العام التالى أراد المماليك قتل الأمير «يشبك الدوادار» ، فأمر السلطان جيشه بالاستعداد لقتال الجلبان وماجت القاهرة بالفزع والفوضى وأغلقت الأسواق (٢٢).

وفى الشطر الأخير من ذلك العصر زاد معدل الحوادث العنيفة التى كان مصدرها المماليك الجلبان . وعلى الرغم من أن الأوامر كانت تصدر من حين لآخر بعدم تعرض المماليك للناس والباعة والتجار ، فإنه يبدو أن عجز السلاطين وتدهور الدولة جعل تلك الأمور تبدو «... كضرب رباب، أو كطن ذباب...» على حد تعبير المؤرخ ابن تغرى بردى (٢٣). وقد أدى هذا إلى التدهور الاقتصادى بشكل واضح ..

وعلى الرغم من تدهور أحوال الدولة السياسية، وانهيار الاقتصاد ، فإن مرتبات المماليك النقدية تزايدت نتيجة لتدهور إنتاجية الأرض الزراعية التى كانت تمنح لهم كإقطاعات من ناحية وكثرة أعداد المماليك من ناحية ثانية، وتفشى الرشوة والفساد من ناحية ثالثة ولم تعد الدولة قادرة على الوفاء بهذه المطالب مما كان يدفع المماليك إلى التمرد وإثارة الشغب . فقد كانت رواتب المماليك فى عهد السلطان المؤيد شيخ (٨١٥- ٨٢٤هـ) أحد عشر ألف دينار مخصصة للمماليك السلطانية وحدهم ، زادت فى عهد السلطان التالى (الأشرف برسباى ٨٢٥- ٨٤١هـ) إلى ثمانية عشر ألف دينار، ثم قفزت إلى ستة وأربعين ألف دينار فى عهد السلطان قايتباى (٨٧٢- ٩٠١هـ)(٢٤) ونتيجة لهذا جمع السلطان قايتباى مجلسا بالقلعة حضره قضاة القضاة ونوابهم وعدد من شيوخ العلماء . وأخذ السلطان يدعو على نفسه بالموت ويتبرم من السلطنة نظرا لأن الخزانة خاوية ومطالب المماليك كثيرة . وكان السبب فى زيادة مرتبات المماليك على هذا النحو هو أن بعضهم كان يأخذ مرتبًا له ولأولاده دون أن يكون له أولاد مقابل رشوة يدفعها للاستادار الذى كان مسئولا عن المرتبات (٢٥).

٢٢- نفسه، ج٣، ص٩٤ .

٢٣- ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج١٦ ، ص٩٨ .

٢٤- ابن الصيرفى. إبناء الهصر بأبناء العصر، ص٣٢- ص٣٧ .

٢٥- المصدر نفسه ؛ ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٣ ، ص٣ ، ص٢٩ ، ج٤ ، ص١٦ .

وبدأت رواتب المماليك تتأخر ، وبدأوا هم يثورون ويهاجمون الأسواق والناس لكى يستولوا على ما يريدون ، ففي سنة ٩٠٦هـ ثاروا على السلطان قنصوة الغورى بسبب تأخر الرّواتب، فشكى من أن الخزانة خاوية والمماليك كثيرة « ... فمن أين أسد هؤلاء المماليك ؟ ... » ثم تكررت الحكاية فى العام التالى حين تأخرت رواتب المماليك ثلاثة شهور ، فتمردوا على السلطان وهددوه ، فأخذ يستولى على أموال الناس قسرا وأرغمهم على دفع الضرائب والإيجارات لمدة عشرة شهور مقدما [٢٦]. وتوالت حوادث المماليك الجلبان بكثرة حتى نهاية العصر.

ويبدو أن عجز الحكام عن منع الجلبان من الاعتداء على الأسواق والناس جعل المصريين يعتمدون على أنفسهم فى التصدى لأولئك المماليك . وقد ألحق الناس كثيرا من الأذى والضرر بالمماليك . فقد نودى بالقاهرة سنة ٩٢١هـ / ١٥١٥م بعدم تعرض الناس لمماليك السلطان والإضرار بهم وإلا كان جزاء من يفعل ذلك قطع يده [٢٧]. وقد أدت هذه الحوادث إلى مزيد من الفشل السياسى للدولة .

على أية حال ، فإن هذا الفشل السياسي انعكس على حالة الأمن فى البلاد فى عصر المماليك الجراكسة. بيد أن الواقع التاريخى يقتضى منا أن نقرر أن عصر المماليك البحرية، قد شهد أيضًا فترات من اضطراب الأمن لاسيما فى عهود السلاطين الضعاف . ولكن التدهور الأمنى اتخذ صفة دائمة وثابتة فى عصر الجراكسة .

ذلك أن حوادث سرقات الأسواق على أيدى عصابات كبيرة العدد من الفرسان والمشاة أصبحت مادة ثابتة فى أخبار ذلك العصر . وكانت تلك العصابات تنهب البضائع من الأسواق وتقتل الخفراء دون أن تجد من يتعقبها [٢٨].

كذلك فإن قبائل العربان بدأت تهاجم ضواحى المدن فى وضح النهار، وينهبون الناس، وقد يقتلون البعض، أو يطلقون سراح بعض المسجونين دون أن يجدوا من يطاردهم أو يقف فى طريقهم . كما تعددت حوادث العثور على قتلى من المماليك دون معرفة القاتل [٢٩].

٢٦- ابن إياس ، ج٤ ، ص١٦ ، وما بعدها .

٢٧- المصدر نفسه، ج٥ ، ص٤٦٥ .

٢٨- قاسم عبده قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، ص٥٩ - ص٦٠ .

٢٩- نفسه، ص١٦٠ .

هذا على المستوى الداخلي، أما على المستوى الخارجي فإن أهم الحوادث التى تعرضت لها دولة سلاطين المماليك الجراكسة انحصرت فى القتال ضد تيمور لنك ، وغارات الأسطول المصرى على كل من قبرص ورودس.

بدأت سلطنة برقوق بمعارضة سياسية وعسكرية من جانب حاكم أبلستين بالشام الأمير الطنبغا السلطانى ، ولكن ثورة هذا الأمير الذى رفض الخضوع لحكم الجراكسة انتهت بالفشل بفراره إلى بلاد التتار[٣٠]. وفى القاهرة حاك المماليك الأتراك مؤامرة لتولية الخليفة العباسى بالقاهرة عرش السلطنة، وانتهت هذه المحاولة أيضا بالفشل وعزل الخليفة وتولية غيره [٣١]. ثم اتحدت طوائف المماليك ضد برقوق ، وتزعمهم منطاش نائب ملطية فى الشام، وهو زعيم المماليك الأشرفية (نسبة إلى الأشرف خليل بن قلاون) ويلبغا الناصرى نائب حلب بالشام أيضا وهو زعيم المماليك اليلبغاوية (نسبة إلى يلبغا الخاصكى) . واستطاع الثوار هزيمة جيش السلطان فى دمشق وساروا فى طريقهم إلى القاهرة [٣٢].

وعبثا حاول برقوق أن يستميل الرأى العام معه بإلغاء الضرائب والمكوس وإعادة الخليفة العباسى المخلوع . ولكن أمراء المماليك تسللوا للانضمام إلى جيش الثوار القادمين من الشام وفى ذلك الوقت كان الطاعون قد انتشر فى القاهرة ليزيد الأحوال سوءا ، ولم يجد برقوق مفرا من الهرب والاختفاء فى منزل أحد الخياطين بالقاهرة . ودخل جيش يلبغا القاهرة وصار بذلك سيد الموقف. وتم القبض على برقوق ونفى إلى الكرك [٣٣].

أما عرش السلطنة فقد أجلس الثوار عليه طفلا كان قد اعتلاه من قبل، وهو الصالح أمير حاج ابن الأشرف شعبان . ولكن الصراع لم يلبث أن دب بين يلبغا ومنطاش حول السلطة. وهنا حانت الفرصة لبرقوق لكى يسترد عرشه، فكون جيشا من الجراكسة فى الشام وزحف به على دمشق حيث استولى عليها. وبعد عدة تطورات تمكن برقوق من استرداد عرشه . ليستمر فى سلطنته الثانية تسع سنوات قضاها فى مطاردة المماليك الأتراك ومصادرة كل ممتلكاتهم وإقطاعاتهم وتوزيعها على الجراكسة .

٣٠- المقريزى، السلوك ، ج٣ ، ص٤٨١- ص٤٨٢ .

٣١- نفسه، ج٣، ص٤٩٣- ص٤٩٥ .

٣٢- نفسه، ج٣ ، ص٦٠٣- ص٦١٦ .

٣٣- نفسه، ج٣ ، ص٦٧٠- ص٧٠٤ .

وعندما حاولت قبائل العربان التمرد على سلطة برقوق والاستيلاء على السلطنة والخلافة، كشف برقوق المؤامرة وسجن زعماءها .

وعلى المستوى الخارجي ، كان هناك خطر جديد قد بدأ يهدد حدود سلطنة مماليك الجراكسة، ذلك هو خطر تيمور لنك الذى كان ينتمى إلى بيت من أشراف التتار. ولد فى مدينة سمرقند التى كانت قاعدة لعملياته العسكرية التى تمكن بواسطتها من فرض نفوذه على بلاد ما وراء النهر وخراسان وطبرستان حتى استولى على مدينة تبريز فى إيران الحالية سنة ١٣٦٨م ثم استولى على بغداد سنة ١٣٩٣م. وبذلك بات على وشك الصدام مع دولة المماليك التى اقترب كثيرا من حدودها. وأرسل تيمور لنك رسالة تفيض بالتهديد إلى برقوق الذى بادر بقتل الرسل واستعد للقتال [٣٤].

ولكن تيمور لنك كان مشغولا بالقتال فى الهند، فآثر أن يؤجل الصدام إلى حين . وفى الوقت نفسه ساعد برقوق على طرد الحامية التى تركها تيمورلنك فى بغداد. وأعلن حاكم بغداد تبعيته للسلطان فى مصر . ولكن تيمور لنك استعاد بغداد مرة أخرى سنة ١٣٩٩م. وجاءت تلك الخطوة فى الوقت الذى توفى فيه السلطان برقوق [٣٥].

وتولى الحكم بعده ابنه السلطان الناصر فرج الذى كان فى العاشرة من عمره . وفى أثناء حكمه لقى الجيش المملوكى هزيمتين كبيرتين ضد قوات تيمورلنك فى حلب ودمشق سنة ١٤٠٠م. وقد اقنعت الهزيمة سلطان المماليك بعقد معاهدة مع تيمورلنك الذى توفى بعد ذلك فى سمرقند سنة ١٤٠٥م[٣٦].

أما الحادث الهام الثانى على المستوى الخارجي، فهو ما حدث إبان حكم السلطان الأشرف برسباى (١٤٢٢-١٤٣٨م) ذلك أن طول مدة حكم هذا السلطان مكنته من القيام بمشروع عسكرى كبير هو غزو جزيرة قبرص وتحويلها إلى تابع للدولة المصرية. وقد ذكرنا سابقا كيف أن هذه الجزيرة صارت قاعدة لعمليات الصليبيين العسكرية والبحرية ضد المسلمين وكيف أن ملكها بطرس لوزنيان هاجم الاسكندرية وخربها سنة ١٣٦٥م. وقد حاول المماليك غزو قبرص

٣٤- نفسه، ج٣، ص٧٩١ .

٣٥- نفسه، ج٣ ، ص٩٣٦- ص٩٣٧ .

٣٦- نفسه، ج٣ ، ص١٠٤٤- ص١٠٤٦ .

زمن بيبرس . كذلك فإن السلطان الأشرف شعبان شن بعض الغارات ضد جزيرة قبرص ولكنه لم يحاول الاستيلاء عليها. وعندما تولى برسباى عرش البلاد سنة ١٤٢٢م رأى أن غزو قبرص يمكن أن يحقق له كثيرا من أهدافه السياسية الداخلية . وفى السنة الثانية من حكم هذا السلطان جاءت الأخبار بأن الفرنج استولوا على مركبين من مراكب المسلمين وفيهما حوالى مائة مسلم وبأن جانوس لوزنيان ملك قبرص استولى على مركب للسلطان كانت محملة بالهدايا المرسلة إلى السلطان مراد العثمانى .

وكان رد الفعل سريعا وعنيفا من جانب مصر، فقد شن الأسطول المصرى ثلاث حملات لغزو قبرص فى سنوات ١٤٢٤، ١٤٢٥، ١٤٢٦م على التوالى . وقد حققت الحملتان الأولى والثانية نتائج مرضية وعادت بكثير من الأسرى والغنائم ، ولكن برسباى أصر على إخضاع الجزيرة لحكمه حتى يتخلص نهائيا من المتاعب التى يسببها بقايا الصليبيين فى هذه الجزيرة . وقد تمكنت الحملة الثالثة من تدمير ليماسول ميناء الجزيرة ، وأسروا الملك القبرصى نفسه، ثم استولوا على نيقوسيا عاصمة الجزيرة ورفعوا الرايات المصرية على مبانيها [٣٧].

وعادت الحملة لتسير فى موكب حاشد فى شوارع القاهرة، وخلفهم الأسرى ومعهم الملك جانوس الذى قبل الأرض تحت قدمى السلطان واستعطفه وأعلن خضوعه للحكم المصرى ودفع فدية كبيرة . وهكذا كانت هذه الحملة نجاحا سياسيا كبيرا للسلطان الأشرف برسباى على المستوى الخارجى يعوضه عن الفشل السياسى الكبير فى الداخل ، حيث كانت أحوال البلاد والعباد فى تدهور مستمر كما أوضحنا من قبل.

وفى عهد السلطان الظاهر جقمق (١٤٣٨- ١٤٥٣م) تم غزو جزيرة رودس التى كانت مركزا هاما للصليبيين بعد طردهم من فلسطين . فقد اتخذها فرسان الاسبتارية قاعدة لهم يشنون منها غاراتهم على نحو ما كان آل لوزينان يفعلون فى قبرص[٣٨].

وقد أرسل السلطان جقمق ، هو الآخر، ثلاث حملات ضد رودس، وكانت الهزيمة من نصيب الحملة الأولى التى استطاع الاسبتارية أن يلحقوا بها بعض الخسائر . وحققت الحملة الثانية بعض النتائج الايجابية حين حطمت بعض الحصون ثم عادت إلى مصر بفعل عواصف الشتاء التى أعاقت عملياتها العسكرية. أما الحملة الثالثة، فقد فشلت فى تحقيق أهدافها .

٣٧- ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ، ج١٤ ، ص٢٧٥- ص٢٨١ .

٣٨- نفسه، ج١٥ ، ص٣٥١ ، ص٣٦١- ص٣٦٣ .

وتم عقد صلح بين الطرفين بعد أن تعهد الاسبتارية بعدم العدوان على السفن التجارية الإسلامية العاملة فى البحر المتوسط(٣٩).

وبعد عهد جقمق ، لم يظهر سلطان هام سوى قايتباى الذى كان حريصا على تخليد اسمه بالمنشآت الكثيرة على الرغم من ازدياد التدهور فى أحوال البلاد بسبب كثرة الضرائب والأوبئة والمجاعات .

وبعد قايتباى تولى عدد من السلاطين عرش البلاد فى تعاقب سريع يعكس مدى التدهور والاضطراب . وقد انتهت حياة معظم السلاطين الذين تولوا العرش بعد قايتباى بالقتل أو الخنق أو السجن ، وبات كرسى السلطنة خطرا يتهرب الجميع من الجلوس عليه . وليس أدل على ذلك مما تحكيه المصادر التاريخية من أن قنصوه الغورى (أقوى أمراء زمانه) رفض العرش حين عرضه الأمراء عليه سنة ١٥٠١م ، بل كان يبكى. فقد ذكر ابن اياس أن الأمراء «... سحبوه وأجلسوه وهو يمتنع من ذلك ويبكى، وحين ألحوا عليه اشترط عليهم ألايقتلوه ، وأن يصرفوه بالمعروف إذا أرادوا عزله» (٤٠).

وعلى الرغم من قوة شخصية قنصوه الغورى وصلابته ، وطول مدة حكمه، فإن ذلك كله لم يمنع دولة سلاطين المماليك من أن تمضى إلى مصيرها المحتوم . فقد وصل التدهور الداخلى إلى مداه ولم يكن ممكنا أن تصمد الدولة المنهارة من الداخل فى وجه الأخطار القادمة من الخارج.

فقد كان الخطر البرتغالى يطرق البحر الأحمر بعد أن عرف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧م بمساعدة الملاح المسلم أحمد بن ماجد ، ثم وجدوا لأنفسهم قاعدة للتوسع فى كلكتا بالهند سنة ١٥٠٠ . وكان هذا خطرا جسيما يُهدد الدور العالمى للتجار المسلمين ولدولة سلاطين المماليك التى كانت تفيد كثيرا من تجارة المرور عبر مصر . وعندما استنجد أمراء المسلمين فى الهند بسلاطين المماليك يطلبون إمدادهم بالقوات اللازمة لصد البرتغاليين، حاول الغورى مساعدتهم وأرسل الأسطول المصرى الذى انضم إلى قوات مسلمى الهند، ولكن الهزيمة كانت من نصيب القوات الإسلامية فى معركة ديو البحرية. وبدأ التغلغل الأوربى يصل إلى مداه ، وهاجم البرتغاليون عدن عند مدخل البحر الأحمر سنة ١٥١٣ م وكانت تلك ضربة قاصمة للهيبة المصرية فى عالم البحر الأحمر .

٣٩- نفسه .

٤٠- ابن إياس، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص١٦- ص١٧ .

وفى الشمال كان هناك خطر آخر يتمثل فى العثمانيين. وقد بدأ العثمانيون فى الظهور على مسرح الأحداث فى المنطقة منذ النصف الأول من القرن الرابع عشر ، وإن كانوا قد وفدوا إلى المنطقة بسبب غزوات التتار، بقيادة تيمورلنك، التى أخرجتهم من خراسان إلى منطقة آسيا الوسطى. وحين نشأت الدولة العثمانية واتخذت لنفسها مدينة «بروسة» فى آسيا الصغرى عاصمة لم يكن ثمة مبرر للصدام. ولكن الدولة العثمانية سرعان ما اتسعت لكى تبتلع آسيا الصغرى وتستولى على مدينة القسطنطينية سنة ١٤٥٣م لكى تضع بذلك الفصل الختامى فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية . وبعد ذلك اقتربت حدود الدولة العثمانية من حدود الدولة المملوكية مما أوجد نقطة احتكاك بين الطرفين .

ومنذ البداية ، كان للعلاقات بين الدولتين اتجاهان أساسيان فقد كانت الدولتان تتحالفان ضد الخطر البرتغالى الذى كان يهدد السيادة المملوكية على طريق البحر الأحمر وضد غارات تيمورلنك على حدود الدولتين، وضد غارات فلول الصليبيين ومشروعات أوربا لإحياء الحركة الصليبية . ومن ناحية أخرى ، بدأ التنافس بين الدولتين بسبب حدودهما المشتركة.

وتصاعدت التوترات بين الدولتين حتى انتهت بمعركة بين الجيش المملوكى بقيادة قنصوه الغورى ، والعثمانى بقيادة سليم خان سلطان بنى عثمان بمرج دابق فى أغسطس سنة ١٥١٦م. واتضحت حالة الدولة المملوكية المنهارة فى صفوف جيش قنصوه الغورى الذى كان الخلاف فيه شديدا بين طوائف المماليك. ولعبت الخيانة دورها إلى جانب التفكك حتى خر الغورى نفسه صريعا تحت سنابك الخيل العثمانية .

وتوغل العثمانيون جنوبا واستولوا على مدن الشام كلها، حتى دخل السلطان سليم دمشق وصلى بها الجمعة ، وكان طومانباى يتولى فى ذلك الحين وظيفة نائب الغيبة فى مصر وأرسل إليه سليم يطلب منه الدخول فى طاعته فرفض وقرر المقاومة أمام جيش السلطان سليم العثمانى الذى أخذ يتجه جنوبًا لغزو مصر . وبذل طومانباى خلال سلطنته القصيرة التى استمرت ثلاثة شهور جهوداً مضنية للدفاع عن مصر ، لكن الدولة المملوكية كانت قد سقطت بالفعل ، ولم تجد محاولات طومانباى شيئا فى إحياء جسد الدولة الذى كان قد مات وحانت ساعته الأخيرة.

كان السلطان طومانباى يحاول أن يلم شعث القوات المملوكية التى ركنت إلى الدعة وهربت من القتال دفاعا عن البلاد ، مكتفية بحروب الشوارع والهجوم على الأسواق وغير ذلك من

مظاهر التفسخ والانهيار التى وصمت الطبقة الحاكمة فى مصر آنذاك ، وعلى الرغم من تواتر الأنباء يوما بعد يوم عن اقتراب العثمانيين من القاهرة ظل المماليك سادرين فى لهوهم وعبثهم. وحين حاول طومانباى أن يستعد لملاقاة الغزاة صدمته الحقائق القاسية، من خزانة خاوية ، وموارد مستهلكة ، وجيش متشرذم . وكانت النتيجة أن ينهار المماليك أمام العثمانيين .

وحين اهتز جسد طومانباى فى مشنقته على باب زويلة كان ذلك فصل الختام بالنسبة للدولة المملوكية التى تحملت عبء التصدى للمغول والصليبيين، ثم تخلت عن دورها لقوة إسلامية صاعدة جديدة هى الدولة العثمانية التى كان عليها أن تصون العالم العربى من أطماع الاستعمار الغربى على مدى فترة طويلة حتى أواخر القرن التاسع عشر .

المصادر والمراجع

إبراهيم حمادة

- خيال الظل وتمثيليات ابن دانيال - دراسة وتحقيق (القاهرة ١٩٦٣م)

ابن أبى الفضائل (المفضل بن أبى الفضائل)

- النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد . (نشره بلوشيه E. Blouchet ضمن مجموعة . (Patrolagia Orientalis, Toms. XII, XIV, XXII, Paris 1919)

ابن الأخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشي ت ٧٢٩هـ)

- معالم القربة فى أحكام الحسبة. (نشره ليفى R. Levey كمبردج ١٩٣٧م) .

ابن الحاج (أبوعبدالله محمد بن محمد العبدرى الفاسى ت ٧٣٧هـ)

- المدخل إلى الشرع الشريف (٤ أجزاء ، القاهرة ١٣٤٨هـ).

ابن شداد

- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) تحقيق د. جمال الدين الشيال .

ابن الصيرفى (على بن داود الجوهرى)

- إنباء الهصر بأنباء العصر (تحقيق الدكتور حسن حبشى) دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٧٠م.

ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧هـ)

- تاريخ الدول والملوك (ج٧- ج٩ ، نشره د. قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، بيروت ١٩٤٢) .

ابن النقاش (أبو إمامة محمد بن على ت ٧٧٣هـ) .

- المذمة فى استعمال أهل الذمة . (مخطوط بدار الكتب، رقم ٣٩٥٢ تارخ).

ابن الوردى (زين الدين عمر ت ٧٥٠هـ)

- تتمة المختصر فى أخبار البشر . القاهرة ١٢٨٥هـ)

ابن إياس (محمد بن أحمد بن إياس الحنفى المصرى ت ٩٣٠هـ)

- بدائع الزهور فى وقائع الدهور : (طبعة بولاق ١٣١١هـ . ج٣- ج٥ تحقيق د. محمد مصطفى ، جمعية المستشرقين الألمانية، القاهرة ١٩٦٠- ١٩٦٣م).

- نشق الأزهار فى روض المعطار، (مخطوط بدار الكتب المصرية) .

ابن أيبك الدوادار (أبوبكر بن عبدالله بن أيبك الدواداری)

- الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية . (وهو الجزء الثامن من حوليته «كنز الدرر وجامع الغرر) .

- الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر . (وهو الجزء التاسع من «كنز الدرر» ، نشر هانس روبرت رويمر ، القاهرة .

ابن بسام (محمد بن أحمد بن بسام المحتسب)

- نهاية لرتبة فى طلب الحسبة. (نشره حسام الدين السمرائى، بغداد ١٩٦٨).

ابن بطوطة (عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتى ثم الطنجى) .

- تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (طبعة باريس ١٨٨٠م، وطبعة دار التراث، بيروت ١٩٦٨).

ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى ت ٨٧٤هـ)

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (طبعة دار الكتب فى ١٦ جزءاً ، وطبعة كاليفورنيا تحقيق W. Popper

- منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور (٤ أجزاء نشره وليم بوبر، كاليفورنيا .

ابن تيمية (تقى الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحرانى ت ٨٢٨هـ)

- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح. (أربعة أجزاء فى مجلدين ، القاهرة ١٣٢٣هـ).

ابن حجر (الحافظ بن حجر العسقلانى ت ٨٥٢هـ)

- إنباء الغمر بأنباء العمر. (مخطوط فى جزئين بدار الكتب المصرية ، رقم ٢٤٧٦ تاريخ وج١ - ج٣ تحقيق الدكتور حسن حبشى ، المجلس الأعلى لرعاية الشئون الإسلامية، القاهرة ٦٩- ١٩٧٢م) .

ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون ت ٨٠٨هـ)

- المقدمة (المطبعة الأميرية ببولاق ١٣٢١هـ)

ابن دقماق (صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى ت ٨٠٩هـ)

- الانتصار لواسطة عقد الأمصار، (الجزءان ٤، ٥ نشرهما فولر، بولاق ١٣١٤هـ).

ابن زين (أبو محمد عبدالله بن أحمد بن زين القاضى، القرن التاسع الهجرى).

- شروط النصارى (مخطوط بدار الكتب، رقم ١٢٠٩ تيمور)

ابن شاهين الظاهرى (غرس الدين بن خليل بن شاهين الظاهرى ت ٨٢٧هـ)

- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك (باريس ١٨٩٤م)

ابن طلحة (أبو سالم محمد بن طلحة القرشى الوزير ت ٦٥٢هـ) .

- العقد الفريد للملك السعيد (القاهرة ١٣٠٦هـ)

ابن ظهيرة (غير معروف بالتحديد)

- الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة، (تحقيق ونشر مصطفى السقا وكامل المهندس، القاهرة ١٩٦٩)

ابن عبد الظاهر (محيى الدين بن عبد الظاهر ت ٦٩٢هـ)

- تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور (تحقيق ونشر د. مراد كامل ، القاهرة ١٩٦١) .

- الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر (نشره د. عبد العزيز الخويطر (الرياض ١٩٧٦) .

ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين ابن فضل الله العمرى ت ٧٤٩هـ) :

- التعريف بالمصطلح الشريف ، القاهرة ١٣١٢هـ .

- مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار

- ممالك مصر والشام والحجاز واليمن (تحقيق أيمن فؤاد سيد) المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ١٩٨٥م.

ابن قيم الجوزية (شمس الدين أبوعبدالله محمد بن أبى بكر- ٧٥١هـ).

- أحكام أهل الذمة (نشره د. صبحى الصالح، دمشق ١٩٦١)

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧هـ)

- مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق (الدكتور حسنين ربيع ، دار الكتب المصرية، القاهرة ، ١٩٧٢- ١٩٧٧م) .

أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل ت ٧٣٢هـ)

- المختصر فى أخبار البشر، جزء ٣، القاهرة ١٣٢٥هـ.

أبوشامة (شهاب الدين أبومحمد عبد الرحمن المقدس ت ٦٦٥هـ)

- الروضتين فى تاريخ الدولتين (النورية والأيوبية) .

- الذيل على الروضتين ، القاهرة ١٩٧٤م.

البلاذرى (أحمد بن جيحان بن جابر)

- فتوح البلدان - (نشره M. J. Goyé ليدن ١٨٦٦) .

الخالدى (بهاء الدين محمد بن لطف الله)

- المقصد الرفيع المنشأ الحاوى إلى صناعة الإنشا (مخطوط مصر بجامعة القاهرة ، رقم ٤٢٠٤٥) .

الخطيب الجوهرى (على بن داود الصيرفى)

- إنباء الهصر بأنباء العصر. (تحقيق الدكتور حسن حبشى ، القاهرة ١٩٧٠) نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان. (تحقيق الدكتور حسن حبشى ، ٣ أجزاء، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٤) .

السبكى (تاج أبو نصر عبد الوهاب ت ٧٧١هـ) .

- معيد النعم ومبيد النقم (ليدن ١٩٠٨) .

السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٣هـ) .

- التبر المسبوك فى ذيل السلوك (بولاق ١٣١٥هـ) .

السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن)

- حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جزءان ، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ / ١٦٨م) .

العبادى ، أحمد مختار

- قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام، بيروت ١٩٨٦م.

العينى (بدر الدين محمود العينى ت ٨٥٥هـ)

- عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، (مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ١٥٨٤ تاريخ .

- السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى تحقيق فهيم محمد شلتوت ، القاهرة ١٩٦٧ .

القلقشندى (شهاب الدين أحمد بن على ت ٨٢١هـ)

- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا (١٤ جزءا، طبعة دار الكتب ابتداء من سنة ١٩١٣)

الكتبى (محمد بن إبراهيم بن يحيى بن على الشهير بالوطواط الكتبى ت ٨١٢هـ).

- مباهج الفكر ومناهج العبر. (مخطوط فى أربعة أجزاء نسخة مصورة بدار الكتب، رقم ٣٥٩ علوم طبيعية) .

لويس شيخو :- المخطوطات العربية لكتبة النصرانية (بيروت ١٩٢٤م) .

ماير ل. أ. الملابس المملوكية .

المقريزى (تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥هـ)

- السلوك لمعرفة دول الملوك (ج١ ، ج٢ نشرهما د. محمد مصطفى زيادة ، ج٣، ج٤ نشرهما د. سعيد عاشور ، دار الكتب).

- الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام (القاهرة ١٨٨٥م) .

- الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك

النسوى

- تاريخ السلطان جلال الدين منكويرتى

النويرى (شهاب الدين عبد الوهاب ت ٨٣٣هـ)

- نهاية الأرب فى فنون الأدب (١٨ جزءاً طبعة دار الكتب المصرية، وابتداء من ج٢٧ مخطوط بدار الكتب رقم ٥٤٩ معارف عامة.

ب.أ : مجموعة وثائق بطريركية الأقباط الأرثوذكس ، نسخة على ميكروفيلم بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.

بنيامين التطيلى (الرحالة الربى بنيامين بن يونه التطيلى الأندلسى)

- رحلة بنيامين (ترجمة وتعليق عزرا حداد ، بغداد ١٣٨٤هـ)

بيبرس الدوادار

- زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، جـ٩ (تحقيق زبيدة عطا).

جمال الدين الشيال (دكتور)

- تاريخ مصر الإسلامية (الجزء الثانى؛ دار المعارف ١٩٦٧)

حسن حبشى

- الحرب الصليبية الثالثة - صلاح الدين وريتشارد ، القاهرة ٢٠٠٠م.

حسن ظاظا (دكتور)

- الفكر الدينى الإسرائيلى - أطواره ومذاهبه (معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧١)

زابوروف

الصليبيون فى الشرق، دار التقدم موسكو ١٩٨٦م.

س . ك : مجموعة وثائق دير سانت كاترين، نسخة على ميكروفيلم بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.

ديفيد جاكسون

«صلاح الدين : معركة حطين والاستيلاء على القدس- وجهة نظر» فى كتاب : ٨٠٠ حطين صلاح الدين والعمل العربى الموحد (دار الشروق ١٩٨٩م) .

سعيد عاشور (دكتور)

- العصر المماليكى فى مصر والشام (القاهرة ١٩٦٥) المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك (القاهرة ١٩٦٢).

عادل هلال

- العلاقات بين المغول وأوربا وأثرها على العالم الإسلامى، مؤسسة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ١٩٩٦م.

عبد اللطيف حمزة

- الحياة الفكرية والعلمية فى مصر زمن الحروب الصليبية .

فاسليى فلاديمير وفتش بارتولد:

- تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى (نقله عن الروسية صلاح الدين هاشم ، الكويت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م)

قاسم عبده قاسم (دكتور):

- أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى (طبعة ثانية، دار المعارف ١٩٧٩م)

- النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك (دار المعارف ١٩٧٨م)

- الرواية التاريخية فى الأدب العربى الحديث (بالاشتراك مع د. أحمد الهوارى ، القاهرة ١٩٧٧) .

قاسم عبده قاسم :

- ماهية الحروب الصليبية ، مؤسسة عين عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية القاهرة ١٩٩٣م.

- دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى - عصر سلاطين المماليك دار الشروق / القاهرة ١٩٩٤م.

قاسم عبده قاسم وعلى السيد على:

- الأيوبيون والمماليك- التاريخ السياسى والعسكرى، مؤسسة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ١٩٩٥م.

مجموعة وثائق دير سانت كاترين، أرقام ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

محمد زغلول سلام

- الأدب فى مصر فى العصر الأيوبى.

- الأدب فى مصر فى العصر المملوكى.

محمد مصطفى زيادة (دكتور)

- حملة لويس التاسع وهزيمته فى المنصورة ، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب ، القاهرة ، ١٩٦١ م .

محمود الحويرى

- العادل الأيوبى، دار حراء ١٩٨٠م.

محمود نديم أحمد فهيم

- الفن الحربى للجيش المصرى فى العصر المملوكى البحرى الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م.

مراد فرج

- القراءون والربانيون (الاقهرة ١٩١٨) .

المراجع الأجنبية :

- Anonymous.,:

Itinerarium Pregrenarum et Gesta Regis Ricardi (ed. W. Stubbs, in Chronicles and Memoirs of the reign of Richard I, 2 vols. Rolls Series XXXVIII.

Ashtor E.,:

A social and Economic History of the Near East in the Middle Ages , (Collins, London 1979) .

Atiya (A. S), :

The Crusades in tne Later Midddle Ages, (London 1938).

Claude Cahen,:

"The Mongols and the Near East ", in Setton (ed.), A History of the Crusades vol II.

Hamilton A. R. Gibb,"

"The Ayyubids", in Setton (ed.,) A Hist . of the Crusades, II.

Jounville, :

The Life of Saint Louis, (Transl. with an introduction by M. R.B Shaw O, Penguin 1975 .

Joseph . R . Strayer,:

" The Crusades of Louis IX" in Setton (ed.), A Hist . of the Crusades . II.

Musatafa Ziada,"

" The Mamluk Sultans", in Setton (ed.) , A History of the Crusades, vol . II.

Runciman , S., :

A History of the Crusades (Cambridge 1957) , 3 vols.

Ahmed Abdel Arraziq :

- La femme au temps des Mamlouks en Egypte (Institut Francais D'Archeologie Orientale du Caire, 1973).

Bosworth (C.E.):

" Christian and Jewish religious dignitaries in Mamluke Egypte and Syria" (reprinted from the Journal of Middle East Studies, Jan. 1972 .

Dopp (P.H.) :

L'Egypt au commencement du quanziéme Siécle (Le Caire 1650).

Giovanni Boccasio :

Decameron (transl. by J. M. Rigg, George Routledge and son , London 1905) .

Ibraham S. Halkine:

The Arab- Jewish Literature , in Finkelstren (ed.),

The Jews : Their history culture and religion (New York).

Mann (J.) :

The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Caliphs (2vols. Oxfrod 1920)

Runciman (S.),

A History of the Crusades , Cambridge Univ. Press, 1957 .

Mayer , (H. E.),

The Crusades , (transl, by John Gillingham, Oxford Univ. Press, 1972) .

William of Tyre ,

Norman F. Cantor:

The Medieval History (2 nd ed. New York 1969).

Rabie (H.) :

The Financial System of Egypt (Oxford 1972).

المحتويات

الفصل السابع

الخـطر التتـــرى ومعركة عين جالوت

الفصـــل الثامن

بيبرس وتأسيس الدولة المملوكية

الفصل التاسع

المنصور قلاون وتأسيس أسرة حاكمة

الفصل العاشر

أسرة قلاون وطبيعة السلطة

رقم الإيداع ٢٢٣٠٠ / ٢٠٠٦
الترقيم الدولى 2 - 201 - 322 - L.S.B.N. 977

مطبعة صحوة

٧ شارع اسماعيل رمضان - الكوم الأخضر- فيصل
تليفون وفاكس / ٣٨٧١٦٩٣ - ٠١٠١٠٠٩٦٧٨



دكتور قاسم عبده قاسم

في تاريخ

الأيوبيين والمماليك



صورة الغلاف:

المماليك تحت التدريب - عرض بالسيف

صورة من مخطوطة في المتحف البريطاني



للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية

FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES